الحقائق والدقائق

في المعارف الإلهية

الحقائق والدّقائق

في المعارف الإلهية

الإمامة

حقيقتها وخصائصها الإلهية وحقوقها في الأمة

الجزء الثّاني

الشيخ

فَاضِل الصّفّار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد وآله الطيبين الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم من الجن والإنس أجمعين.

المبحث الثاني
في قدرة الإمام عليه السلام وولايته العامة
(الولاية التكوينية والتشريعية للإمام عليه السلام)

وهي من الحقائق التي يجب معرفتها والتصديق بها؛ لأنها من مقومات معرفة الإمام عليه السلام الذي أجمعت الأمة على وجوبها، كما يجب معرفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم[1]، بل نصت عليه الأخبار، ودل عليه العقل وفي الكثير من الأخبار أن دخول الجنة وقبول أعمال العباد مشروط بمعرفتهم عليهم السلام، فعن علي أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لا يدخل الجنة إلاّ من عرفهم وعرفوه»[2] وعن الصادق عليه السلام: «لا يقبل الله أعمال العباد إلاّ بمعرفته - أي الإمام -»[3] بل معرفتهم طريق لمعرفة الله فلولاهم لم يعرف الله سبحانه[4].

وليس المراد من معرفتهم بالأسماء والآباء فقط، بل معرفة كمالاتهم ومقاماتهم الإلهية بحسب الوسع والطاقة، وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: « يا سلمان! إنه لا يستكمل أحد الإيمان حتى يعرفني كنه معرفتي بالنورانية»

---

١ - انظر رسائل السيد المرتضى: ج٢، ص٢٥٢.

٢ - بصائر الدرجات: ص٥١٨، ح١٠؛ نهج البلاغة: ج٢، ص٤٠، الخطبة١٥٢.

٣ - بصائر الدرجات: ص٤٣٣ـ ح٢؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص١٤٧، ح١٩.

٤ - انظر بحار الأنوار: ج٢٦، ص٢٤٧، ح١٤.

إلى أن قال: «فمن استكمل معرفتي فهو على الدين القيّم»[1] وقد مر البحث مفصلاً في أحاديث النورانية.

وكيف كان، فإن معرفة قدرة الإمام من الواجبات التي يتوقف عليها الإيمان، وحدود هذه المعرفة الواجبة تقع على ثلاث مراتب بحسب اختلاف مستويات الناس، كما تقدم في بحث العلم، وتفصيل الكلام في قدرة الإمام عليه السلام يقع في ضمن مطالب:

---

١ - بحار الأنوار: ج٢٦، ص١-٣، ح١.

المطلب الأول: في معنى القدرة

القدرة في اللغة وصف يثبت للشيء به يتمكن من الفعل والتأثير[1]، فهي تشمل الحي وغيره إلاّ أنها اصطلاحاً لا تطلق إلاّ على الفاعل المختار، ويراد بها نفي العجز عن الفعل. يقال: قدرت على الشيء أي قويت عليه وتمكنت منه[2]، ولها تعاريف أخرى عند المتكلمين والفلاسفة أنسبها ما ذكرنا[3]، وهي من الحقائق المشككة، وأعلى درجاتها بما لا يتناهى وفوق ما لا يتناهى قدرته سبحانه، ولذا يوصف بالقدير؛ لأنه يفعل ما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة لا زائداً ولا ناقصاً عنها ولذا لا يصح أن يوصف بالقدير إلاّ الله سبحانه[4].

وفي الرتبة الأدنى منه قدرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام؛ إذ جعلهم الله سبحانه مظاهر قدرته، وسخر الأشياء لهم يتصرفون بها طبق موازين الحكمة إيجاداً وإعداماً وتغييراً وتبديلاً بحسب ما أعطاهم الله سبحانه من السلطة والنفوذ

١ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٥٧، (قدر)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٨٤٦، (قدر).

٢ - لسان العرب: ج٥، ص٧٦، (قدر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤٤٩، (قدر).

٣ - انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج١، ص١١٩-١٢٠، (الاختيار).

٤ - بصائر ذوي التمييز: ج٤، ص٢٤٦، بصيرة (٨).

في الكون، وهو ما يعبر عنه في اصطلاح أهل المعرفة بالولاية التكوينية على الأشياء؛ فالولاية من مظاهر القدرة وفروعها، وهي - بالكسر- في اللغة السلطنة وتولي الأمر وتدبيره[١]، والولي من أسمائه تعالى؛ لأنه يتولى أمور العالم والخلائق إحداثاً وإبقاءً وتدبيراً، والولي هو الذي يتولى أمر الرعية ويدبر أمرها، وهكذا يطلق على ولي المرأة وولي الصغير والمجنون؛ لأنه يلي أمورهم، ويقوم بكفالتهم[٢].

وبهذا تظهر حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الولاية والقدرة معنيان لحقيقة واحدة سوى أن القدرة تطلق على مجرد التمكن من الشيء، وأما الولاية فتطلق على القوة عند التصرف والنفوذ في الشيء، ومن هنا حكي عن ابن الأثير قوله: أن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل، وما لم يجتمع ذلك في القادر لم يطلق عليه أسم الولي[٣]، وعلى هذا الأساس اصطلح على قدرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليه السلام على التصرف في الأشياء بالولاية، فإذا تعلقت بالأمور الكونية من حيث الإيجاد والإعدام أو التغيير والتبديل سميت بالولاية التكوينية؛ لأنها تتعلق بتكوين الأشياء وإيجادها وتدبيرها، وإذا تعلقت بالأوامر والنواهي والأحكام

١ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٨٥، (ولي)؛ معجم مقاييس اللغة: ص١٠٦٥، (ولي)؛ بصائر ذوي التمييز: ج٥، ص٢٨٤، بصيرة(٥٠).

٢ - انظر لسان العرب: ج١٥، ص٤٠٦-٤٠٧، (ولي)؛ مجمع البيان: ج٣، ص٣٥٩؛ مجمع البحرين: ج١، ص٤٥٥، (ولي).

٣ - انظر لسان العرب: ج١٥، ص٤٠٧، (ولي).

ونحوها سميت بالولاية التشريعية؛ لأنها تتعلق بالشريعة وأحكامها[١]، ومعناها في الاثنين واحد، واختلاف المصطلح نشأ من اختلاف المتعلق[٢].

الحقيقة الثانية: أن الفرق بين ولاية الله سبحانه وولاية النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليه السلام في الأصالة والتبع، فإن ولاية الله على الأشياء ذاتية مستقلة، وهي الولاية الحقيقية على الأشياء بما أنه خالق ومكون لكل شيء: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٣] وأما ولاية النبي والإمام عليهما السلام فهي عرضية تابعة ومكتسبة من ولاية الله وبإذنه؛ إذ لا مؤثر في الوجود سوى الله سبحانه، وأما غيره سبحانه فيكون ولياً بما أعطاه الله سبحانه من قدرة على التأثير في الأشياء لمصالح تقتضيها الحكمة الإلهية وهو ما أعطاه للأنبياء والأولياء في بعض المراتب، وأعطاه لمحمد وآل محمد في المراتب الاوسع؛ لأنهم أولياؤه وحججه على خلقه، والأمناء على سره ومظاهر قدرته وإراته، والهداة لبريته.

الحقيقة الثالثة: أن نفوذ الولاية المتعلقة بالتكوين والأخرى المتعلقة بالتشريع يختلف، فإن نفوذ الولاية التكوينية حتمي؛ إذ لا يعقل أن يتخلف المراد عنها، وذلك لأنها تتعلق بالتصرف في الأشياء مباشرة، فإذا تعلقت إرادة الله سبحانه في إيجاد الشيء وجب وجوده لا محالة لتمام قدرته وعمومها على

١ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٥٠، (شرع).

٢ - وقد فصلنا البحث في ذلك من حيث التعريف والأدلة العقلية والنقلية ومناقشتها والإجابة عن الإشكالات التي قد تورد عليها في كتاب المظاهر الإلهية في الولاية التكوينية فمن شاء فليرجع إليه.

٣ - سورة يس: الآية ٨٢.

الأشياء: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١] وإذا أعطى الله سبحانه هذه القدرة إلى النبي والإمام عليهما السلام وأرادا إيجاد شيء أو تغييره فإنه يقع لا محالة؛ لأن المراد لا ينفك عن الإرادة التامة، وبهذا يتضح وجه ظهور المعاجز والكرامات على أيديهما متى ما أرادا بقوة الله سبحانه وإذنه، بخلاف الولاية التشريعية فإن نفوذها له جانبان:

أحدهما: جانب جعل الأحكام وتأسيسها.

وثانيهما: جانب امتثال الأحكام والعمل بها.

والأول منهما حتمي؛ لأن إرادة النبي والإمام عليهما السلام هي إرادة الله سبحانه، ولسانه هو لسان الله سبحانه كما أقر ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[٢] وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾[٣].

فكل حكم أرادا جعله وتأسيسه يرتضيه الباري منهما؛ لأنهما القرآن الناطق، فلا فرق بين حكم الله وحكم الرسول والإمام، كما أن إطاعة الرسول والإمام هي إطاعة الله سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٤] بينما الثاني غير حتمي؛ لأن الله سبحانه أراد امتثال أحكامه الشرعية من قبيل إطاعة الأوامر والنواهي وسائر الأحكام عبر إرادة العبد واختياره، فإرادته

١ – سورة يس: الآية٨٢.
٢ – سورة النجم: الآيتان٣–٤.
٣ – سورة الحشر: الآية ٧.
٤ – سورة النساء: الآية ٨٠.

سبحانه لا تتعلق بفعل الصلاة مثلاً مباشرة حتى يكون العبد مجبوراً على فعلها، وإنما تعلقت إرادته في أن يفعل العبد الصلاة بإرادته واختياره، وعلى هذا الأساس يخضع فعل العبد إلى إرادته، فإن شاء فعل، وإن شاء ترك.

وبهذا يتضح أن الولاية التكوينية يستحيل أن يتخلف المراد عنها، بخلاف الولاية التشريعية في مرتبة الامتثال، كما يتضح الانسجام الكبير بين سنّة الامتحان والاختبار مع مبدأ اختيارية العبد في أفعاله، فالعبد مجبور في أصل تكوينه ونشوئه، ولكنه مختار في أفعاله وتصرفاته، ولذا يحاسب على أفعاله دون خلقه وتكوينه.

الحقيقة الرابعة: أن ولاية النبي والإمام عليه السلام على الأشياء لها ثلاث مراتب:

الأولى: مرتبة الولاية على الخلق والإيجاد وهي ولاية التكوين، وهذه ولاية نافذة على الأشياء لا يتخلف عنها المراد بإذن الله ومشيئته.

الثانية: مرتبة الولاية على التشريع وجعل الأحكام، وهي الأخرى نافذة بأمر الله وحكمه؛ للملازمة بل الأتحاد الحقيقي بين ما يحكم به النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليه السلام وما يحكم به الله سبحانه.

الثالثة: مرتبة الولاية على امتثال الأحكام، وترجع إلى إرادة العبد واختياره، فإن امتثلها كما أراد الله ورسوله كان مطيعاً، وإلاّ كان عاصياً؛ لأن الله سبحانه أراد أن يكون امتثال أحكامه عبر إرادة العبد واختياره.

الحقيقة الخامسة: أن الولاية التكوينية والتشريعية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليه السلام تعد من الصفات الحقيقية لشخصيته بما أنه حجة لله على خلقه، وأنه خليفته ومظهر علمه وقدرته، وهذا ما تواتر به النص كما ستعرف، بل وحكم

بضرورته العقل؛ إذ لا يعقل أن يكون الحجة عاجزاً أو جاهلاً، وإلاّ بطلت حجته، وانتقضت إمامته، وهو خلف.

المطلب الثاني: في منشأ قدرة الإمام عليه السلام

إن قدرة الإمام عليه السلام وولايته التكوينية ليست من نفسه، بل مستمدة من قدرة الله سبحانه ولا خلاف في أن الاستمداد في نفسه ممكن عقلاً، كما لا ينبغي الخلاف في وقوعه لقيام الضرورة عليه كما ستعرف وإنما الخلاف في توجيهه بما يتوافق مع القواعد العقلية والنقلية، ويمكن أن نوجهه بوجوه خمسة:

الوجه الأول: الإذن الخاص بالفعل والتصرف في الأشياء بأن يعطي الخالق إذناً خاصاً للنبي والإمام عليهما السلام في ذلك فيكون كمن يأذن لغيره في أن يتصرف في أمواله كيفما يشاء، ومن الواضح أن هذا النحو من التصرف يكون محدوداً بحسب حدود الإذن الممنوح، ويمكن أن يسلب هذا الحق متى ما أراد صاحب الإذن، وإلى هذا تشير العديد من الآيات والروايات كما في قوله تعالى في قضية عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾[1] فكان عليه السلام يصنع من الطين بهيئة الطير فينفخ فيه الروح فيكون طيراً حياً من لحم ودم، ويطير في الهواء، وكل ذلك بإذن خاص من

---

١ - سورة المائدة: الآية ١١٠.

الله سبحانه، أي بعلمه وإرادته[١].

وكان يبرئ الأعمى والأكمه والأبرص، وهو من الأمراض الجلدية المستعصية يختلف فيها لون البشرة بين الحمار والبياض[٢]، ويخرج الموتى من قبورهم وهم أحياء يشاهدهم الناس[٣]، وهذه كلها تصرفات تكوينية تتضمن الخلق والإحياء ومعالجة العمى والمرض فعلها عيسى عليه السلام بنفسه وإرادته كما تفيده الأفعال المضارعة (تخلق) و(تنفخ) و(تبرئ) و(تخرج) الظاهرة في النسبة إلى الفاعل، ولكن كل هذه الأفعال لم تكن لولا إذن الله سبحانه وتطويع الأشياء لعيسى عليه السلام.

الوجه الثاني: الإذن العام بالفعل، بمعنى أن الله سبحانه حينما خلق الأشياء جعل فيها قانون الحدوث والعدم والتغير والتبدل من حال لآخر، ولكن هذا القانون تكويني خاص له مفاتيح تسيره وتتحكم فيه، فاقتضت حكمة الله أن يعطي مفاتيح هذا القانون لأنبيائه وأوليائه فيتصرفوا فيه كما يشاؤون، كمن يعطي مفتاح مصنعه لإنسان عالم ثقة أمين حكيم يحسن التصرف في كل شيء، ويعلمه طريقة استخدام أجهزته، ويدعه يتصرف بحسب مقتضى الحكمة.

وبهذا العلم يملك النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام قدرة على التصرف في الأشياء نظراً لما يملكه من أسرارها وقوانينها الحاكمة، ومن الواضح أن عمومية الإذن هنا تعطي عمومية القدرة والولاية على الأشياء، ولا يتحدد هذا الإذن

١ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧١، (أذن).

٢ - انظر مجمع البحرين: ج٤، ص١٦٣، (برص).

٣ - انظر مجمع البيان: ج٣، ص٤٤٩، تفسير الآية المزبورة.

إلاّ بمقدار علم النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام بالقوانين الإلهية المودعة في الأشياء، ولذا قد تختلف الولاية بهذا المعنى من ولي لآخر؛ لأنها تدور مدار العلم الذي عنده.

وربما يشير إليه قوله تعالى في قضية آصف بن بلخيا وزير سليمان الذي جاء بعرش بلقيس من سبأ إلى فلسطين[١]: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[٢].

فقد جاء آصف بعرش بلقيس من سبأ إلى فلسطين على ما بينهما من البعد في أقل من ارتداد الطرف ورمش العين، وهو أقل فترة زمنية ممكنة، وكان هذا تصرفاً تكوينياً في العرش اختصر فيه الزمان بحسب موازين العقل، ونقل العرش من مكان إلى مكان آخر، وقد اختلفوا في كيفية حصول ذلك على أقوال، فذهب بعضهم إلى أنه من قبيل الإعدام ثم الإيجاد، وبعضهم ذهب إلى أنه من قبيل طي الأرض، وهو المروي عن أئمة الهدى عليهم السلام، وهي كاشفة عن بعض مصاديق المعنى وليست حاصرة له[٣]، وثالث إلى أنه إعدام للأول وإيجاد للمشابه، وربما يقال هو من باب تحويل المادة إلى طاقة التي تفوق سرعتها سرعة المادة على ما حققه العلم، وقيل غير ذلك[٤]،

١ - انظر مجمع البيان: ج٧، ص٣٨٥، تفسير الآية ٤٠ من سورة النمل.
٢ - سورة النمل: الآية ٤٠.
٣ - بصائر الدرجات: ص٢٢٨، ح١؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٢٨٦، ح٦٩؛ مجمع البيان: ج٧، ص٣٤٩.
٤ - انظر مجمع البيان: ج٧، ص٣٨٦.

واختلاف الأقوال لا يضر بعد اتفاقها على أن التصرف كان من أنحاء الولاية التكوينية، وهذا قانون مودع في عالم التكوين، وكان يعلمه آصفعليه السلام فطبقه هنا، ولعل قوله تعالى: ﴿عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يشير إليه، سواء قلنا إن المراد من الكتاب هو التكوين الذي يحتكم إلى قانون الأسباب والمسببات، أم هو اللوح المحفوظ الذي أودع الله فيه أسرار الوجود والمقدرات الإلهية، أم هو الكتاب الجامع لعلوم الكتب السماوية والتي تتضمن أسرار الوجود[١]، أم هو غير ذلك مما أطلق عليه لفظ الكتاب في اللغة[٢]، وفعل آصف هذا يشير إلى حقيقتين أخريين:

الحقيقة الأولى: أن علم الكتاب الذي كان عند آصف مكنه من الإتيان بعرش بلقيس، وهذا العلم لم يكن واسعاً لمكان (من) التبعيضية في الآية: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ومعنى هذا أن الذي يمتلك علماً بكل الكتاب سيكون أقدر على التصرف في الأشياء، وقد نص الكتاب العزيز على أن علياً أمير المؤمنينعليه السلام كان عنده علم الكتاب كله؛ إذ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[٣] وقد اتفق الكثير من المفسرين والرواة على أن هذه الآية المباركة خصت علياً أمير المؤمنينعليه السلام.

ففي حديث أبي سعيد الخدري قال: سألت رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله

١ - انظر مجمع البيان: ج٧، ص٣٨٥؛ تفسير الميزان: ج١٩، ص٣٦٤؛ تفسير الأمثل: ج١٢، ص٥٣، تفسير الآية المزبورة.

٢ - انظر بصائر ذوي التمييز: ج٤، ص٣٣٢، بصيرة(٥).

٣ - سورة الرعد: الآية٤٣.

جل ثناؤه: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قالﷺ: «ذاك وصي أخي سليمان بن داود» فقلت له: يا رسول الله فقول الله عزّ وجل: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِى وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قالﷺ: «ذاك أخي علي بن أبي طالبعليه السلام»[١].

وفي حديث ابن أذينة وسئل الصادقعليه السلام عن الذي عنده علم من الكتاب أعلم أم الذي عنده علم الكتاب، فقال: «ما كان علم الذي عنده علم من الكتاب عند الذي عنده علم الكتاب إلاّ بقدر ما تأخذ البعوضة بجناحها من ماء البحر»[٢] إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة[٣].

الحقيقة الثانية: أن سليمانعليه السلام كان يمتلك هذه القدرة التكوينية بما أنه أكمل وأعلى رتبة من آصف، إلاّ أنه استعان به سليمان لإظهار فضله ومكانته، وهذه الحقيقة ذاتها تنطبق على الروايات التي فسرت العالم بالكتاب بعلي أمير المؤمنينعليه السلام، ولم تفسرها بالنبي المصطفىﷺ، وذلك لتأكيد مكانة علي أمير المؤمنينعليه السلام فإن نسبة آصف إلى سليمان الذي كان من أرحامه ووزيره مشابهة لنسبة علي أمير المؤمنينعليه السلام لرسول اللهﷺ.

ومن الواضح أن كمالات الوصي وصلاحياته ثابتة للنبي بالبداهة والأولوية، وبهذا شهدت رواية الهاديعليه السلام في جواب يحيى بن أكثم حيث

١ - الأمالي (للصدوق): ص٦٥٩، ح٣؛ بحار الأنوار: ج٣٥، ص٤٢٩، ح١؛ تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٤٦٢، ح٢١١.
٢ - تفسير القمي: ج١، ص٣٦٧؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٥٢٣، ح٢٠٩.
٣ - انظر تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٤٦٠ وما بعدها، الأحاديث ٢٠٣-٢٢٠؛ وانظر مجمع البيان: ج٦، ص٥٤، تفسير الآية ٤٣ من سورة الرعد.

سأل أكان سليمان محتاجاً إلى علم آصف بن برخيا؟ فأجابه عليه السلام: «لم يعجز سليمان عن معرفة ما عرف آصف، لكنه أحب أن تعرف أمته من الجن والإنس أنه الحجة من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله، ففهمه الله ذلك لئلا يختلف في إمامته ودلالته، كما فهم سليمان في حياة داود ليعرف إمامته ونبوته من بعده؛ لتأكيد الحجة على الخلق»[1].

ومن الواضح أن ما يثبت لرسول الله صلى الله عليه وآله وعلي أمير المؤمنين عليه السلام من الكمالات يثبت لسائر الأئمة عليهم السلام، وبه صرحت الأخبار الكثيرة منها رواية بُريد بن معاوية قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: «أيّانا عنى، وعلي أفضلنا بعد النبي عليه السلام»[2] وغيرها من الأخبار[3].

الوجه الثالث: امتلاك المفتاح الإلهي للتصرف بالأشياء، وهو الاسم الأعظم الذي اخضع الله سبحانه له كل شيء، وبه قامت السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما كما تنص الروايات الكثيرة.

كما تنص على أن هذا الاسم عبارة عن حروف احتفظ الله سبحانه بحرف منه؛ لأنه من مختصات الربوبية، وأعطى الباقي إلى محمد وآل محمد عليهم السلام لأنهم عباده المقربون، وحججه المكرمون، وأما سائر الأنبياء والأولياء فإنهم أعطوا بعض هذه الحروف، وكانوا بها يتصرفون في إظهار المعجزات والكرامات،

١ - مجمع البيان: ج٧، ص٣٨٨-٣٨٩؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٢٨٨-٢٨٩، ح٧٧؛ تفسير الميزان: ج١٩، ص٣٧٣.

٢ - تفسير العياشي: ج٢، ص٢٣٦، ح٧٧.

٣ - تفسير العياشي: ج٢، ص٢٣٦، الأحاديث ٧٨-٨٠.

وإليها استند الكثير من المفسرين، ووجهوا تصرف آصف بن بلخيا بأنه كان يمتلك الاسم الأعظم[١].

ففي رواية النوفلي عن الهادي عليه السلام قال سمعته يقول: «اسم الله الاعظم ثلاثة وسبعون حرفاً، كان عند آصف حرف فتكلم به فانخرقت له الأرض فيما بينه وبين سبأ، فتناول عرش بلقيس حتى صيرة إلى سليمان، ثم انبسطت له الأرض في أقل من طرفة عين، وعندنا منه اثنان وسبعون حرفاً، وحرف عند الله مستأثر به في علم الغيب»[٢] وقريب منه ورد عن الباقر والصادق والكاظم عليهم السلام، والمعنى متواتر، بل اللفظ أيضاً[٣].

وقد اختلفوا في حقيقة الاسم الأعظم الذي تخضع له الأشياء، فذهب بعضهم إلى أنه قانون تكويني أودعه الله في الوجود يطلع عليه الولي فيستخدمه في مورده، وذهب آخرون إلى انه حروف لفظية؛ لأن الحرف في اللغة يطلق على طرف الكلمة[٤]، وذهب بعضهم إلى أنه اسم من أسماء الله سبحانه يدعو بها الولي فيستجيب الله دعاءه، ويحقق له ما يريد[٥]، وذهب آخرون إلى أنه مقام معنوي يصله الولي فتتجلى فيه القدرة الإلهية، والكل

١ - انظر تفسير الامثل: ج١٢، ص٥٣.

٢ - الكافي: ج١، ص٢٣٠، ح٣.

٣ - انظر تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٢٨٥ وما بعدها، الأحاديث ٦٧-٨٢.

٤ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٢٨، (حرف)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٣٦، (حرف).

٥ - انظر مجمع البيان: ج٧، ص٨، تفسير الآية ٨ من سورة طه؛ ج٩، ص٤٤٢، تفسير الآية ٢٤ من سورة الحشر.

محتمل، وله شواهد عديدة في الروايات الشريفة[١].

والصواب هو عدم التعارض بين الأقوال المذكورة؛ لأن المستفاد من مجموع الأدلة هو أن امتلاك الاسم الأعظم بأي معنى كان يتوقف على مقام معنوي رفيع يصل إليه أولياء الله، فتخضع لهم الأشياء برمتها بإذن الله، ولكن إظهار تصرفهم في الأشياء يختلف من حال لآخر، فتارة يدعون، وتارة يذكرون الاسم، وتارة هم يتصرفون ويأمرون وينهون بحسب ما لهم من صلاحيات ربانية في الوجود.

وقد عرفت أن المقامات المعنوية حقائق تشكيكية جوهرها واحد، وتختلف من حيث المظاهر والآثار بحسب اختلاف المراتب والمقامات والحاجات، ولذا وصف الأئمة عليهم السلام بأنهم أسماء الله الحسنى[٢]؛ لأنهم بما لهم من علم ويقين وأخلاق وقداسة مظهر للكمالات الإلهية والفضائل الربانية، فتكون إرادتهم إرادة الله، وبدهم يد الله سبحانه وأمرهم أمره، وقلوبهم أوعية مشيئته، ولذا يستجيب لهم كل شيء.

والحاصل: أن الولاية التكوينية على الأشياء قد تنشأ من امتلاك الولي للاسم الأعظم الذي أخضع الله سبحانه له كل شيء، وجعله مفتاح التأثير في الأشياء ومنشأ خضوعها للإمام عليه السلام، وفي هذا ورد حديث سلمان وأبي ذر مع أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يحدثهم عن مقامات الإمام وولايته، فسألاه عنها فقال عليه السلام: «قد أعطانا ربنا عز وجل، علمنا للاسم الأعظم الذي

١ - انظر الكافي: ج١، ص١١٢، ح١؛ تفسير كنز الدقائق: ج٧، ص٥٣٨.
٢ - بحار الأنوار: ج٨٨، ص١٧٨، ح٥.

لوشئنا خرقت السموات والأرض والجنة والنار، ونعرج به إلى السماء، ونهبط به الأرض، ونغرّب ونشرق وننتهي به إلى العرش ... ويطيعنا كل شيء حتى السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والبحار والجنة والنار، أعطانا الله ذلك كله بالاسم الأعظم الذي علمنا وخصنا به، ومع هذا كله نأكل ونشرب ونمشي في الأسواق، ونعمل هذه الأشياء بأمر ربنا ونحن عباد الله المكرمون الذين لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون»[٣] وتؤكد الرواية المباركة حقائق أربع:

الحقيقة الأولى: أن ولايتهم التكوينية على الكون نشأت من امتلاكهم الاسم الأعظم، فهي في جوهرها عطاء وهبة من الله سبحانه وليست من انفسهم، فلا ينبغي أن يتوهم فيها الغلو أو التشريك في الربوبية، ولا غير ذلك من معانٍ باطلة تتنافى مع التوحيد.

الحقيقة الثانية: أن الولاية التكوينية فيها جانبان، وكلاهما حصلا بأمر الله تعالى.

أحدهما: جانب الفاعل؛ إذ علّمهم سبحانه اسمه الأعظم.

وثانيهما: جانب القابل؛ إذ سخر الأشياء وأمرها ان تكون مطيعة لهم، خاضعة لإرادتهم كما يشير إليه قوله عليه السلام: «ويطيعنا كل شيء» وقوله: «نعمل هذه الأشياء بأمر ربنا».

الحقيقة الثالثة: أن تعليمهم الاسم الأعظم هو اختصاص إلهي لهم، وهذا الاختصاص نوع اصطفاء خاص لا يناله إلاّ من حظى بمقام القرب

٣ - انظر بحار الأنوار: ج٢٦، ص٧، ح١.

والعبودية المطلقة لله سبحانه، كما يشير إليه قوله عليه السلام: «خصّنا به» وقوله: «نحن عباد الله المكرمون».

وعلى هذا فيمكن لكل عبد من عباد الله الصالحين أن يحظى برتبة من مراتب الاسم الأعظم أو حرف من حروفه إذا وصل إلى مقام القرب منه سبحانه، وكلما زادت درجات القرب أفاض الله عليه من بركاته، وأطلعه على بعض أسرار اسمه الأعظم، وإليه يشير قول الصادق عليه السلام: «أن الله عز وجل جعل اسمه الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً، فأعطى آدم منها خمسة وعشرين حرفاً، وأعطى نوحاً منها خمسة عشر حرفاً، وأعطى إبراهيم منها ثمانية أحرف، وأعطى موسى منها أربعة أحرف، وأعطى عيسى منها حرفين، فكان يحيي بها الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، وأعطى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم اثنين وسبعين حرفاً، واحتجب بحرف لئلا يعلم أحد ما في نفسه، ويعلم ما في انفس العباد»[1].

ولعل المراد أن كل نبي أعلى رتبة يعلم بالحروف التي عند النبي الأدنى رتبة على ما يقتضيه الجمع بين الأدلة النقيلة والعقلية واختص آل محمد بأثني عشر حرفا فاقوا بها جميع الأنبياء ولم يبق بينهم وبين ربهم سوى حرف واحد هو سر الخالق والمائز بين عالمي الوجوب والإمكان، وللحديث شرح يطول يخرجنا عن موضوع البحث.

الحقيقة الرابعة: أنهم عليهم السلام في أرواحهم إلهيون، وفي أبدانهم بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وهذا دليل عجزهم وفقرهم وحاجتهم إلى

١ - مختصر بصائر الدرجات: ص١٢٥.

الله سبحانه، فكل ما لديهم من مقامات ومراتب إلهية عالية هي بعطاء الله وبإرادته وليست من ذوات أنفسهم، وبهذا يظهر ان شخصية الإمام عليه السلام إلهية ربانية من حيث الروح والعقل والقلب، لكنها إنسانية بشرية من حيث الجسد والشكل والصورة، ولهذا يمتلك القدرات الربانية في التأثير في الأشياء في عين الحال الذي يزاول حياة البشر العاديين.

وهذه حقيقة هامة لا ينبغي أن يغفل عنها أهل المعرفة، فإن بهذه المعرفة يتميزون، وبها تعلو درجاتهم ومقاماتهم، كما لا ينبغي أن يقصرعن بلوغ مداها الجاحدون والمنكرون لولايتهم التكوينية، ولذا قال في خاتمة الرواية المباركة: «فنحن نقول: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين - أعني الجاحدين - بكل ما أعطانا الله من الفضل والإحسان، يا سلمان ويا جندب! فهذا معرفتي بالنورانية فتمسك بها راشداً، فإنه لا يبلغ أحد من شيعتنا حد الاستبصار حتى يعرفني بالنورانية، فإذا عرفني بها كان مستبصراً بالغاً كاملاً قد خاض بحراً من العلم، وارتقى درجة من الفضل، واطلع على سر من سر الله ومكنون خزائنه»[1].

الوجه الرابع: التفويض، بأن يفوض الله سبحانه إلى الإمام عليه السلام أمر الخلق، أي يرجعه ويرده إليه[2]، فيتصرف فيه بحسب مقتضيات الحكمة الإلهية والإرادة الربانية، لكونه عبد الله والعالم بأسراره، والشاهد على الملك

١ - بحار الأنوار: ج٢٦، ص٦- ٧، ح١.

٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٤٨، (فوض)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٨٠١، (فوض)؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٢٢٣، (فوض).

والملكوت، والمحدث من قبل ملائكة الله المقربين، فلا يخفى عن علمه شيء من إرادة الله ومقاديره.

ربما يستفاد هذا المعنى من تدبير الملائكة الذين جعلهم الله المدبرات لأمور الكون؛ إذ قال: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾[1] وقسم وظائفها ففوض أمر الرزق لطائفة، وفوض أمر المطر لطائفة، وأمر الموت لطائفة وهكذا.

ومن الواضح أن هذا التفويض لا يعطيها القدرة المستقلة على التصرف بالأشياء، بل القدرة المستمدة من قدرة الله سبحانه، ومثل هذا أعطاه الله سبحانه لسليمان حينما أعطاه الله الملك الواسع، وسخر له الريح، وعبّد له الشياطين والجن وجعلها من جنوده. قال بعد ذلك: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[2] إذ نصت الآيتان على ثلاثة أنواع من العطاء الإلهي لسليمان عليه السلام:

أحدها: الملك الكبير الذي كان يدبره بالولاية التكوينية على الأشياء، فسخر الريح والجن والشياطين والطيور ونحوها.

وثانيها: الملكوت المعنوي، فإن الله سبحانه أكرمه وأعطاه فوق كل ذلك الزلفى والقرب منه سبحانه، ولا يخفى أن مقام القرب الذي يحظى به سليمان عليه السلام صار سبباً للعطاء الإلهي في الملك.

ثالثها: أنه فوض إليه خزائن السماوات والأرض، وجعل أمر العطاء والمنع بيده؛ إذ قال سبحانه: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

١ – سورة النازعات: الآية ٥.

٢ – سورة ص: الآيتان٣٩–٤٠.

وإطلاق الآية يشمل كل ما يملكه سليمان من عطاء[١]، ومن الثابت أن ما يملكه سليمان ثابت لمن هو أعلى منه رتبة، وأشرف مكاناً عند الله سبحانه، وهم محمد وآل محمد عليهم السلام، وهو ما ورد في رواية زيد الشحام عن الصادق عليه السلام حيث سأله عن معنى الآية المباركة[٢] قال: «أعطي سليمان ملكاً عظيماً، ثم جرت هذه الآية في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكان له أن يعطي ما شاء من شاء، ويمنع من شاء، وأعطاه الله أفضل مما أعطى سليمان؛ لقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٣]»[٤].

ويدل استشهاد الإمام عليه السلام على أن سليمان قد فوّض إليه أمر العطاء المادي، حيث أعطاه الله ملكاً عظيماً، كما تدل الآية على أنه كان يملك أمر التشريع في مملكته بالدلالة التلازمية، بينما فوض إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل ما يتعلق بالتكوين والتشريع معاً؛ لمكان (ما) الموصولة التي تفيد العموم، وهذا ما تؤكده الروايات الكثيرة الواردة بهذا الشأن.

منها: رواية محمد بن سنان عن الجواد عليه السلام: « يا محمد! إن الله تبارك وتعالى لم يزل متفرداً بوحدانيته، ثم خلق محمداً وعلياً وفاطمة، فمكثوا ألف دهر، ثم خلق جميع الأشياء فأشهدهم خلقها، وأجرى طاعتهم عليها، وفوّض أمورها إليهم، فهم يحلون ما يشاؤون، ويحرمون ما يشاؤون، ولن يشاؤوا إلاّ أن يشاء الله تبارك وتعالى، ثم قال: «يا محمد! هذه الديانة التي من تقدمها

١ - انظر مجمع البيان: ج٨، ص٣٦٣، تفسير الآيتين المزبورتين.
٢ - أي الآية ٣٩ من سورة ص.
٣ - سورة الحشر: الآية٧.
٤ - الكافي: ج١، ص٢٦٨؛ كتاب الحجة: ، ح١٠.

مرق، ومن تخلف عنها محق، ومن لزمها لحق، خذها إليك يا محمد»[١] وهي صريحة الدلالة على أمور.

الأول: أن أول من خلق الله سبحانه هم محمد وآل محمد، وقد سبقوا خلق العالم بمدة مديدة حددتها الروايات (بألف دهر) كناية عن الكثرة على أظهر الأقوال.

الثاني: أنه سبحانه أشهدهم عليهم السلام خلق المخلوقات، وأمرها بإطاعتهم والاستجابة لأمرهم.

الثالث: أنه سبحانه بعد أن خلق الخلق فوض أمره إليهم، وظاهر الرواية أن التفويض كان للتشريع لا التكوين، وهذا يتطابق مع مضامين الروايات العديدة التي تنص على أن الله سبحانه أدب نبيه بآدابه، وفوض إليه دينه[٢]، إلاّ أن الروايات الأخرى الواردة تنص على أنه سبحانه فوض إليه أمور التكوين أيضاً.

ومنها: رواية الثمالي عن الباقر عليه السلام قال: سمعته يقول: «أوحى الله تعالى إلى محمد١ أني خلقتك ولم تك شيئاً، ونفخت فيك من روحي كرامة مني أكرمتك بها حين أوجبت لك الطاعة على خلقي جميعاً، فمن أطاعك فقد أطاعني، ومن عصاك فقد عصاني، وأوجبت ذلك في علي وفي نسله ممن اختصصته منهم لنفسي»[٣].

١ - الكافي: ج١، ص٤٤١،ح٥؛ المختصر: ص١٦٥.
٢ - انظر الكافي: ج١، ص٤٤٠- ٤٤١، ح٤.
٣ - الكافي: ج١، ص٤٤٠- ٤٤١، ح٤.

ومنها: رواية ابن فضال عن الصادق عليه السلام الواردة في وفد خراسان. جاء فيه: «سبحان الذي سخر للإمام كل شيء، وجعل له مقاليد السماوات والأرض؛ لينوب عن الله في خلقه، ويقيم فيهم حدوده، كما تقدم إليه؛ ليثبت حجة الله على خلقه، فإن الإمام حجة الله تعالى في خلقه»(١).

ومنها: رواية جابر عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: «اخترَعَنا من نور ذاته، وفوّض إلينا أمور عباده، فنحن نفعل بإذنه ما نشاء، ونحن إذا شئنا شاء الله، وإذا أردنا أراد الله، ونحن أحلّنا الله عز وجل هذا المحل، واصطفانا من بين عباده، وجعلنا حجته في بلاده، فمن أنكر شيئاً ورده فقد ردّ على الله جل اسمه، وكفر بآياته وأنبيائه ورسله، يا جابر! من عرف الله تعالى بهذه الصفة فقد أثبت التوحيد»(٢) وتشير هذه الروايات إلى حقائق:

الحقيقة الأولى: أن التفويض لا يعني استقلال الإمام عليه السلام بالتأثير في الأشياء من دون استعانة بالله سبحانه، أو من دون إذنه؛ لوضوح أن هذا يستلزم الغلو، بل يستلزم التعطيل للقدرة الإلهية، وهو قول المعتزلة المفوضين، وفيه ورد الحديث: « من قال بالتفويض فقد أخرج الله عن سلطانه»(٣) وبطلانه بل استحالته من الواضحات، وإنما يعني امتلاك الإمام القدرة على التأثير في الأشياء بعطاء وهبة من الله من جهة قابليته المعنوية واستعداده النفسي، ومن جهة تسخير الأشياء إليه.

وبهذا يتضح وجه المناقشة في الكثير من الكلمات التي توهمت أن التفويض

---

١ - الثاقب في المناقب: ص٤١٨، ح٢؛ مدينة المعاجز: ج٦، ص١٠٠.

٢ - بحار الأنوار: ج٢٦، ص١٤، ح٢.

٣ - انظر مجمع البحرين: ج٤، ص٢٢٣، (فوض).

باطل، فإن التفويض له معان عديدة، وكل ما يرجع إلى الاستقلال في التأثير منها باطل، وأما الذي يرجع إلى الإذن الإلهي والإرادة الربانية فلا محذور فيه[١].

الحقيقة الثانية: أن الله سبحانه فوض مقاليد كل شيء إلى الإمام عليه السلام يتصرف فيها بحسب ما أدبه وعلمه وهذبه، والحكمة في هذا التفويض تعود إلى أسباب:

الأول: أن الإمام عليه السلام خليفة الله سبحانه وحجته بين خلقه، وهو الذي يقيم حدوده فيهم، ولا يعقل أن يكون الخليفة والحجة عاجزاً عن التصرف في الأشياء، وإلاّ بطلت حجته وخلافته، وكلاهما منافيان للحكمة.

الثاني: أنه سبحانه يمتحن عباده بهذا التفويض، فيتميز المطيع من العاصي منهم.

الثالث: أن ذلك ما تقتضيه الضرورة العقلية؛ لقصور الخلق عن الاتصال بالذات الإلهية، فلا بد وأن تكون هناك واسطة تتسم بالصفات الإلهية من جهة، وبالصفات البشرية من جهة أخرى؛ لتكون واسطة في وصول الفيض الإلهي إلى الخلق، وهذه الواسطة هو الإمام عليه السلام، وإلى هذا يشير قوله: «نحن أحلنا الله عز وجل هذا المحل، واصطفانا من بين عباده» أي أن مقام الولاية على الأشياء ليس بأمر اعتباطي أو اختياري منهم، بل هو منصب إلهي رفيع يمنحه الله سبحانه لخاصة عباده لا خيار للأمة فيه.

---

١ - راجع تفاصيل ذلك في كتاب المظاهر الإلهية في الولاية التكوينية: ج١، ص٤٤١ وما بعدها.

الحقيقة الثالثة: أن الاعتقاد بالولاية التكوينية للإمام عليه السلام هي الضابطة لمعرفة الله وتوحيده من جانبين: جانب الإذعان والتسليم لأمر الله سبحانه، وقد مر عليك أن التسليم لإرادة الله والقبول بحكمه هو علامة الإيمان؛ إذ قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[١].

وجانب تنزيه الله سبحانه عن الجبر والتعطيل، فإن قوماً من المسلمين أنكروا الولاية التكوينية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليه السلام، بل أنكروا ولاية الإنسان على أفعاله وتصرفاته فقالوا بالجبر، وإن كل ما يفعله الإنسان فهو مجبور عليه، وهم بهذا نسبوا إلى الله سبحانه فعل القبيح، وشبهوه بخلقه، وبه خرجوا عن التوحيد الصحيح.

وقوماً آخرين منهم قالوا بالتفويض المطلق، وإن الله سبحانه فوض إلى العباد كل ما يفعلونه بالاستقلال والغنى عن الله سبحانه، وهم بهذا القول قالوا بالتشريك في الفعل والتأثير، وعطلوا الخالق عن فعله، وقبلهم قال بهذا القول اليهود؛ إذ قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ فلعنهم الله لمقالتهم هذه فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٢] وهم بهذا القول خرجوا عن التوحيد، وكلاهما لم يعرف الله حق معرفته، ولذا أكد الإمام عليه السلام أن معرفة الله سبحانه الحقة تمر عبر معرفة الإمام عليه السلام، فإن كمالات الإمام ومقاماته ومظاهر جماله وجلاله تعكس مظاهر جمال الله وجلاله وقدرته، فكل شيء في الوجود يحصل بفعل الله وبإذنه، ولكن بواسطة الإمام عليه السلام بما أنه عبده

١ - سورة النساء: الآية ٦٥.

٢ - سورة المائدة: الآية ٦٤.

المقرب الذي سخر الله إليه كل شيء.

وذلك لما عرفت من أن الخالق سبحانه لا محدود، ويستحيل أن يحيط المحدود باللا محدود، فلذا لا بد من وجود وسائط تعكس الصفات الإلهية لكي يعرفها الناس، ولذا قال عليه السلام: «من عرف الله بهذه الصفة فقد أثبت التوحيد»[١].

الوجه الخامس: المظهرية وتجلي الصفات الإلهية على فعلهم وإرادتهم، فيكون فعلهم فعله، وفعله فعلهم، بما أنهم مظاهر لقدرة الله وأوعية لمشيئته وعلامة رضاه وغضبه وحبه وبغضه، وإليه يشير قوله صلى الله عليه وآله: «من رآني فقد رأى الله»[٢] وقد أكد القرآن في آيات عديدة على الوحدة بين فعل الله وفعل رسوله وبين طاعته وطاعته، وهذه الوحدة في الفعل هي وحدة حقيقية ربما تختلف بالوجه والاعتبار، فإذا لوحظ ما يفعله الرسول بالقياس إلى الباري سبحانه يسمى فعل الباري سبحانه، وإذا لوحظ بالقياس إلى الرسول يقال فعل الرسول.

أو لا يلحظ فيها تعدد الاعتبار أصلاً، وإنما يلحظ فعل الرسول هو فعل الله، كما تنسب الإماتة – مثلاً – إلى عزرائيل مع أن سببها هو الله سبحانه، ولكن باعتبار أن عزرائيل يمثل إرادة الله وينفذ أوامره تعالى نسبت إليه، وهذه النسبة حقيقية للاثنين بلحاظ المباشرة والسببية، وكذلك تصرفات الوكيل المفوض عن الموكل فإنها تعد تصرفاً للموكل نفسه بلحاظ أنه يمثل

١ – الهداية الكبرى: ص٢٣٠؛ مجمع النورين: ص٢١٥.

٢ – شرح رسالة زاد السالك (للمولى محمد محسن الفيض): ص٨٨.

إرادته ورغبته مع أنهما اثنان في الواقع، وعلى هذا يحمل قولهم: «أولنا محمد، وأوسطنا محمد، وآخرنا محمد، وكلنا محمد»(١).

والملاحظ أن العديد من الآيات المباركة نسبت فعل النبيﷺ إلى الله سبحانه واعتبرته مظهراً لإرادة الله وفعله، ولم يعهد ورود مثل هذه الخصوصية لغيره من الأنبياء الذين تعرض إلى ولايتهم وتصرفهم القرآن، وهذا دليل وجيه يثبت أن مكانة الرسول المصطفى من ربه هي أسمى المكانات وأعلاها شرفاً، فمثلاً في الرمي قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(٢).

فإن الواقع الخارجي يؤكد أن الرمية كانت واحدة وقد صدرت من رسول اللهﷺ، وهو ما تؤكده الروايات، إلاّ أن الآية نسبتها إلى الله سبحانه باعتبار وحدة المظهر، ويوجه هذا المعنى بأحد توجيهين:

الأول: أن نلتزم بوحدة الرمية ووحدة الرامي ووحدة النسبة باعتبار أن يد الرسول هي يد الله، كما أن أمره أمر الله، وطاعته طاعة الله، وهذا يتوافق مع ظاهر الآية.

الثاني: أن نلتزم بوحدة الرمية والرامي مع اختلاف النسبة، فتنسب إلى رسول اللهﷺ باعتبار أنه باشر الرمي، وتنسب إليه سبحانه باعتبار أنه السبب الذي أعطاه القدرة، ولكن حيث إن فعل الله لابد له من مظهر كان فعله هو فعل رسوله، وفعل رسول الله هو فعله.

---

١ - بحار الأنوار: ج٢٦، ص٦-٧، ح١.

٢ - سورة الأنفال: الآية ١٧.

وعلى هذا الأساس قال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[١] وهذه خصوصية من خصوصيات النبي المصطفى ﷺ؛ إذ جعل طاعته طاعة الله، ومعصيته معصيته، ولم يرد مثل هذا الشأن والمنزلة في سائر الأنبياء[٢]، وقد تواتر في روايات الفريقين أن إطاعة الأئمة عليهم السلام هي إطاعة الرسول ﷺ، والنتيجة تكون أن إطاعتهم هي إطاعة الله سبحانه[٣].

وفي البيعة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾[٤] إذ نصت الآية على أن بيعة النبي ﷺ هي بيعة الله سبحانه، وأن اليد التي بويعت هي يد الله، وكأنها ألغت الفوارق بين المرسل والرسول، وجعلت بينهما وحدة اعتبارية تقومها مظهرية الرسول للمرسل.

ومثله ورد في كلام الرسول ومنطقه إذ قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[٥] فدلت الآية على أن الوحي واحد سواء نزل من الله أو صدر من النبي ﷺ، كما يؤكده الضمير (هو) الذي يعود على (ما) الموصولة، وهذا لا يتصور إلاّ إذا قلنا بالمظهرية والتجلي بالنحوين المتقدمين.

والوجه في هذه الوحدة والتلاحم بين الأمرين هو أن المخلوق آية الخالق ومظهره، فعلم الخالق يتجلى في علم المخلوق، وقدرته في قدرته، ورحمته في رحمته، وهكذا على اختلاف المراتب والمستويات، وقد دلت الأخبار على

١ – سورة النساء: الآية ٨٠.
٢ – انظر مواهب الرحمن: ج٩، ص٦٦، تفسير الآية المزبورة.
٣ – انظر مواهب الرحمن: ج٩، ص٧١، وما بعدها.
٤ – سورة الفتح: الآية ١٠.
٥ – سورة النجم: الآية ٣– ٤.

أن جميع ما في الوجود هي مظاهر لصفاته تعالى وأفعاله، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه»[١] وكلما كان الموجود أقرب إليه تعالى في الرتبة كانت مظهريته لصفاته وأفعاله أشد وأجلى، وحيث لا يوجد من هو أشرف من محمد وآل محمد عليهم السلام، ولا أقرب إلى الله سبحانه منهم، كانوا هم المظهر الأتم لصفاته وأفعاله، ولذا قال النبي والوصي عليهما السلام: «ما لله آية أكبر مني»[٢] وتواتر النقل باللفظ والمضمون بأنهم أسماء الله الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلاّ بمعرفتهم[٣]، ويشهد لهذا طوائف من الأخبار:

منها: ما دل على أن الله سبحانه ابتدعهم من نوره عز وجل كما عرفته من أحاديث النورانية، فهم نور الله وإن تفرقت أعيانه إلاّ أن جوهره واحد.

فعن ابن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لعلي عليه السلام: «خلقت أنا وأنت من نور الله»[٤] وعن الباقر عليه السلام في وصف الأئمة عليهم السلام: « هم والله نور الله الذي أنزل، هم والله نور الله في السموات والأرض»[٥] إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة[٦]

١ - نهج البلاغة: الخطبة١٠٨.
٢ - المناقب (لابن شهر آشوب): ج٢، ص٢٩٤؛ شرح الزيارة الجامعة: ص١٠٨؛ تفسير القمي: ج١، ص٣٠٩؛ ج٢، ص١٣٢.
٣ - التوحيد: ج٢، ص١١٥.
٤ - فرائد السمطين: ج١، ص٤٠، ح٤؛ ينابع المودة: ج١، ص١١.
٥ - تفسير القمي: ج٢، ص٣٧١؛ بحار الأنوار: ج٢٣، ص٣٠٨، ح٥.
٦ - انظر ينابيع المودة: ج١، ص٥٩؛ مقتل الخوارزمي: ج١، ص٩٦.

والجملة الخبرية الحملية تفيد الوحدة والاتحاد في المظهر لاستحالة الاتحاد الذاتي وبطلانه والمعنى أنهم مظاهر نور الله وآيات كماله وعظمته.

ومنها: ما دل على أنهم حجج الله والعلماء به، بل همعليهم السلام مظهر علم الله وغيبه، وهم أمناء سره ومحال معرفته، كما مر عليك في مبحث علم الإمامعليه السلام، والروايات بهذا الشأن كثيرة(١)، ومن الواضح أن مظهر العلم الإلهي هو مظهر القدرة الإلهية، فيكون تصرفه تصرف الله، وولايته ولايته.

ومنها: ما دل على أن إرادتهمعليهم السلام إرادة الله، وأن رضاهم رضاه، ففي حديث سلمان وأبي ذر المتقدم عن أمير المؤمنينعليه السلام يقول: «نحن إذا شئنا شاء الله، وإذا كرهنا كره الله، الويل كل الويل لمن انكر فضلنا وخصوصيتنا وما أعطانا الله ربنا، ولأن من أنكر شيئاً مما أعطانا الله فقد أنكر قدرة الله عز وجل ومشيئته فينا»(٢).

ومثله ورد في رواية جابر عن الإمام زين العابدينعليه السلام (٣).

وهي صريحة في أن مشيئة الإمامعليه السلام هي مشيئة الله كما تفيده (إذا) سواء كانت شرطية أو حينية، فمشيئة الله سبحانه مشيئتهم من حيث التقدير أو الإمضاء، إلاّ أن مشيئة الله سبحانه سابقة على مشيئتهم رتبة أو طبعاً؛ لوضوح أن مشيئة الله ذاتية بينما مشيئتهم عرضية وناشئة من إذن الله وقدرته، لكنهما في الوقوع الخارجي واحد.

---

١ - الكافي: ج٤، ص٥٧٦-٥٧٧، ح٢.
٢ - بحار الأنوار: ج٢٦، ص٦-٧، ح١.
٣ - بحار الأنوار: ج٢٦، ص١٤، ح٢؛ انظر التوحيد (للصدوق): ص٣٤٤، ح١٣.

ويؤكد هذه الحقيقة ما ورد في زيارة الحسين عليه السلام سيد الشهداء من التفصيل في معنى مظهرية القدرة والإرادة الإلهية عن يونس بن عبد الرحمن عن الصادق عليه السلام وقد ورد فيها: «من أراد الله بدأ بكم، بكم يبين الله الكذب، وبكم يباعد الزمان الكلب، وبكم فتح الله، وبكم يختم الله، وبكم يمحو الله ما يشاء، وبكم يثبت ... وبكم تنبت الأرض أشجارها، وبكم تخرج الأشجار ثمارها، وبكم تنزل السماء قطرها ورزقها، وبكم يكشف الله الكرب، وبكم ينزل الله الغيث - إلى قوله - إرادة الرب في مقادير أموره تهبط إليكم، وتصدر من بيوتكم، والصادر عما فصل من أحكام العباد»[1] فإن الباء للسببية، وحينئذ تفيد أن سببيتهم للأشياء هي سببية الله سبحانه، كما أن إرادتهم هي إرادة الله، فكل ما يحدث في الوجود التكويني وما يحدث من الأمور التشريعية هي راجعة إليهم، وهي في عين الحال راجعة إلى الله سبحانه؛ لأنهم عباد الله ووعاء أمره وقدرته.

ويتحصل مما تقدم عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن القول بالولاية التكوينية وإثبات القدرة للإمام المعصوم عليه السلام على التصرف في كل ما سوى الله سبحانه يتوافق مع مبدأ الأمر بين الأمرين؛ لأنه ينفي الجبر المطلق كما ينفي التفويض المطلق، بل هو أمر بينهما باعتبار أن إرادة الإمام وفعله هو مظهر لإرادة الله ووعاء لمشيئته، فكل ما يمتلك من قدرات وصلاحيات في التكوين أو في التشريع إنما هي من الله سبحانه من حيث الأصل والسببية وإن كانت من حيث التنفيذ والمباشرة من الإمام عليه السلام.

١ - الكافي: ج٤، ص٥٧٦ - ٥٧٧، ح٢.

وهو ما عرفت دلالته في العديد من الآيات والروايات المتقدمة ويؤكده الحديث القدسي الشريف المروي بطرق الخاصة والعامة عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا بن آدم! بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبإرادتي كنت أنت الذي تريد لنفسك ما تريد»(١) فإنه يدل على أن الإنسان مخير في أفعاله؛ لأن الله سبحانه جعله مختاراً حراً فيما يريد، كما يدل على أن إرادة الإنسان هي الأخرى مظهر من مظاهر إرادة الله سبحانه، وقدرته مظهر من مظاهر قدرته، فما بالك بإرادة النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام وقدرتهما؟

الحقيقة الثانية: أن حقيقة الولاية التكوينية للنبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام واحدة، وهي القدرة على التصرف في عالم التكوين إيجاداً وإعداماً وتبديلاً وتغييراً، وهذه الولاية عامة تشمل كل ما سوى الله سبحانه؛ لأنهما حجج الله وأولياؤه المقربون، فكما لا يعزب عن حيطة علمهم معلوم لا يخرج عن حيطة قدرتهم مقدور، وكل ذلك بإذن الله سبحانه وإرادته، فلا يلزم من القول بها تعطيل ولا غلو أو تشريك.

الحقيقة الثالثة: أن الوجوه الخمسة التي ذكرت للولاية التكوينية ليست أقساماً لها، بل أسبابها ومظاهرها؛ بداهة أن الولاية والقدرة معناهما واحد، وهي القوة والسلطة على التصرف في الأشياء، وهذه القدرة ثابتة أولاً وبالذات لله سبحانه، وقد أعطاها الله سبحانه للإمام، فتصرفه تابع لإرادة الله، وناشئ منه، وليس بالاستقلال، ولذا عبر عنه تارة بالإذن الخاص وتارة بالإذن العام وتارة بالاسم الأعظم، وأخرى بالتفويض، أو المظهرية، فهذه

١ - التوحيد (للصدوق): ص٣٤٤، ح١٣؛ بحار الأنوار: ج٥، ص٤٩، ح٧٩.

الوجوه الخمسة وجوه للتصرف الولائي، وتعدد أسمائها إما من جهة محاكاة عقول الناس على قدر مستوياتهم وفهمهم ومعارفهم فالبعض قد لا يطيق فهم التفويض فيفسر له قدرة الإمام بالإذن أو بالاسم الأعظم، والبعض الآخر قد لا يفهم المظهرية لكنه يفهم التفويض، فيعبر له بذلك.

وإما من جهة اختلاف الموارد ففي بعض الموارد يسلك الإمام عليه السلام طريق الدعاء والإذن الخاص للتصرف في الأشياء كما في بعض المعاجز والكرامات، وتارة يسلك طريق الاسم الأعظم، وتارة هو يباشر التصرف من باب التفويض أوالمظهرية، على أن الإذن الخاص والعام لا يغاير باقي المعاني، فأصول الوجوه ثلاثة هي الاسم الأعظم والتفويض والمظهرية.

والحاصل: أن ما يملكه الإمام عليه السلام من الولاية على التكوين يرجع إلى معنى واحد، ولكن له مظاهر ومفاتيح عديدة تتجلى فيها، وبهذا التوجيه نرفع الاختلاف الواقع بين أهل المعرفة في تعريف الولاية التكوينية أو في تصوير كيفيتها.

الحقيقة الرابعة: أن الولاية التكوينية غير المعجزة والكرامة من حيث الموضوع ومن حيث الغاية، فإن المعجزة تصرف تكويني مشروطة بالتحدي وإعجاز الآخرين، وقد تكون بإرادة الله إجابة لدعائه، كما أن الكرامة قد تظهر على يد النبي أو الإمام بفعل الله إظهاراً لفضله وكرامته، وكلاهما تصرف خاص.

بينما الولاية التكوينية تصرف إرادي للنبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام قد يحصل لأجل الإعجاز، وقد يحصل لأجل إظهار الفضل والكرامة، وقد يحصل

لأهداف أخرى تتعلق بمقامات المعصوم أو عبادته كما هو ملحوظ في التصرفات الكثيرة التي أظهرها آل محمد عليهم السلام في المناسبات المختلفة.

وعليه فبين الولاية التكوينية والمعجزة نسبة العموم من وجه؛ لأن التصرف التكويني قد لا يكون لأجل المعجزة فهو ولاية، وقد يكون إعجازاً وليس بتصرف تكويني كالقرآن الكريم؛ إذ إنه معجزة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليس بتصرف تكويني؛ لأنه تنزيل من رب العالمين، وقد يجتمعان.

كما أن النسبة بين الكرامة والولاية العموم من وجه أيضاً، وأما الدعاء الذي يستجاب للإمام عليه السلام فهو موضوعاً ليس بولاية، بل كرامة كما هو واضح.

المطلب الثالث: في شروط قدرة الإمامعليه السلام

لا شك في أن الولاية الإلهية على الأشياء لا يمنحها الله سبحانه لأحد من عباده جزافاً وبلا حكمة، بل لا بد من وجود أسباب لها، كما لا يليق بهذا المقام العظيم كل أحد، بل لا بد وأن يكون الولي على استعداد تام لتقبل هذه المسؤولية العظيمة والمقام الرفيع، ومن الثابت أن وصول الفيض الإلهي في أي مستوى ورتبة كان يتوقف على قابلية القابل، وقد مر عليك أن محمداً وآل محمدعليهم السلام هم أشرف الخلق وأكملهم في القابليات والاستعدادات التي يمكن أن يصل إليها بشر فيحظى بمقام القرب من الله سبحانه، وتتجلى عليه صفاته وأفعاله، فيكون مظهراً لقدرته، ووعاء لمشيئته، ومحلاً لمعرفته، ومعدناً لحكمته، وهذا الاستعداد الخاص فيهمعليهم السلام لم ينشأ جزافاً أيضاً، بل اجتمعت فيه عناصر عديدة كانت بمنزلة الشروط لبلوغ مقام الولاية أبرزها أربعة:

الشرط الأول: اليقين بالعهد والميثاق الإلهي

إذ تؤكد الروايات المباركة أن الله سبحانه اختبر عباده منذ الخلقة الأولى في معرفته والإقرار بربوبيته، فكان محمد وآل محمدعليهم السلام من أجاب وأقر لذلك، فكافأهم الله سبحانه بأن جعلهم أول عباده، ومنحهم دينه وعلمه، وجعلهم حجة على خلقه، فعن الإمام الصادقعليه السلام قال: «لما أراد الله أن يخلق الخلق

نشرهم بين يديه، فقال لهم: من ربكم؟ فكان أول من نطق رسول الله١ وأمير المؤمنين والأئمة صلوات الله عليهم فقالوا: أنت ربنا، فحمّلهم العلم والدين، ثم قال للملائكة: هؤلاء حملة علمي وديني وأمنائي في خلقي، وهم المسؤولون»[١].

وعن الإمام الحسين عليه السلام: «أن الأصبغ بن نباتة قرأ على علي عليه السلام: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾[٢] الآية. قال: فبكى علي عليه السلام وقال: إني لأذكر الوقت الذي أخذ الله تعالى عليّ فيه الميثاق»[٣].

والمستفاد من مجموع الأدلة أن الميثاق الذي أخذه عليه السلام هو المعرفة والعبودية المطلقة لله[٤]، والقيام بأمره، والصبر على طاعته، والجهاد في سبيله، وهذا ما تؤكده فقرة دعاء الندبة الشريف: «اللهم لك الحمد على ما جرى به قضاؤك في أوليائك ... بعد أن شرطت عليهم الزهد في زخارف هذه الدنيا الدنية وزبرجها، فشرطوا لك ذلك، وعلمت منهم الوفاء به، فقبلتهم وقربتهم وقدمت لهم الذكر العلي والثناء الجلي، وأهبطت عليهم ملائكتك، وكرمتهم بوحيك، ورفدتهم بعلمك، وجعلتهم الذرائع إليك والوسيلة إلى رضوانك»[٥].

---

١ - التوحيد: ص٣١٩-٣٢٠، ح١؛ الكافي: ج١، ص١٣٢، ح٧؛ بحار الأنوار: ج٢٦، ص٢٧٧، ح١٩.

٢ - سورة الأعراف: الآية١٧٢.

٣ - المناقب (لابن المغازلي): ص١٧٥، ح٣١٩.

٤ - انظر بحار الأنوار: ج٢٦، ص٢٦٨، ح٢؛ ص٢٩٧، ح٦٤؛ تأويل الآيات الطاهرة: ص١١٦-١١٧، ح٣٠.

٥ - المزار: ص٥٧٤؛ اقبال الأعمال: ج١، ص٥٠٤.

وتؤكد الأحداث المتواترة أنهم عليهم السلام التزموا بهذا العهد والميثاق، ووفوا لربهم عهدهم فوفى لهم عهده أيضاً: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[١] وقد عقد الكليني قدس سره في الكافي باباً في العهد والميثاق بينهم وبين ربهم مر عليك بعض أحاديثه[٢].

الشرط الثاني: التسليم والعبودية المطلقة لله سبحانه

والمراد به الخضوع والتذلل بالجوانح والجوارح لله سبحانه[٣]، ويستفاد من مجموع الأدلة أن العبودية الحقة أشرف وسام يحظى به الأولياء؛ لأنه يدل على مزيد القرب من الله سبحانه ومزيد المحبة والتسليم، وبهذه السمات يصبح قلب العبد محلاً لنيل الفيوضات الإلهية، ومظهراً للصفات الربانية.

ولعل من هنا حصر القرآن الغاية من خلق الجن والإنس بالعبادة؛ إذ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٤] أي يعبدونه سبحانه بالمعرفة والطاعة، ولذا وصف النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بالعبودية في أهم الموارد:

منها: تشهد الصلاة بالتوحيد والنبوة حيث ورد فيه: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»[٥] إذ قدم العبودية على الرسالة، وذلك لأن قوام الرسالة

---

١ - سورة الأنبياء: الآيتان٢٦-٢٧.

٢ - انظر الكافي: ج١، ص٢٧٩- ٢٨٤، باب أن الأئمة لم يفعلوا شيئاً ولا يفعلون إلاّ بعهد من الله.

٣ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٤٢، (عبد)؛ لسان العرب: ج٣، ص٢٧١، (عبد)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٩٢، (عبد).

٤ - سورة الذاريات: الآية٥٦.

٥ - المزار: ص٥٦؛ الذكرى: ص٢٠٣.

بالعبودية، وهو ما يؤكده قول الصادق عليه السلام: «أن الله اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً»[١].

ومنها: نزول القرآن على قلبه، حيث نصت الآيات على أن منشأه العبودية؛ إذ قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٢] وإضافة العبودية إلى الضمير للدلالة على مزيد العناية والاختصاص.

ومنها: الشهود لعالم الغيب، فإنه نشأ من العبودية أيضا؛ إذ قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾[٣] ويلاحظ أنه لم يعبر عن محل نزول الفرقان بالنبي والرسول ونحوهما من أوصاف ربما تتناسب مع الغرض من نزول القرآن، كما لم يعبر بذلك بالإسراء والمعراج مع أنه أنسب بالغرض، وإنما عبر بالعبد للإشارة إلى أن الذي يوفر الاستعداد واللياقة لنيل كل هذه المراتب السامية هي العبودية.

وهذا ما يؤكده القرآن في سائر الأنبياء حينما يكشف عن سر نيلهم المقامات الإلهية السامية، فقد وصف نوحاً بالعبد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[٤] ووصف أيوب به فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾[٥] ووصف

١ - التفسير الصافي: ج١، ص٥٠٣؛ تفسير نور الثقلين: ج١، ص١٢١.
٢ - سور الفرقان: الآية١.
٣ - سورة الإسراء: الآية١.
٤ - سورة الإسراء: الآية٣.
٥ - سورة ص: الآية٤٤.

داود بذلك في قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[١] وكذلك عيسى عليه السلام إذ قال: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾[٢] وسائر المخلصين المعصومين وصفهم بذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾[٣] وكل ذلك يدل على أن المقامات المعنوية التي يصل إليها النبي والإمام سواء في العلم أو في القدرة أو غيرهما تقوم أولاً على العبودية المطلقة لله سبحانه.

وقد شرح الإمام الصادق عليه السلام معنى العبودية المطلقة في حديثه لعنوان البصري فقال: «يا أبا عبد الله! إن أردت العلم - أي العلم بالله وصفاته وأفعاله - فاطلب أولاً من نفسك حقيقة العبودية» وسأله عنوان فما حقيقة العبودية؟ قال: «ثلاثة أشياء، أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوله الله إليه ملكاً؛ لأن العبيد لا يكون لهم ملك، يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله تعالى به، ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً، وجملة اشتغاله فيما أمره الله تعالى به ونهاه عنه، فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوله الله تعالى ملكاً هان عليه الإنفاق فيما أمره الله تعالى أن ينفق فيه، وإذا فوض العبد تدبير نفسه على مدبره هان عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه لا يتفرغ منها إلى المراء والمباهاة مع الناس، فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاث هان عليه الدنيا وإبليس والخلق، ولا يطلب الدنيا تكاثراً أو تفاخراً، ولا يطلب ما عند الناس عزاً وعلواً، ولا يدع أيامه باطلاً»[٤].

---

١ - سورة ص: الآية١٧.
٢ - سورة مريم: الآية٣٠.
٣ - سورة الحجر: الآية٤٢.
٤ - مشكاة الأنوار: ص٥٦٣- ٥٦٤؛ وانظر مجمع البحرين: ج٣، ص٩٦، (عبد).

ومن الواضح أن العبد الذي يسلم أمره لربه ويشتغل بما كلفه به وأنفق ماله وعمره في سبيله كان وجوده وفعله كله لله وفي سبيل مرضاته، ومن كان كذلك يكون عبداً داخراً لله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلاّ بالله، وهو ما يشير إليه قول الصادق عليه السلام: «وحروف العبد ثلاثة: (ع، ب، د) فالعين علمه بالله، والباء بونه عمن سواه، والدال دنوه من الله تعالى بلا كيف ولا حجاب»[1] أي الدنو المعنوي والمقامي وليس المكاني ونحوه.

فمن كان كادحاً لربه باذلاً فيه كل ما عنده فإن ربه الغني الكبير سيكافئه بالأفضل على ما هو مقتضى الحكمة والشكر، فيجعل إرادته وفعله مظهراً لإرادته وفعله، وهو ما يؤكده الحديث القدسي: «عبدي أطعني تكن مثلي أو مَثلي أقول للشيء كن فيكون، وتقول للشيء كن فيكون»[2] وقول الصادق عليه السلام: «العبودية جوهرة كنهها الربوبية»[3] يحتمل معاني:

أحدها: أن العبودية لله سبحانه تبتدئ من سلطنة العبد على نفسه وهواها وربوبيته عليها، لأن حب النفس وملذاتها يعد أقوى مانع من العبودية، وهذا المعنى مستند إلى المعنى المجازي للربوبية لوجود القرينة الداخلية وهي قوله: «العبودية» إذ إن مقابلتها مع الربوبية يستدعي حملها على مجاهدة النفس الذي هو كنه العبودية.

ثانيها: أن الوصول إلى الغاية في العبودية لله سبحانه يتوقف على التربية

١ - انظر مصباح الشريعة: ص٨؛ تفسير نور الثقلين: ج١، ص٤٣، ح٥٦.
٢ - الفوائد الرجالية: ج١، ص٣٩.
٣ - الفوائد العلية: ج٢، ص٣٩٤، (الفائدة ٥٤)؛ التفسير الصافي: ج٤، ص٣٦٥، أقوال؛ تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٥٦٦، ح٧٧.

والإعداد؛ لوضوح أن المقامات المعنوية لا تحصل بالصدفة أو بالطفرة أو بمجرد الإرادة أو الفعل، بل لا بد لها من مزيد العمل والتربية والترويض، ولذا جعلوا لبلوغها مراتب عديدة تبتدئ من التخلية ثم التحلية لتصل إلى التجلية، وهذا المعنى مستند إلى المعنى اللغوي للربوبية، فإن الرب هو الذي يربي وينمي الشيء حالاً فحالاً حتى يتم ويكتمل[١].

ثالثها: أن العبودية المطلقة توصل صاحبها إلى مقام السلطة والربوبية على الأشياء، فيكون تصرفه مظهراً لتصرفات الرب سوى أن تصرفه عرضي مكتسب بينما تصرف الرب تبارك وتعالى ذاتي مستقل، وهذا المعنى مستند إلى أثر العبودية، وقد عرفت أن نتيجة العبودية المطلقة هو أن يكون العبد مظهراً للقدرة الإلهية، وبهذه القدرة يمتلك ولاية عامة على كل ما سوى الله سبحانه بإذنه ومشيئته سبحانه.

وبأي من هذه المعاني فسر الحديث المبارك تتأكد هذه الحقيقة، وهي أن العبودية المطلقة لله سبحانه من شروط الولاية.

والمراد من العبودية المطلقة ما كانت له تعالى إجلالاً وهيبة وحياء منه، ومحبة له، وقد وصفت بالعبودية المخلصة، ولها مراتب طولية عديدة خلاصتها ثلاث هي: العبادة أي الطاعة والتذلل لله سبحانه بحسب شريعته، ومحلها البدن، والعبودية وهي الرضا بحكم الله سبحانه والتسليم لأمره ومحلها الروح، والعبودية المطلقة وهي بفناء الذات والخضوع المطلق لله

١ – مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٣٦، (رب)؛ بصائر ذوي التمييز: ج٣، ص٢٩، (بصيرة١)؛ لسان العرب: ج١، ص٣٩٩، (ربب).

سبحانه، بحيث لا يجد العبد لنفسه أمراً ولا إرادة، ولا يملك من أمره شيئاً، ومحلها السر، ولا يخفى أن المرتبة الأولى تخضع لضوابط الثواب والعقاب وهي عبادة العوام، والثانية للمعرفة وهي عبادة الخواص، والثالثة للمحبة والتعظيم وهي عبادة الأولياء.

الشرط الثالث: المحبة الخالصة

وهي من آثار العبودية المطلقة؛ بداهة أن العبد الذي يكون في إطاعة ربه وعبادته تتجلى عليه فيوضات المحبة، فيجد في قلبه شوقاً ورغبة إلى ربه تشعره بمزيد التعظيم والتجليل وإيثار رضاه واستعذاب ذكره واستحضاره[1]، فمحبة العبد لربه تجعل العبد في غاية الخضوع والتقرب إليه، ومحبة الله للعبد تتم بكشف الحجاب عن قلبه وتمكينه من أن يطأ بساط قربه؛ لوضوح أن حب الله لعبده لا يحصل بالانفعال النفساني، بل بالفعل عبر إظهار أثره على المحبوب كما تؤكده قاعدة خذ الغايات واترك المبادئ، وعلامة حبه للعبد هي توفيقه للتجافي عن دار الغرور والترقي إلى عالم النور والإنس بالله والوحشة ممن سواه، ومن كان كذلك ظهرت عليه آيات الله وأفعاله، وصار مظهراً لقدرته ومشيئته، وإلى هذا تشير الأحاديث المتضافرة بطرق الفريقين لفظاً ومضموناً.

منها: حديث حنان بن سدير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الله: ما تحبب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وإنه يتحبب

١ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢١٥، (حب)؛ وانظر بصائر ذوي التمييز: ج٢، ص٤١٦ وما بعدها، (بصيرة٢)؛ انظر مجمع البحرين: ج٢، ص٣٠، (حب).

إليَّ بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، إذا دعاني أجبته، وإذا سألني أعطيته»[١] وقد فسروا هذا الحديث بتفاسير عديدة ترجع في محصلها إلى ما ذكرنا[٢] من مظهرية القدرة والإرادة الإلهية.

الشرط الرابع: الصبر على الطاعة

فإن من الواضح أن مقام الإمامة الإلهية يوجب على الإمام وظائف ربانية كبيرة وابتلاءات شديدة لابد وأن يكون مستعداً لها، وعلى قدر كبير من التحمل والصبر ليكون ناهضاً بهذه المسؤوليات، ومؤدياً ما أوجب الله عليه من الواجبات؛ بداهة أن التخلف عنها أو التقصير أو التهاون فيها يوجب الإخلال بمقامه ومرتبته؛ كما أن الصعوبات والمعاناة تأتي على قدر المقامات والمستويات، فكلما كانت الدرجة أعلى كان الابتلاء أشد وأصعب، وقد مر عليك أن من أسباب اختيار الأئمة للإمامة هو يقينهم وصبرهم على الابتلاء كما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٣].

ومن الثابت في الأدلة أن الله سبحانه يبلو عبده بما يحبه ليمتحن شكره،

١ - بحار الأنوار: ج٧٠، ص١٤، ح١٢؛ وانظر الكافي: ج٢، ص٣٥٢، ح٧، علل الشرائع: ج١، ص٢٢٧؛ المعجم الكبير: ج٨، ص٢٠٦؛ كنز العمال: ج٧، ص٧٧٠، ح٢١٣٢٧؛ نور الأبصار: ص٧٥.

٢ - انظر شرح الإشارات والتنبيهات: ج٣، ص٣٨٩؛ الإنسان الكامل (لحسن زادة الآملي): ص١٧٣؛ آل محمد بين قوسي النزول والصعود: ص٥٧- ٥٨.

٣ - سورة السجدة: الآية٢٤.

وبما يكره ليمتحن صبره، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً﴾[١] وقد جرت السنن الإلهية على أن الله سبحانه يبعث الأنبياء والرسل، وينصب الأئمة والحجج ليبتليهم ويبتلي بهم، وفي الحديث: «أنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك»[٢] أي لأمتحنك هل تقوم بما أمرتك به من تبليغ الرسالة والجهاد والصبر، وأبتلي بك قومك من يتبعك ومن يتخلف عنك ومن ينافق[٣].

وأشد الناس بلاء هم الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل، وفي صحيحة عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل رسول الله صلى الله عليه وآله من أشد الناس بلاء في الدنيا؟ فقال: «النبيون ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلي المؤمن بعد على قدر إيمانه وحسن أعماله، فمن صح إيمانه وحسن عمله اشتد بلاؤه، ومن سخف إيمانه وضعف عمله قل بلاؤه»[٤] والروايات في هذا المضمون كثيرة جداً[٥].

ومن هنا كان آل محمد عليهم السلام أشد الناس صبراً؛ لأن درجة الصبر تشتد بحسب درجة المعرفة واليقين والعبودية، ولذا وصفوا بالقائمين بأمر الله[٦]، والشواهد على هذا كثيرة جداً نكتفي منها بشاهد واحد، وهو ما روي في

١ – سورة الأنبياء: الآية٣٥.
٢ – مسند أحمد: ج٤، ص١٦٢؛ صحيح مسلم: ج٨، ص١٥٩؛ السنن الكبرى: ج٩، ص٢٠.
٣ – انظر مجمع البحرين: ج١، ص٦٢، (بلا).
٤ – الكافي: ج٢، ص٢٥٢، ح٢.
٥ – الكافي: ج٢، ص٢٥٢، ح١.
٦ – انظر الكافي: ج١، ص٢٠٢، ح١.

صبر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على الأذى في أُحد، فقد أكدت الأخبار أنه انصرف من أحد وبه ثمانون جراحة جوفاء - أي تدخل الفتائل من موضع في جسده وتخرج من موضع آخر - فدخل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله عائداً وهو مثل المضغة على نطع[١]، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله بكى فقال له: «إن رجلًا يصيبه هذا في الله لحق على الله أن يفعل به ويفعل[٢]، فقال مجيباً له وبكى: بأبي أنت وأمي الحمد لله الذي لم يرني وليت عنك ولا فررت، بأبي وأمي كيف حرمت الشهادة؟ قال: إنها من ورائك إن شاء الله ...» ثم ترك الشكاية في ألم الجراحة فشكت المرأتان اللتان كانتا يطببنه[٣] ما يلقى من الألم ويصبر عليه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وقالتا: يا رسول الله! قد خشينا عليه مما تدخل الفتائل في موضع الجراحات من موضع إلى موضع وكتمانه ما يجد من الألم، وقد عد ما به من أثر الجراحات عند خروجه من الدنيا فكانت ألف جراحة من قرنه إلى قدمه صلوات الله عليه[٤]، ويؤكد هذه الواقعة ما ذكرته الصديقة الزهراء عليها السلام في وصفه: «وقد كان مكدوداً في ذات الله»[٥].

---

١ - المضغة قطعة لحم حمراء، مجمع البحرين: ج٥، ص١٦؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٧٠، (مضغ).

والنَطع والنطَع: بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس؛ المنجد: ٨١٦؛المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٣٠؛ النَّطْع والنَّطَع؛ وانظر معجم مقاييس اللغة: ص٩٩٥، (نطع)؛ لسان العرب: ج٨، ص٣٥٧، (نطع).

٢ - أن يعطيه كثير الأجر والثواب والدرجات الرفيعة.

٣ - إحداهما نسيبة الجرّاحة، وكانتا تعالجان الجرحى في الغزوات.

٤ - الاختصاص: ص١٥٨؛ وانظر في رحاب الزيارة الجامعة (للسيد علي الصدر): ص١٦٨-١٦٩، (بتصرف).

٥ - انظر دلائل الإمامة: ص١١٥؛ شرح الأخبار: ج٣، ص٣٥، ح٩٧٤؛ الاحتجاج: ج١، ص١٣٦.

وأما ما ورد في صبر سيد الشهداء عليه السلام على ما لاقاه بعين الله فقد تعجبت منه ملائكة السماء، وروى بريد بن معاوية العجلي عن أبي جعفر عليه السلام قال: أصيب الحسين بن علي عليه السلام، ووجد به ثلاثمائة وبضعة وعشرون طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم، وكانت كلها في مقدمه؛ لأنه كان لا يولي[1].

وكان كلما يزيد في تضحياته يشتد صبره في سبيل الله، ويوصي أصحابه وأهل بيته بالصبر[2]، ويقول: «نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين»[3] وحينما بلغ البلاء ذروته تهلل نوراً استبشاراً، وبذل مهجته في الله ليستنقذ عباده من الجهالة وحيرة الضالة[4].

وهنا قد يخطر سؤال في أذهان البعض وهو: إن أولياء الله هم أخص عباده فلماذا لم يدافع الله سبحانه عنهم ويذب عنهم الأذى؟

والجواب: عن هذا التساؤل له عدة وجوه نكتفي باثنين منها:

الأول: ضرورة التكامل، فقد مر عليك أن تكامل الأولياء النفسي

---

١ - انظر الأمالي (للصدوق): ص٢٢٨، ح١؛ بحار الأنوار: ج٤٥، ص٨٢، ح٧؛ وقد روي عنه بيتان من الشعر تكشفان عن غاية العبودية والمحبة والصبر. يقول فيهما:

تركت الخلق طراً في هواكا   وأيتمت العيال لكي أراكا
فإن قطعتني في الحب إرباً   لما حن الفؤاد إلى سواكا

منتهى الآمال: ج١، ص٦٩٩.

٢ - كامل الزيارات: ص١٥٢، ح١٨٥، ح١٨٩؛ بحار الأنوار: ج٤٥، ص٨٦، ح١٩، ح٢٠؛ وانظر الإرشاد (للمفيد): ص٢٤١.

٣ - شرح الأخبار: ج٣، ص١٤٦، ١٠٨٧؛ مثير الأحزان: ص٢٩.

٤ - مصباح المتهجد: ص٧٨٨.

والعبودي يتوقف على مزيد الامتحان، فالابتلاء بالنسبة لهم ليس معضلة، وإنما هو وسيلة للتربية والتزكية والرقي في طريق حب الله ومعرفته، ولذا كان يتهلل وجه سيد الشهداء نوراً وهو مقدم على الشهادة، وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «أفضل ليلة عندي هي ليلة أبات فيها طاوياً خائفاً في سبيل الله» وفي وصيته لأسامة بن زيد قال صلى الله عليه وآله: «فإن استطعت أن يأتيك الموت وأنت جائع وكبدك ظمآن فافعل، فإنك تنال بذلك أشرف المنازل وتحل مع الأبرار والشهداء والصالحين»[1] ولهذه الحقيقة تفاصيل كثيرة لا يسع المجال لبيانها هنا.

والثاني: ضرورة القدوة، ونوجز توضيح هذه الحقيقة بما أورده في الاحتجاج والعلل وكمال الدين محمد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقاني عن أبي القاسم الحسين بن روح عن الناحية المقدسة ما يبين فيه حكمة إرسال الأنبياء وإظهار المعجزات وابتلائهم بالشدائد، وهو مبني على عدة حقائق دلت عليها ضرورة العقل والنقل:

الأولى: أن الله عز وجل لا يخاطب الناس بشهادة العيان ولا يشافههم بالكلام.

الثانية: أنه سبحانه بعث إليهم رسولاً من أجناسهم وأصنافهم بشراً مثلهم، فلو بعث إليهم رسلاً من غير صنفهم وصورهم لنفروا عنهم ولم يقبلوا منهم.

الثالثة: لما جاء الأنبياء إلى أممهم وكانوا من جنسهم يأكلون الطعام

١ - مستدرك الوسائل: ج٧، الباب ١ من أبواب الصوم المندوب، ص٤٩٩- ٥٠٠، ح٨.

ويمشون في الأسواق قالوا لهم انتم مثلنا فلا نقبل منكم حتى تأتونا بشيء نعجز أن نأتي بمثله، فنعلم أنكم مخصوصون دوننا بما لا نقدر عليه، فجعل الله عز وجل لهم المعجزات للدليل على صدق دعواهم، فمنهم من جاء بالطوفان بعد الإنذار والاعذار فغرق جميع من طغى وتمرد، ومنهم من ألقي في النار فكانت عليه برداً وسلاماً، ومنهم من أخرج من الحجر الصلد ناقة، ومنهم من فلق له البحر وفجر له من الحجر العيون، وجعل له العصا اليابسة ثعباناً فتلقف ما يأفكون، ومنهم من أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله عز وجل، ومنهم من انشق له القمر وكلمه البهائم مثل البعير والذئب وغير ذلك.

الرابعة: أنهم لما أتوا بهذه المعجزات وعجز الخلق عن أن يأتوا بمثله كان من تقدير الله عز وجل ولطفه بعباده وحكمته أن جعل أنبياءه مع هذه المعجزات في حال غالبين، وفي آخر مغلوبين، وفي حال قاهرين، وفي حال مقهورين، ولو جعلهم عزّ وجل في جميع أحوالهم غالبين وقاهرين ولم يبتلهم ولم يمتحنهم لاتخذهم الناس آلهة من دون الله عزّ وجل، ولما عرف فضل صبرهم على البلاء والمحن والاختبار، ولكنه عزّ وجل جعل أحوالهم في ذلك كأحوال غيرهم؛ ليكونوا في حال المحنة والبلوى صابرين، وفي حال العافية والظهور على الأعداء شاكرين، ويكونوا في جميع أحوالهم متواضعين غير شامخين ولا متجبرين، وليعلم العباد أن لهم عليهم السلام إلهاً وهو خالقهم ومدبرهم فيعبدونه، ويطيعون رسله، وتكون حجة الله تعالى ثابتة على من تجاوز الحد فيهم، وادعى لهم الربوبية، أو عاند وخالف وعصى وجحد بما أتى به الأنبياء

والرسل، و: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[1]»[2].

ونلاحظ من مفاد هذا الجواب أن الابتلاء يتضمن حكمة إلهية بالغة في تربية الأنبياء والأئمة وترقيهم إلى الدرجات العالية، فلذا يعد ضرورة لازمة لمقاماتهم، وفي عين الحال هو ضرورة للأمم التي يبعثون إليها؛ ليكونوا لهم قدوة في مختلف مجالات الحياة، يدلون على التوحيد بالطريقة المعتدلة بين الغلو الذي يذهب إليه الجاهلون بمقاماتهم وحقائقهم الإلهية وبين الإنكار والجحود الذي يذهب إليه القاصرون أو المعاندون. بقيت هنا حقيقتان هامتان لا ينبغي أن يغفل عنهما:

الحقيقة الأولى: أن الشروط الأربعة المذكورة وهي اليقين والعبودية والمحبة والصبر ترجع إلى سلسلة طولية واحدة في العلل والمعاليل، فإذا لاحظناها من الرتبة العالية فإن اليقين يقود إلى العبودية، وهي الأخرى تقود إلى المحبة، وهذه الثالثة تقود إلى الصبر في المكاره والابتلاءات، وإذا لاحظناها من الرتبة الدنيا فإن الصبر على المكاره ينتهي إلى المحبة، والمحبة تنتهي إلى مزيد العبودية وهذه الثالثة تنتهي إلى مزيد اليقين، فكل حلقة من هذه السلسلة لا تنفك عن الأخريات، وربما يستفاد هذا أيضاً من قول سيد الشهداء عليه السلام إذ خرج على أصحابه فقال: «أيها الناس! إن الله جل ذكره ما خلق العباد إلاّ ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، وإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه» فقال له رجل: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأبي أنت وأمي فما معرفة الله؟ قال: «معرفة

---

١ - سورة الأنفال: الآية٤٢.

٢ - انظر الاحتجاج: ج٢، ص٥٤٦؛ علل الشرائع: ج١، ص٢٤١ - ٢٤٣، ح١؛ كمال الدين: ح٢، ص٥٠٧، ح٣٧؛ وانظر بحار الأنوار: ج٤٤، ص٢٧٣، ح١.

أهل كل زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته»[1] وتفيد الرواية المباركة أن معرفة الإمام أولاً ثم إطاعته هي التي تقود العبد إلى العبادة الحقة والمعرفة الكاملة، ومن هنا لا يقبل الإيمان ولا العبادة إلاّ بالولاية.

الحقيقة الثانية: أن هذه السلسلة الطولية ترجع في جوهرها إلى حقيقة واحدة وهي العبودية المطلقة لله سبحانه، وقد عرفت أن العبودية تلازم شخصية الولي منذ العهد والميثاق ولا تفارقه، ومن كان كذلك فإنه يملك الاستعداد الكامل لأن يكون العبد الكامل الذي تتجلى فيه الصفات الإلهية والإرادة الربانية، ومن هذه صفته لا بد وأن يمتلك ولاية على الأشياء يتصرف فيها بقدرته وإرادته بما أنه عبد الله ومظهر قدرته وإرادته.

---

١ – علل الشرائع: ج١، ص٩– ١٣، ح١؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٧، ص١٤٧، ح٥٨.

المطلب الرابع: في شواهد قدرة الإمام عليه السلام

إن البحث في الشواهد والأدلة التي تثبت قدرة الإمام عليه السلام وولايته على كل ما سوى الله سبحانه يقع في مقامين:

أحدهما: مقام الإمكان وعدم امتناعه في نفسه؛ بداهة أنه لو كان الشيء ممتنعا عقلاً لم يبق وجه للبحث في ثبوته، وعليه ينبغي أن نؤول كل ما جاء في النصوص القرآنية والروائية مما يفيد وجوده، ونحمله على خلاف ظاهره.

وثانيهما: الوقوع الخارجي؛ لأن أقوى دليل على ثبوت الشيء وقوعه في الخارج، وجدير بالباحث هنا أن يلتفت إلى أن الله سبحانه إذا أراد أن يعطي لعبد من عباده قدرة كبيرة على التصرف في الأشياء فلا يمنعه مانع؛ لأنه سبحانه هو الولي، وهو القادر المطلق على كل شيء، ولا مانع من أن يفوض ولايته وقدرته أو بعضها إلى أنبيائه وأوليائه لدواع ومصالح تقتضيها حكمة الخالق ومصلحة الخلق.

فكما أعطى الله سبحانه الأرض قوة الجاذبية، وأعطى الشمس قوة الحرارة، والهواء قوة الريح، والطير قوة الطيران، والشجر قوة الإثمار، والحيوان قوة الحركة والإرادة، والإنسان قوة الفكر والعقل والحركة والإرادة والكثير من القدرات، وعلى أساسها قام نظامها وانتظمت حياتها وأدوارها، وكل ذلك

كان بإذن الله وقدرته وعطائه يمكن أن يعطي أولياءه المقربين ما هو أوسع من كل ذلك، فيعطيهم القدرة على التصرف في كل شيء، فإعطاء القدرة التكوينية على الأشياء في نفسه أمر ممكن عقلاً، ولم يمنع منه مانع عقلي أو شرعي، فيكفي للقول بثبوته قيام الدليل المثبت لوقوعه بالفعل.

وعليه فإن إنكاره أو التشكيك فيه يخرج عن دائرة المحذور العقلي أو الشرعي، وإنما ينبغي أن يقتصر على أدلة وقوعه، فيجب أن نبحث في أن الله سبحانه هل فوض هذه القدرة التكوينية لأنبيائه وأوليائه أم لا؟ فيختص البحث في الدليل النقلي الصادق أو ما يشهده الوجدان، والذي يستقرئ الآيات والروايات المباركة يجد أنها تواترت في إثبات ذلك بما يفيد الجزم واليقين، وقد اتفقت على أربع حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الله سبحانه فوض جانباً من قدرته إلى ملائكته؛ لأنه أتخذها مدبرات لأمر الخلق، حيث قسم بينها وظائفها، فخص صنفاً منها للإحياء، وصنفاً للإماتة، وصنفاً للرزق، وصنفاً للريح وهكذا، وهذا أمر مسلَّم في جميع الشرائع والأديان، وقامت عليه الضرورة.

الحقيقة الثانية: أنه سبحانه فوض جانباً من قدرته إلى أنبيائه العظام؛ إذ جعلهم مظاهر قدرته.

والحقيقة الثالثة: أنه سبحانه فوض إلى بعض أنبيائه قدرة أوسع من غيرهم؛ نظراً لمقامهم ورتبتهم المعنوية كعيسى وإبراهيم وموسى ونوح وداود وسليمان وصالح ويونس وزكريا عليهم السلام وغيرهم، وقد تعرض القرآن الكريم لجملة من آياتهم، وفصل بعض مظاهرها وكيفياتها، كما تعرض إلى

آيات بعض غير الأنبياء من الأولياء والصالحين كأصف بن بلخيا والخضر ومريم وذي القرنين ومؤمن آل فرعون وغيرهم.

وهو أمر لا يختلف عليه اثنان من أصحاب الأديان والمذاهب فضلاً عن أهل الفضل والمعرفة، وهو ما تقضي به الضرورة لأجل الإيمان وهداية الناس إلى التوحيد، وقد مر عليك في مبحث النبوة أن الإعجاز أحد أهم الطرق لتصديق الأنبياء، أو تنفيذ المقدرات الإلهية، وهو يحدث بالتصرف الولائي على الأشياء.

الحقيقة الرابعة: إن محمداً المصطفى وآله الأطهار عليهم السلام هم أفضل من خلق وأقرب عباده إليه في نبوتهم وإمامتهم وقد أعطاهم أكثر ما أعطى من القدرة والتفويض والولاية على الأشياء، فجعلهم أوعية لمشيئته، ومظاهر لقدرته، و ولاهّم أمر جميع الخلق، فسخر كل ما سواه سبحانه إليهم، ليتصرفوا في الأشياء بقدرة إلهية وإرادة ربانية تصرف إعجاز أو كرامة أو تدبير وإمضاء للمقدرات والمصالح الكونية؛ لأنهم خاتمة الحجج الإلهية، وولاة أكبر شريعة إلهية في الوجود، وقد تضافرت على ذلك النصوص الكثيرة فضلاً عن الوجدان، وسنكتفي بالإشارة إلى بعضها في ضمن ثلاثة شواهد:

الأول: الشواهد القرآنية

وهي عديدة نقف على البعض منها:

الشاهد الأول: ويدل على أمرين:

أحدهما: أن الله سبحانه أعطى لنبيه صلى الله عليه وآله قدرة تكوينية على الخلق من

خلال الروح التي أودعها فيه.

وثانيهما: أن هذه القدرة التكوينية نافذة في جميع الأشياء، فهي قدرة إلهية ناشئة من قدرة الله سبحانه وليست من ذات النبيﷺ بالاستقلال، فتنتفي توهمات الشرك والغلو والتعطيل، كما أنها قدرة لا محدودة.

يستفاد ذلك من أكثر من آية:

منها: قوله تعالى: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[1] إذ عمم العطاء الإلهي لكل من يشاء الله سبحانه أن يعطيه، وهي صريحة في الدلالة على أن الله سبحانه أعطى نبيه وأولياءه روحاً من أمره، وأن هذا الإعطاء تكويني اسمه الروح حصل من أمر الله سبحانه وشأنه على ما يفيده معنى الأمر في اللغة[2]، و(من) في قوله (من أمره) فيها احتمالات:

الإحتمال الأول: أن تكون سببية بمعنى الباء، فتفيد أنه سبحانه أعطى بعض عباده الروح بإرادته وأمره، وهذا المعنى يتوافق مع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3].

الإحتمال الثاني: أن تكون جنسية كما في قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾[4] ويقال: « لباس من قطن» فيكون معنى الآية أن الروح من العالم الإلهي الذي يسمو على عالم الإمكان، فيتوافق مع مضمون قوله تعالى:

١ - سورة غافر: الآية١٥.
٢ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٨، (أمر)؛ بصائر ذوي التمييز: ج٢، ص٤١، بصيرة (٥).
٣ - سورة يس: الآية ٨٢.
٤ - سورة السجدة: الآية ٧.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾[١].

الإحتمال الثالث: أن تكون تبعيضية، فيكون المعنى أن الروح بعض من أمر الله، كما أن الملائكة بعض منه، والنفس الإنسانية بعض منه وهكذا، وهذا الاحتمال بعيد عن الظهور، فيمتنع حمل المعنى عليه إذ لا يساعد عليه فهم عرفي ولا حكم عقلي.

والاحتمال الثاني هو المتبادر عرفاً والأكثر تطابقاً مع مضامين الآيات الأخرى، ويثبت أن الروح التي ألقاها الله سبحانه إلى النبيﷺ والإمامعليه السلام هي من أمر الله سبحانه، فلابد وأن تحمل الخصوصيات الإلهية وشؤونها، كما تفيدها مادة الإلقاء[٢] في قوله: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ ومن أبرز هذه الخصوصيات هي القدرة والسلطنة على عالم التكوين.

وقد اختلفوا في المراد من الروح هنا على أقوال عديدة[٣]، والمعنى الذي يتوافق مع سياق الآية ويناسب مضمونها هو روح النبي والإمامعليهما السلام التي خلقها من نوره، ونفخها في بدنهما، فظهرت عليهما الآثار الإلهية في العلم والقدرة وسائر الكمالات التي تناسب شأنهما كأولياء وحجج لله على خلقه تبارك وتعالى.

وتعضد هذه الحقيقة الروايات المتضافرة الدالة على أن الله سبحانه ولى

---

١ - سورة الإسراء: الآية ٨٥.

٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٤٥، (لقي)؛ بصائر ذوي التمييز: ج٢، ص٤١، بصيرة(٥)؛ مجمع البحرين: ج١، ص٣٧٩- ٣٨٠، (لقا).

٣ - انظر مجمع البيان: ج٨، ص٤٣٠-٤٣١، تفسير الآية ١٥ من سورة غافر.

أولياءه أمره، وجعل مفاتيحه في الإحكام والتقديرات الإلهية عندهم، وبه أظهروا معاجزهم وكراماتهم، وتصرفوا في الكون تصرفات ربانية تنم عن مدى قدرتهم ونفوذ إرادتهم في الأشياء.

وأعظم ولاة أمر الله وأعلاهم درجة وشأناً هم محمد وآل محمد عليهم السلام؛ إذ نص في آيات عديدة على أنهم ولاة الأمر الإلهي ومظهر قدرته وإرادته.

منها: قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ﴾[٢] ويفهم من الآيتين أن لأمر الله ولاة وزعماء أمناء ينفذون المقادير الإلهية، وهو ما صدقته الروايات المعتبرة، فعن أبي جعفر عليه السلام: «نحن ولاة أمر الله في عباده»[٣] ونحوه ورد عن الصادق عليه السلام[٤].

والروح حقيقة ربانية لطيفة، وعنصر من عناصر العالم العلوي تتصل بمدد رباني إلى العالم السفلي[٥]، ولذا أطلق على الملك تارة وعلى الوحي أخرى وعلى الرحمة ونحو ذلك[٦] ولم يعرف حقيقتها وجوهرها إلّا الله

---

١ – سورة النساء: الآية ٥٩.

٢ – سورة النساء: الآية٨٣.

٣ – بصائر الدرجات: ص٨١، ح١؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٣٨٤، ح٤٠.

٤ – المناقب (لابن شهر أشوب): ج٣، ص٣٣٦؛ بصائر الدرجات: ص٨١، ح٣؛ ص٨٤، ح١٥.

٥ – انظر بصائر ذوي التمييز: ج٣، ص١٠٦، بصيرة (٢٦).

٦ – انظر بصائر ذوي التمييز: ج٣، ص١٠٦، بصيرة (٢٦)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٣٥٤–٣٥٦، (روح).

سبحانه، إذ وصفها في جواب السائلين عنها: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾[١] لتكون دليلاً وجدانياً في قلب كل إنسان يرشده إلى معرفة الخالق بصفاته وآثاره لا بحقيقته وكنهه فتكون أقوى حجة على التوحيد؛ إذ كل إنسان يعلم بنفسه ويدرك وجودها وآثارها، وفي عين الحال يجهل ذاتها وجوهرها، وإليه يشير قولهم: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[٢] والروح التي ألقاها خالقها على من يشاء من عباده لها مصداقان:

الأول: النفس القدسية للنبي والإمامعليهم السلام، وهو ما أشار إليه قوله تعالى في آدمعليه السلام: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [٣] ولأجلها أمر الملائكة بالسجود والخضوع له، وفي عيسى المسيحعليه السلام إذ قال سبحانه: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾[٤] وبها امتلك عيسىعليه السلام سلطة تكوينية على الأشياء في الخلق والإحياء وإبراء المرضى والمزمنين في الكمه والبرص ومحادثة الملائكة ونحوها من آيات ومعاجز ربانية.

وقد سئل أبو جعفرعليه السلام عن هذه الروح فقال: «روح مخلوقة خلقها الله في آدم وعيسى»[٥] وفي رواية أخرى عنهعليه السلام قال: «روحان مخلوقان اختارهما واصطفاهما»[٦] وتتوافق هذه الدلالة مع مضامين الروايات الكثيرة

---

١ – سورة الإسراء: الآية ٨٥.

٢ – شرح مئة كلمة: ص٥٧؛ مطلوب كل طالب: ص٥.

٣ – سورة الحجر: الآية ٢٩.

٤ – سورة النساء: الآية ١٧١.

٥ – التفسير الأصفى: ج١، ص٢٥٤؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص١٧٨، ح٦٨٨.

٦ – التوحيد: ص١٧٢، ح٤؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص١٧٩، ح٦٨٩.

التي نصت على أن الإمام عليه السلام هو أمر الله وروحه كقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا أمر الله والروح»[١].

وفي رواية أخرى قال عليه السلام: «نحن روح الله وكلماته، وبنا احتجب عن خلقه»[٢] أي صاروا الوسائط الدالة على الله والكاشفة عن كمالاته تبارك وتعالى، فحيث خلقهم كملين مصطفين وأودع فيهم حكمته وقدرته ومشيئته تمت حجته على الخلق في أن يعرفوه ويوحدوه واستغنى الخلق عن دليل آخر يدل عليه، فلذا قال: «بنا احتجب عن خلقه».

والثاني: المدد الإلهي الخاص، الذي يؤيد به الله سبحانه أولياءه، وقد عبر عنه في بعض الأخبار بجبرئيل، وفي بعضها الآخر بما هو أعظم من جبرئيل، وفي بعضها الآخر بالتأييد والتسديد الإلهي لنصرة أوليائه الذين أرسلهم للقيام بهداية الخلق وتنفيذ المقدرات الإلهية[٣]، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[٤].

وفي آية أخرى أسماه بروح القدس؛ إذ قال: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[٥] ولا تنافي بين المعاني المذكورة؛ لأنها من باب التفسير بالمصداق؛ إذ لا مانع

١ – مشارق أنوار اليقين: ص١٧٠.
٢ – بحار الأنوار: ج٢٦، ص ٢٩١، ح٥١؛ دلائل الإمامة: ص١٤٧؛ تأويل الآيات: ج١، ص١١٦.
٣ – انظر التوحيد: ص١٧١، ح٢؛ بصائر الدرجات: ص٤٨٣، ح١١؛ بحار الأنوار: ج٣، ص٢٢٨، ح١٧؛ البرهان: ج٤، ص٣١١.
٤ – سورة المجادلة: الآية ٢٢.
٥ – سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

من تجلي التأييد الإلهي بأنحاء مختلفة بحسب مقتضيات الحكمة، فتارة يتجلّى التأييد في جبرئيل، وتارة بما هو أعظم، وتارة بالتوفيق والنصرة الإلهية بالأسباب والمسببات ونحوها، والجميع يسمى روحاً؛ لأنه يحمل خصوصياتها.

وسواء فسرنا الروح بمعناه الأول أو بمعناه الثاني فإنهما يدلان على أن النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام يمتلكان قدرة ربانية أفاضها الله سبحانه عليهما؛ لأنهم حججه على الخلق، وخلفاؤه في الأرض، والمنفذون لمقدراته في التكوين والتشريع، فسخر لهم جميع الأشياء، وجعلها طوع أمرهم، فيتصرفون فيها بحسب الموازين الإلهية والحكمة الربانية، يتجلى بعضها في المعاجز وبعضها في الكرامات، وبعضها في التدبيرات.

وهذا المعنى ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في بيان معنى الروح فقال: «وهو روح الله لا يعطيه، ولا يلقي هذا الروح إلاّ على ملك مقرب أو نبي مرسل أو وصي منتجب، فمن أعطاه الله هذا الروح فقد أبانه من الناس، وفوض إليه القدرة، وأحيا الموتى، وعلم بما كان وما يكون، وسار من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق في لحظة عين، وعلم ما في الضمائر والقلوب، وعلم ما في السموات والأرض»[١] وقد ورد هذا البيان في أكثر من رواية[٢] وفي رواية جابر الجعفي عن الباقر عليه السلام ما يدل على أن معرفة هذه الروح تعد من علائم المعرفة بالإمام عليه السلام، والحديث طويل جاء فيه: قلت: يا بن

١ - بحار الأنوار: ج٢٦، ص٥، ح١.

٢ - انظر بصائر الدرجات: ص٤٥٧، ح١٣؛ ص٤٥٤، ح١٣؛ مشارق أنوار اليقين: ص١٦١، ص١٧٠.

رسول الله ﷺ ومن المقصّر؟ قال عليه السلام: «الذين قصروا في معرفة الأئمة، وعن معرفة ما فرض الله عليهم من أمره وروحه» قلت: يا سيدي وما معرفة روحه؟ قال عليه السلام: «أن يعرف كل من خصّه الله تعالى بالروح فقد فوض إليه أمره. يخلق بإذنه، ويحيي بإذنه، ويعلم الغير ما في الضمائر، ويعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وذلك أن هذا الروح من أمر الله تعالى، فمن خصه الله تعالى بهذا الروح فهذا كامل غير ناقص، يفعل ما يشاء بإذن الله، يسير من المشرق إلى المغرب في لحظة واحدة، يعرج به إلى السماء وينزل به إلى الأرض، ويفعل ما شاء وأراد»[1] وهذا المضمون متواتر في الروايات[2]، ويؤيده القرآن والبرهان بما ينتفي معه الشك والمجادلة.

وبذلك يتضح الوجه في الحقيقة الثانية، وهي أن قدرة النبي والإمام عليهما السلام واسعة نافذة في جميع الأشياء؛ لأنهما يمثلان قدرة الله وأمره وروحه، وحيث إن قدرة الله سبحانه واسعة ونافذة في كل شيء كانت قدرة خليفته ووليه كذلك، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[3] فإن إطلاق الآية المباركة يشمل النبي والإمام بما أنه أمر الله والمؤيد من قبله على ما عرفت.

الشاهد الثاني: وهو الآيات الكثيرة الدالة على تصرفات الملائكة وامتلاكها القدرة التكوينية على الأشياء.

١ - بحار الأنوار: ج٢٦، ص١٤-١٥، ح٢.

٢ - الكافي: ج١، ص٢٠٣، ح٢؛ بحار الأنوار: ج٢٦، ص٥، ح١؛ كامل الزيارات: ص٢٠٠؛ الهداية الكبرى: ص٢٣٠.

٣ - سورة يس: الآيتان ٨٢- ٨٣.

منها: ما دل على أن العظام من الملائكة تملك قدرة إلهية للتصرف في الأشياء كملك الموت؛ إذ شهد الباري عز وجل بأن له قدرة وولاية على قبض الأرواح في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[1] وهي ظاهرة في أن التوكيل على الموت من الله سبحانه والمباشرة من الملك، وفي آية أخرى ينسب ذلك إلى جماعة الملائكة ويسميهم بالرسل؛ للدلالة على أنهم ممثلون عن الله ومنفذون لإرادته؛ إذ يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[2].

وفي آيات أخرى ما يدل على الأوسع من الموت؛ إذ شهد الباري عز وجل لملائكته بأنهم مدبرون لشؤون الكون في السماوات والأرض ووصفها بالمدبرات؛ إذ قال تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾[3].

وقد وصف الملائكة تارة بالنازعات وهي التي تنزع أرواح الكفار من أبدانهم، وتغرقهم في سكرة الموت؛ لأنها تنزع أرواحهم من أقصى أبدانهم، وتارة بالناشطات لأنها تنشط أرواحهم لتخرجها من أجوافهم بالكرب والغم، وتارة بالسابحات لأنها تسبح بالأرواح في الفضاء، ثم تسبق بها إلى نار ربها تبارك وتعالى، أو هي التي تفيض أرواح المؤمنين تسلها سلاً رفيقاً، ثم تدعها تستريح، ثم تسبق بها إلى الجنة على اختلاف الأقوال، وتارة بالمدبرات؛

١ - سورة السجدة: الآية ١١.

٢ - سورة الأنعام: الآية ٦١.

٣ - سورة النازعات: الآيات ١ - ٥.

لأنها تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة كما روي عن أمير المؤمنينعليه السلام [١].

ومن الواضح أن كل هذه التصرفات ناشئة من ولاية تكوينية أعطاها الله سبحانه للملائكة لتدبير أمور الخلق في الموت والحياة والرزق وسائر ما يتعلق بمعاشهم ومعادهم.

الشاهد الثالث: وهو الآيات الكثيرة الدالة على أن الله سبحانه منح أنبياءه وأولياءهعليهم السلام قدرة للتصرف في الأشياء كرامة لهم، وإظهاراً لحجتهم.

منها: ما دل على ولاية إبراهيم الخليلعليه السلام في إحياء الطيور الأربعة التي قطعها ووزع أعضاءها على جبال متعددة، ثم دعاهن إليه فالتحمت أعضاؤها، وجاءت إليه ملبية دعوته، وخلاصة القضية ذكرها الباري عز وجل في آية واحدة؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٢].

وقد فصل المفسرون استناداً إلى الروايات أسباب طلب إبراهيمعليه السلام وكيفية عمله، وحددت أنواع الطيور التي نفذ فيها الأمر الإلهي نرجع ذلك كله إلى محله ونكتفي بما هو محل الشاهد هنا [٣]، وهو أن الآية المباركة دلت

---

١ - انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٢٥٣-٢٥٤؛ كنز الدقائق: ج١٤، ص١٢٤- ١٢٦؛ تفسير الآيات المباركات المزبورات.

٢ - سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

٣ - انظر مجمع البيان: ج٢، ص١٧٧- ١٧٩؛ كنز الدقائق: ج٢، ص٤٤٧- ٤٥٤؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٣، ص٢٥٥ وما بعدها، تفسير الآية المباركة.

على كيفية الخلق والإحياء بعد الإماتة، واستندت في دلالتها على ثلاثة أمور:

أحدها: إعادة لحمة الطيور التي قطعها ووزعها على مناطق عديدة وبعث الحياة فيها من جديد.

ثانيها: إعادتها على النحو الأول الذي كانت عليه بلا اختلاف أو اختلاط.

ثالثها: فهمها لخطاب نبي الله سبحانه وإجابة دعوته.

وهذه تصرفات تكوينية لا يقدر عليها إلاّ الله سبحانه أو من أعطاه الله هذه القدرة. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗا﴾ يشير إلى إحياء الطيور المقطعة إما مباشرة من قبل الله سبحانه وإما بمباشرة إبراهيم عليه السلام بإذن الله، وظاهر نسبة الفعل إلى إبراهيم عليه السلام يفيد تفويض الأمر إليه عليه السلام، أو تسخير الطيور لأمره ودعائه، وعلى أي تقدير فإن الآية في مجملها تدل على أن الله سبحانه أقدر إبراهيم عليه السلام على إحياء الطيور، وهذا ما لا يمكن أن يحدث إلاّ بواسطة الولاية التكوينية عليه.

ونلفت النظر إلى حقيقة هامة وهي: أن الآية المباركة أشارت إلى ولاية إبراهيم على الإحياء، وفي آيات أخرى أشير إلى ولاية عيسى عليه السلام على تحويل الطين طيراً ثم إحيائه، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[1].

ونلاحظ أن في آية إبراهيم عليه السلام لم يقيد إحياء الطيور بالإذن، بينما قيده في آية عيسى عليه السلام، ولعل الحكمة في ذلك تعود إلى مقام إبراهيم عليه السلام، فإنه نال

١ - سورة آل عمران: الآية ٤٩.

مقام الخلة الذي هو مقام الحب المحض واليقين المطلق الذي تنتفي فيه جهة الاثنينية، وعند أهل المعرفة تطلق الخلة في اللغة على المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه حتى لم يبق فيه موضع لغير محبوبه، فهو منصب لا يقبل الشركة والقسمة[١]، وإذا نسبت إلى الخالق تبارك وتعالى أريد منها الكناية عن بلوغ الحب والقرب منتهاهما، بحيث تتجلى صفاته تعالى على محبوبه ونصرته له[٢]؛ لقاعدة خذ الغايات واترك المبادئ، ومن هنا يكون فعل إبراهيم عليه السلام هو فعل الله، وأمره أمر الله؛ لأنه مظهر لقدرة الله وإرادته، بينما قيد (بإذني) لا ينفي الاثنينية، بل هو ظاهر في وجود آذن ومستأذن وإذن.

ومن الواضح أن ما ثبت لإبراهيم عليه السلام من الولاية يثبت لمحمد وآل محمد عليهم السلام من جهات: جهة الاشتراك في الكمال وهو مقام الخلة، لما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»[٣] أو من جهة الأولوية؛ لأنهم أكمل الأولياء والأئمة على الخلق أجمعين بما فيهم الأنبياء والرسل، ومقام الإمامة هو آخر المقامات المعنوية التي يمكن أن ينالها بشر، وفي رواية زيد الشحام قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وإن الله اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، وإن الله اتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وإن الله اتخذه خليلاً قبل

---

١ - انظر بصائر ذوي التمييز: ح٢، ص٥٥٧، بصيرة (٢١)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٩١، (خلل)؛ لسان العرب: ج١١، ص٢١٧، (خلل)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٣٦٤، (خلل).

٢ - انظر مجمع البيان: ج٣، ص٢٠٠.

٣ - مجمع البيان: ج٣، ص٢٠٠ح وانظر الاحتجاج: ج١، ص١١٠.

أن يجعله إماماً، فلما جمع له هذه الأشياء قال: إني جاعلك للناس إماماً»[١]

أو جهة علو الرتبة، فقد اختص الله سبحانه محمداً المصطفى صلى الله عليه وآله بمقام الحب، ووصفه بأنه حبيب الله ومختار الله، وهذا المقام أعلى رتبة من الخلة، لأنه يحصل باصطفاء النفس وجعلها تحت اختيار المحبوب، وفي المفردات: المحبة البلوغ بالود إلى حبّة القلب، فهو أشد قرباً وأبلغ أثراً[٢] بشوق وإرادة لا انفكاك عنه، وعليه فإن كمال المحبة يشمل كمال الخلة وزيادة؛ لما في المحبة من الخلوص والمصافاة واعطاء المحبوب لحبيبه لبه وأشرف ما عنده وهو قلبه[٣].

ومن هنا ورد في الأخبار الشريفة أن خلة إبراهيم نشأت من محبته لمحمد وآل محمد وكثرة الدعاء والصلاة عليهم عليهم السلام، ففي رواية عبد العظيم الحسني عن الهادي عليه السلام ورد: «إنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً لكثرة صلاته على محمد وأهل بيته صلوات الله عليهم»[٤] وهو ما تقضي به البداهة؛ لوضوح أن التقرب إلى أولياء الله سبحانه هو قرب من الله، وحبهم هو حبه، كما أن طاعتهم هي طاعته.

ومنها: ما وصف الخالق تبارك وتعالى بأنه أحسن الخالقين، وفعل التفضيل

١ - انظر الكافي: ج١، ص١٧٥، ح٢؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص١٥٢، ح٥٩٠.
٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٩١، (خل)؛ معجم الفروق اللغوية: ص٢٢٣، (٨٦٧)؛ لسان العرب: ج١، ص٢٩٤، (حبب).
٣ - انظر بصائر ذوي التمييز: ح٢، ص٤١٧، بصيرة (٢).
٤ - انظر علل الشرائع: ج١، ص٣٤، ح٣؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص١٥١، ح٥٨٥.

يدل على وقوعه من غيره أيضاً مجازاً؛ لأنه لا يقع إلاّ بإذنه وإرادته[١]، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[٢] وتؤكده آية عيسى عليه السلام إذ أذن له تعالى أن يخلق، فلذا وصف نفسه بأحسن الخالقين؛ لأنه عز وجل يخترع خلقه ويوجده من العدم، بينما غيره لا يخلق كذلك، بل يحول الوجود إلى وجود آخر كما بدل عيسى الطين إلى طائر، وهو بهذا لم يخترع بل قلد صنع الله سبحانه في الطيور، وإليه أشار الإمام الرضا عليه السلام للفتح عندما سأله عن وجود خالق غير الله؟ قال عليه السلام: «أن الله تعالى يقول: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فقد أخبر أن في عباده خالقين منهم عيسى بن مريم خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله، فنفخ فيه فصار طائراً بإذن الله»[٣]. وواضح أن الخلق لا يمكن أن يقع إلاّ بولاية تكوينية.

ومنها: كل ما ذكره القرآن الكريم من معاجز وكرامات الأنبياء والأولياء، كمعاجز موسى عليه السلام في العصا التي انقلبت أفعى[٤]، وفي انفلاق البحر[٥]، وفي تفجر العيون من الصخور[٦]، ومعجزة ناقة صالح التي خرجت من

---

١ - انظر مجمع البيان: ج٧، ص١٨٠؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٦، ص٤٢٠؛ روح المعاني: ج١٨، ص٢٩٧.
٢ - سورة المؤمنون: الآية ١٤.
٣ - التوحيد: ص٦٣، ح١٧.
٤ - انظر سورة الأعراف: الآية ١٠٧؛ سورة الشعراء: الآية ٣٢.
٥ - انظر سورة الشعراء: الآية ٦٣.
٦ - انظر سورة البقرة: الآية ٦٠.

الجبل[١] ولم تولد من مثلها، ومعاجز داود في التسبيح والتهليل[٢] وتليين الحديد[٣]، ومن بعده معاجز سليمان[٤]، وغيرها[٥].

فإن هذه وأمثالها جميعاً حدثت بولاية تكوينية وقدرة إلهية على التصرف بالأشياء بإذن الله تعالى، سواء قلنا بأنها وقعت بإرادة الأنبياء والأولياء لما لهم من قدرة إلهية على التصرف فيها من جهة التفويض أو مظهرية الإرادة، أو من جهة استجابة الدعاء، أو وقعت من باب أن الله سبحانه سخرها لأنبيائه، وجعلها مطيعة لإرادتهم.

فإن مجموع هذه الآيات والحوادث تدل على أن لأولياء الله وأنبيائه ولاية على التصرف في الأشياء، وأن هذه الولاية لم تكن محدودة في أشياء دون أخرى وإن كان بعضها من مختصات بعض الأنبياء؛ لأن ذلك من باب التجلي والظهور الاختصاصي، فلا ينفي قدرته على غيرها؛ لوضوح أن حكم الأمثال واحد ما دامت العلة واحدة وهي إرادة الله وإذنه؛ بداهة أن ولايتهم لم تكن من عند أنفسهم، بل هي من الله خصهم بها لما لهم من المحبة والعبودية المطلقة والطاعة لأوامره وإرادته سبحانه، ولما جعلهم حججاً على الخلق.

ومع هذه الشهادة التامة من قبل القرآن الكريم بوجود هذه القدرة وبوقوعها لا يبقى مجال للتردد أو الشك في قبولها عقلاً؛ لما عرفت من أن أدل دليل على إمكان الشيء هو وقوعه في الخارج.

---

١ - انظر سورة الأعراف: الآية ٧٣.
٢ - انظر سورة الأنبياء: الآية ٧٩؛ سورة ص: الآية ١٨.
٣ - انظر سورة سبأ: الآية ١٠.
٤ - انظر سورة سبأ: الآية ١٢.
٥ - انظر سورة لقمان: الآية ٢٠.

الثاني: الشواهد الروائية

وهي كثيرة جداً تفوق حد التواتر لفظاً ومعنى عند الفريقين، ويمكن تصنيفها على صنفين:

الصنف الأول: ما أشار إلى امتلاكهم القدرة على بعض مصاديق القدرة التكوينية على الأشياء، وحينئذ يمكن تعميم قدرتهم على جميع الأشياء بواحدة من وسائط أربع:

الأولى: وحدة العلة، فإن الولاية التكوينية لأولياء الله سبحانه لما كانت ناشئة من إذن الله وإرادته كانت عامة ونافذة في جميع الأشياء بلا شبهة.

الثانية: وحدة الغرض، فإن الغاية من إعطاء الله سبحانه لهم الولاية على التصرف في الأشياء هو إظهار مكانتهم وحجيتهم على الخلق ليكونوا هداة الخلق وأئمتهم، ولأجل تحقيق هذا الغرض لابد وأن تكون ولايتهم عامة وشاملة لإثبات حجيتهم ومكانتهم، فلو قدروا على بعض الأشياء وعجزوا عن غيرها لزم منه نقض الغرض، وهو قبيح على الخالق، لاسيما إذا كانت ولايتهم من باب تأييدهم ونصرتهم أو إجابة أدعيتهم.

الثالثة: علو الرتبة، فإن الأنبياء والأئمة عليهم السلام عباد الله المخلصون وهم مظهر إرادته ووعاء مشيئته، وحيث إن قدرته سبحانه شاملة لكل شيء كذلك قدرتهم، سوى أن قدرته، من ذاته عز وجل، وأما قدرتهم فمن الله وليست من أنفسهم.

الرابعة: الاستقراء الخارجي، فإننا إذا لاحظنا صدور الكثير من الآيات

والمعجزات ومن أصناف مختلفة كالإحياء والإماتة، وإبراء المرضى، وطي الأرض، وكشف الحجب الغيبية، وإثمار الأشجار، والتكلم مع الحيوان ونحو ذلك من آيات على أيديهم نتوصل إلى عمومية الولاية ونفوذ قدرتهم في جميع الأشياء.

والصنف الثاني: ما أشار إلى ثبوت الولاية العامة على كل ما سوى الله سبحانه؛ لأنهم ولاة أمر الله ومظهر قدرته وإرادته، ففعلهم فعله، وتصرفهم تصرفه.

فمن الصنف الأول نكتفي بروايات:

منها: ما ورد في تشبيه آياتهم بآيات نبي الله سليمان عليه السلام.

ففي الكافي سأل رجل الإمام الصادق عليه السلام عن الإمام هل فوض الله إليه كما فوض إلى سليمان عليه السلام؟ فقال عليه السلام: «نعم»[1] وفي رواية أخرى: «كان سليمان عنده اسم الله الأكبر الذي إذا سأله أعطى، وإذا دعا به أجاب، ولو كان اليوم لاحتاج إلينا»[2] أي كان مطيعاً لهم متبعاً لإمامتهم؛ لأنهم الحجة عليه.

وقد صرح القرآن بأن سليمان عليه السلام قد سخرّت إليه الريح وعين القطر، بل وأوتي من كل شيء؛ إذ قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[3] وقال: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[4].

١ - الكافي: ج١، ص٤٣٨، ح٣.
٢ - بصائر الدرجات: ص٢٣١، ح٢.
٣ - سورة سبأ: الآية ١٢.
٤ - سورة النمل: الآية ١٦.

وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله في وصف حجة الزمان وقائم آل محمد عجل الله فرجه قال: «لأملكنه مشارق الأرض ومغاربها، ولأسخرن له الرياح، ولأذللن له السحاب الصعاب، ولأرقينه في الأسباب»[١] والروايات بهذا المضمون كثيرة[٢].

ومنها: ما ورد في آيات علي والزهراء عليهما السلام في الماء والزلازل وارتفاع الحيطان وقلع باب خيبر، فقد ورد أن ماء الفرات؛ فاض يوماً في وقت الربيع وخاف الناس من الغرق، وشكوا إليه الحال، فأخذ قضيباً بيده اليمنى وحرك شفتيه بكلام لا يفهمه أحد، وضرب به الماء، فهبط نصف ذراع، فقال لهم: «يكفي هذا؟» فقالوا: لا يا أمير المؤمنين، ثم ضرب ثانية فهبط نصف ذراع آخر[٣]، ومثل هذا ورد عنه في إسكان زلزلة الأرض في عهد أبي بكر[٤]، وورد أيضاً عن السجاد والباقر[٥] والهادي عليهم السلام[٦].

وفي قضية الصديقة الزهراء عليها السلام لما خرجت ناقمة على القوم الذين أخذوا علياً عليه السلام لغرض البيعة، روى سلمان رضوان الله عليه أنها جاءت إلى المسجد وأرادت أن تدعو على القوم، فرأيت حيطان المسجد ارتفعت حتى لو أن

١ - انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٢٠٦، ح٢٢.

٢ - انظر الخرائج والجرائح: ص٢٥٦؛ كشف الغمة: ج٣، ص٥٠؛ دلائل الإمامة ص٨١؛ الهداية الكبرى: ص١١٢؛ بصائر الدرجات: ص٤٢٨، باب في ركوب أمير المؤمنين عليه السلام السحاب وترقيه.

٣ - انظر الفضائل (لابن شاذان): ص١٠٦ - ١٠٧؛ الخرائج والجرائح: ص١٦٧.

٤ - دلائل الإمامة: ص٢؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٣٧٩، ح٢٨.

٥ - انظر مشارق أنوار اليقين: ص٨٩؛ الهداية الكبرى: ص٢٢٧ - ٢٢٨.

٦ - الهداية الكبرى: ص٣٢٢.

رجلاً يريد أن ينفذ لنفذ[١] إجابة لدعائها، أو تألماً لألمها وحزناً لحزنها.

ولما قلع باب خيبر الذي لم يكن ممكناً إلاّ بنحو من الإعجاز قال أمير المؤمنين عليه السلام: «والله ما قلعت باب خيبر ورميت به خلف ظهري أربعين ذراعاً بقوة جسدية، ولا حركة غذائية، لكن أيدت بقوة ملكوتية، ونفس بنور ربها مضيئة، وأنا من أحمد كالضوء من الضوء»[٢] وقضية قلع الباب المذكور متواترة بطرق الفريقين[٣].

ومنها: ما ورد في استقرار الأرض والسماء بهم وطي الأرض لهم عليهم السلام، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: « .... إن وصيي لأفضل الأوصياء .... ومن ولده الأئمة الهداة بعدي ... بهم يمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بأذنه، وبهم يمسك الجبال أن تميد بهم ... أولئك أولياء الله حقاً»[٤].

وعن أبي جعفر عليه السلام ما يقرب منه[٥]، وورد هذا المضمون في الزيارات الشريفة المعتبرة أيضاً[٦]، وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «إن الأوصياء لتطوى لهم الأرض، ويعلمون ما عند أصحابهم»[٧].

---

١ – انظر الاحتجاج: ص٥٦؛ المسترشد (للطبري): ص٣٨٢؛ مشارق أنوار اليقين: ص٨٥.
٢ – انظر الأمالي (للصدوق): مجلس ٦٠٤، ح١١.
٣ – انظر شرح نهج البلاغة (لابن ميثم البحراني): ج١، ص٨٨؛ أعلام الورى: ص١٨٣.
٤ – بحار الأنوار: ج٣٦، ص٣٧١، ح٢٣٤.
٥ – بصائر الدرجات: ص٢١٩.
٦ – انظر كامل الزيارات: ص٣٥٨، الباب ٧٩؛ بحار الأنوار: ج١٠٢، ص١٤٤.
٧ – بصائر الدرجات: ص٤١٨، ح٥؛ ينابيع المعاجز: ص١٨٣؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٣٧٠، ح١٧.

ومنها: ما ورد في تبدل الأشياء أو تحويل مهياتها، فعن أمير المؤمنينعليه السلام في محادثته لبعضهم قال: «يا فلان! أترى أنا نريد الدنيا فلا نعطاها؟ ثم قبض قبضة من الحصى فإذا هي جواهر»[١].

وقريب من هذا ورد عن الصادق[٢] والرضا[٣] والجواد[٤] والعسكريعليهم السلام [٥]؛ إذ أخرجوا ذهباً من تراب الأرض.

وعن علي بن الحسينعليه السلام في قصة طويلة مع رجل من بلح قال لزوجته: إن الرجل الذي نهدي إليه هدايانا هو ملك الدنيا والآخرة، وجميع ما في أيدي الناس تحت ملكه؛ لأنه خليفة الله في أرضه، وحجته على عباده، وهو ابن رسول اللهصلى الله عليه وآله وإمامنا، إلى أن يقول: فقال الإمامعليه السلام للرجل: «ما هذا؟» فقال: ماء. قال الإمامعليه السلام: «بل هو ياقوت أحمر» فنظر الرجل فإذا هو قد صار ياقوتاً أحمر بإذن الله تعالى، ثم قالعليه السلام: «يا رجل! صب الماء» فصب حتى امتلأ ثلثا الطست، فقالعليه السلام: «ما هذا؟» قال: هذا ماء. قالعليه السلام: « بل هذا زمرد أخضر» فنظر الرجل إليه فإذا زمرد أخضر[٦].

وقد سأل رجل الإمام الصادقعليه السلام عن علائم الإمامة فحول له الحائط

---

١ - بصائر الدرجات: ص٣٩٥، ح٣.

٢ - بصائر الدرجات: ص٣٩٤، باب أنهم أعطوا خزائن الأرض.

٣ - انظر الإرشاد (للمفيد): ج٢، ص٢٥٨؛ الكافي: ج١، ص٤٨٨، ح٦؛ بحار الأنوار: ج٤٩، ٤٧، ح٤٥.

٤ - الخرائج والجرائح: ص٣٠١- ٣٠٣؛ ص٣٤٥؛ أعلام الورى: ص٣٤٣.

٥ - انظر الإرشاد (للمفيد): ج٢، ص٣٢٩.

٦ - بحار الأنوار: ج٤٦، ص٤٧- ٤٨، ح٤٩.

ذهباً ليرى قدرة الله وعلمه عنده[١]، إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة جداً[٢].

ومنها: ما ورد في تشبيه آياتهم بآيات إبراهيم وموسى ، ففي رواية يونس بن ظبيان قال: كنت عند الصادق مع جماعة فقلت: قول الله لإبراهيم: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أو كانت أربعة من أجناس مختلفة أو من جنس واحد؟ قال: «أتحبون أن أريكم مثله؟» قلنا: بلى. قال: «يا طاووس» فإذا طاووس طار إلى حضرته، ثم قال: «يا غراب»، فإذا غراب بين يديه، ثم قال: «يا بازي» فإذا باز بين يديه، ثم قال: «يا حمامة» فإذا حمامة بين يديه، ثم أمر بذبحها كلها وتقطيعها ونتف ريشها وأن يخلط ذلك كله بعضه ببعض، ثم أخذ برأس الطاووس فقال: «يا طاووس» فرأينا لحمه وعظامه وريشه يتميز من غيره حتى التزق ذلك كله برأسه، وقام الطاووس بين يديه حياً، ثم صاح بالغراب كذلك، وبالبازي والحمامة مثل ذلك، فقامت كلها أحياء بين يديه»[٣].

وفي حديث عمر مع سلمان الفارسي قال: كان بيد علي قوس، فلما صرنا في الجبانة رمى بقوسه من يده فصار ثعباناً عظيماً مثل ثعبان موسى ، فتح فاه، وأقبل نحوي ليبتلعني، فلما رأيت ذلك طار قلبي من الخوف، وتنحيت وضحكت في وجه علي وقلت له: الأمان يا علي بن

١ - دلائل الإمامة: ص١١٤ و ص١٣٦.

٢ - انظر بصائر الدرجات: ص٤٢٢؛ الخرائج والجرائح: ص٢٠٣، ص٢٦٣؛ كشف الغمة: ج٢، ص٤١٢؛ الهداية الكبرى: ص١٢٤-١٢٥.

٣ - الخرائج والجرائح: ص٢٩٧، ح٤؛ كشف الغمة: ج٢، ص٤١٨.

أبي طالب. أذكر ما كان بيني وبينك من الجميل، فلما سمع هذا القول استفرغ ضاحكاً وقال: «لطفت في الكلام، فإنا أهل البيت نشكر القليل» فضرب بيده إلى الثعبان، وأخذه بيده وإذا هو قوسه الذي كان بيده، ثم قال عمر: يا سلمان! إني كتمت ذلك عن كل أحد وأخبرتك به يا أبا عبد الله، فإنهم أهل بيت يتوارثون هذه الأعجوبة - أي الأفعال العجيبة والمعاجز - كابراً عن كابر، ولقد كان إبراهيم عليه السلام يأتي بمثل ذلك، وكان أبو طالب وعبد الله يأتيان بمثل ذلك في الجاهلية[1]، إلى غير ذلك ما هو كثير ومعروف[2].

ومنها: ما ورد في تصرفهم في الشجر إطاعة وإحياء وإثماراً، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال له: أرني آية، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لشجرتين: اجتمعا فاجتمعتا، ثم قال: تفرقا فافترقتا، ورجع كل واحدة منهما إلى مكانها، فآمن الرجل»[3] وكانت هذه الآية كثيرة الوقوع في بداية الدعوة المباركة[4] لشدة الحاجة إليها.

وفي رواية أخرى عن الصادق عليه السلام قال: «خرج الحسن بن علي في بعض عمره ومعه رجل من ولد الزبير .... نزلوا تحت نخل يابس، فقال الزبيري: لو كان في هذا النخل رطب لأكلنا منه، فقال له الحسن عليه السلام: وإنك لتشتهي الرطب؟ قال: نعم، فرفع الحسن عليه السلام يده إلى السماء ودعا بكلام لم يفهمه

١ - الفضائل (لابن شاذان): ص٦٣.
٢ - انظر مشارق أنوار اليقين: ص١٧٣؛ بصائر الدرجات: ص٢٨٩، باب أنهم يحيون الموتى؛ كشف الغمة: ج٣، ص٩٤.
٣ - بصائر الدرجات: ص٢٧٣.
٤ - انظر الهداية الكبرى: ص٥٦، وما بعدها.

الزبيري، فاخضرت النخلة، ثم صارت إلى حالها وفارقت وحملت رطباً»[1] وقريبة منها وردت عن الجوادعليه السلام في إثمار الشجر اليابس في حينه[2]، وكذا وردت عن أمير المؤمنين[3]عليه السلام.

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال: «نزل الإمام أبو جعفر الباقرعليه السلام بواد فضرب خباه، ثم خرج أبو جعفر بشيء حتى انتهى إلى النخلة، فحمد الله عندها بمحامد لم اسمع بمثلها، ثم قال: أيتها النخلة أطعمينا ما جعل الله فيك. قال: فتساقط رطب أحمر وأصفر فأكل ومعه أبو أمية الأنصاري فأكل منه، وقال: هذه الآية فينا كالآية في مريم؛ إذ هزت إليها بجذع النخلة فتساقط عليها رطباً جنيا»[4] ونحوه ورد عن الصادقعليه السلام [5].

وعن أمير المؤمنينعليه السلام في شأن حجة الزمان المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف: «ويغرس قضيباً في بقعة من الأرض فيخضر ويورق»[6] إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة.

ومنها: ما دل على إطاعة الأشياء لهمعليهم السلام بما فيهم الجن والحيوان والملائكة؛

---

١ - بصائر الدرجات: ص٢٧٦، ح١٠؛ كشف الغمة: ج٢، ص١٨٣- ١٨٤.

٢ - الخرائج والجرائح: ص٣٣٧.

٣ - الخرائج والجرائح: ص٢٠٣ ؛ الهداية الكبرى: ص١٥٣.

٤ - بصائر الدرجات: ص٢٧٣، ح٢؛ كشف الغمة: ٢، ص٤١١؛ دلائل الإمامة: ص٩٧؛ الخرائج والجرائح: ص٢٤٣.

٥ - بصائر الدرجات: ص٢٧٤، ح٥.

٦ - عقد الدرر في أخبار المنتظر: ص١٣٨؛ الهداية الكبرى: ص٤٠٤؛ الأنوار النعمانية: ج٢، ص٨٨.

إذ تدل الأخبار أن للإمام الصادقعليه السلام جماعة من الجن تخدمه[١].

وعن الباقرعليه السلام: «يا بن مسلم! كل شيء خلقه الله من طين أو بهيمة أو شيء فيه روح هو أسمع لنا وأطوع من ابن آدم»[٢].

وعن علي أمير المؤمنينعليه السلام: «أن الله علمنا منطق الطير كما علمه سليمان بن داود، ومنطق كل دابة في بر وبحر»[٣] وفي وصف قدرة المهدي عجل الله تعالى فرجه: «فيومئ المهدي عجل الله تعالى فرجه إلى الطير فيسقط على يده»[٤].

وعن أبي عبد اللهعليه السلام في حديث طويل جاء فيه: «وإن الملائكة تنزل علينا في رحالنا، وتأتينا بأخبار ما يحدث قبل أن يكون، وتصلي معنا، وتدعو لنا، وتلقي علينا أجنحتها، وتتقلب على أجنحتها صبياننا، وتمنع الدواب أن تصل إلينا، وتأتينا مما في الأرض من كل نبات في زمانه، وتسقينا من ماء كل أرض، نجد ذلك في آنيتنا، وما من يوم ولا ساعة ولا وقت صلاة إلاّ وهي تنبهنا لها»[٥] وغيرها من الأخبار الكثيرة.

ومنها: ما دل على إبرائهم للمرضى ورفع الأضرار عنهم، فقد دلت الأخبار أن رسول اللهصلى الله عليه وآله كان يشفي الأبكم والأبرص والمجانين[٦]، وفي الحديث الصحيح عن أبي بصير – وكان بصيراً – قال: دخلت على أبي عبد

١ – الأنوار النعمانية: ج١، ص٣٢٨؛ وانظر بصائر الدرجات: ص٣٤١ وما بعدها.
٢ – بصائر الدرجات: ص ٣٦٢ ؛ بحار الأنوار: ج٤٦، ص٢٣، ح٣.
٣ – بصائر الدرجات: ص٣٦٣- ٣٦٤، ح١٢.
٤ – عقد الدرر في أخبار المنتظر: ١٣٨.
٥ – بحار الأنوار : ج٢٥، ص٣٧٤، ح٢٤.
٦ – انظر التوحيد: ص٤٢٣، ح١.

الله وأبي جعفر عليهما السلام وقلت لهما: أنتما ورثة رسول الله؟ قال عليه السلام: «نعم» قلت: فرسول الله وارث الأنبياء علم كلما علموا؟ فقال لي: «نعم» فقلت: أنتم تقدرون على أن تحيوا الموتى وتبرئوا الأكمه والأبرص؟ فقال لي: «نعم بإذن الله» ثم قال: «أدن مني يا أبا محمد» فمسح يده على عيني ووجهي وأبصرت الشمس والسماء والأرض والبيوت وكل شيء في الدار. قال: «أتحب أن تكون هكذا ولك ما للناس وعليك ما عليهم يوم القيامة، أو تعود كما كنت ولك الجنة خالصاً؟» قلت: أعود كما كنت. قال: فمسح على عيني فعدت كما كنت. قال الراوي: فحدثت به ابن أبي عمير فقال: أشهد أن هذا حق كما أن النهار حق[١]، وهناك روايات كثيرة في هذا المضمون[٢].

وعن أبي حمزة الثمالي قال: قلت لعلي بن الحسين عليه السلام: الأئمة يحيون الموتى ويبرئون الأكمه والأبرص ويمشون على الماء؟ قال عليه السلام: «ما أعطى الله نبياً شيئاً إلاّ وقد أعطاه محمداً صلى الله عليه وآله وأعطاه ما لم يكن عندهم»[٣] وقد تضافرت الأخبار الشريفة في معالجة أمير المؤمنين المكفوف والأبرص والمقعد[٤]، ومسح يده على وجه حبابة الوالبية فشفيت من برصها[٥]، وقريب منه ورد

١ – انظر بصائر الدرجات: ص٢٨٩، ح١.

٢ – انظر بصائر الدرجات: ص٢٨٩، باب أنهم يحيون الموتى؛ الهداية الكبرى: ص٢٤٣–٢٤٤.

٣ – بصائر الدرجات: ص٢٨٩– ٢٩، ح٢٠.

٤ – انظر الهداية الكبرى: ص١٦٠.

٥ – دلائل الإمامة: ص٩٣.

عن الباقر[١]عليه السلام وكذا عن الهادي[٢] والرضا[٣] والجواد[٤] والمهدي[٥]عليهم السلام.

ومنها: ما دل على تفويض أمر إحياء الموتى وإماتة الأحياء إليهمعليهم السلام.

وقد تقدم بعض ما يدل على ذلك، وفي رواية سئل أبو الحسن الأولعليه السلام عن النبي ورث النبيين كلهم؟ قال: «نعم» قال السائل: من لدن آدم حتى انتهت إلى نفسه؟ قال: «ما بعث الله نبياً إلاّ ومحمد أعلم منه» قال السائل: إن عيسى بن مريم كان يحيي الموتى بإذن الله تعالى قال: «صدقت، وسليمان بن داود كان يفهم منطق الطير، وكان رسول الله يقدر على هذه المنازل» إلى أن قال: «وإن الله يقول في كتابه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وقد ورثنا نحن هذا القرآن الذي فيه ما تسير به الجبال وتقطع به البلدان وتحيا به الموتى»[٦] وقد تضافرت الأخبار بأن رسول اللهصلى الله عليه وآله أحيا الموتى[٧] وعلي أمير المؤمنينعليه السلام كذلك[٨].

وعن الرضاعليه السلام أجاب من قال: إن علامة الإمام تكليم ما وراء البيت وأن يحيي الموتى بقوله: «أنا أفعل، أما الذي معك فخمسة دنانير، وأما أهلك فإنها ماتت منذ سنة وقد أحييتها الساعة، واتركها معك سنة أخرى، ثم

---

١ - المحجة البيضاء: ج٤، ص٢٤٩؛ دلائل الإمامة: ص٢١١.
٢ - دلائل الإمامة: ص ٢٢٢.
٣ - الخرائج والجرائح: ص٣٠٣، باب ٩.
٤ - الخرائج والجرائح: ص٣٣٤، باب ١٠؛ الهداية الكبرى: ص٣٠١.
٥ - الهداية الكبرى: ص٣٩٨.
٦ - الكافي: ج١ ، ص٢٢٦، ح٧؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٤٤٤، ح١٣٨.
٧ - انظر التوحيد: ص٤٢٣، ح١.
٨ - الفضائل (لأبن شاذان): ص٦٧.

أقبضها إلي لتعلم أني إمام»(١).

وعن جميل بن دراج قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخلت عليه امرأة فذكرت أنها تركت ابنها بالملحفة على وجهه ميتاً. قال لها: «لعله لم يمت، فقومي فاذهبي إلى بيتك واغتسلي وصلي ركعتين وادعي وقولي: يا من وهبه لي ولم يك شيئاً جدد لي هبته، ثم حركيه ولا تخبري بذلك أحداً» قال: ففعلت فجاءت فحركته فإذا هو بكى(٢)، والروايات بهذا المضمون كثيرة(٣)، وتدل هذه الطوائف من الأخبار على عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الاعتقاد بالولاية التكوينية وقدرة الإمام عليه السلام على التصرف في الأشياء تعد من الأمور الضرورية، فلا يمكن معرفة مكانة الإمام ومقامه المعنوي في الوجود من دون معرفة مكانته ودوره في عالم التكوين، بل معرفة قدرة الإمام تعد من الحقوق التي للإمام على أمته في أن يعرفوه بها، ويذعنوا إليها. تشير إلى هذه الحقيقة النصوص الكثيرة التي نصت على أن درجات المعرفة تختلف عند الناس، ومن أعلاها درجة هي أن يكون المؤمن بالإمام عارفاً بحقه، ولا شك أن للإمام حقوقاً كثيرة في ذمة الأمة بعضها يتعلق بالإيمان والمعرفة كالاعتقاد بولايته العامة على الأشياء؛ وهو يتوقف على مستوى كبير من الإيمان والتسليم، وبعضها يتعلق بالتكليف والعمل كوجوب إطاعة أوامره وحرمة معصيته.

والحق الذي يكشف عن تمام المعرفة هو الأول، ولذا كانوا عليهم السلام لا

١ - دلائل الإمامة: ص٣٦٤، ح١٢.
٢ - بصائر الدرجات: ص٢٩٢، ح١.
٣ - انظر بحار الأنوار: ج٤٦، ص٤٧- ٤٨، ح٤٩.

يكشفونه إلاّ للخواص من الناس، وكانوا يأمرون بستره وكتمانه وعدم إظهاره لكل أحد[١].

وأما معرفة حقه بالطاعة وأنه إمام مفترض الطاعة فهو أمر معروف يدركه عموم الناس حتى الذين أنكروا الأئمة عليهم السلام كانوا يعرفونه ولذلك نافسوهم ونازعوهم مراتبهم، ثم قتلوهم بالسيف أو بالسم.

الحقيقة الثانية: أن مكانة الإمام عليه السلام ودوره التكويني في الوجود كان أمراً معروفاً عند الذين عاصروهم؛ لأن ظهور الأمور الغريبة منهم كان ملازماً لهم في مختلف المناسبات كما يشهد له حديث عمر لسلمان الفارسي بعد أن بدل الإمام علي عليه السلام القوس إلى أفعى؛ إذ أقر عمر بأربعة أمور:

أحدها: أن ظهور الأمور العجيبة متوارث عند أهل البيت.

ثانيها: أنه كان يعرف أن صدور الأمور العجيبة منهم عليهم السلام كان عن قدرة إلهية خاصة لا عن سحر أو شعوذة أو ما أشبه ذلك؛ لأنه أقر بأن إبراهيم عليه السلام كان يفعل مثلها.

ثالثها: أنه كان يكتم هذه الحقيقة على الناس ولكن أباح بها لسلمان حينما خاف وهلع من الثعبان الذي كاد أن يبتلعه، والإنسان عند الخوف والفزع تنهار قواه فيبوح ما يستره في الأوقات الأخرى.

رابعها: أن ظهور الأمور العجيبة كانت معروفة في هذا البيت حتى في زمن الجاهلية؛ إذ أخبر عمر بأن أبا طالب وعبد الله كانا يأتيانها، وهذا يدل على

---

١ - انظر الإرشاد (للمفيد): ج٢، ص٢٥٨؛ الكافي: ج١، ص٤٨٨، ح٦؛ وانظر بصائر الدرجات: ص٣٩٥، ح٢.

مكانتهما المعنوية عند الله سبحانه حتى يظهر على أيديهما الكرامات والمعاجز، وبه تبطل نسبة الشرك إلى أبي طالب عليه السلام.

الحقيقة الثالثة: أن الأئمة عليهم السلام كانوا يتعمدون إظهار هذه الكرامات لصنفين من الناس: صنف هم ضعاف الإيمان وذلك لأجل تثبيت إيمانهم والصنف الآخر هم المنكرون لهم لأجل السعي في هدايتهم أو إقامة الحجة عليهم، وقضية عمر مع الإمام علي عليه السلام شاهد على ذلك، وكذلك قضية الإمام الحسن عليه السلام مع الزبيري الذي اشتهى الرطب فدعا الإمام عليه السلام على النخلة اليابسة فاخضرت بإذن الله وأثمرت بالرطب، وكذلك الباقر عليه السلام مع أبي أمية الأنصاري، والصادق مع أبي بصير؛ إذ مسح على عينيه فصار بصيراً، وغير ذلك، وكذلك سيظهر على أيدي المهدي عجل الله تعالى فرجه الشيء الكثير من ذلك إقامة للحجة وتثبيتاً للقلوب.

ونلاحظ أنهم عليهم السلام كانوا حينما يتصرفون في الأشياء يلفتون أنظار الناس إلى أمرين:

أحدهما: أن هذه التصرفات أقرها القرآن الكريم لجملة من الأنبياء والأولياء ليؤكدوا للناس أنهم من صنف الأولياء الذين لا يفعلون الأشياء إلاّ بقدرة إلهية، فينسد أمام خصومهم باب التقول والاتهام بالسحر ونحوه.

ثانيهما: أن كل ما يفعلونه هو بإذن الله وبتسخير الأشياء لهم، ولذا كانوا أحياناً يدعون الله سبحانه فيظهرون الكرامة، وأحياناً يتلفظون بكلمات لم يفهمها السامعون، ولعلهم كانوا يستعينون باسم الله الأعظم أو ببعض أدعية السر؛ ليعلم الناس أنهم لا يفعلون شيئاً من أنفسهم، بل كل ما عندهم هو فضل من الله وكرامة، وبذلك يسدون باب الغلو فيهم، ومن

هنا قال الرضا عليه السلام للرجل الذي أحيا له زوجته: «لتعلم أني إمام»[١] وقال الصادق عليه السلام: «ومن لم يكن بهذه الصفات فليس بإمام»[٢].

الحقيقة الرابعة: أن ما يظهر على أيديهم من الكرامات والمعاجز ونحوها مما يتوافق مع البديهة والبرهان العقلي وإن جهلنا بعض أسراره، أو لم نعثر على تفسير له، فما أكثر الحقائق التي يجهلها البشر، وربما ستتطور العلوم والمعارف ويجد لها بعض التفسير العلمي بما يعد الإيمان بها من الضرورات، كما أن العلوم الحديثة اليوم قربت الكثير من الأمور التي كانت مستبعدة في الأزمنة السابقة، وصيرتها من الواضحات التي لا تحتاج إلى مزيد بيان أو إقامة برهان، كالحاسوب الذي ينجز أعمالاً كثيرة مذهلة في وقت قصير، وأجهزة الهاتف النقال الذي يسهل التواصل مع المناطق النائية من العالم بمكالمة أو رسالة في ثوان قليلة، فنرى أن الرسالة عبر الهاتف المحمول تصل إلى أقاصي العالم في ثوان دون خلل أو اختلال أو حذف أو تغيير أو اختلاط، وتبلغ الشخص المعني من دون خلط أو اشتباه، ومثل ذلك يقال في البث الفضائي، فالتطور العلمي يقرب الكثير من الحقائق التي أودعها الله سبحانه في هذا الوجود، ويصيرها واضحة جلية وإن جهلها الناس في برهة.

الحقيقة الخامسة: أن صدور هذه الآيات الكثيرة والمتنوعة من حيث جوهرها وشكلها وأهدافها تدلنا على عموم قدرتهم عليهم السلام على الأشياء الممكنة دون استثناء، وهذا ما يتناسب مع سعة علمهم وعلو رتبتهم وعموم حجيتهم على الخلق.

---

١ - انظر دلائل الإمامة: ص١٨٧.

٢ - الأنوار النعمانية: ج١، ص٣٣.

الحقيقة السادسة: أن العقل يدرك حقانية الوقائع المذكورة وصحتها بأحد طرق ثلاثة:

الأول: طريق الارتباط بالله سبحانه القادر على كل شيء، فبما أن أفعال الأنبياء والأئمةعليهم السلام هي أفعال الله، وقدرتهم هي قدرته لا يبقى أي مجال للإنكار أو الشك في صحتها؛ لأنه سبحانه إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون.

الثاني: طريق التسخير الإلهي، فإن الله سبحانه إذا أمر الأشياء بأن تستجيب لدعوة نبي وتخضع لإرادته فإنها تستجيب لأمره عز وجل لا محالة. قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾[1] وقال سبحانه في سليمان: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[2] بل الله سبحانه الذي سخر للبشر عامة الكثير من مخلوقاته - إذ سخر الشمس والقمر، وسخر الأرض والبحار، وسخر الحيوانات بل سخر كل شيء؛ إذ قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[3] وذلك لأجل أن يتنعم الإنسان في الحياة، ويعيش في الأرض ويعمرها بحرية وإرادة - يمكن أن يسخر لأنبيائه وأوليائه ما هو أكثر من ذلك إكراماً لهم، وإعظاماً لمقامهم، وتعزيزاً لمكانتهم في الخلق.

الثالث: طريق العلم، فإن كل الحوادث المذكورة لا تحدث من غير أسباب؛ لأن الله سبحانه أودع قانون السببية في كل شيء؛ إذ أبى أن تجري الأمور إلاّ

---

١ - سورة الأنبياء: الآية ٧٩.

٢ - سورة ص: الآية ٣٦.

٣ - سورة لقمان: الآية ٢٠.

بأسباب[١]، إلّا أننا تارة نعرف الأسباب وتارة نجهلها، وقد مر عليك أن الأئمة عليهم السلام يحيطون علماً بالأشياء إحاطة جبلية أو لدنية أو توسيطية، وبهذه الإحاطة يعرفون الأسباب والمسببات، وفي ضوئها يتصرفون، وحيث إن بعض ضعاف الإيمان يجهلونها ربما ينكرون ذلك مع أن العقل السليم يدعو إلى الإيمان بها والإذعان لحقيقتها، ويمكن أن نوضح ذلك بمثال الطبيب، فإن الطبيب الحاذق حينما يعالج المرض المستعصي يسلك سبيل الأسباب والعلل بعد أن يعرفها ويتوصل إليها، فتصرفه في المريض والمرض نوع من التصرف التكويني، وقدرته على التصرف ناشئة من علمه بأسباب المرض وطرق معالجته، ولذا لا يصح للجاهل بالأسباب أن ينكرها أو يشك فيها؛ لأن قصور الجاهل لا يمكن أن ينفي الحقائق أو يزيفها.

والحاصل: أن كل ما يصدر عن الأئمة عليهم السلام من حوادث غريبة هي في جوهرها ليست بغريبة؛ لأنها متطابقة مع قواعد العلم، ولذا تعد عند العالمين أو المؤمنين بقدرة الأئمة عليهم السلام عليها أموراً طبيعية، فلا غرابة في حدوثها، بل الغرابة في إنكارها؛ لأن إنكارها من قبيل إنكار المكفوف للشمس أو طلوع النهار، ولذا قال محمد بن أبي عمير حين حدث بخبر أبي بصير الذي مسح الإمام على عينيه فأبصر بهما: (أشهد أن هذا حق كما أن النهار حق)[٢] فإنكار مثل هذه الحقائق الإلهية تنم عن ضعف في الإيمان، ومكابرة على العلم، ومن هنا حذروا منه وقالوا: «الويل لمن أنكر فضلنا وخصوصيتنا وما أعطانا الله ربنا؛

---

١ - انظر الكافي: ج١، ص٢٣، ح٢.

٢ - انظر بصائر الدرجات: ص٢٨٩، ح١.

لأن من أنكر شيئاً مما أعطانا الله فقد أنكر قدرة الله عز وجل ومشيئته فينا»[1].

وأما الصنف الثاني: وهي الروايات الدالة على عموم القدرة فنكتفي منها بنماذج أيضاً:

منها: قول أمير المؤمنين عليه السلام في وصف الإمام عليه السلام وقدرته. قال: «فهو الصدق والعدل ... ويطلع على الغيب، ويعطى التصرف على الإطلاق»[2] والرواية صريحة في أن قدرة الإمام ليست ناشئة من ذاته، بل من عطاء الله سبحانه وقدرته.

ومنها: رواية ابن سنان قال: كنت عند أبي جعفر الثاني عليه السلام فأجريت اختلاف الشيعة ـ أي في مسألة قدرة الإمام وعلمه ـ فقال: «يا محمد! إن الله تبارك وتعالى لم يزل متفرداً بوحدانيته ثم خلق محمداً وعلياً وفاطمة، فمكثوا ألف دهر، ثم خلق جميع الأشياء فأشهدهم خلقها، وأجرى طاعتهم عليها، وفوض أمورها إليهم، فهم يحلون ما يشاؤون، ويحرمون ما يشاؤون، ولن يشاؤوا إلاّ أن يشاء الله تبارك وتعالى» ثم قال: «يا محمد! هذه الديانة التي من تقدمها مرق، ومن تخلف عنها محق، ومن لزمها لحق. خذها إليك يا محمد»[3].

وفضلاً عن دلالتها العامة على نفوذ قدرة الإمام عليه السلام فإنها تدل على ميزان الاعتقاد الصحيح بالإمامة الذي يشمل جوهر الاعتقاد الصحيح بالتوحيد

---

١ - انظر بحار الأنوار: ج٢٦، ص٦- ٧، ح١.

٢ - مشارق أنوار اليقين: ص١١٥؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص١٦٩، ح٣٨.

٣ - الكافي: ج١، ص٤٤١، ح٥؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص ٣٤٠، ح٢٤.

وبسائر أصول الدين؛ إذ صنفت الناس في عقيدتهم بالإمام على ثلاثة أصناف:

الأول: مارق، وهو الذي يفرط في الاعتقاد، ويتعدى الحدود، فيضع الإمام في غير موضعه، وذلك بأن يضعه بمنزلة الرب، فينسب له الأفعال ونفوذ القدرة بالاستقلال عن قدرة الله سبحانه، ولا شك أن هذا مارق، مأخوذ من المروق وهو تجاوز الحد وتعديه، وقد أطلق هذا اللفظ على الضالين؛ لخروجهم عن الدين[1] باعتقاداتهم الباطلة.

والثاني: ما حق، وهو الذي ينقص اعتقاده ويخفيه، فيتخلف في عقيدته، ويضع الإمام عليه السلام دون مرتبته التي جعله الله سبحانه فيها، ويساويه بغيره من الناس، مأخوذ من المحق وهو النقصان وذهاب البركة[2]، وقد وصف ناقص الإيمان بالماحق؛ لأنه يهلك ويزول أثره، وهذا ما تؤكده وقائع الأحداث وحقائق التاريخ؛ إذ كل من عادى الأئمة عليهم السلام وأنقص من شأنهم زال، ولم يبق له عين ولا أثر سوى ما يذم منه ويقبح، ويدعى عليه بالهلاك والثبور.

والثالث: لاحق، وهو الذي يلزم الصواب في عقيدته، فيضع الإمام عليه السلام في موضعه الذي أراده الله سبحانه له، فلا يزيد عليه أو ينقص منه، ولذا وصفه باللاحق، أي الذي يدرك ما يريد ويصيبه[3]، وهذه العقيدة الحقة التي ينبغي

---

١ – انظر لسان العرب: ج١٠، ص٣٤١، (مرق)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٢٣٥، (مرق).

٢ – انظر معجم مقاييس اللغة: ص٩٤٠، (محق)؛ لسان العرب: ج١٠، ص٣٣٨، (محق)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٢٣٤، (محق).

٣ – انظر معجم مقاييس اللغة: ص٩١٥، (لحق)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٣٧، (لحق)؛ لسان العرب: ج١٠، ص٣٢٧، (لحق).

أن يكون عليها المؤمن، ويتعبد بها الله سبحانه، فيكون على الصراط المستقيم، ولذا قال عليه السلام: «هذه الديانه» أي الصحيحة، وأمر بأخذها والتمسك بها.

وخلاصتها: أن يعتقد بأن الله سبحانه خلق محمداً وآل محمد، وجعلهم حججه وموضع سره وإرادته، وأشهدهم خلق جميع الأشياء، وسخرها لطاعتهم، وفوض أمرها إليهم في شؤونهم التكوينية والتشريعية، فهم يتصرفون في الأشياء بما أراد الله لهم ذلك، كما أنهم يحللون الأحكام ويحرمونها بما أراد الله سبحانه منهم. فكل شيء بإذنه وإرادته لا من أنفسهم.

وقد فصل الإمام الجواد عليه السلام هذه الحقيقة في رواية أخرى مقاربة لهذه الرواية بالمضمون. ورد فيها: «وفوض أمر الأشياء إليهم في الحكم والتصرف والإرشاد والأمر والنهي في الخلق؛ لأنهم الولاة، فلهم الأمر والولاية والهداية، فهم أبوابه ونوابه وحجابه، يحللون ما شاء، ويحرمون ما شاء، ولا يفعلون إلاّ ما شاء، عباد مكرمون لا يستبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون» إلى أن يقول: «خذها يا محمد فإنها من مخزون العلم ومكنونه»[1].

ومنها: موثقة محمد بن عبد الجبار عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن الله خلق محمداً عبداً فأدبه حتى إذا بلغ أربعين سنة أوحى إليه، وفوض إليه الأشياء، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[2]»[3].

وفي رواية أخرى عن الصادق عليه السلام قال: «إن الله فوض إلى محمد نبيه فقال:

١ - بحار الأنوار: ج٢٥، ص٣٣٩، ح٢١.
٢ - سورة الحشر: الآية ٧.
٣ - بصائر الدرجات: ص٣٩٧، ح١.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾» فقال رجل: إنما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مفوضاً إليه في الزرع والضرع، فلوى جعفر الصادق عليه السلام عنه عنقه مغضباً فقال عليه السلام: «في كل شيء والله في كل شيء»[1].

وقد دلت الروايتان على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان مفوضاً إليه أمر كل شيء، فيتصرف فيه كما يشاء؛ لأن مشيئته هي مشيئة الله، كما تشير الرواية الثانية إلى أن هذه العقيدة كانت معروفة بين الناس، وتعد من المسلمات، كما يعرف من قول الرجل بأن النبي كان مفوضاً إليه أمر الزرع والضرع.

والروايات الواردة في باب التفويض وسعته كثيرة جداً[2] بما تجاوز حد التواتر، وكلها تفيد معنى التفويض في حدود ما أذن الله سبحانه لهم لا غير.

ومنها: ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل جاء فيه: «الإمام كلمة الله وحجة الله ووجه الله ونور الله وحجاب الله وآية الله. يختاره الله ويجعل فيه ما يشاء، ويوجب له بذلك الطاعة والولاية على جميع خلقه، فهو وليه في سماواته وأرضه ... فهو يفعل ما يشاء، وإذا شاء الله شاء ... خلقهم الله من نور عظمته، وولاهم أمر مملكته، فهم سر الله المخزون، وأولياؤه المقربون، وأمره بين الكاف والنون، إلى الله يدعون، وعنه يقولون، وبأمره يعملون ... مبدأ الوجود وغايته، وقدرة الرب ومشيئته، وأم الكتاب وخاتمته...» إلى آخر الرواية[3]، ومضمونها يؤكد عدة حقائق:

١ - بصائر الدرجات: ص٤٠٠، ح٩؛ بحار الأنوار: ج١٨، ص٩، ح٦١، فوسع الإمام عليه السلام المعنى وقال: بل فوض إليه كل شيء.

٢ - بصائر الدرجات: ص٣٩٨، باب التفويض إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وآله.

٣ - بحار الأنوار: ج٢٥، ص١٦٩ - ١٧٤، ح٣٨.

الحقيقة الأولى: أن السر الذي جعل الأئمةعليهم السلام بهذه المكانة والقدرة هو أن الإمامعليه السلام تتجسد فيه كمالات الخالق تبارك وتعالى؛ إذ اختاره الله سبحانه ليكون نوره وحجته وكلمته، فكل ما فيه هو مظهر من مظاهر الكمال الإلهي، ولا شك أن هذه المنزلة توجب له الطاعة والولاية على الأشياء، كما أن الإيمان بهذه المنزلة هي جوهر الإيمان وروح الولاية لهمعليهم السلام، وإليه يشير قول الباقرعليه السلام: «اختارنا الله من نور ذاته، وفوض إلينا أمر عباده، فنحن نفعل بإذنه ما نشاء ... ونحن لا نشاء إلاّ ما شاء الله، وإذا أردنا أراد الله، فمن أنكر من ذلك شيئاً ورده فقد رد على الله»[1].

ويمكن أن نقرب هذه الحقيقة إلى الذهن بالقول:

إن كمالات الله سبحانه ناشئة من حقيقته سبحانه، وحيث إن حقيقته عز وجل لا محدودة مطلقاً كانت كمالاته كذلك، ولذا ليس لها حد، وإنما تتجلى بحدود الموجودات التي تعكس جمال الله وكماله على قدر استعدادها وقابلياتها، ومن المستحيل أن يكون هناك مخلوق يمكنه أن يعكس كمالات الخالق بكنهها وحقيقتها؛ لأن المخلوق مهما بلغ من السمو والعظمة يبقى محدوداً، والمحدود لا يعقل أن يحيط باللامحدود، أو يمثله على ما هو عليه من السمات والخصوصيات، ومهما نظرنا إلى كمالات المخلوق بما فيه الملائكة والأنبياء فإنه يبقى بمقدار المخلوق نفسه لا بمقدار شأن الخالق. قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[2] ولو سأل سائل وقال لماذا لم يقدروه حق قدره؟ كان الجواب لأن تقديره على ما هو عليه من الشأن والكمال يتوقف على

١ - الهداية الكبرى: ص٢٣٠.

٢ - سورة الأنعام: الآية ٩١.

أمرين هما: الإحاطة بالخالق، والمعرفة به حق معرفته، ولا يعقل أن يوجد مخلوق بهذا المستوى من السعة والمعرفة.

ومن هنا نصّب الله سبحانه لنفسه آيات وعلامات تدل على صفاته وكمالاته، ولولا هذه الآيات لم يعرف الله، ولو لم يعرف لم يعبد عز وجل؛ إذ لا تعقل العبادة للمجهول، وعلى هذا يتعين على العباد أن يبحثوا عن الآيات التامة التي تعكس صفات الخالق وكمالاته ليتعرفوا عليها، ومن خلالها يتعرفون على الله ثم يعبدونه.

ولا شك أن أكبر آية وأصفى نفس وأزكى قلب يجدر أن يعكس صفات الخالق وكمالاته هم آل محمد عليهم السلام؛ لأنهم أشرف من خلق الله وأكمل وأطهر، وهذا يفسر معنى قولهم عليهم السلام: «لولانا ما عرف الله»[1] و: «لولانا ما عبد الله»[2] وقولهم: «أن معرفة الله هي معرفة الإمام»[3] ونحوها من كلمات نورانية كثيرة تشير إلى هذه الحقيقة.

ومن الواضح أن الشخص الذي تتجلى فيه كمالات الخالق وآثاره يكون عين الله ويده وعلمه وقدرته وإرادته، وبه تقوم السماوات والأرض، ويكون مبدأ الوجود وغايته، إلى غير ذلك من الصفات والكمالات، وأن الإذعان لهذه الحقيقة من دلائل التصديق بالله سبحانه، والرد عليها أو الشك فيها مستلزم للرد على الله سبحانه.

---

١ - بصائر الدرجات: ص٨١، ح٣.
٢ - تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٣٤٠، ح١٢.
٣ - بحار الأنوار: ج٢٣، ص٩٣، أقول.

الحقيقة الثانية: أن الأئمةعليهم السلام يدعون إلى الله لا إلى أنفسهم، ويعملون بأمر الله لا بأمرهم مستقلاً عن أمر الله سبحانه، فكل ما لديهم هو من الله، وكل أقوالهم وأفعالهم هي مسخرة في طاعة الله ورضاه؛ لأنهم عباده المقربون وأولياءه المكرمون، فليس للإمام حق أو قدرة أو حول أو طول إلاّ من الله سبحانه، وهو مسخر إلى طاعة الله عز وجل وخلافته بين عباده.

الحقيقة الثالثة: أن الأئمةعليهم السلام هم مبدأ الوجود؛ لأنهم وسائط الفيض الإلهي، وإليهم فوض أمر الخلق والتكوين، فيعملون في الأشياء ما أمرهم الله أن يفعلوه، وهم غاية الوجود؛ إذ لولاهم لم يخلق الله الأشياء، ولم يوجد أرضاً ولا سماء ولا غيرهما؛ بداهة أن الأشرف في الرتبة والوجود هو الأليق في أن يكون سبباً لإيجاد غير الاشرف، وإلاّ لزمت العبثية في الخلق، فتأمل.

ومنها: ما دل على أنهمعليهم السلام يفعلون الأشياء بواسطة اسم الله الأعظم الذي علّمهم الله سبحانه به.

فعن أمير المؤمنينعليه السلام في حديث طويل جاء فيه: «أنا أحيي وأميت بإذن ربي ... والأئمة من أولاديعليهم السلام ... لقد أعطانا الله ربنا ما هو أجل وأعظم وأعلى وأكبر من هذا كله ... لقد أعطانا ربنا عز وجل علمنا للاسم الأعظم الذي لو شئنا خرقت السماوات والأرض والجنة والنار، ونعرج به إلى السماء، ونهبط به الأرض، ونغرب ونشرق، وننتهي به إلى العرش، فنجلس عليه بين يدي الله عز وجل، ويطيعنا كل شيء حتى السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والبحار والجنة والنار، أعطانا

الله ذلك كله بالاسم الأعظم الذي علمنا وخصنا به... ومع هذا كله نأكل ونشرب ونمشي في الأسواق، ونعمل هذه الأشياء بأمر ربنا، ونحن عباد الله المكرمون الذين لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون، وجعلنا معصومين مطهرين، وفضلنا على كثير من عباده المؤمنين»[١].

والروايات الواردة بهذا المضمون كثيرة جداً[٢]. هذا فضلًا عن الروايات الكثيرة التي نصت على أنهم عليهم السلام اسم الله الأعظم وآيته الكبرى وقد مر عليك بعضها[٣]، وقد كشف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن نفوذ الاسم الأعظم في الأشياء، وأنه منشأ حدوث الأشياء وآثارها؛ إذ قال في دعائه المبارك: «اللهم إني أسألك باسمك الذي تعلم به ما في السماوات وما في الأرض، وباسمك القادر به على كل شيء» و: «وأسألك باسمك الذي تقول به للشيء كن فيكون بقدرتك يا الله.. وأسألك باسمك الذي هو على كل شيء وفوق كل شيء وقبل كل شيء، وأسألك باسمك الذي تنزل به قطر السماء، وتتفتح به السماوات، وخلقت به الشمس والقمر والنجوم المسخرات بأمرك، وأسألك باسمك الذي خلقت وأحييت جميع خلقك بذلك الاسم»[٤].

وفي دعاء آخر: «اللهم وأسألك باسمك الأعظم الذي به تقوم السماء

---

١ - انظر بحار الأنوار: ج٢٦، ص٦ - ٧، ح١.

٢ - بصائر الدرجات: ص٢٢٨ باب أنهم أعطوا الاسم الأعظم وما بعدها؛ انظر بحار الأنوار: ج٥٤، ص٣٣٦، ح٢٦؛ مشارق أنوار اليقين: ص٤٣.

٣ - انظر الكافي: ج١، ص١٤٤، ح٤؛ تفسير العياشي: ج٢، ص٤٢، ح١١٩؛ انظر بحار الأنوار: ج٩١، ص٦، ح٧؛ بحار الأنوار: ج٢٧، ص٣٨، ح٥.

٤ - بحار الأنوار: ج٩٠، ص٢٥٤ وما بعدها، (بتصرف في تسلسل الفقرات).

والأرض، وتحيي الموتى، وترزق الأحياء»[١] إلى غير ذلك من الأدعية الكثيرة المفصلة لمقامات هذا الاسم المبارك[٢].

وقد تواترت الأخبار في لفظها ومضمونها على صدور الكثير من الغرائب عنهم بواسطة هذا الاسم، أو بواسطة بركات أسمائهم عليهم السلام.

منها: ما ورد أن أمير المؤمنين عليه السلام مر في طريق فسايره خيبري - أي يهودي من خيبر- فمر بواد قد سال، فركب الخيبري مرطه وعبر على الماء، ثم نادى أمير المؤمنين عليه السلام: يا هذا! لو عرفت كما عرفت لجريت كما جريت، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «مكانك» ثم أومأ إلى الماء فجمد ومر عليه، فلما رأى الخيبري ذلك أكب على قدميه وقال: يا فتى! ما قلت حتى حولت الماء حجراً؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «فما قلت أنت حتى عبرت على الماء؟» فقال الخيبري: أنا دعوت الله باسمه الأعظم، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «وما هو؟» قال: سألته باسم وصي محمد، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا وصي محمد» فقال الخيبري: إنه الحق ثم أسلم[٣].

وغير ذلك مما هو معروف مشهور لا يكاد يخفى على المخالف فضلاً عن الموالف، وتدل هذه الطوائف من الأخبار وأمثالها على حقائق عديدة أخرى:

الحقيقة الأولى: أن الإيمان بقدرة الإمام التكوينية ونفوذ إرادته وتصرفه

---

١ - البلد الأمين: ص١٨؛ بحار الأنوار: ج٨٦، ص٧٥، ح١٠.

٢ - انظر مصباح المتهجد: ص٣٠١؛ الدروع الواقعية (لابن طاووس): ص٢٣٨؛ بحار الأنوار: ج٩٧، ص٢١٨.

٣ - مشارق أنوار اليقين: ص١٧٢- ١٧٣؛ وانظر الهداية الكبرى: ص٤٣٤.

في الأشياء ليس من نفسه، بل من ربه تبارك وتعالى، وإذنه سبحانه هو من ضرورات العقيدة الحقة.

وإذنه سبحانه لهم عليهم السلام يقع على ثلاثة أنحاء:

الأول: أنه سبحانه فوض إليهم الفعل والتأثير، ولازم التفويض تسخير الأشياء لهم، وجعلها تستجيب لأمرهم ونهيهم، فالإذن التفويضي يتضمن إكمال فاعلية الفاعل، وهي قوة إرادتهم ونفوذ قدرتهم من جهة، وإكمال قابلية القابل، وإذا تمت فاعلية الفاعل وقابلية القابل ينفذ تأثير الفاعل بلا شبهة، وهذا ما أشارت إلى مضمونه رواية ابن سنان عن أبي جعفر الثاني عليه السلام، ورواية محمد بن عبد الجبار عن أبي جعفر عليه السلام، ورواية الصادق عليه السلام أيضاً.

الثاني: أنه سبحانه قربهم وفضلهم فجعلهم مظهر قدرته ووعاء مشيئته وإرادته، ففعلهم هو فعل الله، وإرادتهم هي إرادة الله سبحانه، وإلى هذا المضمون أشارت رواية أمير المؤمنين عليه السلام، وقد مر عليك هذا المعنى كثيراً فلا نعيد.

الثالث: أنه سبحانه أعطاهم الاسم الأعظم الذي هو مظهر قدرة الله سبحانه، وعلمهم سره، وبه يفعلون ويتصرفون كما نصت عليه رواية أمير المؤمنين عليه السلام وأدعية المصطفى صلى الله عليه وآله.

والفرق بين هذه الثلاثة يظهر في كيفية القدرة وحدودها، فإن الولاية على الأشياء بمعنى مظهرية القدرة الإلهية لا تتوقف على واسطة في التأثير ولو بمثل الاسم الأعظم، كما لا تتوقف على تطويع الأشياء ثم التأثير بها، بل تكون إرادته عليه السلام هي إرادة الله، وقدرته قدرته سبحانه، والله سبحانه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف هذه

المرتبة الربانية: «خلقهم الله من نور عظمته، وولاّهم أمر مملكته، فهم سر الله المخزون وأولياؤه المقربون، وأمره بين الكاف والنون»[١].

هذا كله إن قلنا بأن الاسم الأعظم حقيقة أخرى غير حقائقهم وأسمائهم وإرادتهم، وإلاّ لم يبق فرق بين المعاني المذكورة.

وعلى هذا يظهر أن المعاني الثلاثة في جوهرها مراتب وجهات للقدرة وليست متغايرة، فتأمل.

الحقيقة الثانية: أن الاعتقاد بقدرة الإمام عليه السلام كان من المسائل المتداولة بين الناس في زمانهم عليهم السلام، وكان الناس يختلفون فيها بما فيهم شيعتهم، وذلك لأن الإيمان بها يتوقف على معرفة عميقة بالإمام وبمكانته في الكون والحياة، وحيث إن الناس يختلفون في مستوى المعرفة اختلفوا فيها أيضاً، ويبدو من تتبع الروايات والوقائع أن هناك قدراً مشتركاً كان يؤمن به جميع الناس الموالين وغير الموالين، وهو أن للأئمة عليهم السلام قدرة إلهية على التصرف في الأشياء، وقد مر عليك أن هذا كان مما لا ينكره أحد حتى من الذين أنكروا إمامتهم، إلاّ أن الخلاف الواقع بين الناس كان في حدود هذه القدرة، فالذين يعرفون حقيقة الإمام ومكانته ومقامه عند الله يسلمون لعموم قدرته بالوجوه التي مرت، والذين لم يستوعبوا هذه الحقيقة لقصور نظرهم أو ضعف يقينهم أو تزلزل إيمانهم فكانوا لا يدركون هذا المستوى من القدرة والتأثير، فلذا وصفوا بالزاهقين. نعم هناك جماعة أخرى لقصور عقولهم أو لإغراء شيطانهم وقعوا فيما هو ابعد من ذلك، فوضعوا الأئمة عليهم السلام في مراتب

١ - بحار الأنوار: ج ٢٥، ص١٧٣، ح٣٨.

أعلى مما وضعهم الله فيها، وهؤلاء تبرأ منهم الأئمة عليهم السلام، وخطؤوا نظرهم، وأسموهم بالمارقين كما مر عليك، والذي يهمنا من كل ذلك هو الوصول إلى أن امتلاك الإمام عليه السلام قدرة تكوينية وسلطة على التصرف في الأشياء بإذن الله سبحانه يعد من الأمور المسلمة التي لا يختلف عليها اثنان من الناس، وكان يقر بثبوتها لهم حتى اليهود والنصارى، بل والمشركون، واختلافهم في حدود قدرته لا يضر بأصل وجودها، ومن هنا اعتبر الإيمان بها والإذعان إليها من علائم الإيمان الصحيح والديانة الحقة التي من لزمها يدرك الحق.

الحقيقة الثالثة: أن الأئمة عليهم السلام نالوا كل هذه المكانة والعظمة بسبب قربهم لله سبحانه، وإطاعتهم لأوامره، وصبرهم على ما قدره الله سبحانه لهم من الابتلاءات والمصاعب، كما أنهم مهما بلغوا من القدرة والعلم بإذن الله فهم يبقون بشراً يأكلون ويشربون، وتعترضهم حالات البشر من الجوع والعطش والتعب والنوم والرضا والغضب ونحو ذلك، فهم من حيث أحوالهم وظاهرهم بشر لهم أشكال البشر وحالاته وحاجاته، إلاّ أنهم من حيث الأفعال والصفات والمكانة المعنوية إلهيون ربانيون عصمهم الله من الزلل، وطهرهم من الدنس، وفوض إليهم أمر خلقه ودينه، وجعلهم حجة على عباده.

وبهذا يظهر أن الإمام عليه السلام له جانبان بشري وإلهي، ففي الجانب البشري يعيش بين الناس، ويماثلهم في الحاجات والأحوال، وفي الجانب الإلهي يسمو ويتألق في الخصوصيات الإلهية، ولذا يكون حجة عليهم، وهو بكل ما له من كمالات ومزايا وخصوصيات عبد لله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وبهذا يبطل الغلو والتشريك والتعطيل ونحوها من آراء باطلة.

الحقيقة الرابعة: أن بعض الروايات فسرت قدرة الإمام عليه السلام بالتفويض، ونصت عليه كما في رواية محمد بن عبد الجبار عن أبي جعفر عليه السلام [١]، والرواية الثانية عن الصادق[٢] عليه السلام، كما أكدت على أن التفويض الإلهي بدأ برسول الله صلى الله عليه وآله؛ إذ فوض الله سبحانه إليه كل شيء.

وبها يتضح مدلول الروايات الأخرى التي نفت عنهم التفويض في القدرة والولاية التكوينية ويعرف المراد منها، كرواية الرضا عليه السلام: «أن الله فوض إلى نبيه أمر دينه ... فأما الخلق والرزق فلا» ثم قال: «إن الله عز وجل خالق كل شيء وهو يقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾[٣]»[٤].

ورواية الحجة القائم عجل الله تعالى فرجه في جواب من سأله عن المفوضة؛ إذ قال عجل الله تعالى فرجه: «كذبوا، بل قلوبنا أوعية لمشيئة الله، فإذا شاء شئنا»[٥].

ورواية الصادق عليه السلام عندما سأله زرارة عن التفويض الذي يقول به بعض أصحاب عبد الله بن سبأ[٦] فقال عليه السلام: «ما التفويض؟» قلت - أي زرارة - إنهم يقولون : إن الله خلق محمداً وعلياً ففوض إليهما، فخلقا ورزقا

١ - بصائر الدرجات: ص٣٩٧، ح١.

٢ - بصائر الدرجات: ص ٤٠٠، ح٩.

٣ - سورة الروم: الآية ٤٠.

٤ - بحار الأنوار: ج٢٥، ص٣٢٨، ح١.

٥ - بحار الأنوار: ج٢٥، ص ٣٣٧، ح١٦.

٦ - عبد الله بن سبأ: غال ملعون كان يزعم أن علياً عليه السلام إله، وأنه نبي له، وقد طرده أمير المؤمنين عليه السلام، وحرقه بالنار لزعمه الباطل؛ انظر خلاصة الأقوال: ص٢٣٧، الباب الثاني، (١٩).

وأماتا وأحييا، فقال عليه السلام: «كذب عدو الله إذا انصرفت إليه فاتل عليه هذه الآية: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾[١]»[٢] ونحوها من الأخبار الكثيرة التي تنفي التفويض إليهم، وتبرأ من القول به.

والجمع الدلالي بين الإثبات والنفي يستدعي حمل الروايات التي تثبت التفويض على أن فعلهم عليهم السلام يقع بأمر الله وإذنه، أو أنهم مظاهر قدرة الله ووعاء مشيئته، كما عرفته من رواية القائم عجل الله تعالى فرجه، وحمل الروايات النافية على صورة الاستقلال في الفعل والتصرف والاستغناء عن قدرة الله وإرادته، ولا شك أن الاستغناء عن الله في الفعل بل في كل شيء فاسد وموجب للشرك؛ لاستلزامه إثبات الشريك للخالق في الفعل والتأثير، وهذا ما يشهد له استدلال الإمام الصادق والإمام الرضا عليهما السلام في رد التفويض بالآية المباركة الصريحة في نفي الشرك.

وهذا لا يستقيم إلاّ إذا كان المراد منه التصرف المستقل عن قدرة الله وإرادته، وقد مرت عليك الكثير من الشواهد لهذا الجمع الدلالي.

الحقيقة الخامسة: أن الإمام عليه السلام كما له ولاية على التكوين له ولاية على التشريع أيضاً، والولاية على التشريع لها مستويان:

الأول: القدرة والسلطنة على الغير في نفسه وماله وما يتعلق به، فيكون الإمام عليه السلام أولى بالمأموم من نفسه وشؤونه.

الثاني: السلطة على الشريعة والأحكام وتتمثل في أبعاد ثلاثة هي:

---

١ - سورة الرعد: الآية ١٦.

٢ - بحار الأنوار: ج٢٥، ص٣٤٣، ح٢٥.

١ـ السلطة على تشريع الأحكام وتقنينها.

٢ـ السلطة في بيان مجملاتها، وتقييد مطلقاتها، وتخصيص عموماتها، أو نسخ منسوخاتها وسائر ما يتعلق بتفاصيلها.

٣ـ السلطة في تنفيذها وتطبيقها.

سواء توقف ذلك على إقامة حكم ودولة نظير تطبيق أحكام الجهاد ونصب الحكومات والأنظمة القضائية والاقتصادية ونحوهما، أم لا، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهداية الخلق إلى أحكام الله وشريعته.

فإن الوجوه التي تثبت الولاية التكوينية للإمام عليه السلام تثبت الولاية التشريعية بالأولوية العقلية فضلاً عن النصوص الصريحة في ذلك من دون مانع عقلي أو شرعي،فالولاية التشريعية تعني أن الله سبحانه يعطي الإمام صلاحية الأحكام تشريعاً وتبليغاً وتطبيقاً كما أعطاه ولاية التصرف في الأشياء إيجاداً وإعداماً وتغييراً وتبديلاً، والآيات المباركة كما نصت على ثبوت الولاية التكوينية للنبي والإمام عليهما السلام نصت على ثبوت الولاية التشريعية لهما.

فعلى المستوى الأول من الولاية يدل قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾[1] وفعل التفضيل (أولى) يتضمن دلالتين:

الأولى: أن للمؤمنين ولاية على أنفسهم وسلطنة على شؤونهم.

الثانية: أن ولاية النبي وسلطنته على المؤمنين مقدمة على ولايتهم على أنفسهم عند المزاحمة، ولازم ذلك أن يكون حكمه نافذاً عليهم، فلا يملكون

١ – سورة الأحزاب: الآية ٦.

في قبال حكمه وتصرفه سلطنة أو اختياراً غير التسليم والطاعة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[١] وهي ظاهرة بل صريحة في القضاء التشريعي، وإطلاقها يدل على وجوب التسليم لأمر الله والرسول، فلا يكون لمؤمن في قباله رأي أو حكم كما لا رأي ولا حكم له في قبال حكم الله سبحانه وقضائه، وإذا كان له رأي فيكون بعد رأي الرسول وحكمه، ولازمه وجوب اختيار ما اختاره الرسول والانقياد إليه، وهو معنى الولاية.

وقد تواترت الأخبار على نقل ما يدل على تصرفات النبي المصطفى صلى الله عليه وآله ونفوذ حكمه على الناس[٢]، كما تواترت على أن ما ثبت لرسول الله صلى الله عليه وآله من الولاية على الغير هو ثابت لعلي أمير المؤمنين والأئمة من ولده[٣] عليهم السلام.

وهي في مجملها دالة على أولوية الأئمة عليهم السلام من غيرهم في المصالح العامة والخاصة كالحكم والسلطة والشؤون الاجتماعية والفردية[٤]. وقد ورد عن الصادق عليه السلام: «أن علياً عليه السلام أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأولى الناس

١ - سورة الأحزاب: الآية٣٦.
٢ - مجمع البيان: ج٨، ص١٢١، وما بعدها؛ روح المعاني: ج٢١، ص٢٠٢.
٣ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص١٧٥ - ١٧٦؛ كمال الدين: ص٤٥٩، ح٢١؛ علل الشرائع: ج١، ص١٢٧، ح٢؛ الكافي: ج١، ص٢٨٨، ح٢؛ ص٥٢٩، ح٥.
٤ - انظر تفسير كنز الدقائق: ج١٠، ص٣٢٤- ٣٢٥؛ تفسير الميزان: ج١٦، ص٢٨٢؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٣٠٧؛ الكشاف: ج٣، ص٥٤٩؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٧، ص٤٣٤- ٤٣٥، تفسير الآية المباركة.

بالناس»[١] ومثله ورد عن علي أمير المؤمنين عليه السلام كما في نهج البلاغة[٢]، وهو مما يقضي به العقل أيضاً؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليه السلام معصومان، بل هما مظهران لعلم الله ومشيئته، فلا يخالفانه في أمر أو نهي، ولا يتصرفان إلاّ بموازين الحكمة الإلهية، كما أن هذا ما يقتضيه مقام حجيتهما على الناس؛ إذ لا معنى لحجية قول النبي والإمام عليهما السلام، أو حجية فعله لو لم يكن أولى بالطاعة والانقياد إليه.

وعلى المستوى الثاني يدل صنفان من الآيات، الصنف الأول نص على أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يشرّع ويحل ويحرم نظير قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾[٤] ودلالتها على المقصود جلية؛ لظهور النسبة في المباشرة لا الطولية أو النيابة، ويعضده العطف الذي يقتضي المغايرة فضلاً عن نصوص الأخبار[٥]، والصنف الثاني نص على وجوب اتباع النبي بكل ما يأتي به للأمة؛ لأن ما يأتي به وحي ناطق، كما أن القرآن وحي نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[٧] وقوله تعالى:

١ - تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٢٤١، ح٢٤.
٢ - نهج البلاغة: ج١، ص٢٣١، رقم ١١٨.
٣ - سورة الأعراف: الآية ١٥٧.
٤ - سورة التوبة: الآية ٢٩.
٥ - انظر الكافي: ج١، ص٣٧٦، باب ١٠٣، ح٣، ح٧.
٦ - سورة الحشر: الآية ٧.
٧ - سورة النساء: الآية ٨٠.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[١].

والآية الأولى تدل على أن كل ما جاء به النبي ﷺ من الأحكام والقوانين والأنظمة المتعلقة بدين الناس ودنياهم يجب الأخذ به، وكل ما نهى الناس عنه من ذلك يجب اجتنابه.

والآية الثانية تدل على أن إطاعة الرسول ليست من الأمور الولائية أو السلطوية الخاصة كالتي تثبت لإطاعة الحكام والقضاة العدول ونحوها، بل إطاعته هي إطاعة الله الذي له حق الطاعة في كل شيء، والآية الثالثة تؤكد هذه الحقيقة، وتدل على أن قول النبي وفعله ليس قولاً بشرياً كسائر أقوال البشر ولا أفعاله كذلك، بل أقواله وأفعاله عبارة عن وحي معصوم ومسدد لا يقبل الخطأ والاشتباه، ومن كان هذا حقيقة قوله وفعله لابد وأن تكون ولايته في التشريع نافذة، وإطاعته فيها واجبة.

وهذا ما أكدته الروايات الكثيرة الواردة بهذا المضمون، كرواية علي أمير المؤمنين عليه السلام، ورواية ابن سنان عن الجواد عليه السلام، ورواية محمد بن عبد الجبار عن الباقر عليه السلام ونحوها، وقد مر عليك نصوصها.

وفي رواية فضيل عن الصادق عليه السلام قال: «أن الله أدب نبيه فأحسن أدبه، فلما تأدب فوض إليه، فحرم الله الخمر، وحرم رسول الله ﷺ كل مسكر، فأجاز الله ذلك له، وحرم الله مكة، وحرم رسوله ﷺ المدينة، فأجاز الله ذلك له، وفرض الله الفرائض من الصلب، وأطعم رسول الله الجد، فأجاز الله

١ – سورة النجم: الآية ٣– ٤.

ذلك له... ثم قال: يا فضيل... ومن يطع الرسول فقد أطاع الله»[١].

وفي رواية أخرى عن الباقر عليه السلام: «وضع رسول الله صلى الله عليه وآله دية العين ودية النفس ودية الأنف وحرم النبيذ وكل مسكر» فقال له رجل: فوضع هذا رسول الله صلى الله عليه وآله من غير أن يكون جاء فيه شيء - أي من القرآن - ؟ قال: «نعم ليعلم من يطع الرسول ومن يعصيه»[٢].

وفي رواية ثالثة عنه عليه السلام: «أن الله خلق محمداً عبداً فأدبه حتى إذا بلغ أربعين سنة أوحى إليه، وفوض إليه الأشياء فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[٣].

وفي رواية رابعة عن الصادق عليه السلام: «أن الله أدب نبيه على أدبه، فلما انتهى به إلى ما أراد قال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٤] ففوض إليه دينه»[٥].

وفي رواية خامسة عن الصادق عليه السلام: «لا والله ما فوض الله عز وجل إلى أحد من خلقه إلاّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وإلى الأئمة عليهم السلام، فقال في كتابه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[٦] وهي جارية في الأوصياء»[٧].

---

١ - الاختصاص: ٣١٠؛ بصائر الدرجات: ص٤٠١، ح١٢.

٢ - بصائر الدرجات: ص٣٨١، ح١٤.

٣ - بصائر الدرجات: ص٣٧٨، ح١، بحار الأنوار: ج٢٥، ص٣٣١، ح٦.

٤ - سورة القلم: الآية ٤.

٥ - بصائر الدرجات: ص٣٨٠، ح٩.

٦ - سورة النساء: الآية ١٠٥.

٧ - الاختصاص: ص٣٣١؛ بصائر الدرجات: ص٣٨٦، ح١٢.

وفي رواية أخرى عن الباقر عليه السلام قال: «الأئمة مفوض إليهم فما أحلوا فهو حلال، وما حرموا فهو حرام»[١] إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة جداً التي تفيد التواتر المعنوي، بل واللفظي في بعضها على أن الأئمة عليهم السلام مفوض إليهم أمر التشريع كما مفوض إليهم أمر التكوين، فلهم الولايتان التكوينية والتشريعية في الوجود، وهذا التفويض كله بإذن الله وأمره بما أنهم وعاء مشيئة الله ومظهر قدرته وإرادته، ومعه تنتفي كل المعاني الباطلة المتصورة للتفويض.

ويستفاد من الأخبار المعتبرة أيضاً أن هذه الحقيقة كانت معروفة ومشهورة لدى الجميع منذ زمان النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، وقد تحدث عنها النبي صلى الله عليه وآله وبين مضامينها للصحابة في مواطن عديدة، سوى أن بعضهم آمن بها وسلم لأمر الله سبحانه والرسول صلى الله عليه وآله، وخالف في ذلك جمع منهم حسداً وطمعاً في الدنيا.

ومن هذا ما ورد بطرق العامة عن حذيفة قال: كنت والله جالساً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وقد نزل بنا غدير خم، وقد غص المجلس بالمهاجرين والأنصار، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله على قدميه فقال: «يا أيها الناس! إن الله أمرني بأمر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾[٢] ثم نادى علي بن أبي طالب فأقامه عن يمينه، ثم قال: يا أيها الناس! ألم تعلموا أني أولى منكم بأنفسكم؟» قالوا: اللهم بلى. قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، وأخذل من خذله»، فقال حذيفة: فوالله لقد رأيت معاوية قام وتمطى وخرج مغضباً واضعاً يمينه

١ – الاختصاص: ص٣٣٠.
٢ – سورة المائدة: الآية ٦٧.

على عبد الله بن قيس الأشعري، ويساره على المغيرة بن شعبة، ثم قام يمشي متمطئاً وهو يقول: لا نصدق محمداً على مقالته، ولا نقر لعلي بولايته، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾[١] فهمّ به رسول الله صلى الله عليه وآله أن يرده فيقتله، فقال له جبرئيل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[٢] فسكت عنه[٣].

وورد هذا المضمون عن أهل البيت عليهم السلام أيضاً[٤].

وقد مرت عليك قضية النضر بن الحارث حينما اعترض على تنصيب علي عليه السلام للخلافة وغيرها من أحداث تكشف عن مدى تمرد جماعة من المسلمين على أمر الله ورسوله، فحاكوا الدسائس لإنزال علي وأولاده عليهم السلام عن مراتبهم التي رتبهم الله فيها، وساقوا المسلمين إلى ظلمات بعضها فوق بعض لازال العالم الإسلامي يعيش ويلاتها.

الثالث: الشواهد الوجدانية

قد يستصعب البعض معنى الولاية التكوينية للإمام عليه السلام ويقصر عن إدراك حقيقتها، وقد يطلب البعض بعض الشواهد القريبة إلى الذهن والوجدان ليطمئن قلبه بها، وواضح أن الاعتقاد بمقامات الإمام عليه السلام

١ - سورة القيامة: الآيتان ٣١-٣٣.
٢ - سورة القيامة: الآية ١٦.
٣ - شواهد التنزيل: ح٢، ص٣٩١، ح١٠٤١؛ وانظر شاهداً آخر في تفسير روح المعاني: ج٢٩، ٢٣٠، تفسير الآية ٣٥ من سورة القيامة.
٤ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص٣٩٧؛ المناقب (لابن شهر أشوب): ج٣، ص٣٨.

وبشؤونه الإلهية، كالاعتقاد بالله سبحانه وبصفاته وأفعاله مما يختلف بحسب مستويات الناس من حيث القابليات الذهنية والنفسية.

فالبعض قد يقصر عقله عن بلوغ الحقائق الغيبية فيحتاج إلى ما يرشده عبر الوسائط المادية القريبة، والبعض الآخر قد يقصر قلبه عن اليقين بهذه الحقائق وإن كان عقله قادراً على بلوغها بالدليل والبرهان العقلي، والقسم الثالث يقصر عن إدراك هذه الحقائق في عقله وقلبه معاً، فلابد من إظهار هذه الحقائق في وجدانه ليذعن لها ويسلم لها، وهذه الأسباب الثلاثة دعتنا إلى استعراض الشواهد الوجدانية بما لها من الدلالات العقلية والنقلية، لنقرّب بها البعيد ذهناً وقلباً إلى الحقيقة فيفهمها ويطمأن لها، ونرتقي بالشاك إلى اليقين، ونتم بها الحجة على المنكر فنقول:

إننا إذا راجعنا وجداننا ونظرنا في قدراتنا الذاتية كبشر عاديين نجد أننا نمتلك قدرات خاصة للتصرف في الأشياء، وهذه القدرات لم تنبع من ذاتنا، بل أودعها الله سبحانه فينا، وأعطانا الولاية في التصرف فيها، ليس هذا فحسب، بل إذا لاحظنا ما حولنا من قوانين وأنظمة تكوينية نجد أن الله سبحانه أعطى الكثير من الأشياء قدرة تكوينية للتصرف في غيرها، وحينما نحلل هذه القدرة في منشأها وأثرها نجد أنها نوعاً من التفويض الإلهي للقدرة، أو نوعاً من مظهرية القدرة الإلهية، وهذه الحقيقة الوجدانية توصلنا إلى حقيقة قدرة الإمام عليه السلام وإن كانت قدرته الإلهية عليه السلام نافذة في جميع الأشياء، أما قدراتنا محدودة.

ومن الواضح أن النتائج العلمية إذا شهد لها الوجدان كان من أقوى

الأدلة والبراهين عليها، ويغني عن الأدلة العقلية والنقلية عليه، وذلك لأن الشاهد الوجداني هو روح البرهان العقلي كما هو مرجع الدليل النقلي؛ إذ كل دليل ما لم يوصل الحقيقة إلى الوجدان ويدركها الوجدان ويذعن إليها لا يمكن أن يفيد نتيجة علمية جازمة، ويكون حجة على الإنسان؛ لأن كل ما بالعرض لابد وأن ينتهي إلى ما بالذات، ويمكن أن نمثل لهذه الحقائق بثلاثة أصناف من الشواهد:

الصنف الأول: الشواهد النفسية

أن كل إنسان حي هو فاعل بالقصد والإرادة، وفعله نابع من قدرته على التصرف في نفسه، فهو يمشي ويأكل وينام ويركض ويتكلم ويبصر الأشياء إلى غير ذلك من التصرفات الكثيرة التي يفعلها كل واحد منا. ترى كيف تمكن الإنسان من فعل كل هذا؛ وهل قدرته على فعل هذه الأفعال نابعة من ذاته أم من غيره؟

لا يشك أحد فينا أننا عاجزون عن فعل كل ذلك لولا قدرة الله سبحانه، فإنه سبحانه خلقنا أحياء قادرين فاعلين بإرادة واختيار، ولولا أن أعطانا الله سبحانه ذلك لكنا كمثل الحجر والجدار والجبل لا نحرك ساكناً، ولا نقدر على أي شيء، وإعطاء الله سبحانه لنا هذه القدرة له ثلاثة معان:

أحدها: أن يكون قد خلق القدرة في أجسامنا والإرادة في أنفسنا فنفعل ما نريد؛ لأنه سبحانه جعل هذه الخصوصية فينا.

ثانيها: أن يكون قد فوض القدرة إلينا، فنحن نتصرف بقدرة الله وإذنه، فتكون إرادتنا وقدرتنا واسطة بين فعل الله وفعلنا.

ثالثها: أن يكون قد جعل قدرتنا مظهراً لقدرته ووعاءً لإرادته، فقدرتنا قدرته، وإرادتنا إرادته، وفعلنا فعله، بمعنى أنه لا يمنع من وقوع ما نريده ونفعله لا بمعنى الاتحاد والعينية، وبه يندفع محذور نسبة القبح إليه؛ لملازمة القبح لأفعال البشر عادة، كما يندفع محذور الجبر؛ لأن إرادتنا معلولة للاختيار، وهو ذاتي للنفس الإنسانية، فالقول بأن فعلنا فعله يراد به النسبة الطولية أو السببية باعتبار أنه أعطى المقتضيات والأدوات ورفع الموانع، ولا يراد به الاتحاد والعينية فيكون كل منها عين الآخر لوضوح بطلانه.

وكيف كان، فإن هذه المعاني الثلاثة هي نوع من الولاية التكوينية لنا على أفعالنا وتصرفاتنا بإذن الله وأمره، وهذه الولاية لا تختص بنا، بل أعطاها الله سبحانه حتى للجمادات من أمثال النار والأرض والماء ونحوها في رتبة أضعف؛ إذ جعل النار حارقة والأرض جاذبة والماء مصدراً للحياة وهكذا، فمن أين لهذه الأشياء هذه القدرة؟

لا شك أنها من الله سبحانه؛ إذ جعل لكل شيء أثره وتأثيره بواحد من المعاني الثلاثة المتقدمة، فالنار تحرق الأشياء إما لأن الله سبحانه أودع فيها هذه القدرة، أو لأنها واسطة، أو لأنها مظهر لفعل الله وقدرته.

ونلاحظ هنا أن الإنسان والنار يشتركان في الفعل والتأثير، سوى أن الإنسان قدرته على فعل الأشياء أوسع من قدرة النار وفعلها، كما أنها أسمى؛ لأنه فاعل مختار والنار فاعل بالجبر.

الصنف الثاني: الشواهد المادية

لا يملك الإنسان سلطة تأثيرية على نفسه فقط ، بل له سلطة تأثيرية على

غيره أيضاً، فيفعل بها ما يشاء وكيفما يريد، وهذه تلحظ في مثل فعل النجّار والنحّات والبنّاء، وكل أصحاب الصناعات والحرف لهم ولاية وسلطنة على التصرف في الأشياء التي ترتبط بصناعتهم وتحويرها أو تبديلها أو تغييرها من حالة إلى أخرى، ولا شك أن هذا التأثير ناشئ من سببين هما: قدرة وإرادة في ذات الفاعل، وقابلية في ذات القابل للاستجابة إلى قدرة الفاعل.

فما هي حقيقة القدرة التي يمتلكها النجار فيبدل أعمدة الخشب الصلب إلى أسرّة وكراسي ودواليب ورفوف ونحوها؟ وما هي حقيقة القدرة التي يمتلكها النحّات فيبدل الطين والتراب إلى مجسّمات جميلة وزاهية؟ وما هي حقيقة القدرة عند البناء فيبدل الرمل والاسمنت والطابوق إلى جدران وبيوت وقصور ضخمة؟

إن هذه القدرة هي نوع من الولاية التكوينية لهم على تصرفاتهم، وهذه القدرة ناشئة من أقدار الله سبحانه لهم على فعل ذلك، وهو ما يعبر عنه بفاعلية الفاعل، ومن تطويع الله سبحانه الخشب والطين ومواد البناء وتسخيرها لهم ليتصرفوا فيها كما يشاؤون، وهو ما يعبر عنه بقابلية القابل، ولولا ذلك لعجز الجميع عن إظهار فعله وتأثيره.

ونلاحظ أن هذه المواهب والقدرات تختلف بحسب مستوى المهارة والكفاءة، فكلما كانت قدرة النجار ومهارته أوسع كانت ولايته على صنع الخشب وتبديله أكبر، وكذا النحات والبناء، فاختلاف درجات الولاية ناشئ من اختلاف القدرة والمهارة، وهذا أمر بديهي ملحوظ يومياً في حياة أصحاب الحرف والصناعات، إلاّ أننا قد نغفل عن تفسيره، وما هو في

الحقيقة إلاّ نوع من الولاية التكوينية والتأثير في الأشياء.

الصنف الثالث: الشواهد المعنوية

يشهد وجدان كل واحد منا أن هناك أنحاء من التأثيرات المعنوية تتحكم بحياة الناس، والكثير منها تأثيرات إرادية اختيارية، وحينما نتأمل في حقيقتها نجد أنها هي الأخرى نوع من الولاية التكوينية في التأثير في الآخرين:

فمثلاً: العالم المتقي الورع يؤثر فعله وكلامه ومشيه وأسلوب أكله وشربه في قلوب الناس، وتنعكس شخصيته المعنوية على حياتهم الخاصة فيقتدون به، ويتأثرون بنهجه، ويأتمرون بأوامره، وينتهون بنواهيه، ولذا يسمونه بالملهم والأب الروحي والمرشد والإمام والقدوة والأسوة وغير ذلك من أسماء وعناوين تدل على مستوى تأثير هذا الشخص في حياة الناس، وأغلب القادة والزعماء يملكون هذا النحو من التأثير في الآخرين. ترى ما هي حقيقة هذا التأثير؟

وأيضاً الشاعر حينما ينظم قصيدته ويلقيها على مسامع الحاضرين قد يؤثر فيهم تأثيراً كبيراً، وربما يبكيهم، وربما يمرضهم ويحزنهم، وربما يضحكهم ويصيبهم بخفة الروح فيتطايرون من الفرح والسرور، وربما يقذف بهم في لهوات الحرب، وربما يجرهم إلى السلم والمصالحة، فكيف يؤثر الشاعر بكلماته بكل هؤلاء؟

والخطيب المفوّه والمعلم في مدرسته والأب في أسرته والأم في أولادها وهكذا. إننا نلاحظ أن لكل هؤلاء تأثيراً على غيرهم من حيث أفكارهم وأفعالهم وتصرفاتهم الشخصية فمن أين نشأ هذا التأثير؟ ولدى التأمل في

حقيقة ذلك نجد أنه من الولاية والسلطة على التصرف في الآخرين، وهذه السلطة ناشئة من موهبة إلهية خاصة يعطيها لأمثال هؤلاء فينعكس أثرهم على الآخرين الذين لهم تأثر وعلقة ومحبة بهم؛ لوضوح أن التأثير لا يقع ما لم تتوفر فاعلية الفاعل وقابلية القابل، وتدلنا هذه الشواهد العديدة على أكثر من حقيقة:

الحقيقة الأولى: أن هذه التأثيرات بأصنافها الثلاثة لم تنشأ من قدرة الإنسان وفعله مستقلاً عن قدرة الله وفعله، فالفاعل الحقيقي في الأشياء هو الله سبحانه، ولكن يجعل قدرتنا في طريق تنفيذ فعله وإرادته إما من جهة الإذن ورفع الموانع أو التفويض أو المظهرية والانعكاس، فولايتنا على أفعالنا في الحقيقة هي مظهر لولاية الله على أفعالنا، وبهذا يظهر أن الولاية التكوينية لا تستلزم القول بالجبر، كما أنها لا تعني التفويض المطلق المستلزم للتعطيل أو الشرك.

الحقيقة الثانية: أن الولاية الإلهية التي أعطانا الله هي رتبة من مراتب ولايته وسلطته المطلقة على الأشياء، بها سلطنا على أفعالنا وأقدرنا على التأثير بينما أعطى لمحمد وآل محمد عليهم السلام ولاية عامة على كل ما سواه، ولأجلها صار كل عالم الإمكان طوع أمرهم مستجيباً لهم، وخاضعاً لإرادتهم، وهم يتصرفون فيه إيجاداً وإعداماً وتبديلاً وتغييراً، وقد عرفت من الأدلة المتضافرة أن الاعتقاد بولايتهم التكوينية العامة يعد من الأمور المسلّمة التي لا يختلف عليها اثنان، ولذا تعد من ضرورات العقيدة، وإنكارها يعد انتقاصاً من مقام الإمام أو إنكاراً لإمامته الإلهية

الحقيقة الثالثة: أن الإيمان بالولاية التكوينية في مراتبها المختلفة ابتداء من ولايتنا على أفعالنا ثم على الآخرين حتى تصل إلى الولاية على الكون وآثاره هي من مقتضيات الإيمان بالله وبقدرته وأفعاله، بل هي بهذا المعنى من دلائل التوحيد، فإنكارها في أي بعد من أبعادها هو إنكار لولاية الله وقدرته، وشك في سلطته على الأشياء، وقد مرت عليك الروايات المباركة التي نصت على أن الاعتقاد بها هي الديانة الحقة التي من أدركها لحق، ومن تخلف عنها زهق، ومن تقدم عليها مرق، وهذه هي الخلاصة التي ينبغي أن يتوصل إليها كل مؤمن صحيح الإيمان.

الحقيقة الرابعة: أن المؤمن الذي يذعن لهذه المقامات الإلهية يعد في مصطلح الروايات عارفاً، كما عرفته في حديث النورانية[١] ونحوه[٢]، وتختلف درجات المعرفة بحسب مراتب الإذعان واليقين بهذه المقامات، والمرتبة الأعلى منها هو المتيقن بمقامات الإمام والمذعن لها والمسلم بها، وهذه المرتبة تسمى بالعارف بحق الإمام، ويعد صاحبها من النجباء والسعداء ومقبولي الأعمال كما في الخبر الصحيح عن الصادق عليه السلام: «إن الله عز وجل أوضح بأئمة الهدى من أهل بيت نبينا عن دينه، وأبلج بهم عن سبيل منهاجه، وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه، فمن عرف من أمة محمد صلى الله عليه وآله واجب حق إمامه وجد طعم حلاوة إيمانه، وعلم فضل طلاوة إسلامه ... ولا يقبل الله أعمال العباد إلاّ بمعرفته»[٣].

١ - انظر بحار الأنوار: ج٢٦، ص١، ح١.
٢ - انظر بحار الأنوار: ج٢٥، ص٣٣٩، ح٢١.
٣ - ينابيع المعاجز: ص١٩٠- ١٩١ح بصائر الدرجات: ص٤٣٣، ح٢.

والوصول إلى هذه المعرفة لا يقتصر على البرهان والاستدلال العقلي، ولا على الإذعان بالأدلة النقلية، بل يتوقف على نورانية خاصة ويقين قلبي لا يتزلزل، كما عرفت بعض تفاصيله في المباحث السابقة.

المبحث الثالث

في عصمة الإمام عليه السلام

قد مر عليك بعض ما يتعلق بالعصمة في مباحث النبوة، وذكرنا هناك أن العصمة من المقامات المعنوية التي يمتاز بها كل نبي مرسل، ولولاها ينتفي الغرض من بعثته، وتصبح جزافاً؛ لأنها تصون النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الأخطاء والنواقص وأفعال القبائح، وتنزهه من كل ما يشين شخصه أو شخصيته؛ ليكون حجة وقدوة للناس، وذا مكانة في قلوبهم، فيهديهم من الظلمات إلى النور، ويقودهم إلى سعادتهم الدينية والدنيوية .

والحق أن العصمة من المقامات المشتركة بين الأنبياء والأئمة عليهم السلام؛ لأن الدواعي التي تقوم عليها عصمة الأنبياء هي ذاتها تقوم عليها عصمة الأئمة عليهم السلام، بل لا يعقل أن يكون الإمام إماماً من قبل الله سبحانه لو لم يكن معصوماً، وعلى هذا الأساس تعد العصمة من المقامات الإلهية الخاصة التي تنطوي عليها شخصية الإمام الحقيقية، وذلك لأن للعصمة أهمية كبرى في تحقيق وظيفة الإمام التكوينية والتشريعية، كما أن الاعتقاد بها له أهميته في المعارف الإلهية وبناء العقيدة الصحيحة للمسلم والذي ينعكس على مختلف

جوانب حياته الخاصة والعامة، وكيف كان فالبحث في حقيقة عصمة الإمام ومعرفة أهميتها في تكوين شخصيته وأثرها البالغ في تقويم عقيدة المسلم يستدعي أن نفصل الكلام في مطالب:

المطلب الأول: في معنى العصمة ومراتبها

العصمة - بالكسر وسكون الصاد - في اللغة المنع والوقاية[1]، فكل ما يقي ويمنع هو عاصم. قال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[2] أي لا شيء يمنع منه ويقي من تقديره. هذا إذا أطلقت، وإذا أضيفت إلى الله سبحانه يراد بها أن يعصم الله تعالى عبده من سوء يقع فيه في القول والعمل[3]، وهي من الحقائق التشكيكية، ويتوقف حصولها على المحل القابل، وأولى مراتبها تحصل لجميع العباد، فإن الله سبحانه يعصم عباده من بعض المساوئ بالهداية، أو بالتوفيق في عمل الخير، أو التوبة من المعاصي وقبائح الأقوال والأفعال، أو منعهم من العصيان بعدم تهيئة أسبابه، أو تهيئة أسباب الطاعة المانعة منه، وهو أمر يشهده كل إنسان في نفسه في مختلف جوانب حياته، وكلما ازداد العبد قرباً من ربه وتوفيقاته الإلهية زادت مرتبة عصمته.

وعصمة الأنبياء والأولياء هي أعلى مراتب العصمة الإلهية؛ لأنهم عباده

---

١ - تاج العروس: ج٨، ص٣٩٩، (عصم)؛ مختار الصحاح: ص٢٣٠، (عصم)؛ لسان العرب: ج١٢، ص٤٠٣، (عصم).

٢ - سورة هود: الآية ٤٣.

٣ - انظر معجم مقاييس اللغة: ص٧٥١، (عصم)؛ لسان العرب: ج١٢، ص٤٠٣ (عصم)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص١١٦، (عصم).

المخلصون الذين لا يعصون الله ما أمرهم، وهم بأمره يعملون، ومن المعلوم أن هذه الرتبة من العصمة هي التي وقعت مورداً للبحث بين أهل المعرفة وعلماء الكلام والحكمة، وقد اختلفوا في تعريف حقيقتها إلى اتجاهات متعددة كما سترى.

نعم اتفقت كلمتهم على أن الله سبحانه عصم أنبياءه عليهم السلام من حيث إنه حفظهم بما خصهم من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل النفسية والجسمية، ثم بالنصرة وتثبيت أقدامهم، ثم بإنزال السكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق[1].

ولا شك أن هذه الخصوصية - أي العصمة - لا تختص بالأنبياء، بل تجري حتى في الأولياء، لا سيما الأئمة من آل محمد عليهم السلام؛ لأنهم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكمل الخلق وأعلاهم رتبة، وفي ذلك ورد القرآن الكريم في أكثر من آية، حيث نص على أن العصمة من سمات عباد الله المخلصين - بالفتح - الذين اصطفاهم وطهرهم وفضلهم على الخلق أجمعين على ما ستعرف، وهذا مما لا يختص بالأنبياء، بل يشمل ذرياتهم الذين نالوا مراتبهم مثل آل عمران وآل إبراهيم وآل محمد عليهم السلام، فعصمة الأنبياء والأئمة عليهم السلام تتضمن ست مراتب:

المرتبة الأولى: العصمة في العقيدة، فهم مؤمنون وموحدون وعارفون بالله سبحانه لا يشوب إيمانهم جهل أو شرك أو غلو أو تعطيل أو أي سوء يخل بعقيدتهم الحقة، وهذه العصمة نشأت من صفاء جوهرهم ونورانية نفوسهم.

---

١ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٧٠، (عصم)؛ بصائر ذوي التمييز: ج٤، ص٧٣، بصيرة (٣٦).

المرتبة الثانية: العصمة في الأخلاق والصفات النفسية، فهم في أعلى درجات الكمال الروحاني لا تشوبهم النواقص النفسانية كالحقد والحسد والهوى والأنا ونحوها من رذائل تحط من مستوى إنسانية الإنسان، وهذه العصمة نشأت أيضاً من قدسية ذواتهم وتعلقهم بحب الله والتحلي بأخلاقه.

المرتبة الثالثة: العصمة في الجسم، فهم في كمال الخلقة وسلامة الجسم، فلا تشوبهم عاهات الأجسام من العمى والعرج والجنون والخرس والشلل وقبح الشكل ونحوها من النواقص الجسدية.

وهذه العصمة نشأت من عناية الله سبحانه ولطفه بهم؛ إذ سوّاهم مظاهر كماله وجماله، وجعلهم حججاً على خلقه.

المرتبة الرابعة: العصمة في القول والفعل، فإن الله سبحانه ينصرهم ويسددهم في أعمالهم؛ لأنهم رسل الله وحججه لا يعملون إلاّ لله سبحانه، ولا ينفذون إلاّ أوامره.

المرتبة الخامسة: العصمة في الصبر والاستقامة، فهم لا يتذبذبون أو يتراجعون عن تحقيق المشاريع الإلهية، بل لا يهدأ لهم بال، ولا يقر لهم قرار حتى ينفذوا المقدرات الإلهية التي أمروا بها، وعاهدوا الله سبحانه قبل عالم الدنيا على تحقيقها.

المرتبة السادسة: العصمة في إنجاز الوعود الإلهية، فهم موفقون فالحون في كل ما يريدون ويعملون، ولذا تحتل انجازاتهم القلوب والنفوس، ويبقى أثرها في كل زمان ومكان تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وتنشأ هذه العصمة من التأييد والتسديد الإلهي لهم إما مباشرة بتهيئة أسباب النجاح وإزالة

موانعها، أو بواسطة ملائكته المناصرين الذين يرسلهم إليهم ليسددوهم ويربطوا على قلوبهم ويثبتوا الأقدام.

ويمكن أن نصنف هذه المراتب الست للعصمة إلى صنفين هما:

العصمة الذاتية، ونريد بها العناية الإلهية بشخصية النبي والإمام عليهما السلام ومنعها من كل ما يشينها، أو ينقص من كمالها من حيث الجوهر والذات، وهي الثلاثة الأول؛ بداهة أن أنبياء الله لابد وأن ترتكز شخصياتهم الإلهية وذواتهم الربانية على ثلاثة عناصر هي: كمال المعتقد وكمال الأخلاق وكمال الجسد؛ ليكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذاته معصوماً في عقله وقلبه وروحه وجوارحه.

والعصمة التسديدية، ونريد بها العناية الإلهية الخاصة بالأنبياء والأئمة لأجل إنجاح مهامهم الرسالية ووظائفهم الإلهية، وهذا ما لا يمكن أن يتحقق إلاّ بتوفر عناصر ثلاثة أيضاً تضاف إلى الكمالات الشخصية، وهي: كمال القول والعمل، وكمال الصبر والاستقامة، وكمال التنفيذ؛ لأن هذه العناصر الثلاثة هي مفتاح التوفيق في كل مهمة وإيصالها إلى غاياتها المطلوبة، ومن الواضح أن العصمة بهذا المعنى تتناسب مع مقامات الأنبياء والأئمة ومكانتهم في الحياة البشرية.

ويبدو أن العصمة بحسب معناها المصطلح حقيقة قرآنية أسسها القرآن الكريم في آيات عديدة، حيث عبر عنها تارة بمادتها اللغوية كما في قوله تعالى في قضية يوسف عليه السلام: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ

﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾[١] أي طلب العصمة من الله سبحانه عن فعل القبيح[٢].

وتارة بشرح مضمونها كما في قوله تعالى في الملائكة: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٣] ومن الواضح أن العصمة تستلزم الطاعة والتنزّه من العصيان وتنفيذ الأوامر الإلهية[٤]، وهي بهذا تشمل العصمة بجميع مراتبها الست.

نعم تدل على العصمة العملية بالدلالة المطابقية؛ لأنها تثبتها بالنص الصريح، وتدل على العصمة النفسية بالدلالة التضمنية؛ لأن الكمالات الأخلاقية مما يؤمر بفعله وتدل على العصمة العقيدية بالدلالة التلازمية؛ لأن إطاعة الله في كل شيء يتوقف على كمال معرفته.

ولا فرق بين الملائكة والأنبياء والأئمة في معنى العصمة بالضرورة والإجماع وإن كانت تختلف عصمتهم في المراتب والدرجات، وعلى هذا فإن العصمة بمعناها المصطلح أخص مطلقاً من المعنى اللغوي والعرفي فتكون عرفية خاصة، وهذا المعنى هو المتبادر إلى الأذهان عند إطلاقها لاسيما في البحوث العقدية.

---

١ - سورة يوسف: الآية ٣٢.

٢ - انظر مجمع البيان: ج٥، ص٣٩٧، تفسير الآية المزبورة.

٣ - سورة التحريم: الآية ٦.

٤ - انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٦٢، تفسير الآية المزبورة.

المطلب الثاني: الآراء في العصمة

اختلف أهل المعقول في اشتراط العصمة في الإمامة، فأثبتها الإمامية وبعض فرق الشيعة كالأسماعيلية، وأنكرها الآخرون، ومنشأ الخلاف يعود إلى مكانة الإمامة والإمام في الدين والدنيا، وقد عرفت أن الإمام كالنبي عند الإمامية، فهو قطب الوجود، ومدار عالم الإمكان، وواسطة الفيوضات الإلهية على الدنيا وما فيها، وأن الاعتقاد به من أساس الإيمان وقبول الأعمال، وعلى معرفته تتوقف معرفة الله، وعلى طاعته تتوقف طاعة الله، ولذا لا تكون الإمامة إلاّ بالنص الإلهي الخاص.

وأما جمهور المسلمين فيرون أن الإمامة مجرد خلافة وولاية للأمر في الشؤون السياسية والدنيوية فقط ، كما أنها من فروع الدين، فتطبق عليها أحكام الفروع لا الأصول[1]، ولذا لم يشترط فيهما أكثر من العدالة[2]، وقالوا بأنها اكتسابية تثبت باختيار الناس بالتنصيب أو الاختيار.

نعم هم لم ينكروا وجود العصمة في الأمة بعد الرسول المصطفى ﷺ

---

١ - انظر شرح المواقف: ج٨، ص٣٤٩- ٣٥٠؛ مقدمة ابن خلدون: ص٤٦٥؛ شرح المقاصد: ج٥، ص٢٣٢؛ شرح نهج البلاغة: ج٧، ص٧.

٢ - انظر شرح المواقف: ج٨، ص٣٤٩ – ٣٥٠.

من حيث مضمونها ومحتواها وإن اختلفوا في المعصوم اختلافاً كثيراً وعمدة أقوالهم فيها ثلاثة:

الأول: أنه كبار الصحابة الذين خلفوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

والثاني: أتفاق أهل الحل والعقد.

والثالث: الإجماع[١]، وقد احتجوا لهذا القول بحجتين:

الأولى: إطلاق قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾[٢].

بتقريب: أن الآية أوجبت على الأمة إطاعة أولي الأمر كما أوجبت إطاعة الله سبحانه والرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وإطلاق الأمر بالطاعة وإطلاق الرد إليهم عند التنازع يفيدان أن أمرهم وحكمهم معصوم عن الخطأ والاشتباه.

والثانية: قوله صلى الله عليه وآله وسلم المروي بطرقهم: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»[٣] والمراد من الأمة ليس عموم أفرادها، بل عموم علمائها وخبرائها وأهل الحل والعقد فيها، ونفي الضلالة عن اجتماعهم ملازم لعصمتهم.

---

١ - التفسير الكبير: ج٤، ص١٢٥؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٥، ص٢٢٩ وما بعدها؛ روح المعاني: ج٥، ص٨٦-٨٧، تفسير الآية المزبورة؛ وانظر مواهب الرحمن: ج٨، ص٣٥٣.

٢ - سورة النساء: الآية ٥٩.

٣ - انظر سنن الترمذي: ج٣، ص٣١٥، ح٢٢٥٥؛ سنن ابن ماجة: ج٢، ص١٣٠٣، ح٣٩٥٠؛ سنن أبي داود: ج٢، ص٣٠٢؛ تحف العقول: ص٤٥٨؛ مدينة المعاجز: ج٣، ص١٤.

وربما يستدل لذلك أيضاً بما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تجتمع أمتي على خطأ»[١] إلّا أنه لم يثبت أنه حديث مستند يصح الاستدلال به، ونلاحظ هنا أنهم متفقون مع الإمامية من حيث الكبرى، وهو ضرورة وجود العصمة في الأمة من بعد النبي تعصمها من الخطأ والاشتباه، وتكون لها قدوة تقودها إلى سعادتها في الدين والدنيا، وإنما اختلافهم في الصغرى، أي في تحديد المعصوم.

وتضافرت الأدلة النقلية والعقلية بل والأدلة الوجدانية على أن المعصوم ليس ما ذكروه، بل هو من عترة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا غير[٢]، كما عرفت وستعرف، بل نسبة العصمة للثلاثة المذكورة خروج عن الموضوع؛ لأنه على فرض صحته يبتني على العصمة العرضية لا الذاتية، بداهة أن عصمة عمل الصحابة واتفاق أهل الحل والعقد أو الفقهاء مكتسبة، وليست من نفس المعصوم وجوهره، وهذا يتنافى مع تعريفهم للعصمة كما مر عليك، وأما الحجتان المذكورتان فلا تصلحان لإثبات مدعاهم؛ لأن دلالتهما قاصرة عن بلوغ المطلوب، أو قاصرة سنداً ودلالة كالحجة الثانية، أو مبتلاة بالموانع الكثيرة.

أما الحجة الأولى المستندة إلى الاستدلال بالآية المباركة فهي مخدوشة من وجوه:

الوجه الأول: أن منطوق الآية يخالف المعاني المذكورة؛ لأن الآية تنص على أن الأمة إذا تنازعت في شأن من الشؤون فيجب رده إلى الله سبحانه وإلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإلى أولي الأمر، ولا شك أن من الأمور التي وقع التنازع فيها

١ - الفصول المختارة: ص٢٣٩.

٢ - انظر مجمع البيان: ج٣، ص١١٤- ١١٥، تفسير الآية المزبورة.

هو معنى أولي الأمر، والمعنى المقصود منهم كما عرفت، بل إن الاختلاف فيهم من أعمق الاختلافات في تاريخ المسلمين، وعليه فإن من غير المعقول أن يحل النزاع بواسطة الرجوع إلى أولي الأمر أنفسهم إذا كان المراد به أهل الحل والعقد أو الصحابة أو الإجماع؛ لأنه دوري.

فلابد وأن يكون المقصود غيرهم، وليس إلاّ أهل البيت عليهم السلام؛ لعدم وقوع النزاع فيهم؛ ولاتفاق كلمة المسلمين على أنهم من أولي الأمر على كل تقدير[1]، وإنما الاختلاف الواقع في غيرهم.

الوجه الثاني: أنه لو كانت المعاني المذكورة صحيحة لزم منها بطلانها، وما يلزم من وجوده عدمه محال.

وتوضيح ذلك: لو قلنا - جدلاً- بأن المراد من أولي الأمر هي المعاني المذكورة لكان ذلك سارياً في جميع الشرائع والأديان السماوية، بل في كل المذاهب والقوانين الأرضية أيضاً؛ لأن الآية أطلقت الأمر بالرجوع إلى أولي الأمر في موارد التنازع والاختلاف، فيكون الرجوع إلى أولي الأمر من كل شريعة وملة مشروعاً وصحيحاً، وهو مناف لحاكمية الإسلام وعموم حكومته على الناس كافة؛ إذ من الواضح أن لا خصوصية في ذلك لأولي الأمر من المسلمين، وحيث أن التالي باطل فالمقدم مثله.

الوجه الثالث: أن المراد من الأمر في الآية هو الشأن والحادثة والذي يجمع

---

١ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٩٠، (أمر).

على صيغة أمور، لا الأمر الذي يناقض النهي كما هو واضح[١]؛ لأنه يستلزم التناقض، وأمر كل صاحب أمر ولو كان كافراً أو ظالماً، وقد مر عليك أن القرآن الكريم في آيات عديدة عرف المقصود من أولي الأمر من خلال تعريف الأمر نفسه؛ إذ أطلق في الغالب على ما يعظم قدره وتعلو منزلته من حوادث عالم الملكوت[٢]، فمثلًا: وصف الوحي بالأمر فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[٣] كما وصف الروح بالأمر؛ إذ قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[٤] ووصف المقدرات الإلهية التي تنزل في أشرف ليلة على الأرض بالأمر إذ قال سبحانه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[٥].

وهذه الآيات المباركة تدل على أن الله سبحانه أمراً في المعنويات، وجعل لهذا الأمر أصحاباً يملكون زمامه وهم الأئمة عليهم السلام لا غير؛ لأنهم مهبط الوحي والتنزيل، وإليهم تنزل الملائكة والروح في ليلة القدر، ولذا أوجب إطاعتهم في سياق وجوب إطاعة الله ورسوله. هذا ما تقتضيه اللغة والسياق والظهور، بل هو ما يقضي به العقل أيضاً؛ لأن الآية أمرت بإطاعة أولي الأمر مطلقاً، وهذا الإطلاق لا يستقيم إلاّ إذا كان المطاع معصوماً، ولا يكون معصوماً إلاّ إذا كان مرتبطاً بعالم الملكوت، ومتصلاً بالعناية الإلهية الخاصة،

١ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٨، (أمر).

٢ - انظر موارد استعمال الأمر في القرآن في بصائر ذوي التمييز: ج٢، ص٤٠ - ٤٢، بصيرة(٥)؛ لسان العرب: ج٤، ص٢٧، (أمر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٢١٠، (أمر).

٣ - سورة الشورى: الآية ٥٢.

٤ - سورة الإسراء: الآية ٨٥.

٥ - سورة القدر: الآية ٤.

وهذه جميعاً غير متحققة في المعاني الثلاثة المذكورة باتفاق الكل، ومتحققة في النبي وعترته عليهم السلام بالضرورة والاتفاق.

الوجه الرابع: أن المعاني المذكورة تنافي الوجدان والواقع الخارجي، وذلك لأنه لو كان الخلفاء معصومين وكذا أهل الحل والعقد أو اتفاق الفقهاء لما وقع الاختلاف بينهم، والحال أن الوجدان والواقع الخارجي يؤكدان وقوع الاختلاف بينهم كثيراً حتى قد لا نجد مسألة واحدة في الأصول أو الفروع حصل عليها اتفاق الأمة، بل الملحوظ أن الصحابة أنفسهم بما فيهم أبو بكر وعمر صرحا بخطئهما، وأن خلافتهما كانت فلتة، وكانت خطأ على ما مر عليك بحثه.

ومن الواضح أن وقوع الاختلاف ينفي العصمة، بل هذا ما شهد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أحاديث كثيرة، حيث نص على أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلهم هالكون إلاّ واحدة وعليه فلا معنى للقول بعصمة أهل الحل والعقد أو إجماعهم مع وقوع الاختلاف بينهم وانتهاء أمرهم إلى الهلكة، بداهة أن فاقد الشيء لا يعطيه.

الوجه الخامس: ورود النصوص الكثيرة من أعلم الصحابة وأئمة أهل الحل والعقد الدالة على أن علياً أمير المؤمنين عليه السلام وأولاده الطاهرين هم المقصودون من أولي الأمر، وأنهم الأئمة عليهم السلام لا غير، فقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن الحجج فقال: «هم رسول الله ومن حل محله من أصفياء الله ... وهم ولاة الأمر الذين قال الله فيهم: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ وقال فيهم : ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ

﴿يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾[١]» قال السائل: ماذا الأمر؟ قال عليه السلام: «الذي به تنزل الملائكة في الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم من خلق ورزق وأجل وعمل وعمر وحياة وموت، وعلم غيب السماوات والأرض، والمعجزات التي لا تنبغي إلاّ لله وأصفيائه والسفرة بينه وبين خلقه»[٢] وقد تواتر هذا المضمون عن رسول الله وأمير المؤمنين وأبي جعفر وأبي عبد الله والرضا عليهم السلام [٣].

هذا فضلاً عن الروايات المتضافرة بطرق الفريقين والتي تحصر الولاية والطاعة والحجية بأهل البيت عليهم السلام، مثل حديث الثقلين وحديث الكساء وحديث المنزلة ونحوها، بل وآية المباهلة وآية التطهير وآية المودة ونحوها من الآيات والروايات التي تشرح إجمال أولي الأمر إن كان، أو توضيح مصاديقه.

وعليه فإن دلالة أولي الأمر على الأئمة الطاهرين عليهم السلام أمر متيقن لا شك فيه؛ لاتفاق الكلمة على أنهم خلفاء الرسول من أهل الحل والعقد، وأنهم أعلم الأمة، فالقول بدلالته على غيرهم يفتقر إلى الدليل.

ومن المعلوم أن المعاني الثلاثة المذكورة لم يقم عليها دليل، بل هي مجرد احتمالات ظنية ذكرها بعض المفسرين كالرازي والقرطبي والالوسي ونحوهم من أعلامهم، بينما تفسير أولي الأمر بالأئمة من عترة النبي مما قام عليه النص والإجماع، فالعمل بالاحتمالات المذكورة دون هذا المعنى يكون

١ – سورة النساء: الآية ٨٣.

٢ – انظر الاحتجاج: ج١، ص٣٧٥.

٣ – انظر تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٨٤ وما بعدها، الأحاديث ٣٢٧- ٣٦٠.

من الاجتهاد في مقابل النص، وترجيحاً للمرجوح على الراجح.

وأما الحجة الثانية أي حديث: «لا تجتمع أمتي على ضلالة» فهو على فرض صحته سنداً[١] مخدوش دلالة من وجوه:

أحدها: أنه ينفي اجتماع الأمة على ضلالة سواء قلنا إن الضلالة ظاهرة عرفاً بالانحراف عن العقيدة وأصول الدين؛ لأنها من الضلال وهو العدول عن الطريق المستقيم، وتضاده الهداية؛ إذ قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[٢] أو قلنا إنها تشمل كل ضياع وتيه كان في الأصول أو في الفروع؛ إذ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٣] [٤] وحينئذ لسائل أن يقول ما هو سبب العصمة في الاجتماع؟ والجواب: لا يخلو من احتمالين:

أحدهما: أن يكون الاجتماع في نفسه ملازم للعصمة، بمعنى أن كل اجتماع معصوم.

وثانيهما: أن يكون الاجتماع كاشف عن وجود المعصوم في ضمن المجمعين؛ لأنه من الأمة، فيكون وجود المعصوم ضمن الإجماع سبب عصمة الإجماع.

والاحتمال الأول باطل في نفسه؛ لوضوح أن الاجتماع المكون من غير المعصومين لا يكون معصوماً؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ومخالف للوجدان؛

---

١ - انظر أصول الفقه وقواعد الاستنباط: ج١، ص٢٣٥؛ أنوار الأصول: ج٢، ص٣٩٧.

٢ - سورة يونس : الآية ١٠٨.

٣ - سورة الكهف: الآية ١٠٤.

٤ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٠٩ (ضل)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٤١٠، (ضل).

لما نراه من وقوع المجمعين في الأخطاء الكثيرة الكاشفة عن عدم عصمته، بل ومخالف لنصوص الآيات والروايات التي صرحت بأن الاجتماع والكثرة في نفسها ليست ضابطة للعصمة، بل الضابطة هي وجود الحق والصواب فيهم، ولذا ذم القرآن اجتماع الكفار والمنافقين على باطلهم، اجتماع الفاسقين على المنكر؛ إذ قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾[١] وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[٢] كما ذم أخوة يوسف عليه السلام حين اجتمعوا على إلقاء أخيهم في الجب؛ إذ قال تعالى في مقام ذمهم: ﴿وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾[٣] فلو كان للاجتماع عصمة لم يكن وجه لبعثة الأنبياء ولا حاجة، كما لم يكن وجه لذم المجمعين، فتأمل.

والخلاصة: أن القول بملازمة العصمة للإجماع مخالف للعقل والنقل، فيتعين الاحتمال الثاني، وحينئذ لسائل أن يقول: من هو المعصوم الذي بانضمامه يكون الحق والهدى؟ فإن قيل بالاحتمالات الثلاثة لزم الدور، فيتعين أنه الإمام من عترة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعدم وجود ضد ثالث لهما،بل ولقيام الأدلة المتضافرة عليه، وهو المطلوب.

ثانيها: لو فرضنا جدلاً أن الحديث يفيد جملة خبرية كاشفة عن حقيقة واقعية تكشف عن وجود ملازمة بين الاجتماع والعصمة، لكن لقائل أن يقول: إن الاجتماع بين جميع الأمة لا يخلو إما أن يكون ناشئاً من وجود سبب

١ - سورة البقرة: الآية ٢١٣.

٢ - سورة يوسف: الآية ١٠٣.

٣ - سورة يوسف: الآية ١٥.

أو لا، فإن أخذنا بالاحتمال الأول لابد وأن نعرف السبب، وهو لا يخلو من احتمالات ثلاثة:

الأول: أن يكون ناشئاً من وجود آية في القرآن أوجبت الاتفاق، كاتفاق الأمة على وجوب الصلاة والصيام والحج ونحوها بسبب النص الصريح عليها في الكتاب العزيز.

الثاني: أن يكون ناشئاً من وجود سنة النبي والاتفاق عليها بين الأمة، كاتفاق الأمة على عدد ركعات الصلاة والقراءة فيها وكيفية الصيام والحج ونحو ذلك فالاتفاق على ذلك ناشئ من الاتفاق على وجود سنة النبي ﷺ فيها.

الثالث: أن يكون ناشئاً من وجود بديهة عقلية أوجبت الاجتماع بين الأمة، كالاتفاق على وجوب التوحيد، وأن القرآن الكريم معجزة النبي ﷺ، وأن النبي ﷺ لابد وأن يكون أفضل أهل زمانه وهكذا.

ونلاحظ هنا أن الاتفاق لازم الصواب لا من جهة الاتفاق نفسه، بل من جهة وجود السبب الصحيح للاتفاق، فالعصمة في الحقيقة للسبب لا للمسبب، والسبب في الاحتمالات الثلاثة هو المعصوم، فيثبت أن عصمة الاجتماع ناشئة من عصمة سببه وليست من نفسه، ومعنى ذلك أن العصمة لا بد وأن ترجع إلى الله سبحانه والرسول ﷺ لا إلى الإجماع، ولا شك أن عترة النبي ﷺ يرجع إليها باتفاق الأمة، فتكون هي المعصومة لا غير، وبهذا يظهر بطلان الاحتمال الثاني؛ لوضوح أن حصول الإجماع من غير سبب جامع مما لا يساعد عليه عقل ولا وجدان خارجي.

ثالثها: أن نص الحديث يفيد ثبوت العصمة لاتفاق الأمة لا اتفاق أهل الحل والعقد ولا الصحابة ولا الفقهاء، فحمل الاتفاق على بعض الأمة فيه نوع من التسامح والمجاز لا يصار إليه إلاّ بدليل، وهو مفقود، وقد اتفقت الكلمة على أن حمل اللفظ على معناه الحقيقي هو الأصل الذي تقوم عليه القواعد العقلائية في المحاورات، وعليه فإن الحديث أن صح فهو يثبت العصمة لاتفاق جميع الأمة لا بعضها، وهذا الاتفاق إذا حصل كان الإمام المعصوم ضمنها لأنه جزء من الأمة، فتكون العصمة ملازمة للإجماع من جهة تضمنها لقول المعصوم لا غير، وهذا المعصوم ليس إلاّ ما نص عليه الدليل وهم عترة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فيتحصل مما تقدم عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الأمة الإسلامية متفقة على وجوب وجود المعصوم من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يهدي الأمة إلى الصواب، ويحفظ فيها دينها وأحكامها، ويحمي حقوقها.

الحقيقة الثانية: أن الاختلاف الحاصل في الأمة هو في مصداق المعصوم، لكنك بعد أن أطلعت على الأدلة والمناقشات تعرف أن المعصوم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هم عترته وأهل بيته عليهم السلام لا غير، وأن عصمتهم من عصمة الله سبحانه شاملة لجميع الأبعاد وليست تختص ببعد دون آخر.

الحقيقة الثالثة: أن الأدلة العقلية والنقلية متضافرة على صحة معتقد الإمامية في ذلك، وأما ما ذكره بعض أعلام الجمهور في إثبات العصمة للاتفاق والصحابة ونحوهما لا يستند إلى دليل مقبول، بل هو باطل من

جهة عدم المقتضي ووجود المانع، بل هو أجنبي عن معنى العصمة؛ لما عرفت من أن العصمة في حقيقتها تنشأ من لطف إلهي وصفاء نفسي ونورانية قلبية في ذات المعصوم يعطيه الخالق سبحانه الذي خلق جوهر المعصوم، وأودع فيه سره، وليست مبدءاً عقلياً أو تنصيبياً أو اتفاقياً بين الأمة، وهذا ما تواتر مضمونه في الأخبار الشريفة.

منها: ما رواه الصدوق قدس سره في معاني الأخبار بإسناده عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده عن علي بن الحسين عليهم السلام قال: «الإمام منا لا يكون إلاّ معصوماً، وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها ولذلك لا يكون إلاّ منصوصاً، فقيل له: يا بن رسول الله! فما معنى المعصوم؟ فقال: هو المعتصم بحبل الله، وحبل الله هو القرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة، والإمام يهدي إلى القرآن، والقرآن يهدي إلى الإمام، وذلك قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[1]»[2].

ويتوافق هذا الحديث مع مضمون حديث الثقلين والأحاديث الدالة على تسديد الله سبحانه الإمام بروح القدس ونحوها.

ومنها: صحيح أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك أخبرني عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ

١ - سورة الإسراء: الآية ٩.

٢ - معاني الأخبار: ص١٣٢، ح١.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[١] قال: «يا أبا محمد! خلق والله أعظم من جبرئيل وميكائل، وقد كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يخبره ويسدده وهو مع الأئمة عليهم السلام يخبرهم ويسددهم»[٢] والروايات بهذا المضمون كثيرة جداً[٣].

الحقيقة الرابعة: أن المعصوم واجب الطاعة والإتباع ولا يجوز مخالفته أو التخلي عنه لأن حبه وإطاعته هي إطاعة لله سبحانه وللرسول صلى الله عليه وآله.

وقد روى الصدوق قدس سره في كمال الدين عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «أنا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهرون معصومون»[٤] وروى في العلل والخصال بإسناده عن سليم بن قيس قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إنما الطاعة لله عز وجل ولرسوله ولولاة الأمر، وإنما أمر بطاعة أولي الأمر لأنهم معصومون مطهرون لا يأمرون بمعصيته»[٥].

١ - سورة الشورى: الآية ٥٢ - ٥٣.
٢ - بصائر الدرجات: ص٤٧٥، ح١؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٥٩، ح٢٧.
٣ - بصائر الدرجات: ص٤٧٧، ح٢٧؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٦٠ - ٦١، ح٣٣.
٤ - كمال الدين: ص٢٨٠، ح٢٨.
٥ - علل الشرائع: ج١، ص١٢٣، ح١؛ الخصال: ص١٣٩، ح١٥٨.

المطلب الثالث: في أدلة العصمة وشواهدها

تدلنا المباحث السابقة على أن الأمة الإسلامية وجميع الشرائع والأديان بل وضرورة العقل متفقة على وجوب وجود المعصوم الذي يهدي الخلق ويرشدهم إلى كمالاتهم، وينفذ المقدرات الإلهية بين الناس فلا يخلو الزمان من معصوم، كما اتفقت على أن محمداً وآل محمد من المعصومين الذين أعطاهم الله سبحانه درجة ومنزلة في الخلق، وفرض على الناس حبهم ومودتهم.

كما اتفق المؤرخون ورواة الحديث وجميع علماء الكلام[1] أنهم كانوا سادة التقوى والورع عن محارم الله لم يعصوا الله، ولم يرتكبوا إثماً، أو يتركوا طاعة، أو يرتكبوا قبيحاً، كما لم يتعلموا عند أحد من الناس، والذي يتصفح المصادر المختلفة يجد هذا جلياً واضحاً.

نعم هناك جماعة نصبوا لهم العداء، وخرجوا عليهم، وحاولوا أن يجردوهم من مزاياهم وفضائلهم التي يشهد لها القاصي والداني لمصالح سياسية شيطانية لا تؤخذ بالحسبان لدى التقويم السليم، فأصحاب الشرائع متفقون على ضرورة وجود المعصوم بين الناس، كما أنهم متفقون على أن

---

١ - انظر الاعتقادات (للصدوق): ص٩٨؛ الذخيرة (للمرتضى): ص٤٧٩؛ التلخيص (للطوسي): ج١، ص١٩٤؛ إثبات الهداية: ج١، ص١٤.

محمداً وآله معصومون، والخلاف الواقع بينهم في أمرين هما: مشاركة غيرهم لهم في ذلك، وحدود العصمة سعة وضيقاً على ما مر عليك بيانه، ولم يقم دليل يثبت عصمة غيرهم من صحابة كبار أو نساء النبيﷺ، أو إجماع للأمة ونحو ذلك.

وأما عصمتهمعليهم السلام فقد تضافرت على إثباتها وشرح خصوصياتها وآثارها أدلة الكتاب والسنّة والعقل، وهذا ما نستعرضه على التوالي:

الأول: في الأدلة القرآنية

يمكن تصنيف الآيات الكريمة التي تعرضت إلى العصمة والمعصومين على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: الآيات التي أثبتت الكبرى، أي أثبتت ضرورة وجود العصمة والمعصوم بين الناس؛ لأن الفيوضات الإلهية والعهود الربانية للبشر لا تنزل إلاّ على المحل القابل دفعاً لمحذور العبثية ونفي الغرض في أفعال الخالق تبارك وتعالى، والمحل القابل ليس إلاّ المعصوم.

ومن الآيات التي تشهد لهذه الحقيقة قوله تعالى في قصة إبراهيمعليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1] والمراد من العهد هو الإمامة المعصومة على ما تفيده القرائن الداخلية، وهي قرائن الإضافة التشريفية والسياق والنفي المطلق وجهة العلو، فإن (عهدي) فاعل والإضافة إلى الخالق عز وجل تفيد أن العهد فيض رباني يتنزل من جهة

١ - سورة البقرة: الآية ١٢٤.

العلو إلى من يختارهم من البشر، وهم من لم يرتكبوا الظلم، وليس ذلك إلاّ المعصوم.

ودلالة الآية من حيث الكبرى متفق عليها بين الفريقين. نعم اختلفوا في الصغرى وأن الآية مختصة بعصمة الأنبياء، وهو ما يقوله الجمهور، أم تشمل الأئمة عليهم السلام وهو ما يقوله الإمامية[١]، والقرائن الداخلية تعضد الشمول؛ لأن إبراهيم عليه السلام سأل أن ينال العهد الإلهي ذريته فنفته الآية عن الظالمين منهم، و لا شك في أن آل محمد من ذرية إبراهيم، وهذا ما تشهد به الأخبار الكثيرة أيضاً.

فعن الرضا عليه السلام: «إن الإمامة خص الله عز وجل بها إبراهيم الخليل عليه السلام بعد النبوة، والخلة مرتبة ثالثة وفضيلة شرفه بها عليه السلام وأشاد بها ذكره، فقال عز وجل ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فقال الخليل سروراً بها : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؟ قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة وصارت في الصفوة»[٢] .

وورد عن الصادق عليه السلام: أن الظالم من عبد صنماً أو وثناً، أو السفيه ونحوهم[٣]، وكذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام[٤].

---

١ - مجمع البيان: ج١، ص٣٧٧؛ روح المعاني: ج١، ص٥١٢-٥١٤؛ تفسير المنار: ج١، ص٤٥٧-٤٥٨، تفسير الآية المزبورة.

٢ - الكافي: ج١، ص١٩٩، ح١؛ انظر عيون اخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص ٢١٦، ح١ .

٣ - انظر الكافي: ج١، ص١٧٤- ١٧٥، ح١، ح٢ .

٤ - الاحتجاج: ص ٢٥١؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج١، ص١٥٠- ١٥١، ح ٣٤١، ح٣٤٢، ح٣٤٤ .

و نلاحظ أن الآية في مجملها تدل على كبرى كلية تتضمن أربع حقائق :

الحقيقة الأولى: أن الإمامة الإلهية عهد من الله يودعه عند بعض عباده. وهذه الحقيقة تؤكد أن الإمامة تكون بالنص والاختيار الإلهي لا باختيار الناس.

الحقيقة الثانية: أن العبد الذي يناله عهد الإمامة لابد وان يكون متنزهاً عن الظلم بشتى صنوفه وأشكاله، وهذه الحقيقة هي الأخرى تؤكد أن الإمامة لابد وان تكون باختيار الخالق؛ لأنه الذي يعرف أسرار خلقه، ويميز الظالم من غيره، وهذا ما تشهد له بديهة العقل؛ لان المقام الإلهي يتوقف على الصفاء والنورانية الخاصة، وهي لا تجتمع مع ظلمات الظلم ومساوئه.

الحقيقة الثالثة: أن الإمامة الإلهية تأتي بعد النبوة رتبة لكنها أعلى منها مقاماً لقرينتين داخليتين:

الأولى: أن إبراهيم عليه السلام أعطي الإمامة بعد النبوة.

والثانية: أنه عليه السلام طلبها لذريته مع علمه بنبوتهم، وصيغة اسم الفاعل المتعلقة بالجعل (جاعلك) يفيد دوام الإمامة واستمرارها أكثر من النبوة، فتكون قرينة أخرى على أهمية دورها في الحياة البشرية.

الحقيقة الرابعة: أن هذا العهد باق في ذرية إبراهيم إلى يوم القيامة، وأما من حيث الصغرى فيمكن القول بأن من المتفق عليه بين جميع أهل الشرائع والأديان فضلاً عن المسلمين أن الذرية الإبراهيمية المتنزهة عن ظلم الشرك والمعصية وسائر القبائح هم آل محمد من رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المهدي من ولده عجل الله تعالى فرجه الشريف، وهذا ما ورد في حديث عبد الله بن مسعود

عن رسول الله ﷺ إذ قال: «فأوحى الله عز وجل إليه: أن يا إبراهيم: لا أعطيك عهداً لا أفي لك به. قال: يا رب! ما العهد الذي لا تفي لي به؟ قال: لا أعطيك لظالم من ذريتك. قال: يا رب! ومن الظالم من ولدي الذي لا ينال عهدك؟ قال: من سجد لصنم من دوني لا أجعله إماماً أبداً، ولا يصلح أن يكون إماماً»[١].

وروى الشيخ قدس سره في الأمالي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم عليه السلام» قلنا: يا رسول الله! وكيف صرت دعوة أبيك إبراهيم؟ قال: «أوحى الله عز وجل إلى إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فاستخف إبرهيم الفرح فقال: يا رب ومن ذريتي أئمة مثلي - إلى أن قال ﷺ - فانتهت الدعوة إلي وإلى أخي علي لم يسجد أحد منا لصنم قط ، فاتخذني الله نبياً وعلياً وصياً»[٢].

ويتحصل مما تقدم: كبرى كلية تفيد أن الإمامة كالنبوة، كلاهما منصب إلهي مجعول من قبل الله سبحانه لا يناله إلاّ معصوم منزه عن القبائح.

الصنف الثاني: الآيات التي اثبتت الكبرى والصغرى معاً، وهي عديدة:

منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣].

توضيح الاستدلال: أن الاصطفاء في اللغة يرادف الاختيار والاجتباء

١ - الأمالي (للشيخ الطوسي): ص٣٧٩، ح٦٢؛ الجواهر السنية: ص٢٦١.
٢ - الأمالي (للشيخ الطوسي): ص٣٧٩، ح٦٢.
٣ - سورة آل عمران: الآيتان ٣٣- ٣٤.

على ما قيل[١]، ويزيد عليه دقة وعمقاً؛ لأنه يفيد استخلاص الشيء من شوائبه ونواقصه المادية والمعنوية، وهو معنى العصمة، وعلى هذا الأساس يقال محمد صلى الله عليه وآله صفوة الله تعالى وخيرته من خلقه[٢]؛ لأنه طهره وعصمه من كل قبيح.

والآية نصت على أن الاصطفاء شمل ذرية الأنبياء وهم أولادهم، وإطلاق الآية يشمل من كان نبياً منهم كإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، ومنهم داود وسليمان ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وأولادهم كرسول الله صلى الله عليه وآله وأولاده؛ إذ لا شك في أن محمداً وآل محمد هم آل إبراهيم، وقد اتفق عليه الفريقان[٣]، ومضمونه متواتر في الأخبار الشريفة.

ففي مجلس الرضا عليه السلام سأله المأمون العباسي: هل فضل الله العترة على سائر الناس؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: «إن الله تعالى أبان فضل العترة على سائر الناس في محكم كتابه» فقال له المأمون: أين ذلك من كتاب الله تعالى؟ فقال الرضا عليه السلام: «في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾»[٤] وورد هذا المضمون عن النبي والباقر والصادق والكاظم عليهم السلام أيضاً[٥].

---

١ - انظر مجمع البيان: ج٢، ص٢٧٧؛ بصائر ذوي التمييز: ج٣، ص٤٢٧،بصيرة(١٩)؛ لسان العرب: ج١٤، ص٤٦٢ (صفا).

٢ - انظر معجم مقاييس اللغة: ص٥٤٥، (صفو)؛ مجمع البحرين: ج١، ص٢٦٤، (صفو).

٣ - انظر مجمع البيان: ج٢، ص٢٧٨؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٢، ص٤٣٣؛ تفسير الرازي: ج٣، ص٢١؛ روح المعاني: ج٣، ص١٧٤؛ الكشاف: ج١، ص٣١٢.

٤ - عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٢٢٨، ح١؛ الأمالي (للشيخ الصدوق): ص٦١٧، ح١.

٥ - انظر تفسير العياشي: ج١، ص١٦٨- ١٦٩، الأحاديث ٢٩- ٣٣؛ الخصال: ج١، ص٢٢٥، ح٥٨.

وعن الصادق عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال في وصيته له: «يا علي! إن الله عز وجل أشرف على الدنيا فاختارني منها على رجال العالمين، ثم اطلع الثانية فاختارك على رجال العالمين بعدي، ثم اطلع الثالثة فاختار الأئمة من ولدك على رجال العالمين بعدك، ثم اطلع الرابعة فاختار فاطمة على نساء العالمين»[١].

وفي حديث أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في حديث طويل قال فيه: «فلما قضى محمد صلى الله عليه وآله نبوته واستكملت أيامه أوحى الله عز وجل إليه أن يا محمد قد قضيت نبوتك، واستكملت أيامك، فاجعل العلم الذي عندك والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة عند علي بن أبي طالب عليه السلام، فإني لن أقطع العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة من العقب من ذريتك، كما لم أقطعها من بيوتات الأنبياء الذين كانوا بينك وبين أبيك آدم، وذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢]»[٣] إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة[٤].

والخلاصة: أن الاصطفاء في الآية المباركة يدل على أن ذريات الأنبياء معصومون من الذنوب. هذا من حيث الكبرى، وأما من حيث الصغرى فإن مادة (الاصطفاء) ولفظ (الذرية) يفيدان أن المراد من الذرية المعصومة

١ - الخصال: ج١، ص٢٠٦، ح٢٥.
٢ - سورة آل عمران: الآية ٣٣- ٣٤.
٣ - كمال الدين: ص٢١٧، ح٢؛ الوصية: ص٢١٣؛ الكافي: ج٨، ص١١٧، ح٩٢.
٤ - انظر تفسير نور الثقلين: ج١، ص٣٩٤- ٣٩٦، الأحاديث ١٠٣- ١١٠.

هي التي امتلكت القابلية والاستعداد لذلك، وهي التي شابهت في صفاتها وخواصها الأنبياء أنفسهم؛ بداهة أن المصطفى من الناس هو الذي صفي من الكدورات والشوائب فيكون زكياً نقياً لاعيب فيه ولا خلل، وهذا لا ينطبق إلاّ على محمد وآل محمد عليهم السلام.

وبضميمة بعض القرائن العقلية والنقلية نستفيد من الآية المباركة حقائق عديدة أخرى:

الحقيقة الأولى: أن الاصطفاء يقع على نحوين:

أحدهما: اصطفاء الذات، وذلك بأن يصفي الباري تبارك وتعالى عبده من النواقص ويزكيه، وبه يفضله على سائر خلقه، وبهذا يعرف أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأمام عليه السلام يجب أن يكونا أفضل الناس في نفوسهم وأبدانهم.

ثانيهما: اصطفاء المقام، وذلك بأن يستخلصه لنفسه فيكون عبده وخليله فيجعله مستودع سره ومظهر علمه وقدرته، وهو متفرع عن الأول.

ومن الواضح أن الاصطفاء على المعنيين يقع بنحو الدفع لا الرفع، وذلك بأن يوجد الخالق تعالى عبده صافياً نقياً من كل شوب ودنس، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[2] فالاصطفاء الأول في أصل الخلقة، والثاني في المقام، وإشكال الجبر قد عرفت الإجابة عنه، وستعرف عنه المزيد فيما يأتي.

١ - سورة آل عمران: الآية٤٢.

٢ - سورة ص: الآية ٤٧.

الحقيقة الثانية: أن ملازمة العصمة للاصطفاء تتحقق بعاملين:

أحدهما: وجود المقتضي وهو ما يتحقق في نفس المعصوم بواسطة اصطفاء الذات، وهو عنصر تكويني يجعله الله سبحانه في نفس المعصوم نظير نورانية النفس.

وثانيهما: وجود ما يزيد الاقتضاء ويصيره في مرتبة الفعلية، أو يرفع الموانع من تأثيره، وهذا ما يتحقق بواسطة اصطفاء المقام، وهو عنصر اختياري يرجع إلى إرادة المعصوم وفعله.

ومن الواضح أن وجود المقتضي وحده للعصمة لا يوجب حصولها ما لم يصل الاقتضاء إلى مرحلة الفعلية، أو يزيل ما يمنع من حصولها على ما قرر في الحكمة.

والعنصر الثاني أبلغ تأثيراً من الأول؛ لأنه السبب في حصول العصمة وظهور أثرها، والحفاظ عليها، وهي مهمة أشق من الأولى؛ لوضوح أن الحفاظ على المقام المعنوي والاستمرار عليه أصعب من أصل حصوله؛ لما يتطلب حفظه من مواظبة ومراقبة وعزم وإرادة على الارتقاء، وتجنب عوامل الهبوط.

والملحوظ أن الآية المباركة تعرضت إلى أصل الاصطفاء ولم تتعرض إلى أسبابه، إلاّ أن الآيات الأخرى والروايات أشارت إلى العديد من الأسباب:

منها: اليقين بالله وبصفاته وأفعاله.

ومنها: الصبر على الابتلاءات الإلهية.

ومنها: المجاهدات المتواصلة والتحلي بأخلاق الله سبحانه.

ومنها: خلوص العبودية والانقطاع إلى الله سبحانه.

ولدى التحقيق وارجاع الأمور إلى أصولها نجد أن هذه الأسباب جميعاً تجتمع تحت عنوان جامع واحد هو العصمة، وهو جامع ماهوي لا عنواني؛ بداهة أن العصمة المطلقة تصون صاحبها من القبائح العقلية فتنزهه من الجهل والشك، كما تصونه من القبائح النفسية والرذائل الأخلاقية فضلاً عن القبائح العملية، وبها يكون العبد على يقين من ربه، دائم الانقطاع إليه، ولا يساوره شك أو سهو ولعب أو خطأ أو قبيح فضلاً عن ترك الواجب أو ارتكاب الحرام، وهذه في مجموعها خصوصيات العبد الكامل الذي يتشبه بجمال الخالق وجلاله، ويتخلق باخلاقه، ويليق بمقام الاصطفاء والخلافة عنه، وبهذا يظهر أن اصطفاء المقام أمر اختياري لا يحصل إلاّ بإرادة المعصوم، كما لا يبقى على مقامه ورتبته إلاّ بإرادته.

وحيث إن الخالق تعالى يعلم بقابليات المعصومين ومطلع على كمال معرفتهم وشدة حبهم له وكمال انقطاعهم إليه وصبرهم وتحملهم في أداء الوظائف الإلهية يوجدهم مصطفين في أصل التكوين والخلقة، ويزكيهم من الشوائب؛ لأنه سبحانه يعطي لكل شيء ما يقتضيه ويتطلبه من الكمالات والفضائل، وبهذا يظهر أيضاً أن اصطفاء الذات هو أمر اختياري لا جبري، سوى أن هذا ناشئ من العلم بلياقة المعصوم واستحقاقه لمقام العصمة، وذاك ناشئ من جهد المعصوم وجهاده في سبيل الله، فالعصمة في حدوثها وبقائها اختيارية.

الحقيقة الثالثة: أن مقام الإمامة تكويني له خصوصيات وآثار تشريعية؛ إذ يصطفي الباري عز وجل بعض عباده فيصفيهم في أنفسهم، ويستخلصهم لنفسه، ثم يجعلهم واسطة بينه وبين خلقه وحجة على عباده، وهذا يدل على أن الإمامة من الأركان التي يقوم عليها نظام الوجود الإمكاني، وبه تتضح دلالة الروايات التي نصت على أن وجود الإمام هو سر بقاء الأرض وقيام السماوات والأرض كما مر عليك بعضها.

ويدل على أن الإمامة محور عالم التشريع؛ إذ لولاها لم يعرف الله ولم يعبد، ولا تعرف أحكامه ولا شرائعه، ويدل على أن الإمامة من أصول الدين التي لولاها لا يكتمل الدين، ولا يصح التدين، وهي من اصطفاء الله واختياره، وتثبت بالنص الجلي، وليست من اختيار الناس.

ويؤكد ذلك قوله تعالى في ذرية إبراهيم عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾[1] إذ يستفاد من نص الآيات المباركات:

١ - سورة الأنعام: الآيات ٨٤- ٩٠.

أولاً: أن الاصطفاء لا يقع إلاّ على المحسن والصالح، وصيغة اسم الفاعل تدل على بقاء الاختيار والاستمرار فيه.

ثانياً: أن البقاء على مقام العصمة والاصطفاء يتوقف على الاستمرار في الاستقامة والعبودية؛ إذ حذر تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ثالثاً: أن اصطفاء الله لعباده يخصهم بأربعة مقامات هي: العصمة، والعلم، وهو ما يجمعه عنوان الكتاب في قوله: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ والحكم والنبوة، وفي هذا دلالة صريحة على بطلان كل حكم لا يرجع إلى معصوم، ولا يكون حاكمه عالماً بالعلوم الربانية.

رابعاً: أن هذه المقامات لا تختص بالأنبياء، بل تشمل ذرياتهم الذين هم على شاكلتهم في الصفات والخصوصيات الإلهية إلى يوم القيامة، وهو ما لا ينطبق إلاّ في إمامة آل محمد عليهم السلام من علي عليه السلام إلى المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وقد حدد الباري تبارك وتعالى هذا السنّة الإلهية في أنبيائه وذرياتهم، وأمر نبيه الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم باتباعها والاقتداء بها؛ إذ قال سبحانه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ ولذا نصب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام وعترته أئمة وحججاً على الناس أجمعين.

الصنف الثالث: الآيات المباركة التي نصت على تعيين الصغرى، وشخصت للأمة المعصوم باسمه ووصفه، وهي أيضاً عديدة نكتفي منها بآيتين:

الأولى: آية التطهير؛ إذ نصت على أن الله سبحانه عصم أهل البيت من الرجس وطهرهم تطهيرا، وأهل البيت اسم علم يطلق على آل محمد باتفاق المسلمين، وهو القدر المتيقن من دلالة الآية، وهو ما تؤكده سيرة النبي المصطفى ﷺ في القول والعمل[١]، والآية هي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٢].

وهي ظاهرة بل صريحة في طهارة محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام من الرجس مادياً كان أو معنوياً، وهو معنى عصمتهم، وتوضيح ذلك يتم في أمور:

الأمر الأول: أن الرجس في اللغة يطلق على القذارة مادية أو معنوية[٣]، وقد استعمل هذا اللفظ في القرآن الكريم بالمعنيين: فمن الأول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[٤] سواء أريد من الأربعة المذكورة ذاتها أو استعمالها بالشرب واللعب ونحوهما.

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٥] إذ تصف الكفر وعدم الإيمان بالرجس لما فيه من قذارة نفسية تمنع العقل من التدبر والاهتداء إلى الصواب، وربما

١ – انظر مجمع البيان: ج٨، ص١٥٦.
٢ – سورة الأحزاب: الآية٣٣.
٣ – انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٤٢، (رجس)؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٧٤، (رجس)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٤٢٢، (رجس).
٤ – سورة المائدة: الآية٩٠.
٥ – سورة يونس: الآية١٠٠.

تتصف أمراض القلب كالشك والوسوسة والنفاق بالرجس لما فيها من مس الشيطان؛ إذ يقول تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾[١] وبقرينة المقابلة بين الرجس والطهارة يستفاد اطلاقهما فيكون المراد من الطهارة كل ما شمله الرجس من مراتب القذارة المادية والمعنوية، وهذا ما يعضده (اللام) في الرجس فإنها في الآية لا تخلو إما أن تكون جنسية فتفيد نفي طبيعة الرجس بكل أفرادها، أو استغراقية فتفيد شمولها لكل أفراد الرجس.

الأمر الثاني: تدل الآية على أن الإرادة الإلهية تعلقت بإزالة الرجس عن أهل البيت عليهم السلام، وقد أكدت هذه الإرادة بستة تأكيدات وهي الأفعال المضارعة، وأداة الحصر ولام التأكيد والمفعول المطلق وحرف الجر وضمير المخاطب (عنكم) وهذه جميعاً تشكل قرائن داخلية تفيد حتمية وقوع التطهير ودوامه واستمراره، كما تدل على انحصار ذلك بأهل البيت عليهم السلام لا غير.

الأمر الثالث: أن الإرادة الإلهية على نحوين: إرادة تكوينية وهي تتعلق بخلق الأشياء وإيجادها، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٢] ومن أبرز خصوصياتها استحالة تخلف المراد عنها؛ لأنها من شؤون قدرة الباري وإرادته المباشرة.

وإرادة تشريعية، وهي تتعلق بالأحكام والأفعال ونحوهما كما في قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾[٣]

١ - سورة التوبة: الآية١٢٥.

٢ - سورة يس: الآية٨٢.

٣ - سورة المائدة: الآية ٦.

أي لا يجعل عليكم أحكاماً موجبة للعسر والحرج، أو يكلفكم بأعمال كالطهارة من الحدث الأصغر أو الأكبر موجبة لذلك.

ومن ابرز خصوصياتها إمكان انفكاك المراد وتخلفه عنها بأن تكون الإرادة موجودة ولكن لا يقع المراد في الخارج، ولا محذور عقلي أو شرعي في ذلك؛ لأن الإرادة التشريعية تغاير الإرادة التكوينية من حيث المعنى والموضوع.

أما من حيث المعنى فلأن الإرادة التكوينية تعني إيجاد الشيء في الخارج، وأما التشريعية فهي محبة وجوده، ومحبة وجود الشيء لا تلازم وجوده بالفعل، وإنما عبّر عنها بالإرادة باعتبار أنه سبحانه أحب وقوع المراد في الخارج دون أن يوقعه بالفعل، بخلاف الإرادة التكوينية فإنها تتعلق بإيجاده بالفعل؛ لذا يقول له كن فيكون.

فالإرادة في التشريعات تتعلق بذات المحبوب لا بإيجاه، بينما في التكوينات تتعلق بإيجاد الشيء وايقاعه في الخارج، والفرق كبير بين محبة وجود الشيء وبين إيجاده بالفعل، فإن الأول يمكن أن يتوقف وجوده على علة أخرى غير إرادة الله سبحانه، بينما يستحيل ذلك في الثاني، وأما من حيث الموضوع فإن موضوع الإرادة التشريعية هو إرادة العبد واختياره؛ لذا تتحقق فيها الطاعة والعصيان، ويصح عليها المدح والذم والثواب والعقاب، بينما موضوع الإرادة التكوينية فعل الخالق تبارك وتعالى فلا يصح فيها شيء مما يصح في الإرادة التشريعية.

والخلاصة: أن الإرادة التشريعية لا تتعلق بصدور الفعل عن الخالق عز وجل مباشرة، وإنما عبر إرادة المكلفين؛ إذ لا شك أن الله سبحانه يريد من

العبد الصلاة والصيام والطهارة والحج ونحوها، إلاّ أنه لا يريد وقوعها مباشرة، بل يريد من الإنسان أن يوجدها في الخارج فتكون إرادة الإنسان واختياره جزء العلة لوقوع المراد، وعلى هذا فإن إيجاد المراد في الخارج لا يتوقف على إرادة الله سبحانه فقط كما في الإرادة التكوينية، وإنما يتوقف على إرادة الإنسان واختياره، وحيث إن الإنسان قادر على الفعل والترك ومختار في فعله يكون مطيعاً إذا أتى بما يحبه الله سبحانه، وعاصياً إذا ترك، فلذا يصح إثابته على الأول ومعاقبته على الثاني، فإرادة الله سبحانه تشريعاً تعني محبة وجوده، أي أن الله أحب وجود الشيء وأراد من الإنسان أن يوجده في الخارج، والإنسان فاعل مختار، فإذا أوجده يوجد وإلاّ فلا، ذا لا ملازمة بين محبة الله للفعل وبين صدوره؛ لأن محبته تبارك وتعالى تعلقت بوجوده عن طريق الإنسان لا مباشرة، وهذه ميزة هامة للتفريق بين الإرادتين.

إذا عرفت هذا نقول:

إن الآية المباركة جعلت إزالة الرجس عن أهل البيت عليهم السلام يدور مدار الإرادة الإلهية، ولكن لم تحدد أي نحو من الإرادتين هي، إلاّ أن القرائن الداخلية والخارجية تؤكد أن المقصود من الإرادة هنا هي التكوينية لا التشريعية؛ لوضوح أن الآية في مقام الامتنان وبيان الفضل الإلهي في أهل البيت عليهم السلام، وأنه في مقام تخصيصهم وتمييزهم على سائر الناس بالطهارة من الرجس بأصنافه، وهذا لا يتحقق إلاّ بالتطهير التكويني.

وأما الطهارة التشريعية فلا خصوصية لأهل البيت فيها؛ لأن الله سبحانه أمر جميع العباد بالطهارة لدى الصلاة، وأراد منهم الوضوء والغسل سواء

كان من أهل البيت أو من غيرهم، فصيانة كلام الحكيم من اللغوية تستدعي حمل الإرادة على المعنى الأول لا الثاني، وهذا المعنى يتناسب مع قدرتهم وعلمهم ونشأتهم النورانية على ما مر عليك تفصيله، وبهذا يتضح أن الله سبحانه أراد تطهير أهل البيت عليهم السلام من الرجس إرادة تكوينية تشمل كل ما يتعلق بوجودهم المبارك.

الأمر الرابع: أن إذهاب الرجس يتم بإزالته ومحوه، ويمكن أن يقع على نحوين:

أحدهما: بالدفع، أي بمنع حصوله في أصل الوجود.

ثانيهما: بالرفع، أي برفعه بعد وقوعه، وكلاهما ممكن عقلاً وواقع خارجاً، فمن الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[١] ومن بعض معانيها أن الحسنات توفر الدواعي الخيرة في النفس فتحثها لاجتناب السيئات والارتداع عنها.

ومن الثاني ما ورد في الحديث: «صلاة المؤمن بالليل تذهب بما عمل من ذنب بالنهار»[٢] أي تمحيه وتزيله، والإذهاب أبلغ من الذهاب؛ لما يتضمنه الإذهاب من النسبة إلى فعل الغير، ويستعمل في الماديات كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٣] وفي المعنويات أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[٤].

١ – سورة هود: الآية١١٤.
٢ – الكافي: ج٣، ص٢٦٦، ح١٠؛ من لا يحضره الفقيه: ج١، ص٤٧٣، ح١٣٦٨.
٣ – سورة إبراهيم: الآية١٩.
٤ – سورة فاطر: الآية٣٤.

وهو يتطابق مع معنى الرجس الذي يشمل الاثنين أيضاً كما عرفت، والذي يتناسب مع مقام المعصوم واصطفاء ذاته وقداسة جوهره هو المعنى الأول، وقد تكفل به الباري تبارك وتعالى لأوليائه؛ لما فيه من مزيد اللطف والعناية الخاصة، لاسيما في المواقف الحرجة؛ إذ قال تعالى لدى عصمة يوسف عليه السلام من شرك الهوى والشيطان: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1] إذ شهدت الآية بنزاهة يوسف وعصمته، وفي عين الحال أكدت ثلاث حقائق أخرى:

الحقيقة الأولى: أن الخالق تبارك وتعالى صرف عنه السوء والفحشاء قبل وقوعه بهما، وهذا يدل على أن العصمة الإلهية تحصل باللطف والعناية الإلهية.

الحقيقة الثانية: إن العلة التي توجب العصمة الإلهية تنشأ من عنصرين هما: العبودية والاستخلاص، وهذا يؤكد ما ذكرناه من أن العصمة بعضها يعود إلى فاعلية الفاعل والآخر إلى قابلية القابل.

الحقيقة الثالثة: أن العصمة الإلهية لعباده الصالحين لا تقتصر على زمان أو مكان ولا على حالة دون أخرى، وهذا ما يفيده اسم الإشارة (كذلك) الذي بدأت الآية به؛ إذ يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾.

الأمر الخامس: أن عنوان (أهل البيت) اصطلاح خاص أطلق على العترة الطيبة منذ الصدر الأول، وقد أكده النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في موارد كثيرة جداً، ولم يكن يجهل أحد من الصحابة أن هذا العنوان يراد به علي وفاطمة والحسن

١ - سورة يوسف: الآية٢٤.

والحسين عليهما السلام، وقد أجمعت الأمة على أن الآية المباركة مختصة بهم[١]، وقد روى حوالي تسعين عالماً من العامة في مائة كتاب ما يربو على الألف حديث أنها نزلت فيهم، واختصت بهم[٢]. هذا فضلًا عما رواه الإمامية في ذلك[٣]، وقد روى هذه الحقيقة من الصحابة علي أمير المؤمنين[٤]، وعائشة[٥]، وأم سلمة[٦]، وأبو سعيد الخدري[٧]، وجابر بن عبد الله الأنصاري[٨]، وواثلة بن الأسقع[٩]، وأنس بن مالك[١٠]، وسعد بن أبي وقاص[١١]، وعبد الله بن عباس[١٢]، وأبو الحمراء خادم رسول الله[١٣] صلى الله عليه وآله، كما أن النبي المصطفى كان يركز هذا الاسم والمسمى في أذهان الجميع في موارد متعددة.

منها: ما عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله في بيت أم سلمة وقد نزلت عليه هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ

١ - انظر مجمع البيان: ج٨، ص١٥٦.

٢ - انظر إحقاق الحق: ج٢، ص٥٠٢.

٣ - انظر غاية المرام: ص٢٨٧-٣٠٠، الباب١ و ٢.

٤ - انظر الأمالي (للمفيد): ص٣١٨.

٥ - انظر صحيح مسلم: ج٧، ص٣١٠؛ السنن الكبرى (للبيهقي): ج٢، ص١٤٩؛ المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٤٧.

٦ - انظر المستدرك على الصحيحين: ج٢، ص٤١٦؛ سنن الترمذي: ج٥، ص٣٦١.

٧ - انظر الدر المنثور: ج٦، ص٦٠٤.

٨ - شواهد التنزيل (للحسكاني): ج٢، ص٢٩.

٩ - المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٤٧.

١٠ - المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٥٨.

١١ - المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٠٨؛ الخصائص (للنسائي): ص٤٨.

١٢ - مسند أحمد بن حنبل: ج١، ص٣٣١؛ المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٣٢.

١٣ - الدر المنثور: ج٥، ص١٩٩.

﴿أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١] فقال رسول الله ﷺ: يا علي! هذه الآية فيك وفي سبطيك والأئمة من ولدك، فقلت: يا رسول الله! وكم الأئمة بعدك؟ قال: أنت يا علي ثم الحسن والحسين، وبعد الحسين علي ابنه، وبعد علي محمد ابنه، وبعد محمد جعفر ابنه، وبعد جعفر موسى ابنه وبعد موسى علي ابنه، وبعد علي محمد ابنه، وبعد محمد علي ابنه، وبعد علي الحسن ابنه، والحجة من ولد الحسن. هكذا أسماؤهم مكتوبة على ساق العرش، فسألت الله تعالى عن ذلك فقال: يا محمد! هذه الأئمة بعدك مطهرون معصومون وأعداؤهم ملعونون»[٢].

ومنها: ما أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن أبي الحمراء خادم رسول الله ﷺ قال: حفظت من رسول الله ﷺ ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرة يخرج إلى صلاة الغداة إلاّ أتى باب علي عليه السلام فوضع يده على جنبتي الباب ثم قال: «الصلاة الصلاة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»[٣].

وحدد رسول الله ﷺ أهل البيت بعلي وفاطمة وأولادهما في زواجهما كما رواه أنس وابن عباس[٤]، وفي صبيحة عرسهما كما رواه أبو سعيد الخدري[٥]،

---

١ - سورة الأحزاب: الآية٣٣.

٢ - انظر غاية المرام: ص٢٩٣، ح٦؛ الصراط المستقيم: ج٢، ص١٥٠.

٣ - انظر الدر المنثور: ج٥، ص١٩٩.

٤ - انظر مجمع الزوائد: ج٩، ص٢٠٦-٢٠٧.

٥ - انظر مجمع الزوائد: ج٩، ص١٦٩؛ المناقب (للخوارزمي): ص٦٠؛ الدر المنثور: ج٦، ص٦٠٦.

وفي أوقات الصلاة الخمسة كما رواه ابن عباس[١]، إلى غير ذلك من مواطن ومناسبات[٢].

وقد تواتر عن أهل البيت عليهم السلام أيضاً أنهم كانوا يحتجون على غيرهم في حقهم بالإمامة والخلافة بنزول آية التطهير بهم، وكان الجميع يذعن لهذه الحقيقة، ففي احتجاج علي أمير المؤمنين على أبي بكر قال: «فأنشدك بالله ألي ولأهلي وولدي آية التطهير من الرجس أم لك ولأهل بيتك؟ » قال: بل لك ولأهل بيتك[٣]، وفي احتجاجه عليه حينما أخذ فدك من فاطمة وأخرج وكيلها منها ما يعضد هذه الدلالة أيضاً[٤].

وفي رواية سليم بن قيس عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه احتج على جمع من المهاجرين والأنصار في المسجد أيام حكومة عثمان فقال لهم: «أيها الناس! أتعلمون أن الله عز وجل أنزل في كتابه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فجمعني وفاطمة وابني حسناً وحسيناً وألقى علينا كساءه وقال: اللهم إن هؤلاء أهل بيتي ولحمتي يؤلمني ما يؤلمهم، ويحرجني ما يحرجهم، فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، فقالت أم سلمة: وأنا يا رسول الله؟ فقال: أنت - أو إنك - على خير، إنما أنزلت فيّ وفي أخي وابنتي وفي تسعة من ولد ابني الحسين خاصة ليس معنا فيها أحد

١ - انظر الدر المنثور: ج٦، ص٦٠٦.

٢ - انظر تفسير نور الثقلين: ج٦، ص٤٣ وما بعدها، الأحاديث٨٤، ٨٧، ٩٠، ٩١، ٩٤، ٩٥، ١٠١،٩٦-١١٠.

٣ - الخصال: ص٥٥٠، ح٣٠.

٤ - انظر علل الشرائع: ص١٩٠، ح١؛ تفسير القمي: ج٢، ص١٥٥.

غيرنا، فقالوا كلهم: نشهد أن أم سلمة حدثتنا بذلك فسألنا رسول الله ﷺ فحدثنا كما حدثتنا أم سلمة رضي الله عنها[١].

واحتج أبو محمد الحسن المجتبى عليه السلام على الناس بعد ما طعن في فخذه وقال: «اتقوا الله فينا فإنا أمراؤكم وضيفانكم، ونحن أهل البيت الذين قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾» فما زال يومئذ يتكلم حتى ما ترى في المسجد إلاّ باكياً[٢].

وفي احتجاج الرضا عليه السلام في مجلس المأمون العباسي حينما سأله المأمون: مَنْ العترة الطاهر؟ فقال عليه السلام: «الذين وصفهم الله تعالى في كتابه فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وهم الذين قال رسول الله ﷺ: إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما؟ أيها الناس لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم»[٣] وقريب منه ورد عن الصادق عليه السلام [٤].

وتدلنا هذه الروايات على عدة حقائق أخرى:

الحقيقة الأولى: أن أهل البيت عليهم السلام كانوا معروفين بأعيانهم وأسمائهم عند جميع المسلمين، وقد حددهم الرسول ﷺ وحصرهم في علي وفاطمة وأولادهما، ونفى أن يكون غيرهم من أهل البيت حتى وإن كان من نساء

---

١ – كمال الدين: ص٢٧٨؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٦، ص٤٥، ح٩٢.

٢ – مجمع الزوائد: ج٩، ص١١٩.

٣ – عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٠٧– ٢٠٨، ح٢.

٤ – انظر الكافي: ج١، ص٢٨٦، ح١.

النبي، وقد كانت هذه الحقيقة من المسلّمات عند جميع الصحابة.

الحقيقة الثانية: أن النبي المصطفى أكد عصمتهم التي نزل بها القرآن في آية التطهير بأحاديث كثيرة منها حديث الثقلين المتواتر بطرق الفريقين، وأوصى الأمة باتباعهم والرجوع إليهم، ونص على أنهم لا يفارقون القرآن، ويقودون الأمة إلى هداها.

ومنها: حديث السفينة المتواتر وقد مثل رسول الله أهل بيته بالسفينة التي تمخر البحر، وقال لأمته: اركبوا فيها والتجئوا إليها لتعصمكم من الأخطار وتنجيكم من الهلكة.

ومنها: حديث الأمان الذي أكد رسول الله لأمته أن أهل البيت أمان لهم ومعتصم، وقد مرت عليك نصوص بعض هذه الأحاديث.

الحقيقة الثالثة: أن العصمة والطهارة لا تختص بالخمسة الطيبة من أهل الكساء، بل تجري في التسعة الباقية من ذرية الحسين؛ لأنهم مشمولون بعنوان (أهل البيت) و(العترة) ونحوهما لغة وعرفاً، بل هو ما ورد في النصوص المتواترة والواردة بطرق الفريقين.

منها: حديث أبي ذر قال: سمعت رسول الله يقول: «من أحبني وأهل بيتي كنا وهو كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى، ثم قال: «أخي خير الأوصياء، وسبطي خير الأسباط ، وسوف يخرج الله تبارك وتعالى من صلب الحسين أئمة أبراراً، ومنا مهدي هذه الأمة» قلت: يا رسول الله وكم الأئمة بعدك؟ قال: «عدد نقباء بني إسرائيل»[1].

١ – انظر بحار الأنوار: ج٣٦، ص٢٩٣، ح١٢٢.

وقريب من هذا ورد عن أنس بن مالك إذ قال: صلى بنا رسول الله صلاة الفجر، ثم أقبل علينا وقال: «معاشر أصحابي! من أحب أهل بيتي حشر معنا، ومن استمسك بأوصيائي من بعدي فقد استمسك بالعروة الوثقى» فقام إليه أبو ذر الغفاري فقال: يا رسول الله! كم الأئمة بعدك؟ قال: «عدد نقباء بني إسرائيل» فقال: كلهم من أهل بيتك؟ قال: «كلهم من أهل بيتي، تسعة من صلب الحسين والمهدي منهم»[1].

ومنها: حديث جابر عن رسول الله وقد سماهم الرسول بأسمائهم حتى أتم الاثني عشر إماماً[2]، وقريب منه ورد عن أبي سعيد الخدري[3] وسلمان[4].

ومنها: حديث ابن عباس قال: سمعت رسول الله يقول: «أنا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهرون معصومون»[5] إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة[6].

والنتيجة التي نستخلصها من كل هذا هي: أن آية التطهير المباركة حصرت العصمة بأهل البيت، وعيّنت أهل البيت بعلي وفاطمة والحسن والحسين

١ - انظر بحار الأنوار: ج٣٦، ص٣١٠، ح١٥٠.
٢ - انظر كفاية الأثر: ص٦٢؛ كمال الدين: ص٣١١، ح٢.
٣ - انظر بحار الأنوار: ج٣٦، ص٢٩٠، ح١١٣.
٤ - كفاية الأثر: ص٤١؛ بحار الأنوار: ج٣٦، ص٢٨٩، ح١١١.
٥ - بحار الأنوار: ج٣٦، ص٢٤٣، ح٥٠.
٦ - انظر الإمامة والتبصرة: ص١١١، ح٩٨؛ الإرشاد(للمفيد): ج٢، ص٣٤٧؛ معاني الأخبار: ص٩٠؛ الغيبة(للطوسي): ص١٩٥.

والتسعة من أولاد الحسين إلى المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، فيخرج عنهم غيرهم بالجزم واليقين.

الحقيقة الرابعة: أن الآية والروايات المذكورة اتفقت على انحصار العصمة بالعترة الطاهرة، وأما نساء النبي فغير داخلات في دلالة الآية لوجوه:

أحدها: أن عنوان أهل البيت لم يكن يطلق في ذاك الزمان على النساء، بل العنوان كان اصطلاحاً خاصاً بعترة النبي فقط ، فلا يشمل غيرهم، وتشهد لهذا شواهد كثيرة:

منها: قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأم سلمة حينما قالت: يا رسول! الله ألست من أهل البيت؟ قال: «إنكِ على خير، إنكِ من أزواج النبي»[١] ويعضده قول الراغب بأن هذا الاسم تُعورف في أسرة النبي[٢] صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا اطلق ينصرف اللفظ إليهم، وأما إطلاقه على الزوجة فمن باب التسامح والمجاز، وبه وردت نصوص عديدة[٣].

ومنها: قول زيد بن أرقم حينما سئل عن ذلك، فقيل له: من أهل بيته نساؤه؟ قال: لا، واسم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها[٤].

وكان جواب زيد يفيد أن أهل بيت الرجل لا تطلق إلاّ على من كانت بينه

١ - انظر مناقب أمير المؤمنين: ج١، ص١٢٣؛ الدر المنثور: ج٦، ص٦٠٤.
٢ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٩٦، (أهل)، ص١٥١، (بيت).
٣ - انظر مجمع البحرين: ج٥، ص٣١٣، (أول).
٤ - انظر صحيح مسلم: ج٧، ص١٢٣.

وبينه وشائج قربى لا تقبل الزوال، وهذا لا ينطبق على الزوجة؛ لأن علاقتها تنقطع بالموت والطلاق، فإن أهل الرجل لغة وعرفاً زوجته، بينما أهل بيته هم أقرباؤه، والآية تحدثت عن الثاني لا الأول.

ثانيها: الخروج الموضوعي

وتوضيحه: أن الآيات الكريمة وردت في سياق الحديث عن نساء النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وجميع الآيات التي تحدثت عن نساء النبي نصت على أنهن كسائر الناس يمكن أن يقعن في الذنب والمعصية، ويأتين الفواحش، وحثتهن على اجتناب كل ذلك، وعلى إطاعة الله ورسوله؛ لأنهن نساء للنبي، فالأجدر والأولى بهنَّ أن يترفعن عن كل ما يسيء للنبي بواسطتهن، فمضمون آيات النساء يفيد عدم عصمة نساء النبي، بينما آية التطهير تنص على عصمة أهل البيت، ومن مجموع الآيات يتضح أن نساء النبي خارجات عن دلالة الآية خروجاً موضوعياً، ولو نستعرض نصوص الآيات سنجد أن هذه النتيجة صريحة في ذلك؛ إذ قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾

وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾[1].

ونلاحظ أن محور الآيات المباركة يدور على عدم عصمة نساء النبي صلى الله عليه وآله، وأنهن يمكن أن يكن عاصيات ومطيعات، ويضاعف الله ثواب المطيعة كرامة للنبي صلى الله عليه وآله، ويضاعف عقاب العاصية لهتكها لحرمة النبي صلى الله عليه وآله.

وتشهد الكثير من الروايات الواردة أن بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله كن لا يعاشرنه بالمعروف، بل كن يغاضبنه ويهجرنه من أجل متاع الدنيا كالنفقة أو التوسعة فيها، ومن ذلك ما أخرجه البخاري وغيره عن عمر لما حدثته زوجته عن نساء النبي صلى الله عليه وآله وكيفية معاشرتهن له قال: فقلت لحفصة: أتراجعين رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قالت: نعم، وتهجره إحدانا اليوم إلى الليل. قال: فقلت: قد خابت من فعلت ذلك منكن وخسرت، أتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله صلى الله عليه وآله فإذا هي قد هلكت[2].

وقريب منه رواه مسلم عن جابر فيما كن يفعلنه بعض نسائه بسبب النفقة حتى قام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصة، وكلاهما يقولان: تسألان رسول الله صلى الله عليه وآله ما ليس عنده[3].

ومن الواضح أن هذه التصرفات تنم عن صدور ما يستوجب تحذيرهن

١ - سورة الأحزاب: الآيات ٣٠-٣٤.
٢ - صحيح البخاري: ج٣، ص١٠٤؛ سنن الترمذي: ج٥، ص٩٤.
٣ - صحيح مسلم، ج٤، ص١٨٧.

وحثهن على إطاعة الله ورسوله، وهذه وحدها كافية لإخراجهن عن دلالة الآية المباركة.

فإن آية التطهير تدور مدار العصمة مما يدل على أنها وإن وردت في سياق الحديث عن نساء النبي إلاّ أنها أجنبية عنه موضوعاً، ويؤكد هذه الحقيقة تذكير الضمير في آية التطهير ليشير إلى خروج الآية عن سياق آيات النساء التي أنث فيها الضمير. نعم لسائل أن يقول: ما هو السبب في ورود آية التطهير في سياق آيات النساء إذن؟ وهذا ما ستعرف جوابه قريباً.

ثالثها: فهم الصحابة الذين سمعوا الآية حين نزولها وحينما فسرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين مضامينها؛ إذ لم يفهم أحد منهم دخول نساء النبي في أهل بيته.

رابعها: إقرار نساء النبي بأنهن غير داخلات فيها، فعن مجمع دخلت مع أمي على عائشة فسألتها أمي قالت: أرأيت خروجك يوم الجمل؟ قالت: إنه كان قدراً من الله، فسألتها عن علي عليه السلام فقالت: تسأليني عن أحب الناس كان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وزوج أحب الناس كان إلى رسول الله، لقد رأيت علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً وجمع رسول الله بثوب عليهم، ثم قال: «اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وحامتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا» فقلت: يا رسول الله أنا من أهلك؟ قال: «تنحي فإنك إلى خير»[1].

وهذا المضمون ورد عن أم سلمة أيضاً، فعن عمار بن أبي معاوية اليمني عن عمرة قالت: سمعت أم سلمة تقول: نزلت هذه الآية في بيتي: ﴿إِنَّمَا

١ - شواهد التنزيل: ج٢، ص٦٢، ح٦٨٤.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وفي البيت سبعة: جبرائيل وميكائيل ورسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم قالت: وأنا على باب البيت جالسة. قلت: يا رسول الله! ألست من أهل البيت؟ قال: «إنكِ على خير، إنكِ من أزواج النبي» وما قال إنني من أهل البيت[1].

ومن الواضح أن السياق مجرد قرينة احتمالية لا ينهض في مقابل هذه الأدلة المتضافرة على عدم دخول النساء في الآية فالتمسك به في مقابلها من مصاديق الاجتهاد في مقابل النص، وترجيح للمرجوح، وتقديم للاحتمال على العلم، والسبب الذي أوجب ورود آية التطهير في معرض الحديث عن نساء النبي يرجع إلى جهتين:

إحداهما: بلاغية تقتضيها الحكمة الإلهية، وذلك لأن نساء النبي يشكلن البيت المادي للنبي، فهن أهله في جسده وفي ظاهره البشري، بينما عترته يشكلون بيته المعنوي وامتداده الروحي، ويقبح بالحكيم أن يتناول بيت النبي المادي ويهمل ذكر البيت المعنوي، فإن إغفال ذكر الأهم مع ذكر المهم مناف للحكمة.

ثانيهما: تعليمية تربوية؛ فإن نساء النبي يمثلن أسرة النبي وسمعته، فالأولى بهن أن يكن مطيعات له ومتحصنات بحصنه، ولأجل بلوغ هذه الغاية لا بد من إيجاد المثل والقدوة الحسنة لهن، وهذا ما يتطلب ذكر أهل بيته المعنوي؛ ليكون النموذج الذي يجسد لهن أخلاق النبي وكمالاته فيقتدين

١ - شواهد التنزيل: ج٢، ص١٢٥، ح٧٥٧.

به، ولا يخرجن عن سياقه وأصوله، ولتوضيح ذلك نقول: هناك فرق بين أهل الرجل وأهل بيته في لغة العرب، فإنهم يطلقون لفظ الأهل على كل من يجتمع مع الرجل في سكن واحد[١] وهو يشمل الزوجة، بينما يطلقون (أهل البيت) على أقرباء الرجل وخواصه منهم.

والسر في ذلك أن البيت يطلق على مأوى الإنسان وموضع قراره وسرّه وما فيه حفظ شأنه ومكانته، ولذا أطلق على المسجد (بيت الله) وسميت الكعبة بيت الله، وكذلك أطلق على بيت النبي ﷺ وقلب المؤمن وهكذا[٢].

وبهذا الإطلاق ورد القرآن أيضاً؛ إذ أطلق الأهل على الزوجة في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾[٣] وقوله سبحانه: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾[٤] إذ أطلق لفظ الأهل على الزوجة، كما أطلق على العيال الشامل للزوجة وغيرها؛ إذ قال: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[٥] فإن الاستثناء لا يصح إلّا إذا كانت داخلة في الأهل.

بينما اطلق على من يجمعهم مع الرجل علاقة القرابة والشأن (أهل البيت) إذ قال تعالى في قضية إبراهيم حينما بشر بالأولاد: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ

١ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٩٦، (أهل).
٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٥١، (بيت)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص١٩٣، (بيت)؛ ج٥، ص٣١٤، (أهل)؛ بصائر ذوي التمييز: ج٢، ص١٩٦،بصيرة(٢).
٣ - سورة يوسف: الآية٢٥.
٤ - سورة طه: الآية١٠.
٥ - سورة العنكبوت: الآية٣٣.

أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾[١] وذلك بعد أن منّ الله عليه بالأولاد والذرية الطيبة التي يراد أن تكون امتداد النبوة؛ إذ بشره تعالى بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ودعاء الملائكة على أهل بيت إبراهيم شمل سارة أيضاً؛ لأنها كانت ابنة عمه وليست زوجته فقط[٢].

وقال في قصة موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾[٣] إذ ألقى الله سبحانه محبته في قلب فرعون، وجعله في عنايته وحراسته وأمنه من حيث كان يتوقع عليه الخطر منه[٤].

ونلاحظ من كل هذا أن القرآن حينما أضاف الأهل إلى البيت أراد منه ما يناسب صاحب البيت في الشأن والمنزلة المعنوية، وإذا أطلق لفظ الأهل أراد منه كل من يساكنه وينسب إليه ولو كان زوجة، وهذا يؤكد أن البيت له صورتان:

صورة مادية، تتكون من السكن والساكنين فيه من زوجة وأولاد.

وصورة معنوية وتتكون من الأقرباء الذين يمثلون أخلاق الرجل وروحه ومعتقده، وهذا النحو من الفهم والتفريق معهود بين العقلاء، ولذا نلحظ أنهم يطلقون لفظ الأب على الأستاذ المربي، فيقال فلان الأب الروحي والأخ الروحي وإن كان من صلب إنسان آخر.

---

١ - سورة هود: الآية٧٣.

٢ - انظر مجمع البيان: ج٥، ص٣٠٨-٣٠٩، تفسير الآية المزبورة.

٣ - سورة القصص: الآية١٢.

٤ - انظر مجمع البيان: ج٧، ص٤٢٠، تفسير الآية المزبورة.

أو يقول الوالد لولده الذي يخرج عن طريقه وسيرته أنه ليس ولدي، بينما ينسب ولد الغير له ويقول هو (ابني) تشريفاً أو تشرفاً؛ لأنه يطابقه في الفكر والعمل، والمسألة هنا من هذا القبيل، فالذي يمثل النبي في رسالته وفي مقامه ومنزلته هم أهل بيته؛ لأنهم يمثلون بيته المعنوي، بينما الذي يساكن النبي في داره فهم أهله؛ لأنهم يمثلون بيته المادي.

ومن الواضح أن التعبير بأهل البيت يفيد العناية في البيت ومكانته، والإضافة إليه تقتضي المناسبة والسنخية، كما يقال (ضريح الحسين) و(صواع الملك) و(كتاب الله) بخلاف إطلاق لفظ الأهل من دون إضافة، فإنه لا يتضمن الإشارة إلى التناسب والمسانخة كما لا يخفى على من له إلمام باستعمالات الألفاظ وإشاراتها المعنوية.

إذا عرفت هذا يتضح أن الآيات الأولى التي تحدثت عن نساء النبي وحثتهن على الطاعة واجتناب المعصية أشارت إلى البيت المادي، بينما آية التطهير تناولت البيت المعنوي، وبهذا ندرك مدى عمق الحكمة والبلاغة التي استدعت إدراج آية التطهير في سياق آيات النساء، والغاية منها هو التعليم والتربية، وليس للإشارة إلى أن نساء النبي من أهل بيته.

ومن كل ما تقدم نستنتج النتائج التالية:

النتيجة الأولى: أن آية التطهير تدل على عصمة أهل بيت النبي ﷺ.

النتيجة الثانية: أن أهل بيت النبي هم عترته الطاهرة علي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة التسعة من ذرية الحسين وآخرهم مهدي الأمة ومنجيها في آخر الزمان صلوات الله عليهم أجمعين.

النتيجة الثالثة: أن دلالة الآية المباركة منحصرة بالعترة، فلا تشمل نساء النبي بوجه من الوجوه، وهو القدر المتيقن الذي دلت عليه الآية وعليه إجماع المسلمين وغيرهم[١].

وإذ لا حظنا دلالة هذه الآية المباركة بالقياس إلى آية الاصطفاء وآية العهد الإلهي يتضح لنا بها لا يقبل الشك أن الإمامة الإلهية مختصة بمحمد وآل محمد، وأنهم الذين اصطفاهم الله وعصمهم من كل ذنب أو نقص أو خلل.

الثانية: آية المودة، وهي قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[٢] فإنها أوجبت على الأمة مودة القربى، ولا خلاف بين المسلمين وغيرهم في أن القدر المتيقن من القربى هم علي وفاطمة والحسن والحسين وذرية الحسين؛ لأنهم قربى الرسول، وأما نساؤه فلسن من قرباه بلا مخالف[٣]، وهو المروي متضافراً بطرق الفريقين[٤].

والمودة أخص من الحب؛ لأنها تعني المحبة الظاهرة على الجوارح، والتواد إظهار المحبة من الطرفين كالزوجين ونحوهما[٥]، ولذا قال سبحانه:

---

١ - وعليه فدعوى دخول نساء النبي في الآية مشكوكة يتوقف إثباتها على الدليل وهو مفقود؛ إذ لا يوجد إلاّ بعض الأقوال من بعض المفسرين الذين أضافوا النساء خصومة لآل محمد على ما حقق في محله.

٢ - سورة الشورى: الآية٢٣.

٣ - انظر الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٣٤٣ وما بعدها؛ روح المعاني: ج٢٥، ص٤٥.

٤ - انظر تفسير الكشاف: ج٤، ص١٣٢-١٣٣؛ روح المعاني: ج٢٥، ص٤٥؛ مجمع البيان: ج٩، ص٤٨ وما بعدها؛ تفسير الآية المباركة.

٥ - انظر بصائر ذوي التمييز: ج٥، ص١٨٤، بصيرة(١٤)؛ لسان العرب: ج٣، ص٤٥٤-٤٥٥، (ودد)؛ وانظر معجم الفروق اللغوية: ص١٧٤، (٦٨٦).

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[١] بداهة أن العلاقة الزوجية لا تقتصر على الحب القلبي بين الزوجين، بل الحب الظاهر أثره على جوارحهما، ويقال المرأة الودود هي التي تظهر حبها للآخرين.

والودود من أسمائه تعالى؛ إذ يقول: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾[٢] أي يحب عباده، ويلطف بهم، ويظهر أثر حبه لهم في نعمه الظاهرة والباطنة.

والآية تدل على عصمة القربى من جهة إطلاق الأمر بالمودة الملازمة للإتباع والاقتداء؛ إذ لا يستقيم هذا الاطلاق إلاّ مع العصمة وهو ما يقضي به العقل دفعاً للتناقض في التشريع ومخالفة الحكمة؛ إذ لا يعقل أن يود الناس من يصدر منه القبيح ويرتكب المعاصي حتى في مورد القبح والمعصية، ونلاحظ أن الآية المباركة تعين للأمة المعصوم الذي يجب اتباعه والاقتداء به وتسميه باسمه ووصفه بما يرفع كل شك أو احتمال يمكن أن ينافيه. فهي بالدلالة التلازمية تثبت العصمة وبالدلالة المطابقية تعيّن المعصوم.

ويتحصل من كل ما تقدم: أن القرآن الكريم نص على عصمة آل محمد في الكثير من آياته، كما نص على أنّ هذه العصمة ملازمة لجواهرهم النورية، وليست حالة عارضة أو مفارقة، فهم معصومون منذ الجبلة الأولى، وهي ملازمة لهم في كل زمان ومكان.

---

١ – سورة الروم: الآية٢١.

٢ – سورة البروج: الآية ١٤.

الثاني: في الأدلة الروائية

لقد أجمع المسلمون طراً على أن الأئمة من عترة المصطفى صلى الله عليه وآله لم يرتكبوا معصية، ولا تركوا طاعة، ولم يفعلوا قبيحاً قط ، ولم يروِ المؤرخون شيئاً من ذلك بالرغم من ترصد العديد للانتقاص منهم، أو نسبة القبيح إليهم، عداءً أو طمعاً بالمال أو تقرباً للملوك والسلاطين من أعدائهم، وهذا وحده دليل يفيد المنصف اليقين بعصمتهم.

ويزداد اليقين بذلك بما ينفي معه أي احتمال للشك مراجعة الأخبار الواردة بهذا الشأن، فقد تواترت بطرق الفريقين الكثير من الروايات الدالة على عصمتهم عليهم السلام بالدلالة المطابقية أو التضمنية أو التلازمية، منها ما رواه الفريقان بالسند المتصل عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «أنا وعلي والحسن والحسين والتسعة من ولد الحسين مطهرون معصومون»[١] وفاطمة الصديقة داخلة فيهم بالضرورة والإجماع، والأخبار المتواترة الأخرى[٢]، وهو ما يقضي به العقل على ما عرفت تفصيله مما تقدم، وباختصار يمكن تصنيف الأخبار الواردة بعصمتهم على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: الروايات التي دلت على أن العصمة جوهر روح المعصوم ومكونه الذاتي نظير أحاديث الروح الذي أودعه الله سبحانه في الإمام، وحينئذ تتوافق مع دلالة الآيات المباركة التي تقدم الكلام فيها.

١ - انظر تفاصيل الأسانيد في إحقاق الحق: ج٢، ص٥٣٠؛ ج١٣، ص٦٠؛ كمال الدين: ص٢٦٦، ح٢٨؛ بحار الأنوار: ج٥، ص٢٠١، ح١٣.

٢ - انظر العوالم: ج١١، ص٨٦، ح١، ح٢؛ إحقاق الحق: ج١٩، ص١١٧.

منها: صحيح أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾[١] قال: «خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مع الأئمة وهو من الملكوت»[٢] وقد مر عليك أن الملكوت هو ما يختص بعالم الغيب من الحقائق المعنوية، ولعل الرواية ظاهرة في أمرين:

الأول: أن الروح هي روح الإمام عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله، ولذا وصفه بأنه من الملكوت، وأنه أعظم من كبار الملائكة مثل جبرئيل وميكائيل، وهذا ما يعضده المضمون الوارد في حديث الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في تفسير الآية المباركة. قال: «أن الله تبارك وتعالى أحد صمد، والصمد الشيء الذي ليس له جوف، وإنما الروح خلق من خلقه له بصر وقوة وتأييد يجعله الله في قلوب الرسل والمؤمنين»[٣].

وفي حديث آخر للصادق عليه السلام فصل حقيقة الروح فقال: «في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح البدن وروح القدس وروح القوة وروح الشهوة وروح الإيمان، وفي المؤمنين أربعة أرواح أفقدها روح القدس، روح البدن، وروح القوة وروح الشهوة وروح الإيمان، وفي الكافر ثلاثة أرواح: روح البدن وروح القوة وروح الشهوة، ثم قال: روح الإيمان يلازم الجسد

١ - سورة الإسراء: الآية٨٥.
٢ - الكافي: ج١، ص٢٧٣، ح٣؛ بصائر الدرجات: ص٤٨٢، ح٩.
٣ - بصائر الدرجات: ص٤٨٢ - ٤٨٣، ح١١؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٧٠، ح٥٧.

ما لم يعمل بكبيرة، فإذا عمل كبيرة فارقه الروح، وروح القدس من سكن فيه فإنه لا يعمل بكبيرة أبداً»(١).

والثاني: أنه روح مقدس كالملائكة يسدد به الله أولياءه، وهذا ما يستظهر من مثل صحيح أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك أخبرني عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾(٢) قال: «يا أبا محمد! خلق والله أعظم من جبرئيل وميكائيل، وقد كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يخبره ويسدده، وهو مع الأئمة عليهم السلام يخبرهم ويسددهم»(٣).

وفي حديث سماعة بن مهران قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن الروح خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يسدده ويرشده، وهو مع الأئمة الأوصياء من بعده»(٤) وقريب من هذا المضمون ورد في صحيح محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام أيضاً(٥)، وكلا المعنيين يدلان على أن روح الإمام عليه السلام معصومة من الله سبحانه في أصل خلقه وتكوينه.

---

١ - بصائر الدرجات: ص٤٦٥، ح٣؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٥٤، ح١٤.
٢ - سورة الشورى: الآيتان٥٢-٥٣.
٣ - بصائر الدرجات: ص٤٧٥، ح١؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٥٩، ح٢٧.
٤ - بصائر الدرجات: ص٤٧٦، ح٤؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٦٠، ح٣١.
٥ - بصائر الدرجات: ص٤٧٦- ٤٧٧، ح٩؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٦١، ح٣٤.

الصنف الثاني: الروايات التي أرجعت عصمة الإمام إلى علمه بالحقائق، وهي كثيرة أيضاً.

منها: حديث أبي حمزة الثمالي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن العلم، أهو علم يتعلمه العالم من أفواه الرجال، أم في الكتاب عندكم تقرأونه فتعلمون منه؟

قال: «الأمر أعظم من ذلك وأوجب، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ ثم قال: أي شيء يقول أصحابكم في هذه الآية؟ أيقرون أنه كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان؟» فقلت: لا أدري - جعلت فداك - ما يقولون، فقال لي: «بلى قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان حتى بعث الله تعالى الروح الذي ذكر في الكتاب، فلما أوحاها إليه علم بها العلم والفهم، وهي الروح التي يعطيها الله تعالى من شاء، فإذا أعطاها عبداً علمه الفهم»[١].

وقوله: لا يدري يشمل أمرين:

الأول: حاله قبل خلق النبي والإمام عليهما السلام، فلما خلقه علمه وفهمه.

والثاني: شأنه؛ إذ لا شك أن النبي والإمام لا يدري من نفسه شيئاً، بل لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشور لولا أن يحييه الله ويعطيه ويعلمه.

والرواية صريحة في أن عصمة الإمام تعود إلى العلم والفهم، وقريب من

---

١ - الكافي: ج١، ص٢٧٣- ٢٧٤، ح٥؛ انظر بصائر الدرجات: ص٤٨٠، ح٥.

هذا المضمون ورد في صحيح إبراهيم بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً[١]، وفي حديث عبد الله بن طلحة عنه عليه السلام[٢].

ومنها: حديث الرضا عليه السلام الذي أرجع العصمة إلى النور. قال عليه السلام: «إن الله عز وجل أيدنا بروح منه مقدسة مطهرة ليست بملك، لم تكن مع أحد ممن مضى إلاّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي مع الأئمة منا تسددهم وتوفقهم، وهي عمود من نور بيننا وبين الله عز وجل»[٣].

وهي صريحة في أن الروح الإلهية إحدى جهات امتياز المصطفى وعترته على سائر الأنبياء والأوصياء التي توجب علو مقامهم وسعة علمهم وعصمتهم.

ومنها: حديث المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن علم الإمام بما في أقطار الأرض وهو في بيته مرخى عليه ستره؟ فقال: «يا مفضل! إن الله تبارك وتعالى جعل في النبي صلى الله عليه وآله خمسة أرواح: روح الحياة فبه دب ودرج، وروح القوة فيه نهض وجاهد، وروح الشهوة فبه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال، وروح الإيمان فبه آمن وعدل، وروح القدس فبه حمل النبوة، فإذا قبض النبي صلى الله عليه وآله انتقل روح القدس فصار إلى الإمام، وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يزهو، والأربعة الأرواح تنام وتغفل وتزهو وتلهو، وروح القدس كان يرى به»[٤].

١ - بصائر الدرجات: ص٤٧٩، ح٣؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٦٢، ح٤٠.
٢ - بصائر الدرجات: ص٤٧٨، ح١؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٥٩، ح٣٠.
٣ - بحار الأنوار: ج٢٥، ص٤٨، ح٧، وفيه: «وهو عمود من نور».
٤ - الكافي: ج١، ص٢٧٢، ح٣؛ وانظر بصائر الدرجات: ص٤٧٤، ح١٣.

الصنف الثالث: الروايات التي دلت على تلازم العترة والقرآن، وأن الله سبحانه عصمهم بحبل منه وهو القرآن.

منها: ما رواه الصدوق قدس سره بإسناده عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده عن علي بن الحسين عليه السلام قال: «الإمام منا لا يكون إلاّ معصوماً، وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها، فلذلك لا يكون إلاّ منصوصاً» فقيل له: يا بن رسول الله! فما معنى المعصوم؟ فقال: «هو المعتصم بحبل الله، وحبل الله هو القرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة، والإمام يهدي إلى القرآن والقرآن يهدي إلى الإمام، وذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[1]»[2] وقريب من هذا المضمون ورد في رواية الخصال أيضاً[3].

ويتطابق مع مضمون حديث الثقلين ونحوه من الأحاديث المتواترة لفظاً ومعنىً، والدالة على أن آل محمد والقرآن على نهج واحد لا يفترق أحدهما عن الآخر إلى يوم القيامة، وملازم القرآن معصوم بلا ريب، لأن ملازم المعصوم معصوم.

وفي رواية أخرى بإسناده عن الحسين الأشقر. قال: قلت لهشام بن الحكم: ما معنى قولكم إن الإمام لا يكون إلاّ معصوماً؟ قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن ذلك فقال: «المعصوم هو الممتنع بالله من جميع محارم الله، وقال الله تبارك

---

١ - سورة الإسراء: الآية٩.
٢ - معاني الأخبار: ص١٣٢،ح٢.
٣ - انظر الخصال: ص٣١٠، ح٨٤.

وتعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]»[2].

والباء في قوله «الممتنع بالله» للسببية، وتدل على معنيين:

أحدهما: أن الله سبحانه عصمه في أصل خلقه عن المعصية، وحينئذ يتطابق مع دلالة الصنف الأول من الروايات.

وثانيهما: أنه يمتنع عن المحارم بسبب توفيق الله وتأييده له، وهذا أظهر من الأول كما يشهد له الاستدلال بالآية المباركة التي نصت على أن العصمة ناشئة من الاعتصام بالله سبحانه.

ويمكن أن نكتفي بهذه النماذج من الروايات، ولو أردنا تناولها كلها أو جلها لاستدعى موسوعة مستقلة، ولكن فيما تقدم من مباحث العلم والقدرة ما يغني عن مزيد البيان، ويكفينا توضيحاً هنا ما رواه محمد بن أبي عمير في الخبر الصحيح قال: ما سمعت ولا استفدت من هشام بن الحكم في طول صحبتي إياه شيئاً أحسن من هذا الكلام في صفة عصمة الإمام، فإني سألته يوماً عن الإمام أهو معصوم؟ قال: نعم. قلت له: فما صفة العصمة فيه؟ وبأي شيء تعرف؟ قال: إن جميع الذنوب لها أربعة أوجه لا خامس لها: الحرص والحسد والغضب والشهوة، فهذه منتفية عنه. لا يجوز أن يكون حريصاً على هذه الدنيا وهي تحت خاتمه؛ لأنه خازن المسلمين فعلى ماذا يحرص؟ ولا يجوز أن يكون حسوداً؛ لأن الإنسان إنما يحسد من هو فوقه وليس فوقه أحد، فكيف يحسد من هو دونه؟ ولا يجوز أن يغضب لشيء من

١ - سورة آل عمران: الآية١٠١.

٢ - معاني الأخبار: ص١٣٢،ح٢.

أمور الدنيا إلاّ أن يكون غضبه لله عز وجل، فإن الله قد فرض عليه إقامة الحدود وأن لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا رأفة في دينه حتى يقيم حدود الله عز وجل، ولا يجوز أن يتبع الشهوات ويؤثر الدنيا على الآخرة؛ لأن الله عز وجل حبب إليه الآخرة كما حبب إلينا الدنيا، فهو ينظر إلى الآخرة كما ننظر إلى الدنيا، فهل رأيت أحداً ترك وجهاً حسناً لوجه قبيح، وطعاماً طيباً لطعام مر، وثوباً ليناً لثوب خشن، ونعمة دائمة باقية لدنيا زائلة فانية[1]؟

ونلاحظ من مجموع هذه الروايات أنها تتفق على معنى مشترك، وهو أن عصمة الإمام جبلية، وهي من العالم الملكوتي الذي يرجع إلى نورانية النفس واليقين بمعرفة الله وعبادته وطاعته.

وبهذا يتضح وجه التطابق بين أدلة عصمة الإمام وأدلة علمه وقدرته، وهذا ما يشهد له حكم العقل القاضي بوجوب عصمة الإمام، كما ستعرفه فيما يأتي.

الثالث: في الأدلة العقلية

إن الفطرة السليمة تقضي بلزوم أن يكون حجة الله وخليفته في خلقه معصوماً من كل زلل أو خطأ أو فعل قبيح؛ لأن عصمته تدل على عصمة الخالق، ونزاهته تدل على نزاهته وقدسيته، ولولاه لم يعرف كمال الخالق تبارك وتعالى وجلاله، ولم تتحقق حكمته في الخلق؛ إذ لا يعقل أن ينصب الباري عز وجل أئمة يهدون بأمره وهم في عين الحال خطّاؤون ومذنبون وجاهلون

١ - انظر الخصال: ص٢١٥،ح٣٦؛ علل الشرائع: ج١، ص٢٠٥، ح٢؛ الأمالي (للصدوق): ص٥٠٥؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص١٩٢، ح١.

يحتاجون إلى غيرهم، وهذا مما يدركه كل عاقل سليم الفطرة بأدنى التفات، وبالرغم من ذلك فإنه يمكن أن يستدل لضرورة عصمة الإمام بحكم العقل من وجوه عديدة لغايات ثلاث:

الأولى: إزالة الالتباس عن مضامين الأدلة النقلية التي قد تصاب ببعض التشوش أو الغموض بسبب الجهل بمفادها، أو المعاندة لنصوصها الصريحة، أو الظاهرة من قبل بعض الباحثين أو أهل العلم، فإن الدليل العقلي إذا انضم إلى الدليل النقلي فإنه يعضده، ويؤكد مضمونه بما ينفي معه الشك والحيرة.

الثانية: محاكاة بعض العقول التي أنست بالبرهان والاستدلالات العقلية، أو لم تؤمن بالدليل النقلي بسبب الاختلاف في الدين أو المذهب أو العقيدة؛ بداهة أن الأحكام العقلية من المشتركات بين البشر إذا كانت ضمن موازين الاستدلال المنطقي الصحيح، فلذا تكون حجة على غير المسلم وغير الإمامي وفي عين الحال تكون حجة على الملحد ونحوه.

الثالثة: إظهار الجهة الحيادية في البحث بعيداً عن التعصب، أو الانطلاق بالبحث عن خلفيات فكرية أو اعتقادية مسبقة التي قد يتهم بها المستدلون بالأدلة النقلية أحياناً، فبالاستدلال العقلي نوكل البحث إلى الوجدان ونرجع الباحث إلى قواعد مشتركة صحيحة يتفق عليها جميع العقلاء بما لا يبقي مجالاً للشك أو الاستفهام في النتائج الحقة التي ينبغي أن يؤمن بها كل منصف.

هذا ويمكن أن نكتفي في الاستدلال العقلي على ضرورة عصمة الإمام ببعض الوجوه التي تعد من المشتركات العقلية بين جميع البشر، والتي لم

يتعرض لها الأعلام عادة تأصيلاً لما ذكرنا، ونترك غيرها إلى الكتب المفصلة[1].

الوجه الأول: عصمة العلم

إن الذي يتفحص في جوانب الحياة العامة للبشر يجد أن العصمة تتجلى في تصرفات الكثير منهم، بل حتى في حياة الحيوانات المتحركة بالإرادة هناك جوانب للعصمة تتجلى فيها، وهذا يدلنا على أن العصمة من الحقائق الملازمة للموجودات، ولكن قد تختلف في سعتها وضيقها باختلاف مراتبها وكمالاتها، ويمكن تقريب هذه الحقيقة بثلاثة أمثلة:

المثال الأول: أفعالنا اليومية.

فإننا نقوم بالكثير من الأفعال بكل رغبة وقناعة من دون أن نمل منها أو نتردد فيها، ونواصل فعلها في كل مكان وزمان، بل نجد في فعلها مزيد اللذة والكمال، كما نتجنب الكثير من الأفعال دائماً بإرادة منا واختيار من دون أي ضغط أو قهر أو جبر؛ لأننا نجد في فعلها منقصة وقباحة، فمثلاً: الآباء يطعمون أولادهم الصغار، ويلبسونهم أحسن الملابس، ويعالجونهم إذا مرضوا، ويحرصون على حياتهم ووقايتهم من الأضرار، ومن المستحيل عادة أن يقدم الأب على قتل ولده أو تقطيع أوصاله أو إطعامه السم، بل قد يستحيل عادة أن يفكر في ارتكاب هذه الجريمة بحق ولده.

وكذلك الأم فإنها لا يمكن أن تترك ولدها الصغير جائعاً صارخاً وهي

١ - نظير كتاب الإمامة للشفتي، وكتاب الألفين للعلامة الحلي، وإثبات الهداة للحر العاملي وغيرهم.

قادرة على إرضاعه ولا ترضعه، بل لا يمكنها أن تفكر بأن تلقي ولدها في النار فتحرقه، أو تطعمه للذئب فيأكله، أو تلقيه في البحر وتغرقه. كلا، ليس فقط إنها لا تفعل ذلك، بل حتى لا تفكر، وإذا تصورت المشهد يوماً فإنها تهتز وترتعد من هول الفجيعة، وربما تجن أو تموت أو تقتل نفسها، ولو فعلت يوماً ذلك تكون قد فقدت إرادتها واختيارها بسبب مرض أو عرض غالب. لماذا؟ لأنها تدرك حسن إطعام ولدها وقبح إيذائه وظلمه، وهي بهذا المقدار من الإدراك لها نسبة من العصمة.

المثال الثاني: تصرفات الأطفال الصغار.

فإن الأطفال إذا وجدوا قطعة من الحلوى طيبة المذاق ملقاة على الأرض أو ملوثة بالقاذورات فإنهم لا يجدون بأساً في أكلها والالتذاذ بطعمها، ولا يبالون بكل ما عليها من قاذورات، بينما الإنسان الكبير لا يفعل هذا ولو تضور جوعاً. لماذا؟ لأن الطفل لا يلتفت إلى جانب الضرر الناشئ من الحلوى، بل ولا يدرك وجوده، بخلاف الإنسان الكبير، فالطفل بفعله هذا فاقد للعصمة، والكبير بهذه النسبة واجد لها.

وقد نلاحظ أيضاً أن الأطفال الصغار قد يجدون النار أمامهم ويستهويهم منظرها المتوهج ولونها وشعاعها فيقربون منها، وربما يمدون أيديهم إليها ليلمسوها، فإذا لمسوها واحترقت أيديهم فإنهم يبتعدون عنها بعد ذلك ولا يقربونها، وهم بهذا المقدار من إدراك الضرر يكونون معصومين عن لمس النار والإقدام على ضررها.

المثال الثالث: أفعال الحيوانات.

فإنها تطعم صغارها أو ترضعهم ولا نجد يوماً إن الأم أطعمت صغارها طعاماً مسموماً فقتلتهم، أو أقدمت على خنقهم أو تمزيقهم، ولا نجد يوماً أنها امتنعت عن إرضاعهم وحمايتهم من الأخطار، كما أنا لا نجد أن الأمهات يشتبهن في صغارهن فتطعم الأم غير صغارها وتترك صغارها جائعين، فهي بهذا القدر من الإدراك والشعور لها نسبة من العصمة.

ومن هنا نعرف أن العصمة في جوهرها وحقيقتها من مراتب العلم والإدراك، وكلما زادت نسبة العلم والإدراك تزداد سعة العصمة، فنسبة العصمة في الحيوان أقل منها في الإنسان، ونسبتها في الصغار من البشر أقل من نسبتها في الكبار، ونسبتها في الجاهلين أقل من نسبتها في العالمين وهكذا، وكلما سمت نفس الإنسان وتنور قلبه زادت نسبة العصمة فيه حتى يصل العبد إلى درجة الأولياء فيكون في مرتبة العصمة الصغرى التي تجنبه الوقوع في المحرمات وترك الواجبات وارتكاب القبائح والوقوع في الرذائل، وإذا وصل إلى درجة الأنبياء تجنبه الوقوع في الخطأ وهكذا، وأعلى درجات العصمة هي عصمة محمد وآل محمد عليهم السلام؛ لأنهم أعلى الخلق وأوسعهم معرفة بالوجود وآثاره وخواصه، بل قد عرفت أنهم مجاري الفيض فيه، وأنهم مستودع الأسرار الإلهية.

ويتضح من هذه الحقيقة ثلاث حقائق أخرى:

الحقيقة الأولى: أن العصمة حقيقة ملازمة لحياتنا الشخصية، فما بالك بحياة النبي والأئمة عليهم السلام؟ وذلك لأن العلم لا يفارق ذات العالم ويصونه

من القبيح إذا كان بمستوى اليقين والجزم به، ولا ينقض بالكثير من العلماء الذين يفعلون القبائح ويرتكبون الأخطاء؛ لأن ذلك يعود إلى أحدأسباب ثلاثة:

الأول: أن علمهم بالقبيح لم يكن علماً بل ظناً أو وهماً يتصور بصورة العلم.

الثاني: الجهل بالقبح.

الثالث: وقوع مزاحمة بين الحسن و القبح واللذة والألم والكمال والنقص فيترجح لدية الحسن وأن لازم فعل القبيح.

وأما لو بلغ العلم مستوى اليقين ولا توجد مزاحمة توجب تركه فإنه لابد وأن يجتنبه العالم؛ لأن العلم علة تامة لتحريك العالم للعمل كما يشهد به الوجدان وتضافرت عليه الأدلة، ولذا اتفقت كلمة أهل المعقول على أن حجية العلم ذاتية ولا تقبل الجعل الشرعي.

الحقيقة الثانية: أن العصمة من الحقائق الاختيارية التي لا نقهر عليها أو نجبر على العمل بمقتضاها، بل هي ناشئة عن علم ورغبة واختيار، ومن هنا نلاحظ أن الناس يختلفون في مراتب العصمة، فرب إنسان معصوم من جهة قتل نفسه لكنه لا يبالي بقتل الناس، ورب إنسان معصوم عن قتل نفسه وقتل الناس، إلاّ أنه غير معصوم عن تناول المحرم من المشروب والمطعوم، وآخر معصوم حتى من هذا وهكذا، فعلى درجة علم الإنسان وسعة إدراكه وشعوره تكون عصمته، ومن هنا تكون العصمة متفاوتة بين الناس سعة وضيقاً.

الحقيقة الثالثة: أن العصمة في مراتبها الدانية ملازمة لكل إنسان عاقل مختار بغض النظر عن معتقده وإيمانه، فإن سلامة الفعل وكمال الفهم يعصم الإنسان عن الكثير من القبائح، ونقصانهما يرديان الإنسان في الكثير منها، فإن الإنسان العاقل السليم مسلماً كان أو غير مسلم مؤمناً كان أو كافراً لا يلقي نفسه من شاهق، ولا يمشي عارياً بين الناس، أو يسفك دماء الناس، أو يحرق بيوتهم، ولا يرتكب الكذب والخديعة أو الخيانة؛ لأن كمال عقله يعصمه من ذلك.

فإذا كان العقل في أتم كماله والإيمان في أتم مراتبه والعلم في أتم درجاته كانت العصمة أكبر وأوسع، وهذا أمر بديهي يشهد به العقل والفطرة والوجدان.

وقد أجمعت البشرية على أن الأنبياء والأئمة عليهم السلام هم أكمل الخلق عقلاً وعلماً وإيماناً، فلابد وأن يكونوا معصومين في الدرجات العالية من العصمة، والمراتب العالية من العقل والعلم تعصم النبي والإمام من:

١ـ فعل المعاصي وترك الطاعات.

٢ـ ارتكاب القبائح الأخلاقية.

٣ـ الوقوع في الخطأ والأشتباه والنسيان في الفكر والعمل.

٤ـ التفكير في ذلك كله.

على ما عرفت تفصيله من معنى العصمة.

وبهذا يتضح أن العصمة الناشئة من العلم لها رتبتان:

الأولى: رتبة عدم المقتضي للخطأ بأبعاده المذكورة.

والثانية: رتبة وجود المانع منه.

والرتبة الأولى هي أكمل مراتبها، وتتجلى في أبهى صورها في الأنبياء من أولي العزم وأئمة الهدى عليهم السلام.

فهم ليس يمتنعون عن المعصية، بل لا يفكرون فيها، ولا تخطر على بالهم؛ نظراً ليقينهم بالله وشدة نورانيتهم النفسية وسعة علمهم بقبح الخطأ والمعصية وفعل القبيح وأثره السلبي عليهم، فهم امتلكوا نفوسهم وهذبوها، ووصلوا إلى أعلى درجات القرب التي ينتفي عندهم اقتضاء القبح.

والرتبة الثانية هي التي يتسم بها بعض الكملين من الناس؛ إذا نظروا إلى آثار المعصية وقبح الخطيئة فيجتنبونها حذراً منها، أو خوفاً من آثارها، وقد أكد القرآن والسنة هذه الحقيقة في نصوص عديدة نكتفي ببعض النماذج منها.

فقد ذكر القرآن الكريم أن الأنبياء يتمتعون بدرجات عالية من العلم اللدني واليقين الذي يجعلهم في أعلى مراتب العصمة، ففي عصمة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[١] ومنطوقه يثبت ثلاث حقائق بواحدة من الدلالات الثلاث[٢]:

١ - سورة النساء: الآية١١٣.

٢ - أي المطابقية والتضمنية والتلازمية.

الحقيقة الأولى: أن العصمة علم يمنحه الله لرسوله المصطفى ﷺ، وهي ناشئة من ثلاثة طرق:

أحدها: التسديد بالكتاب، وهو نوع من التعليم بالوحي.

وثانيها: بالحكمة، وهو نوع آخر ينشأ من كمال عقل النبي ﷺ ونورانية قلبه، فيكون حكيماً يضع الأشياء في مواضعها، ويزنها بموازينها.

وثالثها: بالإلهام ونحوه، وقد وصفه بأنه علم يؤتاه من الله سبحانه، ولو لم يملكه النبي ﷺ لم يكن قادراً على إنجاز مهامه؛ لعدم كفاية باقي العلوم للعصمة التامة.

الحقيقة الثانية: أن العصمة تصون من الضلالة، وتجنب المعصوم أضرارها وآثارها؛ لأن الجاهل هو الذي يضل الطرق ولا يهتدي إلى الصواب.

الحقيقة الثالثة: أنها نوع من التسديد والفضل والرحمة الإلهية يسدد بها الله سبحانه أولياءه ليقوموا بمهامهم الربانية على الوجه الأتم، ويكونوا القدوة والحجة على الخلق، وبها استغنوا عن الناس واحتاج الناس إليهم؛ إذ لو لم يكونوا معصومين لاحتاجوا إلى غيرهم، ولسقطوا من القلوب، وانتقض الغرض من البعثة، ولعل من هنا وصفها بالفضل العظيم.

ومن الواضح أن هناك ملازمة طبيعية بين العلوم وبين العصمة من الأخطاء والذنوب، ونحوهما من العلوم التحصيلية الاكتسابية؛ بداهة أن منشأ الأخطاء والقبائح التي يقع فيها البشر هو الجهل إما بمقدمات العمل أو بآثاره ولوازمه أو عواقبه، فلو علم الإنسان بالشيء من حيث المقدمات

والآثار والعواقب فإن علمه يصونه من الأخطاء، وقد ورد: «العلم أصل كل خير، والجهل أصل كل شر»[١].

لأن الفاعل بالقصد والإرادة إذا أدرك حسن الشيء فبطبعه الأولي يأتي به، وإذا أدرك قبح الشيء فبطبعه يجتنبه، وإذا لوحظ في بعض الموارد أنه خالف هذا القانون فلخلل في طبعه، وهذا أمر ظاهر على سلوك العلماء وأهل المعرفة في كل علم وفن، فالطبيب مثلاً قد يجتنب بعض الأطعمة والأشربة؛ لأنه يعلم بمدى أضرارها على صحة الإنسان، بينما يلتهمها غير الطبيب لجهله بذلك، والتاجر الفطن يتجنب التجارة ببعض البضائع لعلمه بأن سوقها كاسد أو رديئة الصنع، بينما الجاهل بذلك يتعامل بها، وهكذا نلاحظ أن العلم هو منشأ صون الإنسان من الهفوات في العلوم الاكتسابية التي يتعلمها الإنسان بالكسب والتجربة، فما بالك بالعلوم الإلهية اللدنية التي تلازم شخصية النبي ﷺ والإمام وتكشف له حقائق الأشياء؟ فإنها تصونه من كل ما ينافي مكانته الإلهية ومهامه الرسالية.

وقد أكدت هذه الحقيقة طائفة من الآيات الشريفة حيث كشفت عن وجود ملازمة دائمة بين النبوة والعلم، وبهذه الملازمة يعصم الله أنبياءه ويصونهم من الهفوات قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٢].

والحكم أي القول الفصل مطابقاً لموازين الحكمة، فكان يحكم على

١ - انظر شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج١١، ص٢٠٣.
٢ - سورة يوسف: الآية٢٢.

الأشياء بحسب موازينها اللائقة بها[١]، والعلم معرفة الأشياء، وقد عطف العلم على الحكم في الآية للإشارة إلى حقيقة هامة، وهي أن العصمة واجتناب الأخطاء تتم بالأمرين معاً، وليس بأحدهما؛ إذ قد يكون الإنسان حكيماً وليس بعالم، وقد يكون عالماً وليس بحكيم، فالنسبة بينهما هي العموم من وجه، والعلم الذي يعصم صاحبه من الأخطاء والهفوات هو المقترن بالحكمة، ولذا نسبه الباري عز وجل إليه، وأكد أنه من المواهب الإلهية لنبيّه فقال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ليؤكد أن حكم يوسف عليه السلام وعلمه يرجع إلى حكم الله سبحانه وعلمه؛ لأنه من مظاهره وتجلياته، ولعل هذه الهبة كانت من تجليات استجابة دعوة إبراهيم عليه السلام جده الذي سأل ربه عز وجل فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢] فأعطاه الباري عز وجل ما سأل في يوسف عليه السلام.

والحاصل: إن العصمة الإلهية ليوسف عليه السلام تتقوم بعاملين هما: الحكم الحق الذي لا يدانيه هوى أو شيطان، والعلم الذي لا يخالطه جهل، وتؤكد الآية أن هذا العطاء الرباني ليوسف عليه السلام لم يكن جزافاً أو جبرياً، بل ناشئاً من استعداد نفساني ونورانية قلبية، ولذا وصفته بأنه كان من المحسنين، وكان التامة تفيد ترتب هذا العطاء الإلهي على كل من يتصف بالإحسان في العمل ويكون محسناً. نعم يختلف العطاء الإلهي بحسب درجات الإحسان ومراتبه، وهذا يكشف عن سر اختلاف درجات العصمة ومراتبها بين الأنبياء والأولياء فضلاً عن سائر الناس، ونلاحظ أن هذه الحقيقة لم يختص

١ - انظر مجمع البيان: ج٥، ص٣٨١؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٢ ص٦٧٤.
٢ - سورة الشعراء: الآية٨٣.

بها يوسف عليه السلام، بل وردت في داود وسليمان عليهما السلام؛ إذ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾(١) وفي لوط إذ قال عز وجل: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(٢) وهكذا سائر الأنبياء مما يدل على أن العلم هو جوهر العصمة الإلهية وينزل على المحسنين من العباد، فكل عالم محسن بحسب رتبته في العلم والتزامه بمقتضياتها وشروطها يمتلك درجة من العصمة.

ونكتفي في تأييد هذه الحقيقة بشاهدين من الأخبار:

الأول: في خطبة المتقين الواردة عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام يكشف فيها عن بعض أسباب العصمة في المتقين فيقول: «عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون ... قد براهم الخوف بري القداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، ويقول: قد خولطوا ولقد خالطهم أمر عظيم»(٣) ومن الواضح أن الذي يدرك حقيقة الجنة والنار بحواسه الباطنة لا يمكن أن يترك طاعة أو يفعل معصية فيكون معصوماً من الذنب لا محالة.

والثاني: ما ورد عن الصادق عليه السلام في الخبر الصحيح قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى بالناس الصبح فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفراً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف

١ - سورة النمل: الآية ١٥.
٢ - سورة الأنبياء: الآية ٧٤.
٣ - نهج البلاغة: ج٢، ص١٦١ - ١٦٢، الخطبة ١٩٣.

أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يا رسول الله موقنا، فعجب رسول الله ﷺ من قوله وقال: إن لكل يقين حقيقة، فما حقيقة يقينك؟ فقال: إن يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني، وأسهر ليلي، وأظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتى كأني أنظر إلى عرش ربي وقد نصب للحساب، وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتنعمون في الجنة ويتعارفون، وعلى الأرائك متكئون وكأني أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذبون مصطرخون، وكأني الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: هذا عبد نور الله قلبه بالإيمان، ثم قال له: إلزم ما أنت عليه ... »[1].

ونلاحظ أن جوهر القضية يتعلق باليقين والإدراك الوجداني لحقائق الأشياء، وإذا كان الإنسان المتقي يصل إلى هذه الدرجة العالية من الشعور والإدراك فتدعوه نفسه إلى هجران الدنيا وما فيها من شهوات وملذات، فما بالك بالأنبياء والأئمة عليهم السلام؟

وبهذا يتضح وبشكل جلي أن العصمة تدور مدار العلم، وأن العلم العادي يمكن أن يعصم الإنسان من الأخطاء والزلات إذا أراد أن يلتزم بشروطه، فما بالك بالعلوم الإلهية اللدنية التي أودعها الله في قلب محمد وآل محمد عليهم السلام؟

وهذا القانون تشهد به الطبيعة البشرية، وتقره سائر العلوم الطبيعية والنفسية، وبه يظهر أن وجود العصمة والمعصوم في البشر أمر طبيعي، ويعد

١ - الكافي: ج٢، ص٥٣، ح٢.

من الضرورات الإنسانية في جميع الأديان والمذاهب السماوية والأرضية، كما يظهر بان العصمة درجة معنوية نفسية خاصة يمكن أن يصل إليها كل إنسان إذا أراد أن يكون إنساناً متوازناً في صفاته وملكاته النفسية والأخلاقية والذي وصفته الآية بالمحسن. نعم هي تختلف بحسب مقامات البشر وكمالاتهم، والأنبياء والأئمةعليهم السلام هم في أعلى درجات العصمة، ولذا قسموا العصمة إلى كبرى وهي التي للأنبياء من أولي العزم والأئمةعليهم السلام، ولم تثبت لغيرهم، ووسطى وهي التي يتسم بها الأنبياء والأوصياء من غير أولي العزم، والصغرى وهي التي قد يصل إليها أهل الورع والتقوى من العباد الصالحين.

الوجه الثاني: عصمة النفس

وتقريره: أن النفس الإنسانية لها قوى كثيرة تقف وراء أفعالها وتصرفاتها، وأهمها ثلاث:

الأولى: القوة العقلية، وهي التي بها تفكر وتميز وتبصر الحقائق وتحث نحو الفعل الحسن وتجنب القبيح، وربما يعبر عنها المناطقة بالنفس الناطقة، وأهل الحكمة بالعقل العملي، ومحلها من النفس العقل، ومن البدن الدماغ، وهذه القوة إذا تنزهت عن سيطرة الأوهام والجهل ترتقي في الكمال فتصل إلى الحالة الملكية في اليقين، فتنكشف لها الحقائق على ما هي من الحسن والقبح والخير والشر.

الثانية: القوة الإنسانية، وهي التي بها تظهر الآثار النفسانية ببعديها الإيجابي والسلبي كالرحمة والقسوة، والمحبة والبغض، والإيمان والكفر، والخضوع والاستعلاء، والفرح والحزن، والكرم والبخل ونحوها، ويقع

الإنسان في صراع دائم بين هذه الصفات، فإن غلبت الرحمة والمحبة والإيمان والخضوع والفرح والكرم تتجلى على شخصيته الصفات الملكية، فيكون مصدراً للكمال، ومنبعاً لكل خير، ومحلها القلب، وإن غلبت الصفات السلبية كالقسوة والبغض والكفر والاستعلاء والبخل صار مظهراً للنقص والشيطان ومنبعاً لكل شر.

الثالثة: القوة الحيوانية، وهي التي بها تلتذ وتتألم النفس الأنسانية بواسطة الحواس الخمسة، وتأكل وتشرب وتتوالد وتدفع عن نفسها الأخطار، وتجذب لنفسها المنافع، ويعبر عنها بالنفس والهوى، ومحلها من الجسد الكبد، وهذه القوى الثلاث تتجاذب نفس كل إنسان وتعطيه صفاته وشخصيته؛ لأنها في صراع دائم، فإن غلبت الملكات العقلية والأخلاقية الخيرة بلغ الإنسان مقاماً عالياً في الإنسانية، والأنبياء والأئمة فاقوا سائر الناس بهذه الملكات، ولذا لابد وأن يكونوا معصومين، ويأتي من بعدهم الأقرب فالأقرب بحسب درجات هذه القوى وظهورها عليهم، والأشرار من المجرمين تتغلب فيهم الملكات الرذيلة.

الوجه الثالث: عصمة العمل

وتقريره: أن التتبع والاستقراء في حياة آل محمد عليهم السلام في أبعادهم الشخصية والاجتماعية وأراء خصومهم بهم يوصلنا إلى اليقين بعصمتهم، فإن من الحقائق التي يشهد بها القاصي والداني في حياة الأئمة عليهم السلام ما يلي:

أن التيار الحاكم في الأمة كان على خلاف آرائهم ومواقفهم، وفي بعض الأحيان كان معادياً لهم ومحارباً لهم ولشيعتهم وعلى درجة كبيرة من العداء حتى شردوا وقتلوا وأحرقوا وهدمت دورهم وأفقروا.

أن التيار العلمي في الأمة كان متبعاً لسياسة الحكام خوفاً أو رغبة حتى تأسست الكثير من الفرق والمذاهب لأجل تضعيف مدرسة الأئمة عليهم السلام وإشغالهم بالرد على شبهاتهم ومناحراتهم الكلامية ليخلو الحكم للحاكم.

أن التيارين الحكومي والعلمي معاً كانا يترصدان للأئمة في أفكارهم وأعمالهم ليجدوا خللاً يمكن أن يتخذ ذريعة لتصفيتهم في مكانتهم العلمية ودورهم الديني والقيادي في الأمة، وعلى هذا الأساس أنشأوا أربع فرق تعمل بهذا الاتجاه.

الفرقة الأولى: الرواة والمحدثون، فكانوا يروون الأحاديث الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غير طريق الأئمة عليهم السلام، وإذا احتاجوا إلى حديث يتطلبه الأمر وضعوا الحديث لأجل حصر العلم بهذا الطريق.

الفرقة الثانية: المؤرخون، وكانوا يؤرخون لحياة السلاطين والحكام ويلمعون وجوههم، ويبررون سياساتهم البعيدة عن الدين والإنسانية ليجعلوا منهم القدوة للناس التي تحتل المكانة في الدين والدنيا.

الفرقة الثالثة: الفقهاء، وكانوا ينتهجون طرقاً تغاير طريقة الأئمة عليهم السلام في الفقه وأخذ الأحكام لكي لا يترسخ منهج الأئمة عليهم السلام المبني على تحريم الظلم والمعاونة مع الظالم، وعدم الأخذ بأخبار غير الثقات من الصحابة والتابعين.

الفرقة الرابعة: المتكلمون، وكانوا يتطرقون إلى مختلف مسائل العقيدة وأصول الدين ليؤسسوا طرقاً أخرى للمعرفة غير طريق أهل البيت عليهم السلام سواء على صعيد التوحيد والعدل والنبوة والإمامة أوغيرها من مسائل هامة يقوم عليها منهج الإسلام وعقيدة المسلم.

وتؤكد الشواهد أن هؤلاء كانوا يتبعون طريقين في إقصاء الأئمة عليهم السلام:

الطريق السلمي: بأن يروجوا الأفكار والمعتقدات الخاطئة ويطرحوها كبديل علمي عن منهج الأئمة عليهم السلام ليقصوا الأئمة علمياً وسياسياً.

والطريق الحربي: بأن يمارسوا القمع والشدة على الأئمة وأتباعهم لكي يمنعوهم من ترويج أفكارهم ورد المعتقدات الباطلة التي تبثها الفرق الأخرى. ويكفي شاهداً في هذا قول معاوية لبسر بن أرطأة حين أرسله للحجاز واليمن: لا تنزل على بلد أهله على طاعة علي إلاّ بسطت عليهم لسانك حتى يروا أنهم لا نجاة لهم، وأنك محيط بهم، ثم أكفف عنهم وأدعهم إلى البيعة لي، فمن أبى فأقتله، واقتل شيعة علي حيث كانوا[١].

وكتب يوسف بن عمر إلى هشام بن عبد الملك: إن أهل هذا البيت من بني هاشم قد كانوا هلكوا جوعاً حتى كانت همة أحدهم قوت عياله[٢].

وبالرغم من كل ذلك فإن مما يشهد له جميع المسلمين وغير المسلمين أنه لم تسجل على واحد من العترة الطاهرة زلة في قدم، أو نقص في فعل، أو جهل في معضلة بالرغم من ترصد الكثير من أعدائهم للعثور على مثل ذلك،

وجيشّوا له الجيوش، ونصبوا له منابر ومساجد وأئمة، ويشهد لهذه الحقيقة قول الأصمعي. قال: سمع عامر بن عبد الله بن الزبير ابنه ينال من

١ – شرح نهج البلاغة: ج٢، ص٦.
٢ – تاريخ الطبري: ج٥، ص٥٥٧ ؛ الكامل في التأريخ: ج٥، ص٢٧٦، باب ذكر أحداث سنة ١٢٦هـ.

علي فقال: يا بني! إياك وذكر علي، فإن بني أمية تنقصته ستين عاماً فما زاده الله بذلك إلاّ رفعة [١].

وأخرج الحافظ السلفي في الطيوريات عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سألت أبي عن علي وأعدائه فقال: أعلم يا بني! أن علياً كان كثير الأعداء ففتش عليه أعداؤه شيئاً مكروهاً فلم يجدوا، وجاؤوا إليه وحاربوه وقاتلوه وخلعوه كيداً منهم له [٢].

والملحوظ أن أكثر من عاداهم أو خالفهم عليهم السلام أشادوا بمكانتهم العلمية والدينية، وأنهم ملاذاً وعصمة للناس في دينهم ودنياهم.

وقد أقر أبو بكر وعمر وعثمان ومعاوية وغيرهم بفضل علي أمير المؤمنين عليه السلام وعصمته وحقانيته في مواطن عديدة، ويمكن أن نختصر ذلك في كتاب معاوية لمحمد بن أبي بكر الذي أرسله رداً على كتاب كتبه محمد إليه يدعو فيه معاوية إلى الرشاد، وأن لا يعادي علياً عليه السلام ولا يحاربه، وأن يأتم بإمامته. يقول فيه: فقد كنا وأبوك – أي أبا بكر – معنا في حياة نبينا نرى حق ابن أبي طالب لازماً لنا، وفضله مبرزاً علينا، فلما اختار الله لنبيه صلى الله عليه وآله ما عنده، وأتم له ما وعده، وأظهر دعوته، وأفلج حجته قبضه الله إليه، فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزه وخالفه. على ذلك اتفقا واتسقا ... فإن يكن ما نحن فيه صواباً فأبوك أوله، وأن يكن جوراً فأبوك أسسه ونحن شركاؤه، فبهديه

---

١ – المحاسن والمساوئ: ص٧٧– ٧٨.

٢ – ينابيع المودة: ج٢، ص٤٠٧؛ وانظر الصواعق المحرقة: ص١٢٧؛ تأريخ السيوطي: ص١٥٩.

أخذنا، وبفعله اقتدينا، ولولا ما سبقنا إليه أبوك ما خالفنا ابن أبي طالب، وأسلمنا له، ولكن رأينا أباك فعل ذلك فاحتذينا بمثاله، واقتدينا بفعاله فعب أباك بما بدا لك أو دع[١]، وقريب من هذا الجواب رد به يزيد على عبد الله بن عمر حينما استنكر عليه قتله للحسين عليه السلام[٢].

وروى عامر الشعبي عن عروة بن الزبير عن الزبير بن العوام أن أبا بكر رد على كلام المنافقين أن أبا بكر أفضل من علي؛ إذ قام خطيباً فقال كلاماً طويلاً في بيان فضائل علي ومقاماته العالية، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «الحق مع علي وعلي مع الحق، من أطاع علياً رشد، ومن عصى علياً فسد، ومن أحبه سعد، ومن أبغضه شقي، والله لو لم يحب ابن أبي طالب إلاّ لأجل أنه لم يواقع لله محرماً، ولا عبد من دونه صنماً، ولحاجة الناس إليه بعد نبيهم، لكان في ذلك ما يجب، فكيف لأسباب أقلها موجب، وأهونها مرغب! للرحم الماسة بالرسول، والعلم بالدقيق والجليل، والرضا بالصبر الجميل، والمواساة في الكثير والقليل، وخلال لا يبلغ عدها، ولا يدرك مجدها، ود المتمنون أن لو كانوا تراب اقدام ابن أبي طالب، أليس هو صاحب لواء الحمد؟ والساقي يوم الورود؟ وجامع كل كرم؟ وعالم كل علم؟ والوسيلة إلى الله وإلى رسوله؟»[٣].

---

١ - وقعة صفين: ص١٢٠-١٢١؛ شرح نهج البلاغة: ج٣، ص١٨٩؛ مروج الذهب: ج٣، ص٢١-٢٢.

٢ - انظر النزاع والخصام: ص١١٢؛ بحار الأنوار: ج٤٥، ص٣٢٨، أقول.

٣ - الاحتجاج: ج١، ص١١٥- ١١٦.

وقريب من هذا قاله عمر في محاورته مع ابن عباس[١]، وقاله معاوية لعمر بن العاص في صفين[٢].

وروى ابن الأثير في الكامل قال: كانوا بنو أمية يسبون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى أن ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة فترك ذلك، وكتب إلى العمال في الآفاق بتركه، وعلل ابن عبد العزيز هذا الفعل بقوله: كان أبي إذا خطب فنال من علي تلجلج، فقلت: يا أبه إنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت على ذكر علي عرفت منك تقصيراً؟ قال: أوفطنت لذلك؟ قلت: نعم، فقال: يا بني إن الذين حولنا لو يعلمون من علي ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده[٣].

وكان عمر يقول: ما علمنا أحداً كان في هذه الأمة أزهد من علي بن أبي طالب عليه السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله[٤].

وبهذا أقر أمراء بني العباس أيضاً ، فلما جهز الهادي العباسي جيشه لقتال الحسين بن علي شهيد فخ وجعل موسى بن عيسى قائداً للجيش أرسل موسى بن عيسى رجلاً إلى معسكر الحسين حتى يراه ويخبره عنه، فلما رجع قال لموسى بن عيسى: ما أظن القوم إلاّ منصورين، فقال: وكيف ذاك؟ قال الرجل: لأني ما رأيت فيهم إلاّ مصلياً ومبتهلاً، أو ناظراً في مصحف، أو معداً للسلاح، فضرب موسى يداً على يد وبكى، ثم قال: هم والله أكرم خلق

١ – انظر شرح نهج البلاغة: ج١٢، ص٧٩–٨٠؛ الطرائف: ص٤٢٤؛ الغدير: ج١، ص٣٨٩.
٢ – انظر المحاسن والمساوئ: ص٧٤؛ الإمامة والسياسة: ج١، ص١٢٦.
٣ – الكامل في التأريخ: ج٥، ص٤٢–٤٣.
٤ – بحار الأنوار: ج٤٠، ص٣٢٠، ح٤.

الله وأحق بها في أيدينا منّا ولكن الملك عقيم، لو أن صاحب هذا القبر - يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم - نازعنا الملك ضربنا خيشومه بالسيف(١).

هذا بعض ما كان على لسان الأمراء والملوك، وأما ما ورد على لسان الرواة والمحدثين والعلماء فلا يقل عنه.

منها: ما رواه سفيان بن عيينة عن ابن عباس في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾(٢) إن علي بن أبي طالب عليه السلام خاف فانتهى عن المعصية، ونهى عن الهوى نفسه(٣).

ومنها: ما رواه قتادة عن ابن عباس: علي بن أبي طالب عليه السلام سيد من اتقى عن ارتكاب الفواحش(٤).

ومنها: ما رواه أبو يوسف عن مجتهد وابن عباس: من اتقى الذنوب علي بن أبي طالب والحسن والحسين(٥) عليهم السلام.

ومنها: ما ذكره ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة قال: نص أبو محمد بن متويه في كتاب الكفاية على أن علياً عليه السلام معصوم ... أدلة النصوص دلت على عصمته والقطع على باطنه ومغيبه(٦).

ومنها: ما ذكره الجرجاني في كتاب الإمامة قال: أجمع فقهاء الحجاز

---

١ - مقاتل الطالبيين: ص٣٠١؛ النص و الاجتهاد: ص٥٣٣.
٢ - سورة النازعات: الآية٤٠.
٣ - بحار الأنوار: ج٤٠، ص٣٢٠، ح٤.
٤ - بحار الأنوار: ج٤٠، ص٣٢٠، ح٤.
٥ - بحار الأنوار: ج٤٠، ص٣٢٠، ح٤.
٦ - شرح نهج البلاغة: ج٦، ص٣٧٦؛ بحار الأنوار: ج٣٨، ص٦٩، أقوال.

والعراق من فريقي الحديث والرأي منهم مالك والشافعي وأبو حنيفة والأوزاعي والجمهور الأعظم من المتكلمين على أن علياً مصيب في قتاله لأهل صفين، كما قالوا بإصابته في قتال أصحاب الجمل، وقالوا أيضاً بأن الذين قاتلوه بغاة ظالمون له[١]، وقريب منه نقله ابن نورك عن أبي الحسن الأشعري[٢]، وغير ذلك مما هو كثير.

ونلاحظ من مجموع هذه الشواهد أن جميع الأمة بملوكها وعلمائها وخواصها وعوامها حتى الذين عادوا الأئمة وحاصروهم وقتلوهم وفتشوا عن معايبهم لم يتمكنوا من العثور على منقصة واحدة في علم أو خلق أو عمل يعيبونهم عليها، ولو كانوا قد وجدوا شيئاً يسيراً من ذلك لروّجوه وأذاعوه وشهروا به ولاتخذوه ذريعة للإعراض عنهم، إلاّ أننا نلحظ العكس من ذلك تماماً؛ إذ أقروا طراً بفضلهم ومكانتهم وعصمتهم، ولم يختص هذا بمخالفيهم من المسلمين، بل حتى من اليهود والنصارى ومن لم يكن لهم دين، فإن الجميع أذعنوا لعفتهم وكمالهم وجلالة قدرهم، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل بحسب منطق العقل وموازين العقلاء على علو رتبتهم في العصمة والطهارة، ويكفي كل منصف للجزم بهذه النتيجة.

وهذا ما يؤكده أهل البيت عليهم السلام أنفسهم، ففي صحيحة حفص بن البختري عن أبي عبد الله عليه السلام حينما سئل عن العلامة التي بها يعرف الإمام عليه السلام قال: «بالوصية الظاهرة وبالفضل، إن الإمام لا يستطيع أحد أن يطعن عليه في فم

١ - فيض القدير: ج٦، ص٤٧٤، ص٦٥٨.

٢ - سير أعلام النبلاء: ج١، ص٤٢٠؛ النصائح الكافية: ص٤٧.

ولا بطن ولا فرج، فيقال: كذاب ويأكل أموال الناس، وما أشبه هذه»[١].

الوجه الرابع: عصمة المعتقد

أن جميع أهل الملل والأديان يعتقدون بالأنبياء وبأوصيائهم وأتباعهم الذين مثلوا صفاتهم ومواقفهم وحتى أصحاب المعتقدات الأرضية فإنهم يجدون في زعمائهم المثالية في الصفات والأخلاق والكمال في الأفكار، فاتخذوهم أئمة، واتبعوهم، وهذه حقيقة يقرها الواقع الخارجي، ويصرح بها الجميع، ولازم هذا الاعتقاد أنهم يجدون في أئمتهم نوعاً من العصمة يجعلهم في درجة اللياقة والاستحقاق للاتباع، ولولا ذلك لم يكن وجه للإيمان بالشرائع والتصديق بزعمائها واتباعهم، فلولا العصمة لظهرت الكثير من النتائج السلبية التي تبطل الشرائع، وتنتقص الأنبياء والأولياء في صفاتهم الحقيقية ومكانتهم الحقوقية ويمكن أن نشير إلى ثلاث منها:

النتيجة الأولى: انعدام الوثوق بالشرائع والاعتماد عليها؛ بداهة أن المبلّغ للشريعة إن كان غير معصوم أمكن أن يكون كاذباً أو خاطئاً في تبليغه، فيبدل الحق باطلاً، والباطل حقاً، وهو نقض للغرض.

النتيجة الثانية: وقوع الأنبياء في الأخطاء أو المعاصي، وحينئذ يتعين على الناس تقويمهم وإصلاحهم، وربما معاقبتهم، وبهذا يظهر أن بعض الناس أفضل منهم مقاماً وأجدر بالإتباع منهم.

النتيجة الثالثة: أن من يقع في الأخطاء والمعاصي يسقط عن القلوب فلا

١ - الكافي: ج١، ص١٦٣، ح٧٤٧.

يعقل أن يكون نبياً أو إماماً؛ لأن الناس لا يتبعون من لا يحبونه، ولا يجدونه جديراً بالطاعة والاحترام.

ونلاحظ من ذلك: أن اتفاق أهل الملل والإيمان على ضرورة وجود زعماء وأئمة في غاية الكمال والصدق يستدعي العصمة، ولولاها أصبح الإيمان بشرائعهم وإتباعهم عبثاً وبلا فائدة، بل ينقض الغرض الذي لأجله آمنوا وأطاعوا.

وهذا من ناحية الكبرى بديهي تشهد به الفطرة والعقل السليم، وعليه قامت الحياة البشرية والحضارات الإنسانية، وأما من ناحية الصغرى فقد تضافرت الأدلة العقلية والنقلية على أن آل محمد عليهم السلام هم المعصومون بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويكفي في ذلك تنصيص النبي عليهم واتفاق الأمة، وكل من شاهدهم وعايشهم وعرف صفاتهم واطلع على أحوالهم أقر لهم بذلك.

ويتحصل مما تقدم: أن العقل والفطرة يشهدان بضرورة وجود العصمة والمعصوم بين الخلق، وأن هذه الحقيقة من المشتركات بين جميع الأمم والشعوب بغض النظر عن معتقداتهم ومذاهبهم، كما يشهدان بأن المعصومين بالعصمة الكبرى هم محمد وآل محمد، فلابد من الاعتقاد بمكانتهم الإلهية واتباعهم فيما يهدون ويرشدون من أمور الدين والدنيا.

المطلب الرابع: في أسباب توبة المعصوم واستغفاره

أن نفوس الأئمة عليهم السلام من حيث مظهرها بشرية إلاّ أنها من حيث جوهرها ومعدنها ملكوتية؛ لأنها مشتقة من نور الله وعظمته، فلذا لا ينالها نقص أو خلل أو عصيان، بل هي معصومة من كل سوء، وهذه العصمة ناشئة من وجود المقتضي لها في نفوسهم؛ لما عرفت من أن روحهم قدسية لا تنام ولا تغفل ولا تلهو ولا تسهو، ومن وجود المانع من مخالفتها وهو العلم وكمال العقل وصفاء النفس ونورانية القلب المانعة من الوقوع في المساوئ.

وهذا ما تضافرت عليه الأدلة، وانعقد عليه الإجماع، بل والضرورة عند جميع أهل الأديان، وهنا قد تخطر ثلاثة أسئلة:

السؤال الأول: هل عصمتهم عليهم السلام مختصة بالذنوب والمعاصي الكبيرة أم تشمل الصغيرة أم تشمل العصمة الأخلاقية نظير ترك الأولى أم حتى الأمور العادية الخارجية التي يزاولونها بما أنهم بشر يأكلون وينامون ويتحدثون ويضحكون ونحوها؟

السؤال الثاني: هل عصمتهم عليهم السلام اختيارية تحصل بإرادة ورغبة منهم أم جبرية جبلهم الله سبحانه عليها وليس لهم فيها أي اختيار وإرادة؟

السؤال الثالث: إذا كانت عصمتهم عليهم السلام شاملة وهي اختيارية فكيف

تتفق مع الملحوظ من طريقتهم وسيرتهم العبادية، فإنهم كثيراً ما يقفون بين يدي ربهم يستغفرون ذنوبهم، ويعلنون توبتهم من المعاصي والمخالفات والتقصير في حق الخالق تبارك وتعالى، وهو أمر ظاهر صريح في أدعيتهم ومناجاتهم والروايات الواردة عنهم عليهم السلام، ولو كانوا معصومين لم يكن وجه لهذا الاستغفار وإظهار الخشية من الحساب و العقاب؟

والإجابة عن السؤال الأول والثاني تعرف مما تقدم من مباحث، وقد أجمع الإمامية على أن الأئمة عليهم السلام معصومون مطهرون من كل دنس، وأنهم لا يذنبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، فلا يقع منهم القبيح لا عمداً ولا نسياناً ولا خطأً ولا سهواً، ومن نفى العصمة عنهم في شيء من أحوالهم فقد جهلهم، كما أجمعوا على أنهم الموصوفون بالكمال والتمام والعلم منذ نشأتهم لا يوصفون في شيء من أحوالهم بنقص ولا عصيان ولا جهل[1]، ويبقى الكلام في جواب السؤال الثالث ولأهل المعرفة تفاصيل عديدة في جواب هذا التساؤل الهام، ويمكن اختصارها في نواح عديدة:

الناحية الأولى: شعورية

وتقريرها: أن الاستغفار ناشئ من شعورهم عليهم السلام بقصورهم في أداء حق خالقهم وبارئهم سبحانه؛ لأنهم عاجزون عن أداء شكر نعمه ومقابلة إحسانه إليهم بمثله، فلذا يقومون مستغفرين من القصور والعجز، وشعورهم بالقصور يرجع إلى أسباب عديدة:

---

١ – انظر اعتقادات (الصدوق): ص١٠٨-١٠٩؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٢٢، ح٢٤.

الأول: معايشة الناس بحسب مستوياتهم البشرية لا الإلهية، فإنهم حيث أمروا بالنزول إلى مستوى البشر العاديين لأجل تبليغهم بالرسالة وهدايتهم إلى الحق، فإنه يتطلب منهم أن يعايشوا الناس ويكونوا مثلهم يزاولون وظائف الجسد والمعيشة اليومية، لكنهم إذا خلوا بربهم ورجعوا إلى مقامهم الإلهي وجدوا أنفسهم مقصرين عن أداء حقه وامتثال أوامره، أو مقصرين في بلوغ الدرجات الأعلى في القرب لولا هذه المعايشة مع الناس، فيستغفرون ويظهرون التوبة بالتضرع والدعاء. وإن كانوا في الحقيقة قاصرين عنه لا مقصرين.

وهذا النحو من الشعور ينتاب كل إنسان كبير النفس ورفيع المستوى، فمثلاً: قد يستلقي المشلول في محضر وجهاء الناس والأعيان فيهم على قفاه، ويعتذر منهم، ويعد ذلك سوء أدب منه بالرغم من أنه عاجز وقاصر، وكما لو أرسل العالم الكبير أحد تلامذته في مهمة توجب ابتعاده عنه مدة من الزمان فإنه لا شك سيكون التلميذ محروماً من ملازمة أستاذه، ومنقطعاً عنه وإن كان ذلك بسبب أمره وتكليفه، فإذا عاد يعتذر للعجز عن الاستفادة منه والانقطاع إليه، وهذا الاعتذار شعوري ناشئ من علو مستوى التلميذ ورفعة مقامه.

وفي هذا ورد عن الأربلي في كشف الغمة: أن النبي والأئمة عليهم السلام تكون أوقاتهم مشغولة بالله تعالى، وقلوبهم مملوءة به وخواطرهم متعلقة بالملأ الأعلى ... فهم أبداً متوجهون إليه ومقبلون بكلهم عليه، فمتى انحطوا عن تلك المرتبة العالية والمنزلة الرفيعة إلى الاشتغال بالمأكل والمشرب و التفرغ إلى

النكاح وغيره من المباحات عدوه ذنباً، واعتقدوه خطيئة، واستغفروا منه[١]؛ لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين[٢]، وإليه يشير قوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر في النهار سبعين مرة»[٣].

والغين لغة الغيم، والمراد هنا التشبيه به؛ لأن الغيم يغطي السماء الصافية ويكدرها وكذلك الغين يغطي القلب، وقد ذكروا للحديث معاني عديدة أوجهها:

أن قلب النبي ﷺ لما كان أتم القلوب صفاءً، وأكثرها ضياء، وأوعاها معرفة، وكان ﷺ مبيناً مع ذلك لشرائع الملّة وتأسيس السنّة، ميسراً غير معسر، لم يكن له بد من النزول إلى الرخص، والالتفات إلى حظوظ النفس مع ما كان متمتعاً به من أحكام البشرية، فكأنه إذا تعاطى شيئاً من ذلك أسرع كدورة ما إلى القلب لكمال رقته وفرط نورانيته، فإن الشيء كلما كان أصفى كانت الكدورة عليه أبين وأظهر، وكان ﷺ إذا أحس بشيء من ذلك عدّه على النفس ذنباً فاستغفر منه[٤].

ويتلخص أن استغفار المعصوم لم ينشأ عن معصية أو تقصير في مقام ربه عز وجل، وإنما عن قصور لأجل تحقيق غايتين:

الأولى: الاعتذار عن قصوره تأدباً منه، لأن انشغاله ببعض حاجات

١ - انظر كشف الغمة: ج٣، ص٤٧؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٠٤، ح١٦.

٢ - كشف الغمة: ج٣، ص٤٧-٤٨ ؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٠٥، ح١٦.

٣ - كشف الغمة: ج٣، ص٤٧، وفيه: «ليران على قلبي»؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٠٤، ح١٦.

٤ - مجمع البحرين: ج٦، ص٢٩٠، (غين)، (بتصرف).

البدن الضرورية ونزوله إلى مستوى الناس العاديين في المعاشرة الاجتماعية وإن كانا واجبين عقلاً وشرعاً إلاّ أنه من حيث سمو نفسه وعلو أدبه ولطافة حسه وارتفاع منزلته يشعره بالتقصير في أداء حق ربه كما يليق بمقامه، فيقوم مستغفراً تائباً اعتذاراً منه.

والثانية: إزالة أثر الغين الذي يطرأ على قلبه بسبب النزول إلى الرخص اضطراراً تكوينياً أو تشريعياً حفاظاً على صفاء قلبه وطهارة نفسه، وذلك غاية في السمو والكمال.

الثاني: علمهم بقصورهم الذاتي، فإنهم عليهم السلام يعلمون بأن كل ما لديهم من كمالات ومقامات هو لطف من الله ونعمة، فإذا نظروا إلى قصورهم الذاتي في العصمة والمقام وأن نفوسهم لولا فضل الله ولطفه ولولا تأييده وتسديده لكانت خاطئة ومذنبة قاموا مستغفرين من هذا القصور، تائبين إلى الله سبحانه من ذلك.

الثالث: ارتقاؤهم المراتب، فإنهم ما زالوا يرتقون المراتب تلو المراتب في الكمال والمعرفة، فكلما ارتقوا مرتبة جديدة عرفوا قصور المرتبة السابقة بالقياس إلى اللاحقة فتابوا منها، ورجعوا إلى بارئهم لما فيها من تنقيص في مقام المقربين، ولعل قوله صلى الله عليه وآله: «إني لاستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»[1] ناظر إليه.

الرابع: شعورهم بالعجز عن أداء شكر نعم الخالق وأداء واجب حقه

---

١ - من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص٣٨٥، الحاشية؛ مستدرك الوسائل: ج٥، الباب ٢٢ من أبواب الذكر، ص٣٢٠، ح١٢؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢١٠، ح٢٣.

عليهم مهما جهدوا وجاهدوا في طريق طاعته؛ بداهة أن من يعرف عظمة الخالق ومدى حقه عليه يشعر بالقصور عن أداء شكره، ولذا يظهر توبته ويستغفر من قصوره في محضره، ومن هنا اتفق أهل المعرفة على أنهم عليهم السلام يسمون ترك المندوب ذنباً وسيئة بالنسبة إلى كمالهم، وقال العلامة المجلسي قدس سره: إنهم يسمون ترك المستحب وفعل المكروه بل المباح ذنباً بالنسبة إلى رفعة شأنهم وجلالهم، وذلك لانحطاط ذلك عن سائر أحوالهم المتعالية[1].

والخلاصة: أنهم عليهم السلام حيث يرون أن جميع أعمالهم لا تليق بمقام ربهم لذا يرون أنفسهم تاركة لعبادات وآداب يقتضيها مقام الرب في عالم المعنى قصروا عنها في عالم الدنيا وإن كان ما فعلوه بميزان الشرع عبادة، وهي غاية ما يمكن من الطاعة، يقومون مستغفرين عائذين تائبين، وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل: «خالفت بعض أوامرك»[2] وتضافر عنهم عليهم السلام: «ما عرفناك حق معرفتك»[3] و: «ما عبدناك حق عبادتك»[4] لأن عبادتهم عليهم السلام ما تليق بمقام العابد لا مقام المعبود. فتوبتهم عليهم السلام ليست كتوبة سائر الناس، فإنها توبة من القصور لا التقصير، ومن تعظيم الخالق لا من التجاوز عليه، واستغفارهم طلب للستر عن هذا القصور لا عن الذنب، ومن هنا قالوا: إن توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من غفلة القلوب، وتوبة خواص الخواص وهم المعصومون عليهم السلام من كل شيء سوى المحبوب، فشتان بين

١ - بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢١٠، ح٢٣.
٢ - مصباح المتهجد: ص٨٤٦؛ إقبال الأعمال: ص٣٣٣؛ المصباح (للكفعمي): ص٥٥٧.
٣ - التوحيد (للصدوق): ص١١٤.
٤ - مستدرك الوسائل: ج١، ص١٢٤.

تائب من الزلات، وبين تائب من الغفلات، وبين تائب من رؤية الحسنات، وهذا معنى قولهم: «حسنات الأبرار سيئات المقربين»[١].

الناحية الثانية: وجاهية

وتقريرها: أن محمداً وآل محمد عليهم السلام هم أئمة الخلق للطاعة والتقوى، والإمام يتحمل عن المأموم أفعاله ومساوئه، كما يحمل خيره ومحاسنه، وإذا كانوا هم معصومين فإن شيعتهم وأتباعهم ليسوا كذلك يفعلون المعصية والقبائح، وهذا يخجلهم أمام بارئهم فيقومون في محضره مستغفرين تائبين بسبب أفعال غيرهم لأنهم وجهاؤهم عند الله، كما يعهد هذا من الآباء حينما يعتذرون عن أخطاء الأبناء، والأساتذة عن أخطاء التلاميذ، والقادة يعتذرون عن تقصيرات الأنصار والأتباع، وتؤكد هذه الحقيقة النصوص الكثيرة، الواردة في معنى قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[٢] منها: سؤال عمر بن يزيد بياع السابري من أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما كان له ذنب ولا هم بذنب، ولكن الله حمله ذنوب شيعته ثم غفر له»[٣].

وفي رواية المفضل بن عمر عنه عليه السلام قال: «والله ما كان له ذنب ولكن الله سبحانه ضمن له أن يغفر ذنوب شيعة علي عليه السلام ما تقدم من ذنبهم وما تأخر»[٤].

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لعلي عليه السلام: «يا علي! إن الله تبارك وتعالى حملني

---

١ - انظر لوامع الأنوار العرشية: ج٤، ص١٦٢.

٢ - سورة الفتح: الآية٢.

٣ - انظر تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٥٤، ح١٣.

٤ - انظر مجمع البيان: ج٩، ص١٨٤- ١٨٥؛ وانظر تفسير جوامع الجامع: ج٣، ص٣٨٠.

ذنوب شيعتك ثم غفرها لي، وذلك قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾»[1].

ومن الواضح أن الزعيم والإمام حينما يرى ذنوب شيعته وهم ينسبون إليه ومحسوبون عليه يتألم منها، ويحرج أمام بارئه الذي جعله إماماً لهم، فلذا يستقيل منها ويتضرع لديه عسى أن يعفو عن شيعته وأخطائهم، وبعفوه هو يستقر ويسعد، وإليه تشير رواية الكافي عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: «أن الله تعالى غضب على الشيعة فخيرني نفسي أو هم فوقيتهم والله بنفسي»[2] أي خيره الله سبحانه بين أن ينزل عذابه على شيعته ويهلكهم بسبب عصيانهم أو يتحمل الإمام عليه السلام البلاء والعناء عنهم ويقبض روحه لأجل سلامة شيعته، وبهذا يظهر ما للإمام من الرحمة والرأفة بشيعته، ومن الفضل والنعمة عليهم.

الناحية الثالثة: سببّية

وتقريرها: أن العصمة من الحقائق المعنوية والألطاف الإلهية الخاصة، وهي لا تنال إلاّ بتوفر عنصرين أساسيين في رتبة الحدوث والبقاء معاً هما: وجود المقتضي وانعدام المانع. أما جهة المقتضي فنلاحظ أن نيل الألطاف الإلهية يتوقف على وجود المحل القابل، وإلاّ لم يكن وجه لعصمة بعض العباد دون بعض، وقابلية المحل هي نورانية القلب وصفاء النفس؛ لتكون الروح زكية نقية لا تحب المعصية، بل تتنافر معها، وتحب الطاعة وترغب إليها، وإذا كان المقتضي على تمام الاستعداد لا بد وأن يكون حامله معصوماً،

١ - علل الشرائع: ج١، ص١٧٥؛ معاني الأخبار: ص٣٥٢.
٢ - الكافي: ج١، ص٢٦٠، ح٥.

وإلاّ لزم منه خرق القانون العقلي أو نسبة النقص إلى الخالق، والكل باطل.

وهذا من حيث الحدوث واضح، وأما من حيث البقاء والحفاظ على هذا المقام فهو الآخر يتوقف على وجود المقتضي وانعدام المانع، ووجود المقتضي هو الحفاظ على مقام القرب والمحبة الإلهية، وهذا في نفسه يتوقف على مزيد العبادة وتطهير القلب وإظهار مزيد الخضوع والتوبة والتوسل، فإنه بالعبادة والإقرار بالعجز والتقصير تتحقق قابلية القابل؛ ويتواصل الفيض ويستمر اللطف الإلهي بالعبد، وترتفع الموانع منه؛ إذ لو استغنى العبد عن ربه لحظة واحدة في مرحلة التفكير والخطور الذهني فضلاً عن العمل لسقط عن مقام القرب، وحرم نفسه من الفيوضات الإلهية.

فتوبة الأئمة عليهم السلام واستغفارهم لم تنشأ من الأخطاء والمعاصي - والعياذ بالله - بل لأنه شرط أساس في الحفاظ على قابلية القابل واستمرار فاعلية الفاعل؛ بداهة أن اللطف الإلهي كما يتوقف على قابلية القابل حدوثاً يتوقف عليه بقاءً أيضاً.

وهذا التوجيه يؤكد حقيقة اختيارية العصمة وعلو درجات المعصوم عليه السلام؛ لوضوح أن الحفاظ على هذا المقام والرتبة أمر اختياري يتوقف على مزيد التعبد والتهذيب والتقوى، ومزيد التخضع والتخشع والاعتذار من القصور، ولعله مما يستفاد من بعض النصوص أيضاً، ففي الحديث القدسي ورد: «أنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين»[1] والسبب في هذه الأحبيّة هو أن الأنين والبكاء ناشئ من الاعتراف بالخطأ والتقصير والتواضع، فيكون

---

١ - فيض القدير: ج٥، ص٤٢٢؛ كشف الخفاء: ج١، ص٢٦١، الرقم٨٠٥.

خاليا من العجب والغرور اللذين هما من أكبر أسباب المهالك، بخلاف تسبيح المسبحين فإنه قد يكون ناشئاً من الحب، وقد يكون من التواضع وأداء الشكر، وقد يكون من العادة، وهو غير مأمون من العجب والغرور.

كما نقل الباري عز وجل قصة إبليس وغروره وحسده لآدم كشاهد على هذه الحقيقة، وهذا ما يؤكده الحديث القدسي الوارد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال الله تعالى لداود: يا داود بشّر المذنبين، وأنذر الصدّيقين. قال: كيف أبشّر المذنبين وأنذر الصدّيقين؟ قال: بشّر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصدّيقين أن لا يعجبوا بأعمالهم فإنه ليس عبد أنصبته للحساب إلاّ هلك»[1].

ويتوافق هذا الحديث مع مضمون الحديث الصادقي الذي رواه الكليني قدس سره في الكافي؛ إذ جاءه رجل فقال له: جعلت فداك - والله - إنني لمقيم على ذنب منذ دهر أريد أن أتحول عنه إلى غيره فما أقدر عليه، فقال له: «إن كنت صادقاً فإن الله يحبك، وما يمنعه أن ينقلك منه إلى غيره إلاّ لكي تخافه»[2] ومن الواضح أن الخوف يبعث العبد على مزيد الخشية والحذر والتقرب طلباً للمغفرة.

والمستفاد من بعض الأخبار أن الله سبحانه يحب من العبد التخضع والتخشع والأنين والبكاء والتمرغ في التراب؛ لأنها تجمع صفات العبودية من الإقرار بالعجز والقصور والنقص والتوبة إليه بالطاعة والعمل.

١ - الجواهر السنية: ص٨١- ٨٢.

٢ - الكافي: ج٢، ص٤٤٢، ح٤.

كما أن السجود هو أفضل حالة يتقرب بها العبد إلى ربه تبارك وتعالى، وإذا كان الله سبحانه يحب من العبد الأنين والبكاء والتخضع والابتهال وجعلها من أفضل وسائل التقرب إليه فإن المعصوم هو أولى العباد بإظهار ذلك والمبالغة في فعله؛ لأنه يطلب مزيد القربة والرضا، ويخشى من قصوره وعجزه عن أداء حق ربه، لأنه أعلم الخلق بالله وأكثرهم حباً لله وأعبدهم له.

وباختصار: إن روح المعصوم الزكية تشتاق إلى مزيد التوبة والاستغفار والخضوع والخشوع لأجل ديمومة اللطف الإلهي عليه، وليس لأجل الذنب والعصيان، فهناك فرق بين المعصوم وغير المعصوم، فإن غير المعصوم لا يستغفر إلاّ بعد المعصية، ولا يتوب إلاّ عن الذنب، بخلاف المعصوم فإنه يعلم بوجود ملازمة بين إظهار التوبة والاستغفار وبين نيل مقام العصمة حدوثاً وبقاءً، فلذا لا ينفك في جميع حالاته عن التعبد والتهجد والأنين والبكاء، وهو دليل على عظمته وعلو مقامه، وليس عن نقص فيه، وهو ما غفل عنه البعض فتوهم أن ذلك ناشئ من الذنب والعياذ بالله.

الناحية الرابعة: معرفية

وتقريرها: أن المعصومين عليهم السلام مهما بلغوا من الرتبة والمقام الإلهي فهم بشر في شكلهم وفي جوهرهم يتمتعون بجنبتين بشرية إنسانية وإلهية ملكوتية، وهم في عين الحال سادة الناس وأئمتهم، فجميع الناس محسوبون عليهم، كما أنهم منسوبون إليهم؛ لأنهم بشر. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[1]

١ - سورة الكهف: الآية ١١٠.

وقال سبحانه: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[١] و: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[٢] كما أنهم أولياء الله وحججه ونوره وبرهانه، وعلى هذا فهم في مكانتهم هذه توسطوا بين الخالق والمخلوق، وهم وسائط الفيض الإلهي على الخلق، بهم يرزق الله العباد، وبهم يعلمهم ويهديهم، بل وبهم ولأجلهم أوجدهم وخلقهم.

وفي عين الحال هم وسائل صعود الأعمال إلى الله سبحانه، ومظهر رضاه وغضبه ووعاء مشيئته، وبتعبير مختصر هم واسطة الفيض بين الخالق والخلق، ومن كان هذا دوره ومقامه ويعلم مدى لطف الله ورحمته بعباده ومطلع على فضل الله وخيره العام على جميع الخلق وفي عين الحال مطلع على أعمال الخلق ومحيط بما يفعلونه من جحود وإنكار لهذه النعم وعصيان لأوامر الله ومخالفة لحججه وفي عين الحال يدركون ضر المعصية وقبحها وأثرها السلبي على العباد.

فلا مناص من أنهم يقومون تائبين مستغفرين لائذين عائذين من أعمال هؤلاء الخلق الظالمين لأنفسهم، والمتجاوزين على حقوق بارئهم، تنزيهاً لأنفسهم ممن يشابههم في البشرية، وتقديساً لخالقهم من ظلم العباد، ويمكن أن نقرب هذا المعنى بمثالين:

المثال الأول: المزكي الذي يزكي إنساناً ويشهد له بالصلاح فيعين في وظيفة رسمية أو مقام اجتماعي ثم يتبين بعد ذلك خيانته وتقصيره في أداء

١ – سورة الإسراء: الآية٩٣.

٢ – سورة إبراهيم: الآية١١.

مهامه، فإن المزكي هنا يشعر بمزيد الخجل والحرج، فيقوم ويعتذر من أرباب العمل لا لذنب اقترفه بل لذنب اقترفه غيره، ومنشأ شعوره هذا هو أنه كان واسطة في تعيينه موظفاً.

المثال الثاني: إذا وجد الإنسان الكامل أن بعض الجاهلين أو العصاة يعتدون على مقام عالم كبير وينتقصون من قدره فأنه وبحسب كماله ومعرفته يقوم إليه معتذراً عن سوء عمل هؤلاء الجاهلين العصاة، وذلك لأن كل إنسان يتعامل بحسب مستواه ومعرفته، فالعارف الكامل لا يطيق أن يرى العدوان وسوء الخلق فيعتذر عنه.

وهذا ما ينطبق على استغفار الأئمة وتوبتهم عليهم السلام من جهتين:

جهة وساطتهم التكوينية بين الخالق والمخلوق وجهة إطلاعهم على قبح أعمال البشر وتقصيرهم في حق بارئهم وخالقهم، لاسيما وأنهم محسوبون عليهم ومنسوبون إليهم، ولا يخفى أن هذا التوجيه والتوجيه الثاني لا يتصرف في معنى الذنب والمعصية، ويحمله على غير معناه مجازاً، كما في التوجيه الأول والثالث، وإنما يحمله على معناه الحقيقي إلاّ أنه يتصرف في السبب؛ لأن الاستغفار فيه يكون عن فعل الغير ومعصيته وليس عن فعل المعصوم، فالمجازية فيه في الإسناد لا في الكلمة.

الناحية الخامسة: تعليمية

وتقريرها: أن الله سبحانه نصب الأئمة حججاً على الخلق معلمين وهداة ومربين، فلابد وأن يعلموا الناس نهج التوبة والابتهال والاستغفار كما علموهم الأحكام والعبادات، وعلموهم الأخلاق والآداب والسنن، وهذا

التعليم يستدعي جانبين: التعليم بالقول وهو تعريفهم التوبة والاستغفار، والتعليم بالعمل، ولا شك أن الثاني أهم وأبلغ في التأثير؛ إذ لا يمكن للعباد أن يتعرفوا على كيفية التوبة والاستغفار إلاّ من خلال ما يشاهدونه من استغفارهم عليهم السلام، ولا يمكنهم أن يدركوا عظمة الخالق وهول المعصية وشدة قبحها إلاّ من خلال ما يشاهدونه من تعامل المعصوم؛ إذ إن البشر العاديين عقولهم في عيونهم عادة، ولا يدركون الحقائق المعنوية إلاّ من خلال التجسيم والظهور على العمل.

فإن غير المعصوم إذا لاحظ شدة اهتمام المعصوم وتخضعه وتوبته أمام ربه مع عصمته فإنه يكون أدعى له للتوبة والاستغفار، ومما يشهد لهذه الحقيقة ما رواه الشيخ الطوسي قدس سره في الأمالي بسنده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أن فاطمة بنت علي بن أبي طالب لما نظرت إلى ما يفعل ابن أخيها علي بن الحسين بنفسه من الدأب في العبادة أتت جابر بن عبد الله الأنصاري فقالت له: يا صاحب رسول الله! إن لنا عليكم حقوقاً، ومن حقنا عليكم أن إذا رأيتم أحدنا يهلك نفسه اجتهاداً أن تذكروه الله وتدعوه إلى البقيا على نفسه، وهذا علي بن الحسين عليه السلام بقية أبيه الحسين عليه السلام قد انخرم أنفه، وثفنت جبهته وركبتاه وراحتاه دأباً منه لنفسه في العبادة، فأتى جابر بن عبد الله باب علي بن الحسين عليه السلام ... وقال له: يا بن رسول الله! أما علمت أن الله تعالى إنما خلق الجنة لكم ولمن أحبكم، وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم، فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك؟

قال له علي بن الحسين عليه السلام: « يا صاحب رسول الله! أما علمت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فلم يدع الاجتهاد له،

وتعبد - بأبي هو وأمي - حتى انتفخ الساق، وورم القدم، وقيل له: أتفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك. وما تأخر قال: أفلا أكون عبداً شكوراً» قال جابر: يا بن رسول الله! البقيا على نفسك، فإنك لمن أسرة بهم يستدفع البلاء، وتستكشف اللأواء، وبهم تستمطر السماء، فقال: «يا جابر! لا أزال على منهاج أبوي مؤتسياً بهما صلوات الله عليهما حتى ألقاهما»[١]. وهذا كان نهج سائر الأئمة الطاهرين عليهم السلام[٢].

ومن الواضح أن من جعله الله سبحانه إماماً وحجة وأمر الناس باتباعه والاقتداء به لا بد وأن يكون كذلك؛ ليكون منهاجاً للناس يتعلمون منه العبادة والطاعة وتربية النفس على تقوى الله، وهذا ما لا يمكن إلاّ إذا رأوا عبادته، وعايشوا توبته وأوبته ودعاءه واستغفاره.

ويمكن أن نوجز هذه الأجوبة ونلخصها بتوجيهين:

التوجيه الأول: أن نحمل التوبة والاستغفار على معناهما اللغوي لا الشرعي، فإن التوبة في اصطلاح الشرع الرجوع من الذنب والعصيان إلى الطاعة مع الندم على ما فرط منه، والعزم على ترك العود[٣]، والاستغفار

---

١ - الأمالي (للطوسي): ص٦٣٦- ٦٣٧، ح١٦؛ بحار الأنوار: ج٤٦، ص٦٠، ح١٨.

٢ - بحار الأنوار: ج٤٦، ص٢٠٠، ص١٨٨؛ ج٤٨، ص١٠٠؛ ج٤٩، ص٨٩.

٣ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ص١٦٩، (توب)؛ لسان العرب: ج١، ص٢٣٣، (توب)؛ معجم الفروق اللغوي: ص١٤٦، (٥٦٩)؛ وفي حديث علي أمير المؤمنين عليه السلام: «التوبة يجمعها ستة أشياء: على الماضي من الذنوب الندامة، وللفرائض الإعادة، ورد المظالم، واستحلال الخصوم، وأن تعزم أن لا تعود، وأن تربي نفسك في طاعة الله كما ربيتها في معصية الله، وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية» مجمع البحرين: ج٢، ص١٥، (توب).

طلب العفو عن عقوبة الذنب[١]، وأما في اللغة فالتوبة معناها أوسع، إذ تشمل ما كان عن ذنب أو عن قصور في أداء الحق؛ لأن أصلها من العود والرجوع[٢]، ومنه قوله تعالى في عبادة الليل: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[٣] أي خفف عليكم بالرجوع من التشديد إلى التخفيف، حيث جعلها تطوعاً لا فرضاً[٤]، والاستغفار طلب الستر سواء على العيوب المادية أو المعنوية، ومنه يقال لما يستر الرأس في الحرب ونحوه بالمغفر، أو على كل قصور أو عجز عن أداء الواجب[٥]، واستغفار المعصومين عليهم السلام وإظهار توبتهم من قبيل الثاني لا الأول.

التوجيه الثاني: أن نحمل التوبة والاستغفار على معناهما الشرعي، إلاّ أن علة الاستغفار وجهتها تختلف، فإن استغفار المعصوم وتوبته ليس لأجل ذنب صدر منه، بل يستغفر لما يصدر من أفعال غيره من الذنوب والمعاصي؛ لأنه هو واسطة وجود هذا الغير، أو هو مرشده ومعلمه، أو من جهة أنه مثيله في النشأة والصورة الإنسانية ونحو ذلك من وجوه واعتبارات يعد المعصوم نفسه أنه معني بها، وشتان، بين الاستغفار عن الذنب وبين الاستغفار عن ذنوب الآخرين، فإن الأول ناشئ من نقص النفس وقبح فعلها، والثاني من

١ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٠٩، (غفر)؛ لسان العرب: ج٥، ص٢٥،(غفر)؛ معجم الفروق اللغوية: ص٣٨٧،(١٥٥٨).
٢ - معجم مقاييس اللغة: ص١٥٨، (توب).
٣ - سورة المزمل: الآية٢٠.
٤ - انظر مجمع البيان: ج١٠، ص١٦٩، تفسير الآية المزبورة.
٥ - معجم مقاييس اللغة: ص٧٧٢، (غفر)؛ لسان العرب: ج٥، ص٢٥،(غفر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤٢٧، (غفر).

كمالها وحسن صفاتها، وبذلك يتضح أن المعصوم عليه السلام بالعصمة الكبرى ليس أنه لا يفعل القبيح ولا يرتكب الذنب بل هو لا يرتكب حتى مخالفة الأولى، وذلك لأن نفسه القدسية وعلومه الإلهية وكمالاته الربانية تحول دون صدور كل ما هو نقص أو قبيح في الفكر والعمل.

هذا وهناك أجوبة أخرى عن السؤال المذكور قد فصلته المباحث التفصيلية نتركها لمظانها[1].

١ - انظر الأنوار النعمانية: ج١، ص٢٥٩ وما بعدها.

الفصل الرابع

خصائص الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ومقاماته الإلهية

وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: في وراثة الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف وخلافته للأنبياء عليهم السلام

المبحث الثاني: في خصائص الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وآثارها التكوينية

تمهيد:

البحث عن خاتم الأئمة والأوصياء عليهم السلام الحجة بن الحسن المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف عميق ومفصل ومتنوع ويستحق دراسة مستقلة وافية، إلاّ أننا سنكتفي منه بما يتماشى مع غرضنا في هذا البحث، وباختصار؛ لأنه يتضمن محاور عديدة عمدتها عشرة:

الأول: يتعلق بوجوده المبارك وحقيقته النورية.

الثاني: عن ولادته في آخر زمان الإمامة أم في آخر زمان الدنيا.

الثالث: يتعلق بغيبته وطول عمره الشريف؛ إذ يدور البحث عن إمكان بقاء الإنسان حياً مدة تفوق الألف سنة، وعن سبب الغيبة وحكمتها.

الرابع: في وظائف المؤمنين تجاه الإمام عليه السلام.

الخامس: يبحث عن كيفية الارتباط بالإمام عليه السلام والاتصال به والكون في طاعته.

السادس: عن بركات وجود الإمام عليه السلام في زمن الغيبة وأثره على نظامي التكوين والتشريع.

السابع: عن الابتلاء والفتن التي يصاب بها الناس في زمان غيبته.

الثامن: عن ظهوره وعلائمه الكونية.

التاسع: عن حكومته وسياسته وتدبيره في زمن الظهور.

العاشر: عن مصير العالم بعد ظهوره.

وربما لا نجد حاجة إلى الوقوف على المحور الأول لسببين:

أولهما: كون المسألة من الضرورات التي تتفق عليها جميع الشرائع والأديان والمذاهب بما فيها الوضعية؛ إذ لا خلاف بين بني البشر على اختلاف توجهاتهم في ضرورة وجود مصلح عالمي يصلح ما فسد من الدنيا، وما أفسدته سياساتهم ومناهجهم، فلا خلاف بينهم في ضرورة وجود المصلح من حيث الأصل، وإنما الخلاف في مصداقه، ولا سبيل للعقل والنهج العقلي أو القوانين الأرضية لتحديده؛ لأن المسألة فوق مستوى الجميع - كما في النبوة - وينحصر طريقه بالسماء، فإذا تواتر النقل عن وجوده وتعيينه بولي الله الأعظم الحجة بن الحسن عجل الله تعالى فرجه الشريف انقطع البحث؛ لأن نتائج التواتر يقينية، واليقين حجة الحجج.

ثانيهما: كفاية الأبحاث المتقدمة من مباحث النبوة والإمامة في بيان ذلك بما لا تبقي حاجة لمزيد البيان كما عرفت تفصيله.

وذات الكلام يقال في المحور الثاني والثالث، سيما وقد استفاض العلماء والباحثون في تفصيلها في دراسات استدلالية تحليلية هامة ومتنوعة حتى باتت هي الأخرى من الضرورات التي يعد الخوض فيها من توضيح الواضح، وذات الكلام يقال في المحورين السادس والسابع، وأما المحور الخامس فقد أشارت الروايات المتضافرة إليه، ولخصت أبرز ما يصاب به

الناس من ابتلاءات في ثلاثة:

الأول: التشكيك به.

الثاني: اليأس من ظهوره ويصاب بهما حتى المؤمنون.

والثالث: في معصيته ومخالفة نهجه واتباع مناهج أهل الدنيا في الأفكار والأخلاق والنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية. والأبحاث الآتية تتكفل في دفعها.

وأما البحث في المحور الثامن والعاشر فسنأتي إلى تفصيلهما في مباحث المعاد إن شاء الله، فيبقى الكلام في ثلاثة محاور: وهي الرابع والخامس وسنجمعهما في مبحث واحد لتداخلهما، والتاسع وهو ما عقدنا له هذا الفصل، وكيف كان فإن الكلام في مقامات مولانا حجة الزمان ومصلحه ينعقد في مبحثين:

المبحث الأول
في وراثة الإمام ﷺ وخلافته للأنبياء عليهم السلام

والبحث فيه يقع في مطالب:

المطلب الأول: في حقيقة العقيدة بالمهدي ﷺ.

تقدم أن حقيقة الإمام المهدي ﷺ من أكثر الحقائق رسوخاً في قناعات البشر من جهتين:

الأولى: فطرية، وتقريرها: أن حب الكمال والميل إلى بلوغه وتوقفهما على وجود مصلح يوصل إليه أمر تقضي به الفطرة السليمة. نعم يحكم العقل بأن المصلح لابد وأن يكون كاملاً؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

والثانية: وجدانية خارجية؛ إذ لا يشك أحد أن البشرية في نفسها قاصرة عن الإصلاح من نفسها، والعلم الحديث وحده يعجز عن إصلاح البشر، بل تؤكد الوقائع المعاشة أنه أحد أسباب الظلم والفساد في الأرض، والقانون هو الآخر أعجز منه؛ لأنه غير كامل، ويفتقر إلى تعديل وتقويم دائم وضمانات تتكفل بعدالة التنفيذ، بينما تتفاقم أزمات البشر يوماً بعد آخر، ويسود الظلم والجور كل ربوع المعمورة، وهي شاهد صدق على قصوره وعجزه، ولا أمل

في النجاة إلاّ بزعيم خارق في طاقاته ومواهبه، متجرد عن النواقص والرذائل التي أصيب بها العالم، مؤيد ومسدد من السماء كما هو عند الإلهيين، أو من قبل تأييد البشر؛ لكونه منجياً له كما هو عند الماديين يخلص العالم من الظلم والفساد المستشري فيه، وبذلك تتضح عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن حقيقة المهدي ﷺ أوسع حقيقة غيبية على الإطلاق، لاتفاق جميع البشرية عليها، فالملاحدة والمشركون واليهود والنصارى وسائر أهل الأديان فضلاً عن المسلمين كلهم يؤمنون بها، ويسلمون لها.

الحقيقة الثانية: أن الروايات حددت الشخص الذي يمثل خاتم الأوصياء بالنسب الواضح والتسمية الصريحة، وأنه من ولد فاطمة عليها السلام، كما نصت على أنه مولود وله غيبة، فمن أنكره في زمان غيبته يموت جاهلياً، والمخالفون لا ينكرون أصله ونسبه، بل ينكرون ولادته، إلاّ أن التواتر الوارد في الأخبار يبطل دعواهم.

ومن هنا قلنا إن القضية من القضايا الفطرية التي يدركها كل ذي فطرة سليمة حتى وإن لم يكن مؤمناً بالأديان السماوية، ولذا كانت من الحقائق الثابتة في النفوس، ولم ينكرها منكر مهما بالغ في المكابرة، وأما أهل الأديان فقد سلّموا لها وأذعنوا إليها؛ لورودها في كتبهم المقدسة وموروثاتهم الدينية[1].

وأما في الإسلام فتعد القضية من المسائل الضرورية التي لا تقبل الجحود والنكران، بل تسالمت كلمة أهل الإسلام على أن منكرها خارج عن الدين؛ لأن الإيمان بالمهدي ﷺ ملازم للإيمان برسول الله ﷺ وبالقرآن، فالمنكر لها

١ - نظر فلسفات إسلامية: ج٢، ص٣٣١.

منكر لهما، وهو في حد الكفر كما صرحوا به[١].

وقد دل القرآن الكريم عليها دلالة نصية أو ظهورية أو تأويلية بضميمة الأخبار الشريفة، كما هو متفق عليه بين الفريقين، والأخبار الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله في المهدي عجل الله فرجه من طرق الخاصة والعامة تجاوزت الآلاف المؤلفة، وهو رقم نادر لم يرد حتى في مثل الصلاة والصيام والتوحيد والنبوة ونحوها من أركان الدين أصولاً وفروعاً، والملحوظ أن بعض المصنفات جمعت الروايات المخبرة عنه عليه السلام وعن اسمه وصفاته وغيبته وظهوره قبل ولادته صلوات الله عليه بحوالي المائة سنة نظير كتاب المشيخة للحسن بن محبوب الزرّاد[٢]، بل عن المحقق القمي قدس سره: أن كثيراً من جوامع الشيعة ألفت قبل ولادة جنابه عليه السلام، فهذه الأخبار مضافاً إلى كونها متواترة ومفيدة لليقين تكون مقرونة بالإعجاز؛ لاشتمالها على الإخبار بتولده، ووقوع ما أخبروا به[٣] ومن هنا أقر بها حتى المعادون لأهل البيت عليهم السلام والمنكرون لمقاماتهم الإلهية، بل الذين خالفوا رسول الله صلى الله عليه وآله والقرآن ظاهراً وباطناً.

ففي كلمات بعض أئمة الحزب الوهابي ورد: أما إنكار المهدي المنتظر بالكلية كما زعم بعض المتأخرين فهو قول باطل؛ لأن أحاديث خروجه قد تواترت تواتراً معنوياً، وكثرت جداً واستفاضت، وهو كالإجماع بين أهل العلم[٤].

---

١ - انظر مجمع البيان ج٧، ص ١٢٠- ١٢١؛ تفسير الأمثل: ج١٠، ص١٧٨، تفسير الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء.

٢ - إعلام الورى: ص٤١٦.

٣ - بداية المعارف الإلهية: ج٢، ص١٥٩.

٤ - هو ابن باز. انظر المهدي وفقه أشراط الساعة: ص٨٩؛ سيكلوجية الانتظار: ص١٢٧.

وعن آخر حينما سئل عن حقيقة خروج المهدي عجل الله فرجه قال: «وأما ظهور المهدي في آخر الزمان فالإيمان به واجب كما هو مقرر عند أهل العلم، ومدون في عقائد أهل السنّة والجماعة، وقد تواترت بذلك الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله [١]، ومن هذه الأخبار ما ورد عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: «المهدي حق وهو من ولد فاطمة»[٢] وفي آخر: «من أنكر القائم من ولدي في زمان غيبته فمات مات ميتة جاهلية»[٣].

وفي العلل عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر عليه السلام قال في شأن أولي العزم من الرسل: «وإنما سموّا أولي العزم لأنهم عهد إليهم في محمد صلى الله عليه وآله والأوصياء عليهم السلام من بعده والمهدي عجل الله فرجه وسيرته، فأجمع عزمهم أن ذلك كذلك وأقروا به»[٤] إلى غير ذك من الروايات الكثيرة جداً[٥].

الحقيقة الثالثة: أن هذه الحقيقة الإلهية تصلح أن تكون جامعاً مشتركاً لإيصال جماعة المسلمين إلى تفاهم أو توافق في المعتقدات؛ لأنها أوسع حقيقة أقر بثبوتها الجميع، فيمكن الانطلاق منها لفهم باقي الحقائق ورفع الاختلاف لو شاء أهل القرار ذلك، بل يستفاد من الأدلة أن هذه الحقيقة متقررة في علم الملكوت، فهي تفوق عالم الأرض، وتصل إلى كل الموجودات؛ لأنه عليه السلام آخر الحجج الإلهية، وبه ينسد باب الكمال واتصال الأرض بالسماء، ومثل

---

١ - المهدي المنتظر حقيقة أو خرافة: ص١٨٨؛ الإمام المهدي: ص٥٢- ٥٣.
٢ - تهذيب الكمال: ج٩، ص٤٣٧، الهامش.
٣ - معجم أحاديث الإمام المهدي عجل الله فرجه : ج٢، ص٢٥٣، رقم ٥٥٥.
٤ - علل الشرائع: ج١، ص١٢٢، ح١.
٥ - انظر فهرستاً عاماً لما ورد في ذلك في كتاب الإلهيات (للسبحاني): ج٤، ص١٣٣- ١٣٤.

هذه الحقيقة تعرفها كل الموجودات، وتحن إليها، ومن هنا يعرف أن حب المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وانتظاره هي قضية كونية يعرفها ويدركها الكون، ويتمسك بها بحسب قانون الفطرة الذي أودعه الله سبحانه في مخلوقاته، وجعلهم سائرين إلى الكمال.

المطلب الثاني: في وراثة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف

تتفق الآيات والروايات بل هو ما تقضي به الفطرة والعقل على أن الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وريث الأنبياء والأوصياء، وهذه الوراثة مادية ومعنوية، فهو يرث الأرض بما فيها من خيرات وبركات فيحكمها، وينشر العدل الإلهي على ربوعها بعد أن ملأها البشر ظلماً وجوراً، ويرث علوم الأنبياء والأوصياء، ومن هنا فإن مهامه الإلهية تتلخص في الهداية في رتبتها العليا، أي الإيصال إلى المطلوب، بمعنى أنه يوصل الخلق كله إلى كماله وهدفه الإلهي في الوجود، فهدايته للخلق ليست من قبيل إراءة الطريق أو الحث والتشويق، بل التحقيق والتطبيق، وهذه سمة خاصة يمتاز بها صلوات الله عليه عن سائر الأنبياء والأوصياء؛ إذ كانوا جميعاً مكلفين بالظاهر، وينفذون الأوامر الإلهية بحسب معادلات الأسباب والمسببات والامتحان الإلهي الأعم من مطابقة الواقع، وأما خاتمهم صلوات الله عليه فإنه ينفذ الأمر الإلهي والإرادة الإلهية بحسب الواقع.

وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾[1]

---

١ - سورة الأنبياء: الآية ١٠٥- ١٠٦.

ومنطوقها صريح في جملة خبرية في مقام الأنشاء مفاده أن الأرض في آخر المطاف سيرثها عباد صالحون، وأن هذا من الوعد الإلهي الذي يتحتم وقوعه، ولا يجوز مخالفته.

وأن هذا الوعد مذكور في الكتب السماوية والقرآن الكريم، بناء على أن الزبور يراد به المعنى اللغوي، أي كل كتاب ومقال، أو يراد به المعنى الكنائي عن الكتب السماوية كما مال إليه جمع من مفسري الخاصة والعامة(١)، وهو المروي عن الأئمة عليهم السلام (٢).

ولعل النكتة في ذكر زبور داود مع أنه العهد القديم بالقياس إلى التوراة والإنجيل تعود إلى أن داود أقام حكومة إلهية كانت تحكم بما أراه الله سبحانه، ولم تأخذ بشريعة محرفة أو بقانون أرضي أو مخالفة للواقع، وبذلك يتضمن إشارة إلى حقيقة الوراثة التي سينالها العباد الصالحون، أي وراثة الحكم والعلم، وهذا ما تقتضيه القرينة المقامية ومناسبة الحكم والموضوع، وحينئذ يستفاد منها أمران:

الأول: أن وراثة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف للأرض وراثة الحكم والعلم.

الثاني: أن المهدي صلوات الله عليه هو خليفة الله في أرضه في خاتمة الزمان، وأن خلافته جعلية إلهية لا بانتخاب من الناس، ولا تنصيب بالقوة البشرية، فكما جعل الله سبحانه داود خليفة في الأرض وأمره أن يحكم بما أراه

---

١ - انظر تفسير مجمع البيان: ج ٧، ص ١١٩؛ تفسير ابن كثير: ج ٣، ص ٢١٠؛ تفسير الأمثل: ١٠، ص١٧٥.

٢ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص٧٧.

الله فكذلك وليه المهدي عجل الله فرجه، فإنه يكون خليفة الأرض ويحكم بما أراه الله، وهذا ما تعضده الروايات التي نصت على أنه عليه السلام يحكم بالواقع لا بالظاهر، ولازم ذلك أن يسخر له الكون فيلين له الحديد، ويعلمه منطق الطير ونحوها من كرامات إلهية.

وفي ذلك كله كناية عن النصر الإلهي الحتمي لكي يظهر حجته على الدين، ويبطل حجج المنكرين والمعاندين، ولعل هذا المعنى يستفاد من رواية القمي حيث قال: «أعطى الله داود وسليمان عليهما السلام ما لم يعط أحداً من أنبياء الله من الآيات، علمهما منطق الطير، وألان لهما الحديد والصفر من غير نار، وجعلت الجبال يسبحن مع داود عليه السلام، وأنزل الله عز وجل عليه الزبور فيه توحيد وتمجيد ودعاء وأخبار رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام من ذريتهما عليهما السلام، وأخبار الرجعة والقائم عليه السلام»[1].

وفي زبور داود – مزامير داود – نصوص تتوافق مع مضمون الآية، ولعل من دلائل اللطف الإلهي به أن هذا المضمون لم تنله يد التحريف والتلاعب بالرغم من سعي اليهود والنصارى لإيقاعه، ففي المزمور٣٧ جملة ٩ يقول: لأن عاملي الشر يقطعون، والذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض بعد قليل لا يكون الشرّير.

وفي جملة ٢٧ من ذات المزمور تكرر المضمون إذ يقول: لأن المتبركين بالله سيرثون الأرض، أما الملعونون فسينقطع أثرهم، وفي جملة ٢٩ يقول: إن

١ – تفسير القمي: ج٢، ص١٢٦.

الصالحين سيرثون الأرض وسيسكنون فيها إلى الأبد[١]، إلى غيرها من جمل وهي عديدة[٢].

ومن قوله: ﴿عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ يتضح أن الوراثة تكون للموصوفين بالعبودية لله، وواضح أن أرقى من اتصف بالعبودية هو الرسول الخاتم، واتضح من الآية أن الوصي الخاتم أيضاً يتصف بهذه الصفة، وهو ما تؤكده الأخبار المتضافرة التي نصت على شباهته صلوات الله عليه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خلقه وفي نهجه ومسيرته.

ويستفاد من الآية أيضاً أن مصير الأرض يكون بيد الصالحين، ومفهومه انقراض غير الصالحين وجوداً أو قوة وسلطة، وفي ذلك تأكيد لما ذكرناه من أن قضية المصلح العالمي حقيقة فطرية تقضي بها طبائع الأشياء وقواعد الفطرة البشرية.

فيتحصل: أن المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف هو وارث الأرض، وهو السيد والحاكم فيها؛ لأنه مدخر لإقامة الفرائض والسنن وإيصال الخلق إلى كماله وغايته الوجودية، والسؤال هو كيف يحقق الإمام عليه السلام هذا الهدف؟

والجواب يحققه عبر خطة إلهية مرسومة ذات بعدين هما العلم والقدرة.

أولاً: بُعد العلم

فإن الله سبحانه خص وليه الأعظم عجل الله تعالى فرجه الشريف بعلوم ومعارف تفوق طاقات

---

١ - انظر تفسير الأمثل: ج١٠، ص١٧٨.

٢ - انظر المزمور ٣٧ جملة (١١) وجملة (١٨).

البشر وقدراتهم، يفتح خزائنها، ويربي بها البشر، ويرتقي بهم إلى الكمال في عين الحال الذي يكون دليلاً تاماً على صدقه وحجيته على الخلق، وتقرير ذلك يتم ببيان ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى: أن جميع أهل العلم يقرون بأن ما يجهله الإنسان عن الوجود أكثر مما يعلمه، وكلما تطور العلم وأبدع العلماء فإنهم لا زالوا يحبون وفي مراحلهم الأولية من العلم، ولازالت الأبحاث والدراسات تطلع علينا يوماً بعد آخر فتخطئ بعض النظريات السابقة، وتأتي بشيء جديد يأخذ برهة من الزمن وربما يثبت فشله أيضاً، وربما تصوِّب ما توصلوا إليه، ورغم ذلك فإن ما يصوّبه العلم يبقى قطرة في بحر عميق لا يبلغ غوره، وهذا مما يقضي به البرهان؛ لأن الكون كتاب الله التكويني، فهو مظهر علم الله، وعلمه سبحانه مما لا يتناهى، والبشر مهما بلغ وارتقى فهو محدود، والمتناهي المحدود يستحيل أن يبلغ اللامتناهي واللامحدود.

فعلم الإنسان بالقياس إلى علم الله سبحانه وأسراره مما لا يقاس، ولا يؤخذ بالحسبان، ويشهد القرآن الكريم بأن الإنسان مهما أوتي من العلم فهو قليل، إذ قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1] وهذا ما يشهد به الوجدان، فإن الإنسان يجهل حتى أسرار نفسه، بل يجهل نفسه التي هي جوهره وحقيقته، ويجهل مستقبله، ومما يزيد الأمر عظمة أن أسرار الوجود في تجدد وتطور دائم ودائب، ولم تتوقف عند حد زماني أو مكاني أو غيرهما؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

١ – سورة الإسراء: الآية ٨٥.

٢ – سورة النحل: الآية ٨.

ومن الواضح أن ما يتوصل إليه البشر من المعلومات ويثبت صوابها يستغرق وقتاً طويلاً؛ لاستحالة الصدفة والطفرة، بينما خلق الله سبحانه مستمر ودائم، وأمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فهل توجد وحدة قياسية يمكن أن يعرف بها مدى التفاوت بين ما يحتويه العالم من أسرار وما يعلمه البشر منها، ومعلوم أن القوانين والأسرار لا تختص بالعلوم التقنية، بل تشمل حتى العلوم المادية، وهو ما يشير إليه قوله عز وجل: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[١] والمراد من الأيدي القوة، وهي صريحة الدلالة على أن بناء السماء الذي هو أدق وأعمق من الأرض في حال توسع دائم، وهذا ما أقره علم الفلك الحديث[٢]، بل وعلوم الفيزياء والكيمياء والأحياء الحديثة.

والخلاصة: أن البشر في نفسه قاصر عن بلوغ أسرار الوجود وطاقاته وقوانينه، ومهما بلغ من علم نظري أو عملي أو تجربي فإنه قطرة في بحر لجي.

الحقيقة الثانية: أن ما وصل إليه الإنسان اليوم من علم ومعرفة بنى عليهما حضارته الحديثة فتح عينه وقلبه وعقله على الكثير من الحقائق المعرفية، وأخرجه من طور الجهل المطلق، ووضع أقدامه في طريق العلم، وأنار حياته بالمعارف المختلفة، وهذا ما لا يمكن إنكاره، إلاّ أن ما ربما يغفل أو غفل عنه الكثير أمران:

الأول: أن ما توصل إليه الإنسان من العلم والمعرفة لم يكن من نفسه

١ - سورة الذاريات: الآية ٤٧.

٢ - انظر تفسير الأمثل: ج١٧، ص٩٣- ٩٤ تفسير الآية المزبورة.

فقط، بل تدخلت الإرادة الإلهية في تعليمه عبر طريقين هما: الأنبياء والأولياء والإلهامات الربانية، فما من عالم أو عبقري أو باحث أو شاعر إلاّ وعلمه الباري عز وجل علمه إما مباشرة عبر إلهامه المعاني والحقائق أو الصور الشعرية، أو عبر تسخير العلم إليه بإيجاد المقتضيات للتعلم في نفسه ورفع الموانع وتهيئة أدوات العلم وأسبابه، أو بهما معاً، والحق أن جوهر العلم والتعلم هو الإلهامات الربانية، وأما الأسباب فهي معدات وليست بعلل، فلولا الإلهام والإفاضة على العقل أو القلب أو المشاعر لاستحال على الإنسان أن يصنع شيئاً، أو يبدع شيئاً، وهذا من الحقائق التي يشهد بها الوجدان، وتواترت به الأدلة النقلية، وقام عليها برهان العقل، وقد مر عليك في المباحث السابقة ما يدل عليها.

وبهذا الاعتبار يصح نسبة العلم إلى الله سبحانه، وأما الإنسان فليس إلاّ واسطة أو مظهر للعلم الإلهي، وأما تعلمه ودراسته وبحثه وتحريه فهي عوامل مساعدة لإفاضة العلم والتعليم لولاها لم يتعلم إنسان، ولا يكون عالماً، فمثل فعل الإنسان في تحصيل العلم والمعرفة مثل من يضع مرآة في وجه الشمس لينعكس شعاعها عليها، فالذي لا يملك مرآة ولا يسعى لتحصيلها لا ينعكس عليه شيء من نورها.

الثاني: أن كل ما حصله البشر من العلوم والمعارف وبنى على أساسها حضارته الحديثة التي بهرت العقول واغتر بها أهلها ليست في معادلة العلوم الإلهية المودعة عند محمد وآل محمد عليهم السلام إلاّ نقطة صغيرة؛ لأن مرايا البشر وقلوبهم وعقولهم ضيقة محدودة قاصرة عن استيعاب الفيوضات الإلهية من دون وساطة محمد وآل محمد عليهم السلام، إلاّ أن هذه العلوم المودعة عندهم لم

يظهروها جميعاً إلى الناس، وإنما أظهروا منها ما اقتضته الحكمة والمصلحة.

وأما باقيها فهو مدخر عند ولي الله الأعظم وخاتم الأئمةعليهم السلام ليظهرها في آخر الزمان، وبها يعلم البشر، ويرتقي بهم إلى الكمالات الإلهية، وهذا ما تؤكده الروايات المتضافرة عنهمعليهم السلام نظير قول الصادقعليه السلام: «العلم سبعة وعشرون حرفاً، فجميع ما جاءت به الرسل حرفان، فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الحرفين، فإذا قام قائمنا أخرج الخمسة والعشرين حرفاً فبثها في الناس، وضم إليها الحرفين حتى يبثها سبعة وعشرين حرفاً»[1].

والحرف في كل شيء طرفه وحده وجانبه[2]، وهو صريح في أن الإمامعليه السلام ينشر هذه العلوم والمعارف بين الناس، ولعل تحديد العدد بسبعة وعشرين يراد به أصول العلوم والمعارف بناء على حمل العدد على المعنى الحقيقي، أو يراد منه المعنى الكنائي أي إنهعليه السلام يفتح أبواباً كثيرة للعلم لم يعرفها الناس من قبل فيرتقون بها ويزدادون، ولعل وجه تحديد العدد بسبعة وعشرين لأنها تقارب أو تساوي الحروف الأبجدية، فتكون أقرب إلى أذهان الناس، أو أن هذا العدد هو أصول العلوم والمعارف بالفعل، ومنها تشتق سائر العلوم وإليها تعود.

ويدل على ارتقاء البشر في عهده صلوات الله عليه قول الباقرعليه السلام: «وتؤتون الحكمة في زمانه حتى أن المرأة لتقضي في بيتها بكتاب الله تعالى

١ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٣٦، ح ٧٣.

٢ - مجمع البحرين ج٥، ص٣٦، (حرف)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٢٨، (حرف)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص١٦٧،(حرف).

وسنة رسول الله ﷺ»[١] وصيغة المبني للمفعول (تؤتون) ظاهرة، بل صريحة في أن تعلم الناس لا يكون بالأسباب الطبيعية، بل تتدخل فيه يد الغيب، ولعل تسمية العلم هنا بالحكمة للإشارة إلى تنعم البشر بالخير الكثير، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٢].

وقضاء المرأة في بيتها إما يشير إلى أن المرأة وهي في بيتها تتلقى العلم بالقضاء، فلا تطلبه عبر الوسائل التعليمية المعهودة لدى البشر، وهذا ما يتوافق مع صيغة المبني للمفعول.

وإما إلى أن الناس يستغنون عن القضاء؛ لأن كل واحد منهم يصبح قاضياً على نفسه في الوقوف عند حد الاعتدال في السلوك أو الإيقاف عليه حتى المرأة تقضي بين أهلها في بيتها، وربما يؤيده قوله: «وتؤتون الحكمة» فإن إيتاء الحكمة للجميع بلسان العموم الاستغراقي ظاهر في بلوغ البشر مكانة من المعرفة حتى يعرفوا الحق من الباطل، ويفصلوا بينهما، ولا تنافي بين المعنيين، فالحمل عليهما بلا محذور، ويستفاد من بعض الأخبار الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام أن مفتاح العلم بيده صلوات الله عليه، وخاتمته بيد ولي العصر ﷺ، مما يدل على أن البشر يبلغون في عهده غاية كمالهم في المعرفة، وأن العلوم في الأرض وبمعايير الدنيا تتوقف، فلا زيادة فيها لانتفاء الغرض منها.

قال عليه السلام: «يا كميل! ما من علم إلاّ وأنا أفتحه، وما من شيء إلاّ والقائم

---

١ - مكيال المكارم: ج١، ص١٥٤.

٢ - سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

يختمه»[١] وبناء على قرينة السياق يحمل (شيء) على العلم، وأما بناء على الإطلاق فإنه يحمل على ما هو أوسع من العلم، فيشمل الكمالات النفسية والفضائل والعلوم المادية وسائر العلوم والمعارف التي أظهرها الأنبياء والأئمة عليهم السلام و غفل عنها الناس، أو نسيها، أو لم تصل إليهم. هذه جميعها تختتم بظهوره صلوات الله عليه.

وورد عن الكاظم عليه السلام ما يشير إلى بعض حدود هذه العلوم، ففي حديث الراهب الذي سأل الإمام عليه السلام فقال: اخبرني عن ثمانية أحرف نزلت، فتبين في الأرض منها أربعة، وبقي في الهواء منها أربعة على من نزلت تلك الأربعة التي في الهواء؟ ومن يفسرها؟

قال عليه السلام: «ذاك قائمنا ينزلها الله عليه فيفسرها، وينزل عليه ما لم ينزل على الصدّيقين والمرسلين والمهتدين»[٢].

وفي ذلك إشارة إلى أفضليته صلوات الله عليه على سائر الأنبياء والمرسلين والأئمة إلاّ ما استثناه الدليل، وهو جده المصطفى صلى الله عليه وآله وعلي أمير المؤمنون عليه السلام وجدته الصديقة الكبرى عليها السلام والحسن والحسين عليهما السلام، وهو ما يستفاد من جملة من الأخبار.

منها: قوله عليه السلام: «إن القائم المهدي من نسل علي أشبه الناس بعيسى

١ - مكيال المكارم: ج١، ص١٣٩.
٢ - مكيال المكارم: ج١، ص١٣٩.

بن مريم خلقاً وخلقا وسيماء وهيئة، يعطيه الله عز وجل ما أعطى الأنبياء، ويزيده ويفضله»[١].

أو إشارة إلى خصوصية من خصوصياته الغيبية، والأول أقوى، وهو ما يقضي به العقل والبرهان، لوضوح أن سعة الفيض النازل كاشف عن سعة القابل، وإلاّ لزمت الجزافية واللغوية في الإنزال، والتضييع للنازل، والظلم بالمنزل.

ولعل السر في عدم ظهور هذه العلوم والمعارف إلاّ في زمانه صلوات الله عليه وعلى يديه يعود إلى وجهين:

الأول: قصور القابل؛ لأن البشر قبل عهده عليه السلام محدودون قاصرون، فلا يتحملون ثقل العلوم والمعارف الواقعية، وبالتالي فإن إظهارها للناس مع قصورهم يؤدي إلى اتهام الأنبياء والأئمة في دينهم، أو المغالاة بهم، أو تعريض البشر إلى الكفر والجحود، والكل يتنافى مع الغرض والحكمة الإلهيين، وهذا ما يستفاد من مثل قول أمير المؤمنين: «إن هاهنا لعلماً جماً لو أصبت له حملة»[٢] وقول الإمام زين العابدين عليه السلام:

إني لأكتم من علمي جواهره ... كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن ... إلى الحسين ووصى قبله الحسنا
يا رب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

١ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص٢٢٦، ح٨٩.
٢ - نهج البلاغة: ج٤، ص٣٦، الخطبة ١٤٧.

ولاستحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا[١]

وواضح أن هذه العلوم المودعة عندهم لابد لها من ظهور، وحيث لا استعداد في البشر فلابد من العمل على ترقية البشر ليتهيأ لتلقي هذه العلوم، وذلك ما يقع في عصر الولي الخاتم صلوات الله عليه.

والثاني: لأن البشر في دار الدنيا ممتحنون مبتلون، والتمايز والتفاضل بينهم يكون على حسب العمل والجهد والمثابرة، فلو أظهر الله سبحانه سائر العلوم والمعارف بطلت سنة الامتحان، بل إن الأنبياء والأئمة عليهم السلام قبل عصر الظهور مكلفون بهداية الخلق إلى التوحيد، وتعليمهم الشرائع، وإقامة الحجة لهم وعليهم، ولذا لم يقيموا حكومات، ولم ينشئوا دولاً في الغالب مع أنهم لو أرادوا لاستطاعوا، إلاّ أنها لم تكن وظيفتهم؛ إذ كانوا مكلفين بالظواهر لا بالواقعيات، والظواهر محكومة بالقيود المادية الدنيوية، وعاجزة عن التحرر منها إلاّ بمقدار الجهد والترويض واتباع الأسباب والمسببات، فلو أظهروا العلوم الواقعية ضاعت بين قصور الدنيا وقصور البشر عن دركها، بينما في زمانه صلوات الله عليه يرتفع القصور؛ لكون زمانه محطة تربط بين عالم الدنيا وعالم الآخرة فتحظى بالقابلية من الجهتين الملكية والملكوتية، وتكون جديرة بتحملها.

الحقيقة الثالثة: أن التحضر البشري بمعناه الحقيقي لا يتحقق إلاّ في عصره صلوات الله عليه؛ لأن التحضر بمعناه العرفي أو المصطلح مرحلة سامية من

---

١ - كتاب الأربعين: ص٣٤٥؛ الغدير: ج٧، ص٣٥- ٣٦؛ طرائف المقال: ج٢، ص٦٠٣- ٦٠٤.

مراحل التطور الإنساني يتمظهر بالرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر مقابل البداوة وما تتصف من صفات تناقض الحضر[١]، وذلك يتقوم أولاً بالإنسان، وأما العلم والأدب والفن ونحوها فهي نتاج مستواه وفهمه وتفكيره ثم عمله.

ومن هنا يتضح أن الحضارة ليست هدفاً بذاته، بل هي طريق كاشف عن كمال الإنسان ورقيه، وإذا عرضنا الحضارة البشرية اليوم على هذا المعيار نجد مفارقة عجيبة؛ لأن الحضارة المعاصرة تمكنت من العمل على تطور الإنسان وتغيير حياته إلى الأحسن، وأعطته من إنتاجها الشيء الكثير، ولكن كل ذلك يدور على جسد الإنسان ومظهره وشكله ونمط معيشته.

فإذا نظرنا إلى عقل الإنسان وقلبه وضميره نجدهما على العكس تماماً، إذ تراجعت الإنسانية في الإنسان، وتبدلت موازينها إلى المادة، والمادية فحياته وموازينه ومواقفه تحكمها المصالح والماديات فقط ، والنظرة الفاحصة إلى الواقع الخارجي وما يجري على الأرض من ظلم وجور وفساد يكفي لإثبات هذه الحقيقة، فالحضارة الحديثة لها أثران إيجابي يقتصر على الشكل والمظهر، وسلبي يعود على العقل والقلب والضمير بالتردي والانحطاط.

ومن الواضح أن إنسانية الإنسان ليست في جسمه، ولا في ثيابه، ولا في سيارته أو قصره أو طعامه أو شرابه؛ وإنما في رجاحة تفكيره ونظافة قلبه وطهارة ضميره وسمو القيم الإنسانية في أفعاله ومواقفه، فالحضارة الحديثة بعلومها ومعارفها تمكنت أن تصنع حضارة مادية مبهرة، ولكنها عجزت من

١ - انظر المعجم الوسيط: ج١، ص١٨١، (حضر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٢٧٢، (حضر).

أن تحضر الإنسان نفسه، بل تراجعت به إلى الوراء حتى صار بنهجه العام متوحشاً في تفكيره ومواقفه؛ لأن هذه الحضارة عوراء شوهاء تعرف كيف تطعم الإنسان وتشبع غريزته، ولكنها لم تتمكن أن تملأ عقله نوراً وقلبه رحمة وسلوكه نبلاً وشهامة، فالمعادلة التي تقوم عليها هذه الحضارة هي المادة فقط، وأما المعنى وقيم المعنى فالناتج عندها صفر؛ إذ يعيش العالم في فقر مدقع في أبعاد المعارف والأخلاق، ولذا ضج المجتمع البشري بالمشاكل والأزمات الإنسانية المستعصية، وتزداد الجرائم والجنايات والحروب والدمار وتكبر، وقد اتفق عقلاء العالم على هذه الحقيقة، وصار الكل ينتظر المصلح الذي ينجي البشر من هذه المخاطر المهلكة.

وهذا الذي عجزت عنه الحضارة الحديثة سيحققه ولي الزمان وحجته عجل الله تعالى فرجه الشريف، أي إنه يكمل البشر، ويرقيهم ويرفع من مستواهم الإنساني ويبني حضارة تقوم على الإيمان والعدل والرحمة والمحبة، أي حضارة يقودها تحضر الإنسان لا المصالح والشهوات.

وبهذا الاعتبار يصح أن نسلب عن الحياة اليوم صفة الحضارة الحقيقية، ونعطيها التسمية مجازاً وتسامحاً؛ لأنها - من حيث القيم - حضارة فاسقة فاجرة خارجة عن السنن الإلهية، وبعيدة عن تحضر الإنسان وفطرته؛ بداهة أن الإنسان مركب من الجسد والروح، فحاجاته ثنائية الأبعاد، إلاّ أن الروح هي حقيقته وجوهره، وأما جسده فهو وسيلة موقتة يطوي الإنسان به مراحل حياته الدنيوية، ثم يتركه ويرحل إلى ما هو أسمى من الدنيا، وبالتالي فإن الجسد ليس هو الإنسان بل روحه.

والحضارة الحديثة وفرت للجسد ما يحتاجه - إن صح هذا القول - إلاّ أنها أفقرته في جوهره وروحه، وعليه فتسميتها بالحضارة بالمعنى الدقيق بعيد عن الواقع.

ومتى ما رجعت البشرية إلى سنن الله سبحانه واستطاعت أن ترتقي بالإنسان إلى مستوى الإنسانية وتضعه متوازناً مع السنن الإلهية في الوجود يصح أن تتصف بالمتحضرة، وتكون قادرة على إنشاء الحضارة.

وهذه هي مهمة ولي الزمان صلوات الله عليه، فإنه صلوات الله عليه بالعلوم التي يفتح خزائنها والمعارف التي يحملها سيعلم البشر، ويرفع من شأنهم عقلاً وقلباً وضميراً، ويصل بهم إلى كمالهم اللائق فيعدهم إلى حياة الملكوت.

ولذا لا يقاس عهده بأي عهد ولا زمانه بأي زمان؛ لأنه صلوات الله عليه سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وهذا ما لم يتحقق في أي مرحلة من مراحل حياة البشر إلاّ في عصره صلوات الله عليه.

ولعل من هنا وصف صلوات الله عليه بالنهار؛ إذ ورد في تأويل قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾[1] أن الشمس رسول الله ﷺ لأنه أوضح للناس دينهم، والقمر أمير المؤمنين عليه السلام إذ تلا رسول الله ﷺ في الرتبة والمسيرة والنهار هو الحجة القائم صلوات الله عليه؛ لأنه يجلو دين رسول الله ﷺ بعدما أصابه التضييع والتلاعب بسبب الحكام

١ - سورة الشمس: الآيات ١-٣.

الظلمة، وحب الدنيا، وينشر نور الإسلام في أرجاء الأرض، ويقيم دولة العدل، والروايات فيه متضافرة[١].

ثانياً: بُعد القدرة

فإنه صلوات الله عليه بما له من مقام إلهي عظيم يتصرف بمقتضى ولايته الكلية على الكون، فيسخر الأشياء وتطيعه، وهذه الخصوصية وإن كانت مشتركة مع جميع الأئمة عليهم السلام إلاّ أنهم عليهم السلام وبمقتضى ما تقدم كانوا يظهرون هذه الولاية في الموارد الاستثنائية وعند الحاجة والضرورة من باب التخصيص في القانون، وأما في زمانه صلوات الله عليه فإنه يجعل هذا التصرف أصلاً وهو ما يقضي بضرورته العقل من جهتين:

الأولى: جهة الغاية، وتقريرها يتم ببيان مقدمتين:

المقدمة الأولى: أن الله سبحانه خلق الكون لأجل الإنسان؛ لأنه أشرف مخلوق فيه، فلابد وأن يكون الأشرف هو الغاية، ولولا ذلك يلزم العبث أو الخلف أو ترجيح المرجوح، ووجه غائية الإنسان لوجود الكون هو احتياجه إليه بدنياً وروحياً، فلابد وأن يسخره له لتوقف حياته المادية والمعنوية عليه.

المقدمة الثانية: أن الإنسان لا يتمكن من الاستفادة من الكون إلاّ بتسخيره إليه، فالتسخير إليه ضرورة؛ لأنه ممكن ذاتاً ووقوعاً، فلابد أن يقع؛ إذ لولاه لتعذرت الاستفادة، وبطلت الغائية، ولزم الخلف.

---

١ - انظر الكافي: ج٨، ص٥٠، ح١٢؛ تفسير القمي: ج٢، ص٤٢٢؛ تأويل الآيات: ج٢، ص٨٠٥، ح٣؛ ص٨٠٦، ح٥.

ويتلخص أن الحاجة إلى التسخير ضرورية، فوقوعه ضروري، لأن ما يتوقف عليه الضروري ضروري.

وبما أن المقتضي له موجود والمانع مفقود فلابد من وقوعه، والنتيجة أن الكون في زمان ولي الزمان صلوات الله عليه يكون مسخراً له وطوع أمره يتصرف فيه كيفما يشاء، ومن ذلك هو تسخير القلوب والعقول للهداية والاستجابة للحق، ولعل ما ورد عن أبي جعفر(ع) من أنه(عج) يمسح على رؤوس الخلائق فتكتمل عقولهم وأخلاقهم[1] يشير إلى هذا المعنى.

وقد شهد القرآن إلى هذه الحقيقة في آيات عديدة بعضها أشار إلى تسخير الزمان[2]، وبعضها إلى تسخير الفضاء[3]، وبعضها إلى تسخير الأرض وما عليها كالأنهار[4] والبحار[5].

وواضح أن التسخير الكامل لم يحصل قبل عصر الظهور؛ لعدم تحقق الغاية الأصلية منه، وهي كمال الإنسان وارتقاؤه وتطابقه مع السنن الإلهية، فما تمكن الإنسان من تسخيره من عناصر الوجود فهو ناقص، وبقاؤه على هذا الحال محال؛ لاستلزامه انفكاك المعلول عن العلة، باعتبار أن الكون في تغير وحدوث مستمر، ويتنافى مع حكمة الخالق؛ لأن الغاية الناقصة لا تغني

---

١ – بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٣٦، ح٧١، وفيه «إذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد فجمع به عقولهم، وأكمل به أخلاقهم».

٢ – انظر سورة إبراهيم: الآية ٣٣.

٣ – انظر سورة الزمر: الآية ٥.

٤ – انظر سورة إبراهيم: الآية ٣٢.

٥ – انظر سورة الجاثية: الآية ١٢.

عن الكاملة، فلابد وأن تكتمل الغاية في زمان ما، وهو زمان الولي الخاتم صلوات الله عليه.

ويتحصل: أن كمال التسخير يتوقف على كمال الإنسان، فيكون كماله وبلوغه ضرورة لابد منها كونياً دفعاً لمحذوري الاستحالة الذاتية والعرضية.

الثانية: جهة الحقائق والآثار، فإن الكون يشتمل على نوعين من الحقائق والآثار مادية ومعنوية غيبية، والإنسان بحسب علمه وعمله تمكن من الوصول إلى بعض الحقائق والآثار المادية فبدل حياته إلى الأفضل صناعياً وزراعياً، وصنع لنفسه حضارة مادية ظاهرة.

ولكن الحقائق والآثار الغيبية فهو عاجز عن الوصول إليها إلاّ بدليل متصل بالغيب، ومطلع على أسراره يرشده ويعلمه ويفتح عيونه عليها، وليس ذلك إلاّ ولي الله الأعظم صلوات الله عليه. هذا فضلاً عن الحقائق والآثار المادية الأخرى التي يقصر البشر عن معرفتها، أو عن معرفتها بالنحو الأتم.

فالحاجة إلى الولي الأعظم لكمال الإنسان مادياً ومعنوياً ضرورة تقتضيها الحكمة، ولولاها لزم الخلف والعبثية في الخلق، وحيث إن ذلك يتوقف على التسخير الكوني وتذليل قوانينه يصبح هو الآخر ضرورة؛ لأن ما يتوقف عليه الضروري ضروري.

ويتحصل: أن الإمام صلوات الله عليه بقدرته الربانية يسخر الكون لإكمال البشر وإيصالهم إلى رقيهم الإنساني، وحيث إن التسخير يتوقف على شرط أساس لا يحصل من دونه وهو معرفة الإمام والتسليم له؛ لأن به تتم المعرفة الكاملة بالله سبحانه والرسول والانقياد لهما، فلو تمت المعرفة الكاملة

تحققت العبودية التامة، وبها تتحقق الغاية من خلق الإنسان التي أشار إليها قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١].

فلا يكون الإنسان منسجماً مع السنن الإلهية في الوجود إلاّ في زمانه صلوات الله عليه، ويكون هذا الانسجام أصلاً عاماً حاكماً على بني البشر، ونتيجته هو أن الأشياء تكون طوع أمره وإرادته ما دام عارفاً مؤمناً متوازناً مع السنن، ولعل الكثير من علامات الظهور التي نسبت إلى الإنسان قدرات خارقة في الرؤية والفعل والأثر تشير إليه.

فعن الصادق عليه السلام: «وتزول بعد ذلك كل عاهة عن معتقدي الحق من شيعة المهدي»[٢] وقيل: «تطوى لهم الأرض، ويذلل لهم كل صعب»[٣] ولزوال العاهات أسباب عديدة:

الأول: تأثير بركة ظهور مولانا ﷺ بما أنه موصوف بأمان لأهل الأرض، وبه يرفع البلاء.

الثاني: ظهور العلم والمعرفة وقدرتهما على رفع العاهات.

الثالث: الأثر الوضعي للعقيدة الحقة، فإن في عصره صلوات الله عليه تظهر الواقعيات، ولا يؤخذ بالظواهر، ولعل من الأثر الواقعي لها زوال العاهات، وربما يراد بها زوال العاهات النفسية والعقلية التي ما انفك الناس

١ - سورة الذاريات: الآية ٥٦.

٢ - الإرشاد: ج٢، ص٣٧٠؛ تاج المواليد: ص٧٤؛ كشف الغمة: ج٣، ص٢٥٦؛ عصر الظهور: ص١٦٤.

٣ - عصر الظهور: ص٢٧٣.

عن الإصابة بها، ومن الواضح أن منشأ أمراض الجسد هو مرض الروح كما وثقته الدراسات العلمية الحديثة، فحيث يأمن الناس ويستقرون ويلتزمون بالعقيدة الحقة لا يبقى سبب للعاهة.

وفي رواية حكيم قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: «إن أصحاب القائم شباب لا كهول فيهم إلاّ كالكحل في العين أو كالملح في الزاد»[١] وعن أبي جعفر عليه السلام: «أنه لو كان ذلك - أي الظهور- أعطي الرجل منكم قوة أربعين رجلاً، وجعلت قلوبكم كزبر الحديد لو قذفتم بها الجبال فلقتها»[٢] والاحتمالات الثلاثة في توجيه زوال العاهة تجري هنا أيضاً.

وفي الآيات الشريفة ما يدل على أن خزائن العلوم وبركات السموات والأرض يدوران مدار المعرفة والتقوى، وأما العلم والتقدم فهو من لوازمهما، وهنا يظهر الفرق بين النظرة الدينية للأمور والنظرة المادية، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾[٣] دلالة صريحة على أن للسماء أبواباً يولج من خلالها إلى عوالمها وأسرارها، ولكن فتح هذه الأبواب يتعذر على المكذبين بآيات الله سبحانه، ومفهومه أن فتحها على المصدقين ممكن وواقع، وآيات الله تتحقق في أجلى معانيها وأكمل مصاديقها بولي الزمان صلوات الله عليه؛ لأنه الآية العظمى للباري بما تتجلى فيه من صفاته.

وفي آية أخرى دلالة أصرح على أن الفتح يشمل أبواب الأرض أيضاً؛

١ - معجم أحاديث المهدي عجل الله فرجه: ج٣، ص١٠٢، الرقم(٦٤٤).

٢ - مكيال المكارم: ج٢١، ص٥٠٤.

٣ - سورة الأعراف: الآية ٤٠.

إذ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[١] ومنطوقها الشرطي صريح في الملازمة بين الأمرين، والشرط هو المعرفة والطاعة، والجزاء هو فتح بركات السماء والأرض، والإخبار المتضمن للوعد كاشف عن حتمية الوقوع، وواضح أن هذه الحتمية لا تحصل في المراتب الدانية من المعرفة والطاعة؛ لقضاء الضرورة بحصولهما قبل الظهور مع عدم ملازمة النتيجة لها.

فلابد وأن يكون في مراتبهما الكاملة، وهو لا يحصل إلاّ في عصره صلوات الله عليه، وهو ما يستفاد من وصف الإمام الحسين عليه السلام في زمن الرجعة أيضاً؛ إذ قال - في حديث طويل - : «ولتنزلن البركة من السماء إلى الأرض حتى إن الشجرة لتقصف بما يريد الله فيها من الثمر، وليأكلن ثمرة الشتاء في الصيف وثمرة الصيف في الشتاء»[٢] وظاهرها أن الشجرة من نفسها بدون فعل البشر وتكييف الأجواء وإعداد المقدمات كما هو معهود اليوم، أو أن الشجرة الواحدة تنتج ثمرة الصيف والشتاء معاً، كأن تعطي شجرة الخوخ - مثلاً - البرتقال والليمون أيضاً وبالعكس.

وظهور البركة يعود إلى سببين:

أحدهما: غيبي، بأن يبارك الله سبحانه بنعم الوجود حتى تستقر وتدوم ويستفيد منها الناس غاية الاستفادة، وإليه تعود أقوال المفسرين الذين فسروا البركة بالمطر وخيرات الأرض، والذين فسروها بإجابة الدعاء وحل مشاكل

١ - سورة الأعراف: الآية ٩٦.

٢ - الخرائج والجرائح: ج٢، ص٨٤٩-٨٥٠، ح٦٣؛ مختصر بصائر الدرجات: ص٥١.

الحياة، ومن فسر بركات السماء بالمعنويات وبركات الأرض بالماديات.

ثانيهما: بشري، وذلك لأن سيادة الإيمان والتقوى على التصرفات البشرية توجب صرف الطاقات والخيرات في الموارد الإيجابية واجتناب الصرف السلبي، فالمؤمن لا يصرف أمواله في تجارة الخمر والمخدرات والأسلحة، ولا يشغل طاقاته وخبراته في صناعة الحروب وإفساد المجتمعات لأجل مزيد من بيع الأسلحة والخمور والمخدرات، وإنما يصرفها في بناء المدارس والمستشفيات وزراعة الأرض وهكذا، وهذا من شأنه أن يظهر البركة في الأرض والسماء.

وفي عصر ولي الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف حيث يؤمن الإنسان ويكتمل تظهر البركة بنحويها على يديه، فتزدهر الحضارة، وتعتمر الأرض بالقسط والعدل.

ويتحصل من مضمون الآيتين أن الإيمان والتقوى هما مفاتيح الخيرات والبركات الأرضية والسماوية، والمراد من الإيمان والتقوى المعنى الخاص، أي معرفة الإمام عليه السلام والتسليم لأمره؛ لأنها خلاصة العقيدة الحقة والطاعة الصحيحة المقبولة، وبما أن رسالة الإمام عليه السلام هي إكمال البشر وإيصالهم إلى غايتهم الإلهية تلازمها الخيرات والبركات، ولا يبقى فقر أو جوع أو مرض أو خوف أو عناء، وكذلك الصعوبات، وتتسخر الأشياء.

وفي رواية سورة عن أبي جعفر عليه السلام ما يشير إلى ذلك؛ إذ قال عليه السلام: «أما إن ذا القرنين قد خُير السحابين فاختار الذلول وذُخر لصاحبكم الصعب» قال: قلت: وما الصعب؟ قال: «ما كان من سحاب فيه رعد وصاعقة أو برق، فصاحبكم يركبه. أما إنه سيركب السحاب ويرقى في الأسباب أسباب

السماوات السبع والأرضين السبع»[1] وهي تدل بالدلالات اللفظية الثلاث على عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الأشياء تتسخر لولي الزمان(عج)، وينقاد لأمره الصعاب من الموجودات أجساماً كانت أو طاقات، وهي في الوقت الذي تشير إلى علو مقامه ومنزلته فإنها تشير إلى أن هذا المقام لا يناله الناس إلاّ بصعوبات ومجاهدات؛ لأن ركوب الصعب لصاحب الزمان ينعكس ذلك على أهل الزمان بالملازمة، ولا يخلو ذلك من إشارة إلى شدة الامتحان والابتلاء الذي سيمر به الناس في ظهوره صلوات الله عليه.

الحقيقة الثانية: أنه(عليه السلام) سيأتي بآيات كونية يسخرها له ولأهل زمانه، وبه تتحقق غايتان:

الأولى: إثبات حجيته وصدق دعوته صلوات الله عليه، فلا يبقى عذر لأحد من الناس إذا جحده أو عانده.

والثانية: إمضاء السنن الإلهية في الظهور من تكميل البشر علمياً وحضارياً وإيصالهم إلى المقامات الروحانية العالية إعداداً لعالم الآخرة.

ولا يخفى أن ركوب السحاب لابد وأن يكون خارقاً لما توصل إليه العلم اليوم من ركوب الهواء والفضاء عبر الطائرات والمركبات الفضائية ونحوها وإلاّ لم يكن ميزة له وخصوصية، ولعل ركوب السحاب سيكون عبر تسخير السحاب، فينتقل الإنسان بواسطته مباشرة من دون الاستعانة

١ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٢١، ح٢٧؛ بصائر الدرجات: ص٤٢٩، ح٣؛ الاختصاص: ص١٩٩.

بطائرة أو مركبة ونحوهما، أو أن يكون للسحاب فهم وشعور فيستجيب لإرادة الإنسان، ويتوجه إلى ما يريد من دون حاجة إلى قائد.

الحقيقة الثالثة: أنه عليه السلام لا يسخر الوجود بطاقته الروحانية الإلهية بما أنه ولي على الوجود وواسطة الفيض، بل يسلك سبيل الأسباب والمسببات بفتح أبواب جديدة للعلم والمعرفة لم يعرفها الناس من قبل، ولعل هذا العلم من الحروف السبعة والعشرين التي سيظهرها في ظهوره الميمون، فالعلم الذي يأتي به صلوات الله عليه يرتقي به السماوات السبع، ويخترق الأرضين السبع، وفيه دلالة على أن العلم في زمنه يستوعب كل الوجود، ولا تبقى مواضع مجهولة لا يعلمها الناس من أسباب السموات أو أسباب الأرض.

وتتوافق هذه النتيجة مع مضمون الروايات التي نصت على أنه عليه السلام يحكم بالواقعيات، وأن الناس يشاهدونه من كل مكان، ويسمعون صوته، وكل ما في الأرض يثمر وتتكلم الجمادات، وتتآلف الحيوانات، وهذا المعنى متضافر في أخبارنا، وكذا في أخبار العامة، ففي رواية أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس، وحتى تكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده»[١] وهي محمولة على ساعة الظهور؛ لمناسبة الحكم والموضوع أو القرينة العقلية، لعدم الحاجة إلى النطق في القيامة، أو بقرينة الروايات الأخرى، ولعل المراد من الأسباب الحقائق الوجودية الموجودة فيهما، أو القواعد والقوانين الحاكمة في السموات والأرضين، أو كلاهما وهو الأقوى.

١ – ينابيع المودة: ج٣، ص٢٥٨، ح١٣؛ وانظر الثاقب في المناقب: ص٧٢، ح١.

إن قلت: إن ما أفادته الآية الشريفة من تعليق بركات السماء والأرض على الإيمان والتقوى منقوض بأمرين:

الأول: عدم ظهور البركات السماوية والأرضية على المسلمين مع أنهم مؤمنون.

الثاني: ظهور الخيرات والبركات في بلاد الكفار؛ إذ يتنعم شعوب تلك البلاد بالرفاه والرخاء والتقدم العلمي.

والجواب: أن النقض مبني على توهم خاطئ لا أساس له من الصحة، وذلك لأنا لا نسلّم أن الشعوب غير المؤمنة ترفل بالرفاه وتعيش سعيدة تغمرها بركات السماء والأرض، كما لا نسلم أن المجتمعات المسلمة محرومة من ذلك.

لمجهولية مفهوم البركة المقصودة هنا، وهل هي البركة المادية فقط أم تشمل المعنوية أوهما معاً بشرط الانضمام، ولا إشكال في أنها ليست الأولى وحدها ولا الثانية وحدها، فلابد وأن تكون الثالثة والمجتمعات غير المؤمنة محرومة منها؛ لأن التقدم والرفاه الحاصل مادي بحت، وكلما ازداد العالم توغلاً في المادة تراجع عن القيم والمبادئ المعنوية، وفي هذا خسارة كبرى تنفي البركة، أو تمنع من نزولها وظهورها.

والواقع الخارجي لحياة تلك المجتمعات وما يعيشه الناس في تلك البلاد من اضطراب وقلق وخوف وقتل وأمراض بدنية ونفسية كالكآبة والتوحد ومشاكل أسرية ونحوها يكفي شاهداً لهذه الحقيقة، والبركة إنما تكون كذلك على الإنسان إذا تمكن من التنعم بها في خير وسلامة وعافية منه، وإلاّ

كانت كسائر الأشياء التي يتعامل معها، ومن الواضح أن الخوف والقلق والأمراض ونحوها تسلب من الإنسان راحة البال والاستقرار النفسي بما يجعله قلقاً غير آمن على نفسه ولا على مستقبله.

فتصور أن العالم الغربي أو الشرقي عالم سعيد مغمور بالبركات السماوية والأرضية خاطئ ناشئ من التضييق في مفهوم البركة وتحديد معناها بالبعد المادي، وأما مجتمعاتنا فهي في الحقيقة ليست مؤمنة بالمعنى المصطلح وإن كانت مسلمة، وذلك لأن الإيمان بالمعنى الخاص هو معرفة حجة الله صلوات الله عليه والتسليم لأمره، وهذا ما لم يتحقق إلاّ للقليل النادر، فإن المسلمين في عقيدتهم به على أصناف: صنف يعتقد به ويواليه ولكنه لا يعرفه ولا يطيعه بناء على أن الاعتقاد غير المعرفة، وآخر قد يعرفه ولا يطيعه كما ينبغي، وصنف لا يعتقد به، فالذي يعرفه ويطيعه قليل نادر، فالأكثر من الأمة لم تأخذ بالإيمان والتقوى بالمعنى المقصود، والآية الشريفة ناظرة إلى النهج العام لا القليل النادر.

ويتحصل مما تقدم: أن مهمة إيصال الموجودات إلى كمالها وغاياتها الوجودية لا تأتي من كل أحد مهما بلغ من العلم، ولا تنهض بأعبائها جامعات العالم ولا وسائله الحضارية، وإنما هو دور إلهي عظيم مدخر لرجل إلهي يمثل مظهر الأسماء الإلهية، ويملك مفاتيح السماوات والأرض، ومطلع على أسرارهما.

فإذا بسط خلافته على الأرض بالعلم والقدرة فإن الوجود كله يتآلف وتتوافق القوانين والسنن، وتظهر البركات في السموات والأرض، وتدين

له جميع الموجودات بالمعرفة والمحبة والطاعة، فيرتقي بها أسباب السموات السبع والأرضين السبع.

وقد ضرب الباري عز وجل مثلاً مصغراً لهذه الحقيقة في قصة سليمان عليه السلام؛ إذ سخر له الجماد والحيوان والهواء، وبسط له الحكم ليضرب به المثل إلى الحكام والسلاطين والقادة الذين تغرهم الدنيا، ويأسرهم الحكم والسلطان فيبتعدون عن نهج السنن الإلهية، فيظلمون ويجورون ويضيعون رعاياهم بعد أن يضيعوا أنفسهم ويقودوا الناس إلى الدمار كما هو واقع على الأرض منذ فجر التاريخ البشري ولا زال في تنامٍ وتكاثر وتعاظم، ويذكرهم بأن الحاكم إذا عرف الله وأطاعه وأخذ بأسباب العدل فإن الله سبحانه يفتح عليه خزائن السماوات والأرض، ويسخر له الجن والطير جنوداً له فضلاً عن الأنس؛ لأن العدل سبب الكمال والاستقرار وتنامي الطاقات وظهور الخيرات، لا الظلم والفساد وأجهزة المخابرات والأعلام الكاذب؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[1] وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[2] وفي أخرى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[3].

وهذا هو الواقع الذي يلازم كمال المخلوقات؛ بداهة أن كل نزاع أو صراع أو ظلم أو فساد ناشئ من النقص، وأما الكمال فهو ملازم للعلم والعدل والحكمة والرحمة، فلو أكمل ولي الله الأعظم عجل الله فرجه الشريف البشر وسائر الموجودات

---

١ – سورة النمل: الآية ١٧.

٢ – سورة سبأ: الآية ١٢.

٣ – سورة ص: الآية ٣٦.

لا يمكن للكون إلاّ أن يكون مترابطاً ومتكاملاً في أدواره ومهامه، ولا تملك السماء إلاّ أن تظهر بركاتها، ولا تملك الأرض إلاّ أن تظهر خيراتها، ويسود الأمن والنظام والرقي الحضاري، وهذا سبب آخر لنشر القسط والعدل في زمنه صلوات الله عليه.

وواضح أن كل ما تحقق لسليمان عليه السلام من الانجازات العظمى في تسخير الموجودات يعد صغيراً بالقياس إلى المهدي صلوات الله عليه؛ لأنه أشرف وأعظم، ورسالته أكبر وأوسع، وعلمه يفوق علم سليمان بخمس وعشرين حرفاً على ما تقدم، وبذلك يتضح أن بعض الآيات الكونية التي تظهر في زمنه كطلوع الشمس من المغرب قد تكون ناشئة من الرقي العلمي، فتدبر.

المطلب الثالث: خلافة المهدي عجل الله فرجه

عرفنا أن المعصوم هو خليفة الله في الأرض، وأن هذه الخلافة ناشئة من الشخصية الحقيقية والحقوقية للمعصوم، فإن المعصوم بما هو إنسان بشر وله خصوصيات الإنسان الأرضي، ولكن من حيث إنه حجة الله على الأرض يملك خصوصيات ملكوتية أسمى من الملائكة.

ومنه نعرف أيضاً أن الأكمل الأسمى في الملكوت هو الأسمى والأكمل في الملك بالأولوية، فحكومته على عالم الملكوت أوسع وأشمل من حكومته على عالم الملك؛ نظراً إلى التفاوت بين العالمين في السعة الوجودية وفي الآثار، ويعرف أيضاً أن خليفة الله في الملكوت هو خليفته في الأرض، فلذا أجمعت الشرائع والأديان واتفقت العقول السليمة على أن لا حكومة في الأرض إلاّ حكومة الله، ولا حاكم ولا خليفة إلاّ المعصوم، ولذا جعل الله سبحانه مقام الخلافة لآدم قبل أن يخلقه، وأخضع الملائكة وهي من أشرف مخلوقاته إليه، وميزه عليها بالعلم والمعرفة، وأبان فضله ومزاياه الإلهية على سائر الخلق. كل ذلك يستفاد من قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ

إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[١].

وتحقيق المعنى يتوقف على بيان معنى الخلافة، وهي في اللغة والعرف والمصطلح النيابة عن الغير، والخليفة من يخلف غيره ويقوم مقامه بسبب غيبة المنوب عنه أو موته أو عجزه، أو لغرض تشريف النائب والمستخلف، وعلى هذا الوجه استخلف الله أولياءه في الأرض[٢]، والعقل يقضي بامتناع نسبة الثلاثة الأولى إلى الخالق عز وجل، والحق أن دواعي الخلافة عن الله سبحانه أعم مما ذكر؛ إذ تشمل التشريف والتشريع والتدبير، فالخليفة عنه سبحانه يتشرف على الخلق، ويبلغ حجته، ويشرع الأحكام، ويدبر شؤونهم تكويناً، ويهديهم سبيله، ويأمرهم بطاعته تشريعاً، ويشهد عليهم، ويحاسبهم قضاءً وجزاءً على ما مر تفصيله في بحث مقامات الأنبياء والأئمة، وهو ما يقضي به العقل؛ لأن الخلافة عنه سبحانه نيابة عنه في كل ذلك، واقتداء به، وتخلق بأخلاقه تبارك وتعالى ولعل تعريف بعض الأصحاب الخلافة بأنها الاقتداء به تعالى – على قدر الطاقة البشرية – في تحري الأفعال الإلهية[٣] يريد به ما ذكرنا.

١ – سورة البقرة: الآيات ٣٠– ٣٤.
٢ – انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٩٤، (خلف).
٣ – انظر الذريعة إلى مكارم الشريعة: ص٢٩.

وهذا ما يقضي به العقل؛ لأن الغاية من الاستخلاف لا تتحقق إلاّ إذا كانت صلاحيات الخليفة واسعة تشمل التشريع والتكوين، ومن هنا قلنا إن الخلافة عن الله سبحانه مختصة بالمعصوم، فالخلافة المعنية بالآية هي مرتبتها العالية، أي الخلافة عن الله سبحانه لا الخلافة في مرتبتها الدانية، أي الخلافة عن مخلوق أرضي كان قبل آدم كالجن أو غيرهم انقرض وجوده، فأراد الله سبحانه أن يخلفه بالإنسان كما ذهب إليه بعض المفسرين، وحكي رواية عن ابن عباس[1]، وذلك لسببين:

الأول: اسم الفاعل (جاعل) في مادته وهيئته دال على أن الخلافة هنا مقام تشريفي بعد الخلق والإيجاد وليس ذات الخلق، فلو كان المقصود هو استخلاف الموجود السابق بالإنسان لكان الأولى التعبير (بخالق) ولذا فهم الملائكة منه أن الخليفة يمتلك سلطة على التصرف والتدبير فقالوا: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ إذ لا معنى لهذا القول لو لم يفهموا منه الخلافة السلطوية لا الخلق.

الثاني: أن الملائكة فهموا أن الخلافة عن الله سبحانه لا عن مخلوق أرضي آخر، وذلك لأنهم فهموا عدم التناسب بين الخليفة وبين المستخلف عنه، فإن الإنسان بما أنه موجود أرضي ومجبول بالشهوة والغريزة فإنه سيقع في الظلم والفساد وسفك الدماء، فلا يتناسب مع مقام الخالق تبارك وتعالى المتنزه عن كل ذلك، فلما رأت الملائكة عدم التناسب بين الأمرين استغربوا استخلافه؛ بداهة أن الخليفة لا بد وأن يماثل المستخلف في الخصوصيات والصفات،

١ - انظر تفسير الرازي: ج٢، ص١٦٥.

فالأنسب بهذا المقام هم الملائكة؛ لأنهم مقدسون منزهون لا الإنسان المفسد؛ لذا قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[١].

وباختصار: أن الملائكة عجبوا من أن يكون المصنوع من التراب المجبول بالنواقص خليفة رب الأرباب، والأليق بخلافته هم الملائكة؛ لأنهم منزهون مقدسون.

فالسياق والتحاور والتبرير الذي ذكره الملائكة خير دليل على أن الخلافة المعنية في الآية ليست المرتبة الدانية منها، بل أعلى مراتب الخلافة وهي الخلافة عن الله سبحانه، ولازم ذلك أن يكون الخليفة قائماً مقامه سبحانه في الأرض، ومظهراً لكماله وجلاله، ومتخلقاً بأخلاقه، وبيده مقاليد الأمور ومفاتيح الخزائن الأرضية والسماوية، والكون طوع أمره ونهيه.

ومن هنا قلنا إن المراد من الخلافة هنا أوسع من المعنى اللغوي والعرفي، بل هو معنى خاص من قبيل الحقائق الشرعية الخاصة المستفادة من النصوص، ويراد بها أن يكون الخليفة نائباً عن الله سبحانه في الأرض، وعليه تنعكس آياته الجمالية والجلالية، وله ولاية عامة على الكون، وهو لا يكون إلاّ ولياً معصوماً، ولذا وصف بالاسم الأعظم.

وواضح أن هذا المقام فوق مقام الملائكة، وأعلى من استعدادها[٢]، وهذه الفوقية ناشئة من العلم؛ إذ علمه الباري عز وجل الأسماء كلها، وصيغة

---

١ - سورة البقرة: الآية ٣٠.

٢ - انظر مواهب الرحمن: ج١، ص٢١٠؛ روح المعاني: ج١، ص٢٢٣.

الجمع المحلى باللام والمؤكد بأداة الجمع الاستغراقي (كل) تدل على أنه تعلم كل شيء يمكن أن يعرفه الخليفة، أو يأذن الله به، وهذا يستدعي أن يكون علمه سبحانه حقائق الأسماء بما لها من صفات وخواص وآثار وقوانين تحكمها، أو علمه الأسماء الإلهية الحسنى التي عليها يدور الوجود ونظامه التكويني والتشريعي، أو هما معاً باعتبار الرتبة الطولية؛ لأن معرفة الأسماء الإلهية ملازم لمعرفة آثارها، أو باعتبار المظهرية.

وأما القول بأن المراد من الأسماء اللغة والألفاظ أو معاني الألفاظ ففي غاية الضعف، بل يتنافى مع مقام التشريف؛ إذ إن معرفتها لا يوجب رجحان المخلوق من طين كالفخار على الملائكة الذين خلقوا من نور وهم معصومون ومقدسون. هذا كله بحسب ما يستفاد من منطوق الآية، إلاّ أن الروايات الشريفة فسرت الأسماء بمحمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

ففي كمال الدين بإسناده عن الصادق عليه السلام: «أن الله تبارك وتعالى علّم آدم عليه السلام أسماء حجج الله كلها، ثم عرضهم - وهم أرواح- على الملائكة فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ بأنكم أحق بالخلافة في الأرض لتسبيحكم وتقديسكم من آدم: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ وقفوا على عظيم منزلتهم عند الله تعالى ذكره، فعلموا أنهم أحق بأن يكونوا خلفاء الله في أرضه وحججه على بريته، ثم غيبهم عن أبصارهم، واستعبدهم بولايتهم ومحبتهم»[١].

---

١ - كمال الدين: ص١٣- ١٥.

ويعضد مدلول الرواية ضمير الجمع في قوله (ثم عرضهم) فإنه يطلق على جماعة العقلاء، وسكوت الملائكة وإقرارهم بعدم العلم لما وجدوه من التناسب بين الخليفة والمستخلف، والرواية دالة على ما ذكرناه من أن الخليفة عن الله هو المعصوم لا غير، وأن معرفة المعصوم ومحبته وطاعته هو سبيل الرضا والقرب من المولى وبلوغ المراتب الكمالية التي تفتح خزائن العلوم وتسخر الأشياء.

وأما ما ورد في رواية جابر عن أبي جعفر عليه السلام في أن الخليفة هو الجن والنسناس[1] فلا ينافي ما ذكرناه؛ لعدم التنافي بين المعنيين لكونهما مثبتين لاسيما على القول بجواز استعمال اللفظ في أكثر من معنى لتعلق الإرادة بهما معاً، ودخولهما في الغاية، وهو ما يشهد له قوله عليه السلام في ذات الرواية في بيان معنى قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ قال عليه السلام: «إني أريد أن أخلق خلقاً بيدي أجعل ذريته أنبياء مرسلين، وعباداً صالحين، وأئمة مهتدين. أجعلهم خلفائي على خلقي في أرضي ينهونهم عن المعاصي، وينذرونهم عذابي، ويهدونهم إلى طاعتي، ويسلكون بهم طريق سبيلي، وأجعلهم حجة لي عذراً أو نذراً»[2].

أو أن هذه تحمل على الظاهر، وأما ما ذكرناه فيحمل على التأويل أو الباطن، ومن منطوق الآية يستفاد عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الخلافة الإلهية الثابتة لحجج الله لا تختص بالأرض وإن

---

١ - علل الشرائع: ج١، ١٠٤- ١٠٥، ح١.
٢ - علل الشرائع: ج١، ١٠٤- ١٠٥، ح١.

كان الخليفة بحسب وجوده البشري موجوداً أرضياً وقد جعلت الخلافة في الأرض كما قال سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾ إلاّ أن الأرض ظرف الخلافة ومحل ظهورها، وأما سلطتها وقدراتها وصلاحياتها فهي تشمل كل الوجود، فالأرض ليست حداً للخلافة، بل مظهراً أو ظرفاً.

وقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[١] لا يقيدها؛ لأنه ناظر إلى الحكومة الأرضية بقرينة قوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ بخلاف آية البقرة فإنها بقرينة: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾[٢] ناظرة إلى الخلافة بمعناها الواسع الشامل للملك والملكوت.

الحقيقة الثانية: أن اتصال الخليفة الإلهي بالله سبحانه مباشر، فلا توجد واسطة اتصال بينهما، بل هو الواسطة للغير، ولذا علمه بالأسماء تعليماً مباشراً من دون أن تتوسطه الملائكة أو غيرها، ومنه يعرف بأن مقام الخلافة أعظم من مقام النبوة والرسالة؛ لأن التعليم فيهما يتم عبر الوسائط كالوحي والملك، أو من وراء حجاب، إلاّ أن مقام الخلافة فالتعليم فيه مباشر، وهل التعليم يتم بالإلهام أم بالإحاطة الوجودية والعلم الحضوري أم بالعلم اللدني الناشئ من نورانية الذات؟ احتمالات، والاطلاق يشملها جميعاً، والقول باختلافه بحسب مراتب الخلفاء ومقاماتهم غير بعيد، فإن مثل مقام النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم تعليمه لدني، وهو أعلى المراتب، وأما المراتب الأدنى فقد تقع بالثاني أو بالثالث، أو أن التعليم يختلف بحسب الحالات، فتارة يكون بالأول، وتارة بالثاني، وأخرى بالثالث كما تقدم تفصيله في مباحث العلم.

---

١ - سورة ص: الآية ٢٦.

٢ - سورة البقرة: الآية ٣١.

الحقيقة الثالثة: أن الخلافة الإلهية ملازمة للوجود الإمكاني قبل الخليقة ومعها وبعدها كما وردت به النصوص[١] إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. تشهد لها الجملة الاسمية: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٢] وصيغة اسم الفاعل والإطلاق تفيدان الدوام والاستمرار، وهو ما ورد مضمونه في الأخبار الشريفة[٣].

ولو حمل السجود الذي أمر به الملائكة على الخضوع والتسليم والطاعة دلت على استمراره في جميع الأزمنة والأمكنة، فتثبت ولايته على الملائكة وخضوعها له، فسجود الملائكة لآدم لا ينحصر بهيئة السجود التي تقع في وقت دون آخر والتي هي السجود المصطلح، وإنما هو السجود بالمعنى اللغوي الذي يقتضي الدوام والاستمرار بما يدل على أنها سنّة إلهية حاكمة في نظام التكوين جُبِل عليها الوجود في أن الملائكة تكون جنوداً في تدبير هذا النظام، وأمرها بيد خليفة الله وحجته، وقد مر عليك تفصيل الكلام في أفضلية المعصوم على الملائكة حتى المقربين منهم، وتضافرت به الأخبار المعتبرة.

فعن الباقر عليه السلام: «والله ما ترك الله الأرض منذ قبض الله آدم إلاّ وفيها إمام يهتدى به إلى الله، وهو حجة الله على عباده، ولا تبقى الأرض بغير حجة

١ - انظر كمال الدين: ص٢٢١، ح٥؛ بحار الأنوار: ج٢٣، ص٣٨، ح٦٦.

٢ - سورة البقرة: الآية ٣٠.

٣ - نظير قولهم عليهم السلام: «إن الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق»، الكافي: ج١، ص١٩٧، ح١١.

لله على عباده»[١] وفي رواية أخرى: «ولو بقيت الأرض يوماً بلا إمام منّا لساخت بأهلها، ولعذبهم الله بأشد عذابه. إن الله تبارك وتعالى جعلنا حجة في أرضه وأماناً في الأرض لأهل الأرض لم يزالوا في أمان من أن تسيخ بهم الأرض ما دمنا بين أظهرهم»[٢].

وهذا المضمون متواتر في الروايات[٣]، إذ تتفق على أن الإمامة والإمام لا يقتصر دورهما على قيادة الأمة وهدايتها وتبليغ الأحكام كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان، ولعله المعروف المشهور، وإنما دوره يتعلق بعالم التكوين، فإن وجود الكون وقيام نظامه وثبوته واستقراره يتقوم بوجود الإمام‌عليه السلام، فلو ارتفع من الأرض اختل نظامها، وساخت بأهلها، ونزل بالناس أشد العذاب ونزول العذاب بهم إما جملة خبرية تشير إلى ما يصيب الأرض من الدمار تكويناً بسبب غياب قطب رحى الوجود وقلب عالم الإمكان، وإما تشير إلى استحقاقهم العذاب لأنهم يموتون ضلالاً لا يعرفون إمام زمانهم، أو لأن فقدانه نشأ من خذلانهم وقتلهم له كما هو معروف من سيرة أهل الأرض في قتل الأنبياء والأولياء‌عليهم السلام، وقد فصلنا البحث في هذه الحقيقة فيما تقدم.

ومن ذلك يتضح بطلان نظرية العامة الذين قصروا الخلافة على خلافة النبي‌صلى الله عليه وآله وسلم، وحددوها في فروع الدين والقيادة السياسية للمجتمع، وعلقوا

---

١ - علل الشرائع: ج١، ص١٩٧، ح١١؛ بحار الأنوار: ج٢٣، ص٢٢، ٢٥.

٢ - كمال الدين: ص٢٠٤، ح١٤؛ بحار الأنوار: ج٢٣، ص٣٧، ح٦٤.

٣ - انظر علل الشرائع: ج١، ص١٩٧، ح١٢؛ كمال الدين: ص١٣٣ - ١٣٥؛ بحار الأنوار: ج٢٣، ص٢٢ وما بعدها.

مشروعيتها على إرادة الأمة وبيعتها، أو الغلبة والقوة ونحوهما، بل اتضح مما تقدم أن هذه النظرية في غاية الضعف والبعد عن مكانة الخلافة الإلهية التي أسسها القرآن والسنّة وكشف عن جوهرها تكويناً وتشريعاً، كما يتضح شدة القصور في قول من حصر الخلافة بالإمامة في بعد تبليغ الأحكام وإقامة الدين وتقويم الأمة كما عليه بعض أصحابنا المتكلمين؛ إذ عرفها بأنها رئاسة عامة في شؤون الدين والدنيا، فإن الإمامة خلافة عن الله سبحانه في تدبير العالم ببعديه التكويني والتشريعي، وما من صغيرة وكبيرة سابقة أو حادثة إلاّ وترجع إليهم بإذن الله سبحانه باعتبار مظهريتهم لكماله وجلاله ولأسمائه الحسنى، أو باعتبار مراتبهم الطولية وواسطيتهم في الفيض، فلولاهم لم يكن مخلوق ولا حكم ولا شريعة.

وهو ما يستفاد من قول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «نحن أمان أهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء، ونحن الذين بنا يمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه وبنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها، وبنا ينزل الغيث، وبنا ينشر الرحمة، ويخرج بركات الأرض، ولولا ما في الأرض منا لساخت بأهلها»[1] فإن الباء سببية، وهي تحتمل المعاني الثلاثة المذكورة، سوى أن السببية في المظهرية مباشرة وفي الوساطة أعم.

الحقيقة الرابعة: أن الخليفة الإلهي لابد وأن يطلع على الموجودات، ويحيط بها إحاطة علمية وسلطوية، ويمتلك قدرة على التصرف فيها، وواضح أن هذه الإحاطة والقدرة من مقاماته المعنوية وشؤونه الروحية، فلذا لا يؤثر في

---

١ - الأمالي (للصدوق): ص٢٥٢- ٢٥٣، ح١٥؛ روضة الواعظين: ص١٩٩.

ذلك كون الإمام حياً في صورته الجسدية على الأرض، أو ميتاً؛ لأن المقامات الروحية لا تموت، والموت الجسدي ليس موتاً حقيقياً بمعنى الفناء، بل انفصال الروح عن الجسد وانتقال من عالم إلى عالم أرفع وأرقى، فلذا لا يؤثر الموت الظاهر أو الغياب في سلطة الإمام عليه السلام ولا في تصرفه في شؤون الكون وتدبيره، ولا يحجبه من سماعه ونظره للأشياء كون روحه في جسدها أم مفارقة له، وهو ما أكده قول الباقر عليه السلام: «إن الحجة لا تقوم لله عز وجل على خلقه إلاّ بإمام حي يعرفونه»[1] وعليه فلو فارق الإمام الخلق مفارقة حقيقية أو انقطع اتصاله بهم تبطل الحجة الإلهية، وينتفي الغرض من إيجاد الخلق وإنزال الكتب وإرسال الأنبياء.

فلا يعقل أن يفارق الإمام عليه السلام الخليقة أو يغيب عنها غياباً حقيقياً، وإنما قد يختفي عن أنظار الناس بشخصه، أو يختفي بعنوانه، فيراه الناس ولكنهم لا يعرفونه، إلاّ أن هذا الاختفاء لا يمنع من دوره التكويني والتشريعي، ولا يقطع تأثيره عن العالم، ولذا وصفه الإمام زين العابدين عليه السلام حين سئل عن فائدة الإمام في زمن الغيبة فأجاب: «كفائدة الشمس إذا سترها السحاب»[2] إذ من الواضح أن السحاب قد يحجب قرص الشمس عن الرؤية، ولكنه لا يمنع من تأثيرها في الوجود منع؛ لأن الاحتجاب الحاصل لم ينشأ من الشمس نفسها، بل من وجود المانع، فكذلك الإمام عليه السلام، وبذلك يصبح السؤال عن فائدة الغيبة وكيف يؤثر الإمام الغائب عليه السلام باطلاً في نفسه.

ويتحصل: أن الخلافة الإلهية في المنظور القرآني ليست مجرد حكومة أو

---

١ - قرب الإسناد: ص١٥٣؛ بحار الأنوار: ج٢٣، ص٣٠، ح٤٧.

٢ - بحار الأنوار: ج٢٣، ص٦، ح١٠.

قيادة تختص بأمور الدنيا أو الدين والدنيا، بل هي حقيقة تكوينية ومقام إلهي حاكم على نظام الوجود، وإليه ترجع الحركة والفعل والتأثير والأثر في هذا العالم، وتعايش الخليقة منذ نشأتها إلى خاتمتها، وهي تمارس دورها، وتقوم بوظائفها الإلهية لا يخل بها موت أو مرض أو قتل أو سجن أو نفي، وسواء انتبه الناس لذلك أم غفلوا، وعلموا بذلك أم جهلوا، وأقروا بذلك أو أنكروا، ويترتب على هذه الحقيقة عدة نتائج هامة:

النتيجة الأولى: أن الخلافة والإمامة جعل إلهي واختيار رباني ليس للبشر فيه دور أو اختيار.

النتيجة الثانية: أن الخليفة ينوب عن الله سبحانه في تدبير شؤون الخلق والوجود تكويناً وتشريعاً، فلابد وأن يكون أفضل خلقه وأشرف موجوداته وأكملهم علماً وطاعة ونزاهة، بل لابد وأن يكون مظهر الجمال والجلال الإلهيين.

النتيجة الثالثة: أن الخليفة هو المعصوم، والخلفاء هم المعصومون، أعلاهم رتبة رسول الله ﷺ تبتدئ به، وتختتم بخاتم الأوصياء المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف كما مر تفصيله، وواضح أن هذه النتيجة ليست عقلية أو اختيارية، بل هي نتيجة يرجع فيها إلى التعيين الإلهي، ولا يكشف عنه إلاّ الدليل النقلي، وقد عرفت أن النصوص الشرعية متواترة في دلالتها على أن أعلى مراتب الخلفاء هو محمد وآل محمد عليهم السلام. تبتدئ سلسلة الخلافة من المصطفى ﷺ وتختتم بالمهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وهو آخر شخص إلهي تختتم به الرسالات السماوية، وينتهي بظهوره أمد الدنيا، ويتهيأ العالم للحشر على تفصيل ستعرفه في مباحث المعاد.

النتيجة الرابعة: أن تسمية العامة من خلف النبي صلى الله عليه وآله بالحكم بالخليفة فضلاً عن وصفه بالراشد في غاية البعد عن المفهوم القرآني للخلافة، فإن الخلافة بالمعنى المذكور مناقضة للخلافة عن الله ورسول الله صلى الله عليه وآله تمام التناقض، إلاّ خلافة مولى الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأن شخصيته ومقاماته المعنوية تطابق شخصية النبي ومقاماته إلاّ النبوة، بل هو أخوه ونفسه ولو أنصف القوم أو احتكموا إلى الحياد العلمي أو براهين العقل أو أذعنوا للنصوص المتواترة لتوصلوا إلى هذه الحقيقة، إلاّ أن القصور يمنع بعضاً منهم، والتقصير يمنع بعضاً، والعناد يمنع آخرين، ولله الحجة البالغة عليهم.

المبحث الثاني
في خصائص الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وآثارها التكوينية

يختص الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف بخصائص ومقامات إلهية عظيمة كشفت عنها الأخبار الشريفة[1]، نتعرض إلى ثلاثة منها لأنها الأبرز أو الأكثر أثراً أو وروداً في النصوص الشرعية، أو الأكثر حضوراً في الأذهان والمحافل العلمية، أو لكونها الأصل للمقامات الأخرى، أو لكونها من خصوصياته عجل الله تعالى فرجه الشريف أو لكل ذلك وهي:

١ـ الولاية على الزمان.

٢ـ الولاية على العصر.

٣ـ الولاية على الأمر.

وتسميته صلوات الله عليه بصاحب الزمان وصاحب العصر وصاحب الأمر ناشئة منها، ومن الواضح أن هذه التسمية حيث جاءت عن المعصوم كشفت عن وجود خصوصيات خاصة ومقام إلهي ولم تأت جزافاً، وكيف كان فإن البحث في هذه المقامات ينتظم في مطالب:

---

١ - انظر مجمع البحرين: ج٢، ص٩٨، (صحب).

المطلب الأول: في ولايته على الزمان

عرفنا في الأبحاث السابقة معنى الولاية والولي إلاّ أن ما يهمنا هو معرفة المقصود من وصفه صلوات الله عليه بصاحب الزمان، والآثار التكوينية المترتبة على هذا الاسم المبارك.

فنقول: الصاحب في اللغة عرف بالملازم إنساناً كان أو حيواناً أو مكاناً أو زماناً، ولا يقال في العرف إلاّ لمن كثرت ملازمته، ولذا يقال لمالك الشيء صاحبه، وكذا لمن يملك التصرف فيه[1]، وأما الزمان فمعناه في اللغة والعرف العام ظاهر ويطلق على كثير الوقت وقليله كما يطلق على مدة الدنيا كلها[2].

وأما تعريفه في الاصطلاح فقد اختلف فيه أهل المعقول، واضطربت آراؤهم كثيراً، والتعريف المشهور بينهم ما عن ارسطو إذ عرفه بأنه مقدار حركة الفلك الأعظم، ولعله يتوافق مع قول المتكلمين بأنه أمر اعتباري موهوم ليس موجوداً[3]، باعتبار أن السكون لا عد له، فإذا انطلقت حركة

---

١ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٧٥- ٤٧٦، (صحب)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٥٦٣، (صحب)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٥٠٧، (صحب).

٢ - لسان العرب: ج١٣، ص١٩٩، (زمن)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٢٦١، (زمن)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٠١، (زمن).

٣ - انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج١، ص٩٠٩- ٩١٠؛ المطالب العالية من العلم الإلهي: ج٥،ص ٩.

الفلك في الكون الأول حسبت زماناً اعتباراً، فإذا انتقلت إلى الكون الثاني حسبت زماناً ثانياً وهكذا، وعليه فمعنى صاحب الزمان هو الملازم له كناية عن حياته الدائمة ومالكيته للتصرف فيه وقيمومته عليه.

وقد يقال بعدم الدليل على أن الروايات وصفت بقية الله بصاحب الزمان بالمعنى الاصطلاحي، فحينئذ يحمل على المعنى اللغوي على ما تقتضيه القاعدة من حمل الألفاظ على المعاني اللغوية ما لم يثبت المصطلح وضعاً، أو يثبت أن الاستعمال وقع على المعنى المصطلح. نعم كونه صلوات الله عليه ولياً للزمان بمعناه اللغوي يحمل على أحد معنيين:

الأول: أنه ولي لأهل الزمان وما يحتويه باعتبار علاقة الحال والمحل، أو الظرف والمظروف، فيكون المعنى أنه ولي أهل الزمان وإمامهم، وعليه يحمل الاسم على المجاز.

الثاني: أنه ولي على ذات الزمان بالفعل، ويكون مسخراً له، فيوظفه في خدمة أغراضه الإلهية، وبهذا يحمل على المعنى الحقيقي، ولا تنافي بين المعنيين، فحمله على الاثنين بلا مانع، وكذا حمله على المعنى المصطلح لتطابقه مع المعنى المجازي، أو لملازمته للمعنى الحقيقي للزمان الذي كشف عنه النقل، فإن المستفاد من الآيات والروايات أن الزمان حقيقة وجودية مخلوقة ولها نسبة من الإدراك والشعور، ولكن لا يدركها الإنسان؛ لأنها من اللطائف، ومن هنا يتغير الزمان من وجود إلى آخر، ومن رتبة إلى أخرى، فالوجودات الكثيفة مقيدة بالزمان، وكلما تجردت عن المادة وغواشيها قلت نسبة الزمان حتى إذا بلغت رتبة الملكوت واللطافة الذاتية ينعدم الزمان، ولذا يقولون بأنها فوق الزمان.

ومن هنا قال بعض أهل المعرفة: إن الزمان في نفسه حادث ووعاء لمحويّاته وشاهد ومشهود، وهو - من حيث هو ممكن مشخص- وإن كان ظاهر الإنية فهو خفي المهية[١]، فعلى هذا كلما علا لطف واتسعت دائرته وطالت ساعاته ولياليه وأيامه وشهوره وأعوامه[٢]، وقسم الزمان على مراتب ثلاث:

المرتبة الأولى: الزمان الكثيف، وهو ما يتعلق بالكائنات المادية المقيدة بحدودها وقيودها، ومنه الحركات الحسية، فالزمان بهذا المعنى هو مدة الحركة الحسية للماديات، وهو متغير بحسب شدة الحركة ونقل المتحرك ووزنه وكيفية الحركة، وقد اثبت علماء الفلك أن مقدار كل يوم في أي من الأجرام السماوية يختلف عن غيره؛ لأن دوران الجرم السماوي حول نفسه مرة واحدة تابع إلى فترة زمنية معينة، فلذا يقدر هذا اليوم في القمر بأسبوعين بالقياس إلى حركة الأرض، ويمكن أن تقل سرعة الحركة الوضعية للأرض بمرور الزمن فيصبح اليوم الواحد فيها كالشهر أو كالسنة أو مئات السنين[٣].

المرتبة الثانية: الزمان اللطيف، وهو مدة حركات الروحانيات المدبرة للعالم الجسماني مثل حركة الملائكة التي تدبر شؤون الوجود الجسماني بالوحي والإلهام والنصرة والانتقام، وكذا حركة الجن والأرواح المتعلقة بالأجسام، ولعل سرعة الفكر والتأثير الروحي وظهور المعاجز والخوارق على أيدي الأنبياء والأولياء منها، بناء على أنها من تأثير الروح، أو من إجابة الدعاء

---

١ - التراث: ج٢، شرح دعاء التحميد، ص٨٧؛ الإمام المهدي عليه السلام مظهر الخلافة الإلهية: ص١١٥.
٢ - التراث: ج٢، شرح دعاء التحميد، ص٨٥.
٣ - تفسير الأمثل: ج١٩، ص١٦.

لا استخدام القانون الطبيعي المخفي، وربما يستفاد هذا المعنى من مثل قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[1].

ومنطوقها صريح في أن تدبير أمر العالم خلقاً وإيجاداً وتبدلاً وتحولاً ينزل من السماء إلى الأرض، ثم يعرج من الأرض إلى السماء بواسطة الملائكة، ويستغرق ذلك زماناً قدره ألف سنة من أيام أهل الأرض، وهذه المعادلة تدل على أن اليوم الواحد من عالم الملائكة يعادل ألف يوم من أيام الأرض، خمسمائة للنزول وأخرى للعروج، وذلك للطافة القوى المحركة في عالم الملكوت وتجردها عن القيود المادية الكثيفة.

المرتبة الثالثة: الزمان الألطف، وهو مدة حركات الأرواح العالية والأنوار المقدسة الأكثر لطافة وتجرداً، نظير بعض الملائكة المقربين، والروح الذي يعرج عروجاً روحياً، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[2] سواء كان العروج الروحي لأجل التقرب إلى المقام الإلهي أو لأجل تلقي الأوامر الإلهية في تدبير العوالم الملكوتية، أو لتدبير المعاد والحشر على اختلاف الآراء في غاية عروجها[3].

فإن عروج الروح قرينة على أنه ليس من قبيل عروج سائر الملائكة،

١ - سورة السجدة: الآية ٥.

٢ - سورة المعارج: الآية ٤.

٣ - انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٢٩، ص٥٠٧.

سواء فسر الروح بروح الإنسان أو روح القدس أو ملك الوحي أو غيرها من الوجودات اللطيفة الكريمة عند الله سبحانه، ولذا كان مقدار عروجه خمسين ألف سنة من أيام الدنيا.

ونلاحظ أن سرعة الحركة تضاعفت أضعافاً كثيرة بالقياس إلى عروج الأجسام اللطيفة، وهو ما يستفاد من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله(ص) حينما سئل عن سر طول ذاك اليوم فقال(ص): «والذي نفس محمد بيده إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»[١] ولعل إلى هذه المراتب يشير قول أهل الحكمة القديمة إن نسبة المتغير إلى المتغير زمان، وإلى الثابت دهر، ونسبة الثابت إلى مثله سرمد[٢].

بناء على أن الثابت هو عالم الملكوت فالعلاقة بين العوالم على ثلاثة أنحاء: علاقة متغير إلى متغير هو المادي، وثابت ومتغير هو مادي ولطيف، وعلاقة ثابت وثابت هو الملكوتي المحض.

ومما تقدم يتضح: أن الزمان ليس على وتيرة واحدة، فهو إما متغير ذاتاً أو متغير وجوداً، وكونه متصرم الوجود يتصف بالأمرين، ولعل تعريف المتكلمين بأنه أمر اعتباري أرادوا به ذلك في مقابل الحقائق التكوينية الثابتة.

وكيف كان فإن المدارس الفكرية اختلفت في تفسير الزمان، وكل منها أعطاه بعداً يتناسب مع مشربه العام وأدوات البحث والاستنتاج، إلاّ أن القدر المشترك الذي يتفق عليه الجميع هو أن المهدي صلوات الله عليه له

١ - مجمع البيان: ج١٠، ص٣٥٣؛ تفسير القرطبي: ج١٠، ص٦٧٦١، تفسير الآية المزبورة.
٢ - انظر شرح توحيد الصدوق (للقاضي سعيد القمي): ج١، ص١٥٢.

ولاية مطلقة على الزمان بجميع أقسامه ومراتبه، وهو محيط به ومتصرف فيه، وهو وجه تسميته بصاحب الزمان صلوات الله عليه، وتتجلى ولايته على الزمان في التصرف في الزمان ولوازمه كالمكان.

ويتم ذلك بالتصرف فيه قبضاً وبسطاً وطياً ونشراً، أي سعة وضيقاً، فهو صلوات الله عليه القابض والباسط للزمان بإذن الله تعالى، وهو بهذا المعنى مظهر اسم الله سبحانه القابض، ومظهر اسمه الباسط ، ولازم هذه الولاية أن يكون هو صلوات الله عليه فوق الزمان لا يقيده الزمان ولا المكان المادي؛ لأنه وجود لطيف من المرتبة الثالثة.

كما ثبتت له إحاطة تامة بالزمان والزمانيات، ولازم هذه الإحاطة والولاية الزمانية ثبوت الإحاطة والولاية على المكان والمكانيات، وبه يتضح وجه حضوره في كل مكان، واستجابته لدعوات الداعين وإغاثته للمستغيثين، والقرآن الكريم يشهد لهاتين الحقيقتين أي الولاية على القبض وعلى البسط في آيات عديدة:

منها: ما في قضية عرش ملكة سبأ حيث طلب سليمان عليه السلام إحضار عرشها من سبأ في اليمن إلى فلسطين موضع دولة سليمان عليه السلام، وهي مسافة طويلة جداً؛ إذ قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾[1].

ونلاحظ أن المنافسة في إطاعة أمر سليمان عليه السلام وقعت بين قدرتين: قدرة

١ - سورة النمل: الآيات ٣٨- ٤٠.

الجن وقدرة وصي سليمان ووزيره وهو أصف بن بلخيا، وأما غيرهما فلم يكن جديراً بالمنافسة؛ لأن إحضار العرش بالسرعة الفائقة متعذر؛ بداهة أن إحضار مثل هذا العرش بموازين الزمان الكثيف كان يتطلب مدة طويلة يقطع فيها المسافة الطويلة بين سبأ وفلسطين، ولكن الجن حيث إنه يخضع للزمن اللطيف فإن مدة إحضاره للعرش تستغرق يوماً أو شطراً من يوم، وهي المدة التي كان سليمان عليه السلام يجلس فيها للحكم من أول اليوم إلى الزوال كما في بعض الأخبار، وهي قد تبلغ خمس ساعات أو أكثر حسب الفصول[1]، إلّا أن آصف حيث إنه من الأولياء وكان عنده علم من الكتاب التكويني وقوانينه فإنه يخضع للزمان الألطف، فلذا لا تستغرق مدة إحضاره للعرش أكثر من طرفة عين التي تبلغ الثانية الواحدة أو الأقل من الثانية في عمر الزمن المعهود. هذا ما يدل عليه منطوق الآية.

والسؤال كيف يمكن انجاز ذلك بهذه المدة الوجيزة الخارقة؟ ذكر المفسرون لذلك توجيهات عديدة، إلاّ أن الجامع المشترك الذي تتفق عليه الآراء أن ذلك كان إعجازاً، وتتم باختصار الزمان والمكان أي طيهما وقبضهما حتى لا يكاد يحسب أن العرش كان في مكان بعيد وإحضاره يستغرق وقتاً طويلاً، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام[2]، وهذا النحو من القبض وبهذه السرعة العجيبة ليس بمقدور كل أحد، وإنما بمقدور الأولياء الذين أعطاهم الله ذواتاً نورية لطيفة، وسخر الأشياء لهم بما فيها الزمان والمكان.

وما دامت القضية ترجع إلى فضل الله وقدرته كما قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ

---

١ – انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص١٠٥.

٢ – مجمع البيان: ج٧، ص٣٤٩، وانظر بحار الأنوار: ج٩٢، ص٢٧٣.

رَبِّي﴾ فينقطع الشك أو التعجب والذهول ولا يبقى مجال لمنكر أو مشكك.

وواضح أن ما امتلكه آصف من القدرة على قبض الزمان والمكان يمتلكه من هم أعلى منه درجة ومقاماً روحانياً، وأوسع علماً بالأولوية، وهم محمد وآل محمد عليهم السلام، وهو ما تواتر مضمونه في الأخبار المعتبرة.

ففي رواية جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعون حرفاً، وإنما كان عند أصف منها حرف واحد فتكلم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس، ثم تناول السرير بيده ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين، وعندنا نحن من الاسم اثنان وسبعون حرفاً وحرف عند الله استأثر به في علم الغيب عنده، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم»[1] وقد تضافر النقل بظهور مثل ذلك على أيديهم[2] صلوات الله عليهم.

وفي رواية ابن أبي عمير عن ابن أذينه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الذي عنده علم الكتاب هو أمير المؤمنين عليه السلام» وسئل عن الذي عنده علم من الكتاب أعلم أم الذي عنده علم الكتاب؟ فقال: ما كان علم الذي عنده علم من الكتاب عند الذي عنده علم الكتاب إلاّ بقدر ما تأخذ البعوضة بجناحها من ماء البحر وقال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: ألا إن العلم الذي هبط به آدم من السماء إلى الأرض وجميع ما فضلت به النبيون إلى خاتم

١ - بصائر الدرجات: ج٤، ص٢٢٨، ح١؛ وانظر ح٦، ح٨؛ الكافي: ج١، ص٢٢٩- ٢٣٠، ح١، ح٣، ح٥.

٢ - انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٨٢، ح٦.

النبيين في عترة خاتم النبيين»[١] وسيظهر ذلك أكثر على يد خاتمهم ومنقذ أمتهم صلوات الله عليه.

ومنها: قضية الإسراء والمعراج، التي أنزل الباري عز وجل فيها سورة كاملة هي سورة الإسراء وقد تم فيها سفر ليلي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في القدس الشريف وكان هذا الإسراء مقدمة لمعراجه إلى السماء وقد تم في زمن قياسي لا يتحقق إلاّ بالإعجاز وخرق العادة إذ لم يستغرق سوى ليلة واحدة بينما المسافة تقدر بأكثر من مائة فرسخ الذي قد يتجاوز الخمسمائة كيلو متر وفي قياس وسائل ذاك الوقت وانتقال الأجسام الكثيفة فأنه كان يتطلب أياماً عديدة لكنه وقع في ليلة واحدة وذلك لا يكون إلاّ بطي الزمان والمكان وقبضهما، كما أن الانتقال العروجي إلى السماء وبلوغ سدرة المنتهى هو الآخر لا يكون إلاّ بطي الزمان والمكان.

ولا يخفى أن هذه القضية مما تواتر وقوعها في روايات الفريقين بل قال العلامة المجلسي قدس سره إن عروجه صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيت المقدس ثم إلى السماء في ليلة واحدة بجسده الشريف مما دلت عليه الآيات والأخبار المتواترة من طرق الخاصة والعامة، وإنكار أمثال ذلك أو تأويلها بالعروج الروحاني أو بكونه في المنام ينشأ إما من قلة التتبع في آثار الأئمة الطاهرين، أو من قلة التدّين وضعف اليقين[٢]، ولو أردت استيفاء الأخبار الواردة في هذا الباب لصار مجلداً كبيراً.

---

١ - تفسير القمي: ج١، ص٣٦٧.

٢ - بحار الأنوار: ج١٨، ص٢٨٩ ـ أقول.

وقريب منه صرح به الطبري في تفسيره[١]، وأقر به جمع كبير من علماء العامة بما فيهم أتباع ابن تيمية[٢].

ويظهر من بعض نصوص الأديان السابقة أنها مسلمة عندهم، وواقعة للأنبياء السابقين كل بحسب درجته ومقامه أو بحسب اقتضاء الضرورة[٣]، ولعله يستفاد من بعض الأخبار الشريفة[٤].

ويعرف من هذه القضية الكونية أن قبض الزمان والمكان وبسطهما أمر ممكن عقلاً وواقع خارجاً يملك مفتاحه أولياء الله سبحانه، وحدوثه يتم إما بسلوك طريق العلوم الخاصة التي علمها الله سبحانه أولياءه كما قد يستفاد ذلك من قضية عرش بلقيس أو أنها تحدث بالإرادة الإلهية كما في قضية الإسراء والمعراج، أو تحدث بالتجرد عن البدن، أو خلعه لتتصل الروح بعالم الملكوت وتتنقل فيه كما قد يستفاد من رواية عبد الصمد بن علي قال: دخل رجل على علي بن الحسين عليه السلام فقال له علي بن الحسين عليه السلام: «من أنت؟» قال: أنا منجم. قال: «فأنت عرّاف». قال: فنظر إليه ثم قال: «هل أدلك على رجل قد مر مذ دخلت علينا في أربعة عشر عالما كل عالم أكبر من الدنيا ثلاث مرات م يتحرك من مكانه؟» قال: من هو؟ قال: «أنا وأن شئت أنبأتك بم

١ - انظر جامع البيان: ج١٥، ص٢٣، ح١٦٦٣٠؛ مجمع البيان: ج٣، ص٣٩٥.

٢ - التحذير من البدع(لابن باز): ص٧.

٣ - انظر إنجيل مرقس؛ الباب٢٤ من إنجيل لوقا؛ والباب٢١ من إنجيل يوحنا؛ انظر تفسير الأمثل: ج٨، ص٢٩٠.

٤ - انظر الاحتجاج: ج١، ص١٠٩.

أكلت وما ادخرت في بيتك»[١]. ولا تنافي بين الطرق الثلاثة، بل هي راجعة إلى شيء واحد للملازمة بينها، أو لكونها جميعاً مظاهر للقدرة والعلم، والجميع يرجع إلى إذن الله سبحانه وتعليمه.

ومثل ذلك وقع لأهل الكهف؛ إذ ظلوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً لكنهم كانوا يعدون بقاءهم يوماً أو بعض يوم، بناء على أن قولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[٢] محمول على الحقيقة الواقعة، وأنهم معصومون لا يخطأون أو يتوهمون[٣].

ومثلها قضية الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه. قال: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً﴾[٤] ونلاحظ أن تحول الحمار إلى عظام بالية في ذاك الآن كان من قبيل بسط الزمان، بينما بقاء الطعام والشراب لم يتغيرا كان من قبيل قبض الزمان.

ويؤكد كل ذلك ما ورد في ولادة خاتم الأوصياء عجل الله تعالى فرجه الشريف في خبر حكيمة عليها السلام حيث قالت: دخلت دار أبي محمد عليه السلام بعد أربعين يوماً من ولادة الحجة العظمى فإذا مولانا صاحب الزمان عليه السلام يمشي في الدار، فلم أر وجهاً أحسن من وجهه، ولا لغة أفصح من لغته، فقال لي أبو محمد: «هذا المولود

١ - بصائر الدرجات: ص٤٢٠، ح١٣.
٢ - سورة الكهف: الآية ١٩.
٣ - انظر الآيات من سورة الكهف: ٩- ٢٠.
٤ - سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

الكريم على الله عز وجل» قلت له: يا سيدي له أربعون يوماً وأنا أرى من أمره ما أرى، فقال عليه السلام: «أما علمت يا عمتي أنا معشر الأوصياء ننشأ في اليوم ما ينشأ غيرنا في السنة»[١].

ويتلخص مما تقدم: أن بسط الزمان وقبضه وكذا بسط المكان وقبضه تبعاً له حقيقة واقعة لا مجال للشك فيها أو إنكارها، وحيث إن العقل لا يقضي باستحالتها وأخبر النقل الصادق بها وجب تصديقها، والقبض والبسط في الزمان والمكان هو نوع من الولاية عليهما، وهذه الولاية ثابتة لخاتم الأوصياء عجل الله تعالى فرجه الشريف، فلذا يقال له صاحب الزمان، ويراد به أنه يملك القدرة والقيمومة على الزمان فيطويه بأهله، أو يبسطه بهم، وكذا المكان.

ولعل الروايات الشريفة التي نصت على حدوث بعض الوقائع الغريبة في زمانه ناظرة إلى هذا المعنى كما ورد عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: «لا تقوم الساعة حتى تروا أموراً عظاماً لم تكونوا ترونها، ولا تحدثون بها أنفسكم»[٢].

وفي بعضها عن الصادق عليه السلام: «إن المؤمن في زمان القائم وهو بالمشرق ليرى أخاه الذي في المغرب، وكذا الذي في المغرب يرى أخاه الذي في المشرق»[٣] ولا يصح أن يحمل المراد فيها على وسائل الرؤية الحديثة المعهودة كالفضائيات، وذلك لسببين:

---

١ - الغيبة (للطوسي): ص٢٣٩، ح٢٠٧؛ وانظر الخرائج والجرائح: ج١، ص٤٦٦، ح١٢؛ مكيال المكارم: ج١، ص٢٣٧.

٢ - المهدي المنتظر: ص٤٨٦؛ وانظر كتاب الفتن: ص١٩؛ فتح الباري: ج١٣، ص٧٣.

٣ - مكيال المكارم: ج١، ص٢٣؛ بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٩١، ح٢١٣؛ درر الأخبار: ص٤٠٤، ح١٨.

الأول: أن منطوق الرواية دال على أن الرؤية بهذه الكيفية مختصة بزمانه صلوات الله عليه وليس باستخدام ما كان موجوداً سابقاً، بل النص صريح في أن هذه خصوصية خاصة للمؤمن لا يشاركه فيها غيره، وهذا لا ينطبق على الوسائل الحديثة.

الثاني: أنها ظاهرة في بيان مقام وفضيلة للمؤمنين ولزمانه صلوات الله عليه في هذه الرؤية لتكون حجة على الخلق، وفي عين الحال تكون مظهراً من مظاهر التكريم والتجليل لهم وفي عين الحال تكون وسيلة التدبير والإدارة وأداتها؛ بداهة أن كل نظام إداري يحتاج إلى ارتباطات، وهذا لا يستقيم إلاّ إذا كانت الرؤية ناشئة من إرادة الإمام ومشيئته وتعليمه، وليس من الوسائل التي توصل إليها البشر قبل الظهور.

نعم ربما يكون وجه الفرق بين الأمرين أن الرؤية المستندة إلى علوم البشر تفتقر إلى استخدام التقنيات والوسائل، ومن دونها يستحيل أن تقع، وأما هو صلوات الله عليه فيحقق للمؤمنين الرؤية بين المشرق والمغرب بالعين المجردة من دون وسائل ولا آلات، وهذا مما لا يقدر عليه غيره.

ولعل مما يؤكد هذا المعنى رواية أبي الربيع الشامي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إذا قام قائمنا مدّ الله لشيعتنا في أسماعهم وأبصارهم حتى لا يكون بينهم وبين القائم بريد يكلمهم فيسمعون، وينظرون إليه وهو في مكانه»[1] وهي صريحة في أن هذه الخصوصية تعطى لشيعته، وفي ذلك دلالة على أنهم جنوده وأنصاره والمنفذون لأوامره، ولعل هذا أحد أسباب

١ - الكافي: ج٨، ص٢٤١؛ بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٣٦، ح٧٢.

سيطرتهم وغلبتهم على غيرهم؛ لأن حسن التدبير والقيادة يتوقفان على جهاز نزيه ومحكم للتواصل والارتباطات، فإذا افتقد الأعداء هذا الجهاز وامتلكه جنود الإمام كانت لهم الغلبة.

وربما تحمل طريقة التواصل على المعنى المجازي ويراد بها قوة التخاطر بين الإمام عليه السلام وأصحابه، والمراد به التواصل الفكري بين عقل وعقل أو عقول أخرى دون واسطة الحواس، نظير التخاطر في المشاعر والعواطف إلاّ أنه خلاف الظهور، بل النص صريح في أن الرؤية حقيقية وتقع بالباصرة وأن المسافات تقترب والأزمنة كذلك.

ويعضده الروايات المتضافرة الدالة على أن الناس في زمانه تطول أعمارهم بشكل تصاعدي، وأن حركة الفلك تتباطأ تصاعدياً حتى يكون اليوم من أيامه صلوات الله عليه كعشرة أيام، والشهر كعشرة أشهر، والسنة كعشر سنين من سنيكم[1]، وقد وجه الإمام الصادق صلوات الله عليه ذلك بأن الله سبحانه يأمر الفلك باللبوث وقلة الحركة فتطول الأيام لذلك والسنون[2].

وفي رواية الكافي عن الصادق عليه السلام: «إن الله عز وجل جعل لمن جعل له سلطاناً أجلاً ومدة من الليال وأيام وسنين وشهور، فإن عدلوا في الناس أمر الله عز وجل صاحب الفلك أن يبطئ بإدارته، فطالت أيامهم ولياليهم وسنينهم وشهورهم، وإن جاروا في الناس ولم يعدلوا أمر الله تعالى صاحب

١ - مكيال المكارم: ج١، ص٣٧٢.

٢ - روضة الواعظين: ص٢٦٤؛ الارشاد: ج٢، ص٣٨٥؛ بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٣٩، ح٨٤.

الفلك فأسرع بإدارته فقصرت لياليهم وأيامهم وسنينهم وشهورهم»[1] وفيها دلالة على أن الزمان يتعلق بحركة الفلك وإن له فهماً وشعوراً فلذا يخاطب ويؤمر، وما دام المعنى الحقيقي ممكناً ولا محذور عقلي أو شرعي فيه لا داعي لحمله على المعنى المجازي وارتكاب التأويل فيه، ولا ريب في أن زمانه صلوات الله عليه هو زمان العدل الإلهي، فلذا استفاضت الأخبار بأن كل سنة في دولته الإلهية تعادل سبع سنين ولما اعترض على ذلك بدعوى أن الفلك حركته ثابتة ولو تغيرت فسد قال‌عليه السلام: «هذا قول الزنادقة والمنجمين»[2] أما الزنادقة فلأنهم لا يؤمنون بقدرة الله سبحانه وسلطته المطلقة على الأشياء، وأما المنجمون فلأنهم يخضعون لقواعد الفلك الظنية، ولا ينظرون إلى خوارق العادات والقوانين الإلهية الاستثنائية التي تخرق المألوف، وتبطل أثره، أو تلغي أثره، أو تظهر أثراً آخر له.

وكيف كان فإن مجموع الروايات المتقدمة تتفق على أن الزمان له بسط وقبض سيقع ذلك في زمان ظهوره صلوات الله عليه.

ويستنتج من ذلك ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الإمام صلوات الله عليه سيعطي أصحابه وشيعته مفاتيح هذه القدرة الإلهية فيتصرفون في الزمان والمكان، وحيث إنه يمسح على رؤوسهم فتكتمل عقولهم وأخلاقهم، وانه يريهم ويعلمهم فإنهم يستخدمون هذه القدرة الخارقة على وفق موازين الحكمة فلا يقع منهم ظلم

---

١ - الكافي: ج٨، ص٢٧١، ح٤٠٠

٢ - رسائل آل طوق: ج٣، ص٩٤؛ الإمام المهدي‌عليه السلام مظهر الخلافة الإلهية: ص١٢٢.

أو فساد، ولعل من مفاتيحها طريقين:

الطريق الأول: التجرد عن البدن وقيوده، فإن الروح البشرية من عالم الملكوت، ولولا حبسها في البدن لاتصفت بالزمان اللطيف أو الألطف بحسب درجاتها ومراتبها في المعرفة الإلهية.

ولا يحبسها عن ذلك إلاّ ضيق البدن وكثافته وآثاره، فلو تمكن الإنسان من التخلص منها انخرقت له الخوارق، وظهرت له الحقائق، واطلع على أسرار عالم الملكوت وصار ملكوتياً وهو ما يعبر عنه بالتجرّد عن ثقل البدن وآثاره، وربما يصطلح عليه عند أهل المعرفة بخلع البدن، وأشد السجون التي حبست بها الروح أربعة:

الأول: سجن البدن الترابي، فإنه بطبعه يخلد إلى الأرض، ويتأثر بآثارها وخواصها، فالتخلص منه أول خطوة في طريق التجرد والخلع، وذلك عبر الرياضات الروحية والمجاهدات، وقد مر عليك في بحث النورانية وأبدان الأنبياء والأئمة عليهم السلام أن الله سبحانه صفاهم من ذلك، وجعل أبدانهم لطائف نورية متحررة عن المادة وآثارها.

الثاني: سجن حاجات البدن المادية من طعام و شراب ولذات وغيرها، فإن النفوس والأرواح محبوسة ومقيدة بها، فلو جاهد الإنسان نفسه وقطع علائقها بالبدن يكون قد حقق الخطوة الثانية في هذا المسير الصعب، ويشهد لهذه الحقيقة الرؤى والمنامات الصادقة، فإنها تنشأ من رؤية الروح الواقع بحسب تجردها عن علائق البدن وحاجاته، ولذا وصفها الباري عز وجل

بالآية إذ قال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم﴾[١] وفي الروايات أنها من أجزاء النبوة[٢].

الثالث: سجن الأوهام والشكوك والظنون، فإنها سجنت العقول الإنسانية ومنعت من انطلاقها وارتقائها لأنها من وساوس الشيطان وقيوده، فتكدر على العقول، وتمنع من وصولها إلى الحقائق أو إدراكها كما هي، فتصاب بالجهل المركب، أو تمنع من حصول اليقين، فالتخلص منها خطوة ثالثة للتجرد، وتتم عبر الترويض وإزالة المانع بطرد الشيطان ووساوسه وتنوير القلب بالأذكار والعبادات.

الرابع: سجن الحب والبغض والانشداد والجذب، فإنها سجنت القلوب من مشاهدة الحقائق إن كانت إلى الدنيا وأهلها، ولا يتجرد الإنسان إلاّ إذا ملأ قلبه حباً لله ولأوليائه وبغضاً لأعدائهم، وصرف بصيرته إليهم، فلا يرى ولا يحب ولا يتعلق إلاّ بهم، ولا ينقطع إلاّ إليهم، وهو غاية ما يطلبه الراغبون، ولذا ورد «لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»[٣] وفي الدعاء: «إلهي الحقني بنور عزك الأبهج فأكون لك عارفاً، وعن سواك منحرفاً»[٤] وكان النبي والأئمة عليهم السلام يعلنون توبتهم ورجوعهم إلى الله سبحانه كلما اضطروا إلى التعامل مع أهل الدنيا وحاجاتها، فتوبتهم عن قصور الدنيا والأبدان البشرية عن تمام الانقطاع وكماله ودوامه لا عن ترك الأولى كما هو مشهور، وحققناه فيما تقدم.

---

١ - سورة الروم: الآية ٢٣.

٢ - التحفة السنية: ص٣١٩؛ المستدرك: ج٤، ص٣٩١؛ إرواء الغليل: ج٨، ص١٢٨.

٣ - عوالي اللآلئ: ج٤، ص٧، ح٧.

٤ - إقبال الأعمال: ج٣، ص٢٩٩.

فتلخص أن الإمام صلوات الله عليه يعلم شيعته وأصحابه طريق التجرد والتخلص من قيود الأبدان والعقول والقلوب، ويكملهم في المعرفة والأخلاق فيرتقون في الأسباب، ويملكون ولاية على الزمان.

الطريق الثاني: تلطيف البدن وخفته ليتطابق مع خفة النفس، فيكونا كأنهما شيء واحد، فإن ذلك يوجب انعكاس آثار النفس على البدن ويكون خاضعاً لها بالكامل، فلذا يصبح البدن الترابي روحاني النزعة والأثر، وهذا الطريق أصعب من الأول، ولذا لا يسلكه إلاّ خواص الخواص، ولعل قضية الإسراء والمعراج كانت منه، وأما قول البعض بأنه كان روحانياً لا بدنياً فخلاف التحقيق وصريح النصوص.

ولعل ما ورد في الأحاديث الشريفة أن البدن يستجيب للروح إذا قويت النية والعزم يشير إليه، وهو ما يشهد به الوجدان لمن تاقت نفسه للعبادة أو الشهادة في سبيل الله فانه لا يشعر بالألم، وربما تفيض نفسه شوقاً قبل أن يناله السيف، وللمسألة تفاصيل ليس هنا محلها.

ويتلخص أن أصحاب المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف بعد أن يكملهم سيدهم وإمامهم يمتلكون قدرتين يدبرون بهما شؤون الزمان هما التجرد من البدن ولطافته، والأول من موارد التخلية، بينما الثاني من التحلية، فتظهر على أيديهم الخوارق، ويكونون أناساً خارقين كل ذلك ببركة معرفتهم بالإمام عليه السلام ومحبتهم وطاعتهم، وهذا في عصر الغيبة ممكن وواقع، ولكنه للأوحدي، وأما في زمانه فيكون عاماً.

ولعل إليه يشير قول أبي جعفر الباقر عليه السلام: «كأني بأصحاب القائم عليه السلام

وقد أحاطوا بما بين الخافقين، فليس من شيء إلاّ وهو مطيع لهم حتى سباع الأرض وسباع الطير تطلب رضاهم في كل شيء حتى تفخر الأرض على الأرض وتقول مرّ بي اليوم رجل من أصحاب القائم عليه السلام»[١].

الحقيقة الثانية: أن الزمان حقيقة واقعية مدركة لها مراتب وتنزلات في مراتب الوجود، فيطول ويقصر بحسب مرتبته الوجودية الناشئة من أهله، ولكل مرتبة خواص وآثار، فللبشر العاديين في الأرض زمان وأيام، وللملكوت أيام تقدر بألف سنة وبخمسين ألف سنة.

وأن لهذه الأيام علاقة وارتباط بأولياء الله سبحانه، كما ورد في الأخبار أن الأيام بيد المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام، فالسبت لرسول الله ﷺ، والأحد لأمير المؤمنين وفاطمة، والاثنين للحسن، والحسين، والثلاثاء للسجاد والباقر والصادق، والأربعاء للكاظم والرضا والجواد والهادي، والخميس للعسكري والجمعة للمهدي ﷺ، ولهم فيها زيارات وأدعية، بل ورد أن كل ساعة من ساعات اليوم تتعلق بمعصوم من المعصومين أو بأكثر، وفيها دعاء وتوسل، ولعل الوجه فيه يعود إلى ولاية التدبير للزمان والقيمومة عليه فضلاً عن التشريف والتكريم ومن هنا ذهب بعض أهل المعرفة إلى أن للأيام روحانية، ولها أحكام في الروح والعقل[٢]، وللمسألة تفاصيل نوكلها إلى محلها.

الحقيقة الثالثة: أن ما ورد في متواتر النقل عن حضوره صلوات الله عليه

---

١ - كمال الدين: ص٦٧٣، ح٢٥؛ بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٢٧، ح٤٣.

٢ - انظر التكوين والتجلي: ص١٥٦- ١٥٧؛ الإمام المهدي ﷺ مظهر الخلافة الإلهية: ص١٢٢- ١٢٣.

لإنقاذ المستغيثين وقضاء حوائج الداعين ودفاعه عن المؤمنين وذب الأخطار والأضرار عنهم مما يعضده البرهان، فإنه صلوات الله عليه ولي الزمان وأهله، والمتصرف فيهما، والقيوم عليهما.

ولعل من أسرار هذه الآية المختصة به صلوات الله عليه هو أن زمانه برزخ بين عالمين: عالم الدنيا وعالم الآخرة، ومفتاح بين زمانين: زمان الملك والملكوت، ولذا تظهر عليه آثارهما، وبهذا يتضح بعض السر في طول عمره وعدم تأثير الأزمنة والاحقاب في بنيته ومزاجه وقواه وهيئته الملكوتية، وإذا ظهر كان كابن الثلاثين أو الأربعين، ولا يناله هرم ولا شيخوخة[١]، وأن طاقة الرجل الذي يعيش في زمانه طاقة أربعين رجلاً[٢].

١ - منتهى الآمال: ج٢، ص٥٧١.

٢ - روضة الواعظين: ص٢٩٦؛ مختصر بصائر الدرجات: ص١١٦؛ تاريخ آل زرارة: ج١، ص٢٤.

المطلب الثاني: في ولايته على العصر

اختص التعبير عن المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف دون باقي المعصومين عليهم السلام بأنه صاحب العصر وولي العصر، والمراد واحد، كما اشتهر التعبير بعصر الحضور عن زمان ظهوره صلوات الله عليه في مقابل عصر الغيبة، ولا شك أن هذا الوصف لم يأت جزافاً، ولم ينظر إلى المعنى اللغوي فقط ، فلابد وأن يكون كاشفاً عن مقام معنوي له صلوات الله عليه يعد من خصوصياته، فما المراد من العصر وما معنى الولاية عليه؟

والجواب: أن العصر في اللغة والعرف والاستعمال الشرعي يطلق على معان عديدة تجتمع تحت ثلاثة جوامع:

الأول: المدة من الزمان دهراً كانت أو حيناً، أو ما يلي المغرب من النهار، أو ما بعد الزوال، وإذا نسبت إلى ملك أو دولة أو إلى أحداث أو تطورات طبيعية أو اجتماعية يطلق عليها عصر، مثل عصر الدولة الفلانية، وعصر الملك الفلاني، أو العصر الحجري، أو الصناعي وهكذا، ويراد بها المدة الزمنية التي وقعت فيها تلك الحوادث.

الثاني: ما تحلّب من الشيء عند عصره كعصير البرتقال. يقال عصر الشيء عصراً استخرج ما فيه من دهن أو ماء ونحوه، ومنه قولهم عصر الثوب بعد

غسله، أي إخرج الماء المتبقي فيه، وفي التنزيل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾[١] أي السحائب التي تنعصر بالمطر.

الثالث: التعلق بالشيء والامتساك به، يقال اعتصر بالمكان إذا التجأ إليه، ومنه المعاصر أي الدروع؛ لأنها ملجأ المقاتل لتحميه[٢]، والحق إمكان إرجاعها إلى جامع واحد وهو ضغط شيء حتى يتحلب ويخرج ماؤه[٣] على ما قررناه غير مرة من أن اجتماع المشتركات في المادة تحت جامع واحد يرجع سائر المعاني إليه ولكن بلحاظات مختلفة، فيعبر عن الزمان والدهر ومدة الحكم والدولة ونحوها بالعصر باعتبار أنها تحبس أهلها، وتضغطهم وتبلوهم وتخبرهم بوقائعها وأحداثها حتى كأنهم تحلبوا فيها، كما يعبر عن وقت ما بعد الظهر بالعصر؛ لأنه يعصر القلب، ويشعر أهله بالضيق والاحتصار، بخلاف الصباح والظهر والليل

وأما العصير فوجه تسميته بالعصر ظاهر، يقال عصرت العنب عصراً أي استخرجت ماءه، ومنه العصارة أي ما يخرج بالعصر، ويطلق على الريح التي تثير السحاب أو الغبار بالإعصار؛ لأنهما يكونان كالمعتصر منها[٤]، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[٥] أي

---

١ – سورة النبأ: الآية ١٤.

٢ – انظر معجم مقاييس اللغة: ص٧٥٥، (عصر)؛ لسان العرب: ج٤، ص٥٧٥– ٥٧٦، (عصر).

٣ – مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٦٩، (عصر).

٤ – التبيان في تفسير القرآن: ج٦، ص١٥١.

٥ – سورة يوسف: الآية ٤٩.

يمطرون، وتنبت أراضيهم فيعصرون الثمار التي تعتصر في الخصب من العنب والزيتون والسمسم ونحوها، وأما الملجأ والدرع فيعبر عنه بالعصر لأنه يضغط صاحبه أيضاً.

فيتحصل: أن العَصْر يراد به ما يُعصَر به، فإذا أطلق على الزمان يقال له عصر، وإذا أطلق على ملك أو دولة كذلك، وهكذا.

وأما في الأخبار الشريفة ففسر العصر بزمان خروج القائم عجل الله فرجه كما في رواية المفضل بن عمر قال: سألت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[1] فقال: «العصر عصر خروج القائم عليه السلام»[2].

ولا شك في أن هذا التعريف ناظر إلى المعنى الباطن، أو بيان المصداق الخفي، إلاّ إذا حمل على أنه عليه السلام في مقام تأسيس وضع تعييني شرعي للعصر وهو بعيد؛ لافتقاره إلى الدليل. نعم إذا ذكر العصر مضافاً إلى الصاحب والولي بأن يقال (صاحب العصر) أو(ولي العصر) ونحوه فلا إشكال في حمله عليه صلوات الله عليه، وحمل العصر على عصر ظهوره وهو المتبادر منه عند الشرع والدارج في لسان المتشرعة؛ لثبوت الوضع التعييني أو التعيني فيه.

وواضح أن هذه التسمية لم تأت صدفة، بل لا بد من وجود مناسبة بين خروجه صلوات الله عليه وبين العصر، والحق أنه يتناسب مع الجوامع

١ - سورة العصر: الآيتان ١-٢.

٢ - كمال الدين: ص٦٥٦، ح١؛ تفسير البرهان: ج٤، ص٥٠؛ بحار الأنوار: ج٢٤، ص٢١٤، ح١.

اللغوية الثلاثة. أما تناسبه مع الجامع الزماني فباعتبار أن خروجه صلوات الله عليه يؤسس لعصر جديد يتميز بأحكام وأنظمة وتطور علمي وإنساني تسود فيه العدالة الإلهية، ويرتقي البشر روحياً وفكرياً وحضارياً.

وأما تناسبه مع الجامع الثاني فباعتبار أن زمانه يعصر الناس ويحتلبهم فيظهر جواهر المؤمنين وجواهر المنكرين، كما أن زمانه تظهر فيه خلاصات الرسالات السماوية وحجج الأنبياء والأولياء السابقين، كما تظهر به كمالاتهم، فكل مزايا الأنبياء وعصورهم تتلخص في عصره، كما تتلخص فيه كمالاتهم الشخصية وسيرتهم، باعتبار أنه وريثهم وخاتم مقاماتهم، ومن هنا تضافرت الأخبار بظهور الخيرات والبركات على يديه، ويزدهر عصره بالمحبة والرحمة وشيوع الخير وانحسار الشر، وتظهر كل النعم الإلهية التي توزعت على عصور الأنبياء مجتمعة في عصره، وبهذا يصح أن يوصف عصره بأنه خلاصة العصور السابقة وعصارتها.

وأما تناسبه مع الجامع الثالث فباعتبار أن زمانه صلوات الله عليه الملجأ الذي تلتجئ إليه البشرية خلاصاً من الظلم والجور، كما أنه الدرع الذي يقيها من آثارهما وفسادهما.

وبذلك يظهر وجه الترابط الوثيق بين العصر وبين خروج الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف في المدلول اللغوي، وهو كذلك في المفهوم الشرعي؛ إذ تضافرت الأخبار الشريفة بتسميته بولي العصر وصاحبه باعتبار ولايته وقيمومته على عصره وعصر من سبقه من الأنبياء والأولياء، ومن هنا يمتاز عصره الإلهي بمزايا لم يسبقه فيها أحد منهم نقف عند ثلاث منها.

الميزة الأولى: أن عصره برزخ بين عالمي الدنيا والآخرة؛ إذ سيبدأ الناس في عصره سيرهم إلى عالم الآخرة، ويعيشون بعض ملامح ذلك العالم في الجزاء والآثار؛ إذ تتجلى في عصره حقيقتان:

الأولى: العدل الإلهي.

والثانية: العطاء الإلهي، وهو وفاء من الله سبحانه بوعده للمؤمنين ووعيده للظالمين.

ويتحقق الأول بالرجعة التي تعد القيامة الصغرى إذ يرجع فيها الأنبياء والأولياء والمؤمنون الصالحون كما يرجع الظالمون لهم، فيقتص للمؤمن من الظالم، ويتجلى العدل الإلهي فيه، وهو ما تواتر مضمونه في الآيات والروايات، وسنأتي إلى تفصيله في مباحث المعاد.

وفي الخبر عن الصادق عليه السلام عن علي عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: يا علي إن قائمنا إذا خرج يجتمع إليه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً عدد رجال بدر، فإذا حان وقت خروجه يكون له سيف مغمود ناداه السيف: قم يا ولي الله فاقتل أعداء الله»[1].

ومناداة السيف تحمل على معناها الحقيقي لا المجازي؛ لما عرفت من أن زمانه صلوات الله عليه متصل بعالم الملكوت، وهو عالم الحياة والشعور والإدراك فلا شيء فيه جامد أو ميت، أو أن سيفه هو ذو الفقار الذي نزل من الجنة لأمير المؤمنين عليه السلام، لذا يحمل من المزايا الإلهية ما يجعله ناطقاً، والعلم الحديث والتقنية المتطورة قربت هذه الحقيقة الغيبية إلى الأذهان، حيث يرى

---

١ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٠٤، ح٧٢.

أن الحاسوب ونحوه يتكلم وينطق ضمن معادلات خاصة.

ويتحقق الثاني بتحول الأرض التي يحكمها صلوات الله عليه إلى جنة مصغرة يتنعم بها المؤمنون قبل جنة الآخرة؛ إذ يعم الخير أرجاء الأرض، وتصبح بساتين وحقول وحدائق ذات خير وبهجة، وتكتمل عقول البشرية، وتستنير قلوبهم بمعرفته ومحبته وطاعته صلوات الله عليه، وتصبح الأشياء طوع أمرهم وإرادتهم، وينجو الناس من الأمراض والعاهات، وتطول أعمارهم، وتتضاعف قواهم البدنية في السمع والبصر والجوارح، وتكتمل قواهم الروحية فلا يصابون بحسد أو وهم، أو فتور في عزيمة، أو وسوسة وغيرها من عيوب النفس، وتنجلي الحقائق الواقعية أمام بصائرهم وأبصارهم فلا يبتلون بجهل بسيط أو مركب.

وهذه الأوصاف والخصائص هي بعض آثار عالم الملكوت وحالة الناس في الجنة، وقد تضافرت الأخبار بهذه الحقائق، فعن المفضل بن عمر أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[١] قال: «رب الأرض يعني إمام الأرض» قلت: فإذا خرج يكون ماذا؟ قال: «إذن يستغني الناس عن ضوء الشمس ونور القمر، ويجتزون بنور الإمام»[٢].

وتفسير رب الأرض بالإمام إما باعتبار المعنى اللغوي للرب، أي المصلح للشيء[٣]، أو باعتبار الواقع؛ لأنه صلوات الله عليه علتها الفاعلية والغائية، أو باعتبار أنه وليها والقائم عليها، وأما الاستغناء بنوره صلوات الله عليه

١ - سورة الزمر: الآية٦٩.
٢ - تفسير البرهان: ج٦، ص٥٦٥.
٣ - انظر معجم مقاييس اللغة: ص٣٧٨،(رب).

عن ضوء الشمس ونور القمر فيعود إلى تجلي النور الإلهي للإمام على واقعه، وحيث إنه من عالم الملكوت المحيط بعالم الملك يغطي نوره الأرض، وهذا ما يعضده حديث المعراج: «عندما رأى النبي ﷺ أنوار أهل بيته مشرقة ورأى نور المهدي عليه السلام في وسطهم كأنه الكوكب الدري»[1].

أو باعتبار أن قوى البصائر تغني الناظرين عن النور، أو أن تجلي الأشياء على واقعها في زمانه يكفي في الرؤية؛ لأن النور داخل في تكوين الأشياء، أو لغير ذلك من الوجوه.

وفي رواية الإمام الحسن المجتبى عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام أن في ملكه عجل الله فرجه: «تخرج الأرض نبتها، وتنزل السماء بركتها، وتظهر له الكنوز، يملك ما بين الخافقين»[2] وفي رواية أخرى: «فعند ذلك تفرخ الطيور في أوكارها، والحيتان في بحارها، وتمدُّ الأنهار، وتفيض العيون، وتنبت الأرض ضعف أكلها، ثم يسير مقدمته جبرئيل، وساقته اسرافيل، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً»[3] وهذا الخبر يقوي ما ذكرناه من أن عصره يترابط فيه عالم الملك والملكوت، ويكون ممهداً لعالم الآخرة، ولذا قد يرى الناس جبرئيل واسرافيل معه صلوات الله عليه.

وعن أبي جعفر عليه السلام: «أنه يدعو الشمس والقمر فيجيبانه، وتطوى له الأرض، فيوحي الله إليه فيعمل بأمر الله»[4] والوحي الذي ينزل عليه ليس

١ - انظر مكيال المكارم: ج١، ص٣٢٨.
٢ - الاحتجاج: ج٢، ص١١؛ بحار الأنوار: ج٥٢، ص٢٨٠، ح٦.
٣ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٠٤، ح٧٣.
٤ - دلائل الإمامة: ص٤٥٦، ح٣٩؛ وانظر بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٩٠، ح٢١٢.

وحي النبوة كما عرفت؛ لانختتام النبوة بالمصطفى صلى الله عليه وآله، وإنما وحي تعليم وتكليف وتسديد، وهو واقع لغير الأنبياء؛ لشهادة القرآن الكريم بوقوعه لأم موسى، بل للنحل والأرض وغير ذلك، فما بالك بحجته وخليفته في الأرض؟

وواضح أن الخيرات والبركات تكون مباحة للجميع، لا يحرم منها أحد، ولا توجد طبقية ولا حكام ظلمة أو أجهزة سلطوية وغيرهم ممن يستولون على مصالح الناس، ويستحكمون ويستأثرون بها، بل يستفاد من بعض الأخبار أن الناس يكونون منعمين حتى أن الغني يدور بزكاته باحثاً عمن يستحقها ولا يجده، وفي بعض الأخبار: (إذا ظهر القائم ودخل الكوفة ... يعطي الناس عطايا مرتين في السنة، ويرزقهم في الشهر رزقين، ويسوي بين الناس حتى لا ترى محتاجاً إلى الزكاة، ويجيء أصحاب الزكاة بزكاتهم إلى المحاويج من شيعته فلا يقبلونها، فيصرونها ويدورون في دورهم، فيخرجون إليهم فيقولون: لا حاجة لنا في دراهمكم ... ويجتمع إليه أموال أهل الدنيا كلها من بطن الأرض وظهرها، فيقال للناس: تعالوا إلى ما قطعتم فيه الأرحام، وسفكتم فيه الدم الحرام، وركبتم فيه المحارم، فيعطي عطاء لم يعطه أحد قبله)[1] وفي أخرى: «ويطلب الرجل منكم من يصله بماله، ويأخذ من زكاته، لا يوجد أحد يقبل منه ذلك، استغنى الناس بما رزقهم الله من فضله»[2] بل ويستفاد من بعض الأخبار أن الناس يعيشون السعادة والفرحة في عصره حتى الأموات في القبور كما ورد عن الصادق عليه السلام: «لا يبقى مؤمن

١ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٩٠- ٣٩١، ح٢١٢، مكيال المكارم: ص٢١٣.
٢ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٣٧، ح٧٧.

ميت إلاّ دخلت عليه تلك الفرحة في قبره، وذلك حيث يتزاورون في قبورهم ويتباشرون بقيام القائم»[1] وهذا شاهد آخر على ارتباط عالم الدنيا والآخرة حتى أن الميت في قبره يدرك ما عليه الناس في عصره صلوات الله عليه ويفرح لها.

الميزة الثانية: الاستغناء عن الأسباب الطبيعية؛ إذ تدور الأمور في عصره صلوات الله عليه بقوانين جديدة لم تعهد من ذي قبل، فلذا تجري الوقائع والأحداث على خلاف المناهج الأولى، بما في ذلك الحيوانات والنباتات والحجر والمدر، فالأرض تشرق بنور الإمام صلوات الله عليه لا بضوء شمس ولا بنور قمر كما مر، وينتفي التنافر والتكالب بين الحيوانات، فلا يأكل بعضها البعض، والناس يعيشون أخوة متحابين متراحمين لا عداوة بينهم ولا حسد ولا أذى أو ضرر.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام : «ولو قد قام قائمنا ... لذهبت الشحناء من قلوب العباد، واصطلحت السباع والبهائم حتى تمشي المرأة من العراق إلى الشام لا تضع قدميها إلاّ على النبات، وعلى رأسها زنبيلها لا يهيجها سبع ولا تخافه»[2].

وهي صريحة في أن الأرض جميعاً تكون خصباء معشبة لا يبقى فيها صحراء أو أرض جرداء، كما أنها تدل على أن السباع تكون مشبعة فلذا لا

١ - انظر كامل الزيارات: ص٢٣٤، ح٥؛ كتاب الغيبة (للنعماني): ص٣٢٣، ح٥؛ بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٢٨، ح٤٨.

٢ - الخصال: ص٦٢٦؛ بحار الأنوار: ج١٠، ص١٠٤؛ ج٥٢، ص٣١٦، ح١١؛ منتهى الأمال: ج٢، ص٥٧٣.

تهيج، ولا يبعد أن تسلب منها الطبيعة السبعية فلا تأكل إلاّ ما هو حقها؛ لما عرفت من أن عصره يتجلى فيه العدل الإلهي، ويكتمل فيه الخلق، فلا يبقى فيه نقص أو شر، وأما عدم خوف المرأة من السبع فلعله يرجع إلى شدة الأمن وشيوع السلام، أو إلى كمالها العقلي والنفسي، أو لاطمئنانها بسيادة العدل، أو لأنها تملك بصيرة ترى بها الحقائق فتعلم بأن السبع لا يؤذيها، ولا تنافي بين الوجوه المحتملة فحملها على الجميع بلا مانع.

وفي رواية أخرى: «يؤيده الله بملائكته، ويعصم أنصاره، وينصره بآياته، ويظهره على الأرض حتى يدينوا طوعاً أو كرهاً. يملأ الأرض عدلاً وقسطاً ونوراً وبرهاناً، يدين له عرض البلاد وطولها، لا يبقى كافر إلاّ آمن، ولا طالح إلاّ صلح، وتصطلح في ملكه السباع»[1] وهذه ميزة لم يحظ بها نبي ولا وصي قبله.

الميزة الثالثة: انتشار العدل وحكومته على أرجاء الأرض، وهي أهم غاية اتفقت عليها جميع الشرائع والأديان، ولأجلها آمنت بها البشرية جمعاء، بضرورة ظهور المصلح العالمي والمنقذ الرباني، ولعلها القضية المشتركة التي تواترت في الأخبار الشريفة حتى باتت من المسلمات التي يعرفها القاصي والداني والمؤمن والمخالف والصغير والكبير، وهي أن الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف يخرج فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، وملء الأرض بذلك لا يتحقق إلاّ إذا ساد العدل وانتشر على جميع ربوعها، بحيث لا تبقى أي بقعة منها محكومة بظالم أو بظلم.

---

١ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص٢٨٠، ح٦.

وتتفق الآراء استناداً إلى النصوص الشرعية وما تواتر في التأريخ ويشهد به الوجدان على أن سيادة العدل على ربوع الأرض لم يحصل في عصر من العصور؛ لأن الناس في سائر الأعصار والأمصار يعيشون بين أربع حالات:

الأولى: ظلم الناس وظلم الحاكم، وهو الغالب الذي ملأ الأرض ظلماً وجوراً، والمراد من الظلم الأعم من العقيدي والعملي، ومن الناس عموم أهل الأرض.

الثانية: ظلم الناس وعدل الحاكم، وهو حالة نادرة كما وقع في حكومات الأنبياء والأولياء كما في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام.

الثالثة: عدل الناس وظلم الحاكم، ولم يتحقق في زمان أن الناس جميعاً كانوا موحدين مؤمنين وملتزمين بقواعد العدل.

الرابعة: عدل الناس وعدل الحاكم، ولم يتحقق في زمان ما إلاّ أنه سيتحقق في عصره صلوات الله عليه، وهو ما تضافرت به الأخبار الشريفة، ولذا تحيا الأرض وتعمر السنن، ويقوم العدل، ويصلح الناس، فقد ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[1] قال عليه السلام: «يحيها الله بالقائم عليه السلام فيعدل فيها، فيحيي الأرض بالعدل بعد موتها بالظلم»[2] ولعل من أسباب وصفه بالقائم صلوات الله عليه هو قيامه بالعدل وإفناؤه للظلم والجور.

وفي رواية ابن عباس في معنى إحياء الأرض قال: يعني يصلح الله الأرض

١ - سورة الحديد: الآية١٧.

٢ - ينابيع المودة: ج٣، ص٢٥٢، رقم (٥٣).

بقائم آل محمد صلوات الله عليه، وفي معنى بعد موتها قال: يعني بعد جور أهل مملكتها[١]، وقريب منها ورد في رواية الحلبي عن الصادق عليه السلام[٢].

ومن الثابت أن العدل يلازم الأمن والاستقرار والتماسك الاجتماعي والنمو والتطور بخلاف الظلم فإنه ملازم للاضطراب والقلق والفساد والتأخر، فإن الناس يعيشون في عصره صلوات الله عليه الأمن والأمان في كل أبعاد الحياة، ولا تبقى لديهم مشكلة أمن شخصي أو أسري أو اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي، ولا أمن صحي ولا بيئي ولا غذائي ولا زراعي، ولا أمن جوي ولا بحري وغيرها من مشاكل هذا العصر الذي سببتها قوانين البشر وحكوماتها الظالمة، وهذه سمة مهمة من سمات عصره صلوات الله عليه.

ويتلخص مما تقدم: أن للإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ولاية إلهية على العصر، فيأتي بعصر جديد، ويقيم دولة وحضارة عادلتين يطبق فيهما مبادئ الأنبياء وغاياتهم، ويعيش الناس فيها شيئاً من حياة الآخرة في العدل الإلهي والجنة.

---

١ - بحار الأنوار: ج٥١، ص ٦٤، ح٦٥؛ مكيال المكارم: ج١، ص١٢٩.

٢ - مكيال المكارم: ج١، ص١٣٠.

المطلب الثالث: في ولايته عليه السلام على الأمر

لعل من أشهر أسمائه صلوات الله عليه التي كثر وروده في الروايات وعلى ألسنة المتشرعة صاحب الأمر، والمراد منه ولايته وقيمومته بالأمر، وهذا مما لا كلام فيه، وإنما الكلام في المراد من الأمر، وكيف تعد الولاية على الأمر من مقاماته صلوات الله عليه؟ ولا يخفى أن البحث في الأمر ونزول الأمر عليهم صلوات الله عليهم في ليلة القدر ونحوها تقدم في الفصول السابقة؛ لذا سنكتفي بالوقوف على معنى الأمر بالمقدار الذي يتعلق بمقام ولي العصر عجل الله تعالى فرجه الشريف، فالأمر في اللغة يطلق على معان كثيرة ترجع إلى عدة جوامع:

الأول: الأمر من الأمور، ويراد به الشيء أو الشأن.

الثاني: الأمر بمعنى الطلب، وهو ما يضاد النهي، كقوله افعل ولا تفعل.

الثالث: الأَمَر - بفتح الميم - النماء والبركة. يقال أمر الشيء أي كثر وازداد خيره، وامرأة آمرة أي مباركة على زوجها، وسمي المال بالخير لأنه ينمو ويزداد.

الرابع: الأمر أي المَعلَم والعلامة. يقال اجعل أمارة على الشيء أي علامة يتميز بها، وأمار الطريق معالمه.

الخامس: الأمر بمعنى الإمر أي العَجَب، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾[1] أي عجبا[2]، وعلى القاعدة التي قررناها فإن هذه المعاني ترجع إلى جامع واحد وهو الشأن، واختلاف المعاني ناشئ من اختلاف النسب والإضافات أو اللحاظات، فإن الشيء إذا لوحظ بالقياس إلى كينونته ووجوده يقال له أمر، ويجمع بصيغة أمور، وإذا لوحظ أنه طلب صادر من المولى يقال له أمر أو حكم، وإذا لوحظ توالده ونماؤه يقال له بركة وخير، كما هو الحال في المال، وإذا لوحظ أنه وجود متميز وشاخص يقال له علامة، وأما إذا لوحظ ما يلازمه من غرائب يقال له عجب، وهكذا مع أن الجميع تعود إلى جامع ماهوي واحد. هذا كله بحسب اللغة، وأما بحسب المصطلح الشرعي فإن القرآن أطلق لفظ الأمر على كل ما سوى الله سبحانه، وقسمه على قسمين:

الأول: عالم الملك، وهو عالم الخلق والوجود الإمكاني الظاهر المحسوس، ويعبر عنه بعالم الشهادة.

الثاني: عالم الأمر، وهو عالم الملكوت الغائب عن الحس، ويعبر عنه بعالم الغيب؛ إذ قال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[3] ولعل وجه التعبير عن الأول بالخلق يعود إلى أنه عالم الكون والفساد، فالخلق فيه دائم ومستمر.

---

١ – سور الكهف: الآية٧١.

٢ – انظر معجم مقاييس اللغة: ص٧٣، (أمر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٢١٠-٢١١، (أمر).

٣ – سورة الأعراف: الآية٥٤.

بينما عالم الأمر عالم التكامل والسير الصعودي؛ لأن الكون والفساد من شؤون عالم المادة الكثيفة القاصرة عن الدوام والمحكومة بقوانين التغير والحدوث، وأما عالم الملكوت فهو من عالم النور، وحياته دائمة مستقرة ولا فساد فيه، بل تكامل وارتقاء، وحتى عذاب أهل النار في جوهره تطهير وتكميل وتخليص لأهل النار من شوائب الذنوب وآثارها، أو يعود إلى أن عالم الخلق هو الإيجاد الأول، وعالم الأمر السنن والقوانين الإلهية الحاكمة فيه والتي يخضع لها العالم أجمع، ويحتكم إلى قواعدها وأحكامها، فيقوم نظمه، وتظهر آثاره وخيراته، ويسير نحو غايته المرسومة له.

وسمي عالم الملكوت بعالم الأمر باعتبار أنه الذي يدبر عالم الملك ويقوده ويهديه إلى غاياته، ولعل مما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١] فإنه ظاهر في أن عالم الملكوت منتظم على مسلكين نزولي يأتي بالأمر الإلهي للأرض والتدبير، وآخر صعودي يعرج الأمر فيه إلى الله سبحانه تقوم به الملائكة المدبرات، ويستغرق نزوله وعروجه ألف سنة، وهو ما صرح به جماعة[٢].

وباعتبار أن الباري عز وجل منزه عن الجسم والجسمانية والزمان والمكان فإن العروج إليه يحمل على المقام والرتبة، أو إلى أوليائه الذين يملكون أمر الحساب والجزاء كما مر عليك، وقريب من هذا المضمون يستفاد من قوله

١ - سورة السجدة: الآيتان ٥-٦.

٢ - انظر تفسير الأمثل: ج١٣، ص٧٠؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٢٨٨.

تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾[١] أي يجري أمر الله وحكمه بينهن تدبيراً فيهن.

ومن منطوق الآيتين يستفاد أن عالم الملكوت هو الذي يدبر عالم الملك، وتمضي فيه إرادته، وإن التدبير الملكوتي للعالم يتم عبر أمره سبحانه فيها، أي عبر القوانين والسنن الإلهية التي أودعها الله فيها، كما قد يشير إليه نسبة العروج والنزول إلى الأمر نفسه، أو عبر الملائكة المدبرات جمعاً بين الأدلة.

ويتحصل: أن العالم يحتاج إلى الخالق عز وجل في حدوثه وبقائه وتدبيره، والباري عزّ وجلّ يدبر نظام العالم بأمره، وأمره جعله بيد محمد وآل محمد صلوات الله عليهم، لاسيما ولي الزمان وإمامه، ولذا اختص هذا الاسم به، فمعنى (صاحب الأمر) و(ولي الأمر) الذي يملك الأمر الإلهي حدوثاً وبقاءً وتدبيراً، سواء تعلق بالتكوين أو التشريع أو الهداية والتربية، ومن هنا وصف صلوات الله عليه ببقية الله كما في روايات عديدة، واختص هذا الوصف به بالوضع التعييني الشرعي، كما اختص الإمام علي عليه السلام بإمرة المؤمنين.

فعن الباقر عليه السلام وقد سئل لم سمي أمير المؤمنين عليه السلام؟ قال: «الله سماه، وهكذا أنزل في كتابه»[٢].

وفي الكافي بسنده عن الصادق عليه السلام في بيان معنى قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[٣] قال سأله رجل عن القائم يسلم عليه بإمرة

١ - سورة الطلاق: الآية١٢.

٢ - الكافي: ج١، ص٤١٢، ح٤؛ مختصر بصائر الدرجات: ص١٧١.

٣ - سورة هود: الآية٨٦.

المؤمنين؟ قال: «لا، ذاك اسم سمى الله به أمير المؤمنين عليه السلام لم يسم به أحد قبله، ولا يسمى به بعده إلاّ كافر» قلت: جعلت فداك كيف يسلم عليه؟ قال: «يقولون: السلام عليك يا بقية الله ثم قرأ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾»[1].

ووصف المسمى باسمه بالكافر قد يحمل على الكفر العقيدي، وذلك يختص بمن يسمى به عناداً وجحوداً بإمامته، أو يحمل على الكفر العملي.

وبمقتضى مفهوم المخالفة أو قرينة الحال ينطبق على التسمي بأمير المؤمنين التسمية ببقية الله؛ لأنه من مقاماته الخاصة؛ وحكم الأمثال واحد، وهذا ما قد يستفاد من رواية أحمد بن اسحاق الأشعري قال: خرج أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام علينا وعلى عاتقه غلام كأن وجهه القمر ليلة البدر من أبناء ثلاث سنين ... فنطق الغلام عليه السلام بلسان عربي فصيح فقال: «أنا بقية الله في أرضه، والمنتقم من أعدائه»[2].

وفي رواية محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «فإذا خرج -القائم عليه السلام- أسند ظهره إلى الكعبة، واجتمع إليه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً وأول ما ينطق به هذه الآية: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ثم يقول: أنا بقية الله في أرضه وخليفته وحجته عليكم، فلا يسلم عليه مسلم إلاّ قال: السلام عليك يا بقية الله في أرضه»[3].

١ - الكافي: ج١، ص٤١١- ٤١٢، ح٢.
٢ - كمال الدين: ص٣٨٤، ح١.
٣ - كمال الدين: ص٣٣١، ح١٦.

وقريب من هذا المضمون ورد بطرق العامة أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[١]، والبقية اسم وفعله بقي. يقال: بقي الشيء يبقى أي دام وثبت[٢]، وما بقي من الشيء أي فضل، وهو قد يكون بمعنى اسم الفاعل ومعناه الباقي بالله سبحانه كما تفيده الإضافة، وقد تكون بمعنى اسم المفعول أي الذي أبقاه الله سبحانه، والمفاد واحد، وكذا النتيجة والغاية، والاختلاف بينهما لحاظي؛ بداهة أن الباقي بالله سبحانه أو الذي أبقاه الله سبحانه لا يكون إلاّ لأجل غاية وحكمة، وبإذن من الله سبحانه؛ لوضوح أن الممكن مفتقر إلى الخالق في كل شؤونه الذاتية والعرضية، وقوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ يقبل الاثنين سواء حمل على الأعمال فإن ما يبقيه الله منها هو ثوابها، أو الأحكام من الحلال والحرام فإن ما يبقى منها آثارها، أو المصداق الأجلى وهو ولي الزمان صلوات الله عليه كما ذكرت الأخبار، وتسميته صلوات الله عليه ببقية الله يعود إلى وجوه:

الوجه الأول: أنه الولي الذي أبقاه الله سبحانه في الأرض من الأنبياء والأوصياء لهداية الخلق وإبقاء دينه وأحكامه، ولولاه لأفنى الظالمون الدين وأهله، وأقاموا الباطل، فبوجوده صلوات الله عليه بقي الدين والهدى.

الوجه الثاني: أنه الوريث الباقي للنبي وللأئمة عليهم السلام الذين هم بقايا الأنبياء في أممهم ووراثهم[٣]، فإن للأنبياء مواريث يتناقلوها. أشار إلى بعضها قوله

---

١ - الأنوار الساطعة: ج٣، ص٣٤.
٢ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٣٨، (بقي)؛ مجمع البحرين: ج١، ص٥٧، (بقى)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٦٦، (بقي).
٣ - بحار الأنوار: ج٢٤، ص٢١١، ح١.

تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ﴾[١] أي في التابوت مما تكسر من الألواح التي كتب الله لموسى وعصى موسى وثيابه وعمامة هارون[٢]، وقد تضافر في الأخبار الشريفة أنه صلوات الله عليه حين ظهوره يخرج مواريث الأنبياء، فتكون شاهد صدق على حجته، وبسببها يؤمن به أهل الأديان، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «يظهر بين الركن والمقام وعليه قميص إبراهيم، وحلة إسماعيل، وفي رجله نعل شيث عليه السلام»[٣] وفي آخر «وإنما سمي المهدي لأنه يهدي إلى أمر خفي، ويستخرج التوراة وسائر كتب الله عز وجل من غار بأنطاكية، ويحكم بين أهل التوراة بالتوراة، وبين أهل الإنجيل بالإنجيل، وبين أهل الزبور بالزبور، وبين أهل القرآن بالقرآن»[٤] والمراد في بادئ أمره حتى تثبت حجته على الناس ويدخلون في دينه ثم يحتكمون بالقرآن.

الوجه الثالث: أنه صلوات الله عليه رحمة الله التي مَنَّ بها على عباده؛ إذ البقية تأتي بمعنى الرحمة في اللغة، أو لأنه صلوات الله عليه سبب الرحمة بالعباد، إذ لولاه لساخت الأرض بأهلها[٥].

الوجه الرابع: أنه صلوات الله عليه مظهر كمال الله وجلاله، ومجلى آثاره

١ - سورة البقرة: الآية٢٤٨.
٢ - مجمع البحرين: ج١، ص٥٧، (بقا).
٣ - إثبات الهداة: ج٣، ص٥٨٠؛ معجم أحاديث الإمام المهدي، ج٣، ص١٢١، رقم (٦٥٩).
٤ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص ٣٥١، ح١٠٣؛ علل الشرائع: ج١، ص١٦١؛ الغيبة (للنعماني): ص٢٣٧، ح٢٦.
٥ - الأنوار الساطعة: ج٣، ص٣٤.

في الخلق، ومحل معرفته وواسطة فيضه، واسمه الأعظم الذي يدبر الله به الموجودات كما تضافر في الأخبار الشريفة وتقدم تفصيله.

وفي رواية محمد بن مسلم قال: سمعت الصادق عليه السلام يقول: «إن الله عز وجل خلقاً من رحمته خلقهم من نوره ورحمته من رحمته لرحمته، فهم عين الله الناظرة، وأذنه السامعة، ولسانه الناطق في خلقه بإذنه، وأمناؤه على ما أنزل من عذر أو نذر أو حجة، فبهم يمحو السيئات، وبهم يدفع الضيم، وبهم ينزل الرحمة، وبهم يحيي ميتاً، وبهم يميت حياً، وبهم يبتلي خلقه، وبهم يقضي في خلقه قضيته» قلت: جعلت فداك من هؤلاء؟ قال: «الأوصياء»[1] وخاتمهم ولي العصر صلوات الله عليه، وباء السببية تفيد الوساطة أو المظهرية، فوصفه ببقية الله سبحانه ناشئ من كون فعله فعل الله، وأمره أمره، وإرادته إرادته، أضفاه الله سبحانه بجلاله وكماله، وهناك وجوه أخرى ترجع إلى هذا كما ترجع الوجوه الثلاثة الأول إليه أيضاً.

فيتحصل: أن وصفه صلوات الله عليه ببقية الله في الأرض ناشئ من كونه الولي المطلق الذي ينوب عن الله سبحانه في فعله وإرادته، ويظهر جماله وجلاله، وبذلك يظهر وجه التناسب بين المعاني اللغوية الخمسة للأمر وبين مقامه صلوات الله عليه. أما الأول فيعرف من ولايته على جميع الخلق، وأما الثاني فلأن تدبير العالم بنظاميه الملكي والملكوتي وتشريع الأحكام وأمر الحلال والحرام بيده، وفي عصره تظهر الخيرات والبركات، وتزكو الأعمال، ويكون صلوات الله عليه آية لله في جماله وجلاله وأسمائه وصفاته، ويلازم

---

١ - التوحيد: ص١٦٧، ح١؛ نور البراهين: ج١، ص٤١٩، ح١.

خروجه الأمور العجيبة التي تعجز العلم والعلماء، وتتم بها الحجة على الخلق أجمعين، وهذه المزايا والخصوصيات لم تظهر لأحد من الأنبياء والأولياء كما تظهر له صلوات الله عليه وإن كان منهم من هو أفضل رتبة كالخمسة أهل الكساء.

الفصل الخامس

في واجبات الأمة تجاه الإمام عليه السلام

وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: في الوظائف العامة

المبحث الثاني: في الوظيفة الخاصة في عصر الغيبة

تمهيد:

بعد الفراغ من إثبات الإمامة وتعيين الإمام وبيان مقاماته الإلهية فإن بديهة العقل والفطرة فضلاً عن متواتر الشرع تقضي بثبوت حقوق للإمام على الأمة يجب أداؤها، ولا يجوز نكرانها أو التهاون بها، وقد تضافرت الأدلة على وجود مجموعة من الواجبات والوظائف على الأمة متعلقة بذمة كل فرد من أفرادها بالوجوب النفسي العيني التعييني وبنحو العموم الاستغراقي، ويعبر عنها بالواجبات الحقوقية؛ لأنها تتعلق بمنصب الإمام ومكانته في الأمة، وأداء هذه الواجبات والوظائف هي الضابطة التي يدور عليها صدق الإيمان وسلامة العقيدة وجوداً وعدماً، كما تدور عليها الطاعة ومقبولية الأعمال، فلا يعقل أن يكون العبد مؤمناً بالله ورسوله واليوم الآخر وهو منكر للإمام الذي نصبه الله ورسوله، أو مخالف له في القول والعمل، كما لا يعقل أن تكون صلاته وصيامه وسائر عباداته عبادات شرعية صحيحة فضلاً عن كونها مقبولة وقد أخذها من غير الإمام الذي وجب عليه اتباعه والأخذ منه. فالإذعان للإمام والتسليم لأمره وإظهار المحبة والولاية له من شرائط الإيمان، وبها يتميز الإيمان الحق والإيمان الصوري الذي يستبطن الجحود، وواضح أن حقوق الإمام الواجبة عى الأمة ليست مجرد إلتزامات أدبية أو أخلاقية، بل هي واجبات عقلية وشرعية ليس يتقوم بها الإيمان

والتدين أصولاً وفروعاً فحسب، بل هي سبب النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، كما أنها منشأ الخيرات والبركات في حياة الناس أفراداً وجماعات، وهذه الحقوق ناشئة من جهات:

الأولى: الجهة التمثيلية، فإنه عليه السلام حجة الله وخليفته، فما يجب لله سبحانه من حقوق في ذمة الأمة يجب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليه السلام أيضاً.

الثانية: الجهة التوسيطية، فإنه عليه السلام واسطة الفيض، وبواسطته خلق الله الخلق، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ووساطته ليست كوسائط الآلات الجامدة، بل وساطة تفويضية اختيارية، أو بيدهم العطاء والمنع، فالعطاء نعمة يلازمها حق عظيم للمعطي لولاه لم يكن الموجود موجوداً، فهو عليه السلام ما به الوجود بإذن الله وأمره، وأما ما منه الوجود فهو الله سبحانه لا غير.

الثالثة: الجهة الغائية، فإنه عليه السلام غاية الخلق، ولولاه لم يخلق الله الخلق.

الرابعة: الجهة القيادية، فإن لإمام الحق نعماً كثيرة وافرة على المأموم؛ لأنه لا يؤمه فقط بل يعلمه ويربيه ويهديه إلى مصالحه، ويخرجه من الظلمات إلى النور، ويقوده إلى سعادته الدينية والدنيوية، وهذه النعم عظيمة بل من أعظم النعم التي تثبت للإمام حقوقاً على المأموم يوجب العقل أداءها بما يليق بتلك النعمة.

ويتحصل: أن حقوق الإمام على الأمة كثيرة ولا يمكن عدها إذا لوحظت جهاتها التفصيلية، إلاّ أنها في جهتها الأجمالية تجتمع تحت عنوان جامع واحد هو النعم التكوينية والتشريعية، فتحكم الفطرة والعقل معاً فضلاً عن الشرع بلزوم شكرها من وجوه ثلاثة هي:

وجوب شكر المنعم، ووجوب دفع الضرر، وقبح الظلم والتعدي على أهل الحق الحاصلان من عدم الشكر.

وشكر المنعم يمكن أن يتلخص بالقيام بأربعة وظائف هامة ثلاثة منها عامة يشترك فيها سائر المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام هي المعرفة والمحبة والطاعة، وواحدة خاصة ينفرد بها ولي هذا الزمان وإمامه صلوات الله عليه، وتختص بزمان غيبته وهي انتظار فرجه الشريف، ولكل واحدة من هذه الوظائف شروط وأحكام وطرق تستدعي الوقوف عندها تفصيلاً، ومن هنا قسمنا البحث فيها إلى مبحثين. تناولنا في المبحث الأول الوظائف العامة، وفي الثاني الوظائف الخاصة.

المبحث الأول
في الوظائف العامة

وهي ثلاثة نستعرضها في ضمن مطالب:

المطب الأول: في وجوب المعرفة

المعرفة: إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره، وهي أخص من العلم، ويضادها الإنكار[1]، ولذا يقال: فلان بعرف الله، وورد في الحديث: «اللهم عرفني نفسك»[2] ولا يقال يعلم الله متعدياً إلى مفعول واحد، وذلك لأن معرفة البشر لله عز وجلّ هي بمعرفة آياته وتدبر آثاره دون إدراك ذاته، ومثله يقال في معرفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث تتم عبر الآثار كالمعجزة ونحوها، وكذلك معرفة الإمام عليه السلام؛ بداهة أن شخصية النبي والإمام من حيث نفسه ومقاماته من عالم الملكوت، وهو لا يدرك إلاّ بالآثار، ووجوب المعرفة هو أول مراتب شكر النعمة، ووجوبها ناشئ من حكم العقل؛ لأن المعرفة من مقدمات

١ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٦٠، (عرف)؛ معجم الفروق اللغوية: ص٥٠٢، (٢٠٣٤)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٩٦، (عرف).

٢ - الكافي: ج١، ص٣٣٧، ح٥.

الشكر؛ لتوقفه على معرفة المشكور ومعرفة الشكر اللائق بشأنه، وهو ما يحكم به الشرع أيضاً، ففي الخبر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه فقد أدى شكرها»[١].

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام قال: «أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: يا موسى أشكرني حق شكري، فقال: يا رب! وكيف أشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به ألاّ وأنت أنعمت به عليّ؟ قال: يا موسى! الآن شكرتني حين علمت أن ذلك مني»[٢].

وعن أبي جعفر عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾[٣] ورد: «علي ورسول الله صلى الله عليه وآله الوالدان، وأمر الله ذريتهما بالشكر لهما»[٤] والروايات الواردة بهذا المضمون كثيرة[٥].

والأب هو كل من كان سبباً في إيجاد شيء أو صلاحه أو ظهوره[٦]، وهو ينطبق على النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وعلي أمير المؤمنين عليه السلام وسائر الأئمة عليهم السلام من وجهين:

أحدهما: النشأة المعنوية؛ لأنهما علما الأمة وهدياها إلى الحق والصراط

١ - الكافي: ج٢، ص٩٦، ح١٥.
٢ - الكافي: ج٢، ص٩٧، ح٢٧.
٣ - سورة لقمان: الآية١٤.
٤ - تأويل الآيات: ج١، ص٤٣٦، ح١.
٥ - انظر تفسير البرهان: ج٦، ص١٧٩-١٨٠، الأحاديث ٥-١٥.
٦ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٧، (الأب)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٣٩، (أبي)؛ مجمع البحرين: ج١، ص١٦،(أبا).

المستقيم، وهذا المعنى ورد عن أمير المؤمنينعليه السلام في رواية الأصبغ بن نباتة: «الوالدان اللذان أوجب الله لهما الشكر هما اللذان ولدا العلم، وورّثا الحكم، وأمر الناس بطاعتهما»(١) ومن الواضح أن الأبوة المعنوية أسمى وأعظم من الأبوة النسبية الجسدية.

ثانيهما: النشأة التكوينية؛ لما عرفت من أحاديث الطينة والنور وما فصلناه في ولايتهم التكوينية من أنهمعليهم السلام وسائط الفيض الإلهي إلى الخلق، وأن الله بهم ولأجلهم خلق الكون وما فيه، فينطبق عليهم معنى الأب من حيث أن الأب أصل الولد ومصدر نشأته وغذائه.

ومعلوم أن كل ما يجب لرسول الله ولأمير المؤمنينعليهما السلام من الحقوق يجب لسائر الأئمةعليهم السلام والصديقة فاطمةعليها السلام لوحدة الملاك إلاّ ما خرج بالدليل، وفي حديث زرارة قال: قلت لأبي جعفرعليه السلام: أخبرني عن معرفة الإمام منكم واجبة على جميع الخلق؟ فقال: «إن الله عز وجل بعث محمداًصلى الله عليه وآله وسلم إلى الناس أجمعين رسولاً وحجة لله على جميع خلقه في أرضه، فمن آمن بالله وبمحمد رسول الله واتبعه وصدّقه فإن معرفة الإمام منّا واجبة عليه»(٢).

ومعرفة الإمام من الحقائق القلبية التي لا تعرف إلاّ بمظهرين هما: التولي والتبري، ويتمثل الأول بالائتمام به في العمل، والرجوع إليه في العلم، والتسليم إليه في الطاعة، ففي رواية أبي حمزة أكد أبو جعفرعليه السلام عن الملازمة الدائمة بين معرفة الله سبحانه ومعرفة الإمامعليه السلام فقال: «تصديق الله عز

١ - الكافي: ج١، ص٤٢٨، ح٧٩؛ تفسير البرهان: ج٦، ص١٧٨، ح٢، تفسير الآية ١٤ من سورة لقمان.

٢ - الكافي: ج١، ص١٨٠- ١٨١، ح٣.

وجل وتصديق رسوله صلى الله عليه وآله وموالاة علي عليه السلام والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام والبراءة إلى الله عز وجل من عدوهم. هكذا يعرف الله عز وجل»[١].

وفي صحيحة سدير الصيرفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنما كلف الناس ثلاثة: معرفة الأئمة، والتسليم لهم فيما ورد عليهم، والرد إليهم فيما اختلفوا فيه»[٢].

وفي صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أما لو أن رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالته إليه ما كان له على الله حق في ثوابه، ولا كان من أهل الإيمان»[٣]

وفي رواية أبي أذينة عن الصادق والباقر عليهما السلام أنه قال: «لا يكون العبد مؤمناً حتى يعرف الله ورسوله والأئمة كلهم وإمام زمانه، ويردّ إليه، ويسلم له»[٤] إلى غير ذلك من الأخبار المتضافرة[٥].

ويتمثل الثاني بالتبري من أعدائه ومخالفيه وعدم توليهم في قول أو عمل أو مرجعية علمية، وهذا ما أكدته الأخبار الشريفة، وهذا ما عرفته من رواية أبي حمزة المتقدمة، وفي الخبر المتواتر بطرق الفريقين أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «يا علي! أنا مدينة العلم وأنت بابها، فمن أتى من الباب وصل، يا

١ - الكافي: ج١، ص١٨٠، ح١.
٢ - الوسائل: ج٢٧، الباب٧ من أبواب صفات القاضي، ص٦٧، ح١٤.
٣ - الوسائل: ج٢٧، الباب٧ من أبواب صفات القاضي، ص٦٦، ح١١.
٤ - الكافي: ج١، ص١٨٠، ح٢.
٥ - الكافي: ج١، ص١٨٠، باب معرفة الإمام والرد إليه.

علي! أنت بابي الذي أوتي منه، وأنا باب الله، فمن أتاني من سواك لم يصل إلي، ومن أتى الله من سواي لم يصل إلى الله»[١].

والحاصل: أن معرفة الإمام لها جنبتان جنبة المعرفة النظرية، وتتقوم بالاعتقاد بإمامة الإمام من حيث الكبرى، ومعرفة شخص الإمام من حيث الصغرى، والعلم بأنه منصوب من قبل الله حجة على الخلق يجب الرجوع إليه، ولا يجوز الرجوع إلى غيره في ذلك، وجنبة المعرفة العملية، وتتقوم بالائتمام به في مقام العمل، والرجوع إليه في أخذ العلم، والتسليم لأمره بالجوارح والجوانح، ولا يجوز الائتمام بغيره، وكلتا المرتبتين واجبة شرعاً وجوباً نفسياً عينياً تعيينياً، ولازم هذا الوجوب هو حرمة الرجوع إلى غيره، كما هي واجبة عقلاً، فلا يعقل أن يكون المؤمن عارفاً وهو يعتقد بإمامة غير علي والأئمة من ولده عليهم السلام على نحو العرضية أو الطولية معه.

كما لا يعقل الائتمام به والائتمام بغيره أيضاً في مقام العمل؛ لأن ذلك كله من التناقض، ولذا صارت معرفته عليه السلام والائتمام به من علائم الإيمان وقبول العمل، بل هو من المجمع عليه بين أصحابنا[٢]، وبه تواترت الأخبار.

منها: صحيح عيسى بن السري عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل سأله فيه عن دعائم الإسلام التي إذا أخذ بها زكى عمله، ولا يضر بعده شيء فقال له: «شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله .... والولاية التي أمر الله عز وجل بها ولاية آل محمد عليهم السلام»[٣].

---

١ – الوسائل: ج٢٧، الباب٧ من أبواب صفات القاضي، ص٧٦، ح٤٠.

٢ – انظر بحار الأنوار: ج٢٧، ص١٦٦؛ أنوار الولاية (للكلبايكاني): ص١٣٣.

٣ – الكافي: ج٢، كتاب الإيمان والكفر: باب ٢٠١، ص٣٥٠، ح١٤٩٨.

ومنها: النبوي الشريف: «لو أن عبداً أتى بعمل سبعين نبياً لم يقبل الله منه إلاّ بولايته وولاية أهل بيته عليهم السلام»[١].

ومنها: «لو أن عبداً عبد الله حتى ينقطع وصار كالشن البالي وكان منكراً لولاية أهل البيت لا يدخله الله الجنة، ولا يظله بظل عرشه»[٢] وفي رواية أخرى: «أكبه الله في النار»[٣] وغيرها مما هو كثير جداً[٤]، وهذه الأحاديث تشترك في الدلالة على عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن معرفة الإمام عليه السلام وولايته من شروط الإيمان، فعدم المعرفة مساوق لعدم الإيمان، ولا صحة لعمل بلا إيمان.

الحقيقة الثانية: أن قوام الإيمان العملي هو المعرفة العملية، وهي ولاية الإمام ومطابقة المعرفة والعمل بدلالته لا بدلالة غيره.

فمجرد المعرفة من دون ولاية لا يكفي في صدق الإيمان، والولاية -بالكسر - الإمارة والأولوية بالحكم وتدبير الأمر، وبالفتح المحبة والنصرة، وكلاهما ينطبقان هنا بالدلالة التضمنية أو التلازمية؛ لوضوح أن لازم الاعتقاد بأولوية الإمام بالحكم وتدبير الأمر هو طاعته والرجوع إليه في العلم والعمل، ومثله يقال في المحبة؛ إذ لا معنى للمحبة من دون أن تنعكس على الطاعة والاتباع.

١ - بحار الأنوار: ج٢٧، ص١٩٢، ح٤٩.
٢ - بحار الأنوار: ج٢٧، ص١٦٩، ذيل ح٨.
٣ - بحار الأنوار: ج٢٧، ص١٦٧، ح٣.
٤ - الدروس: ج١، ص٤٩٨- ٤٩٩.

الحقيقة الثالثة: أن ولاية الإمامعليه السلام فيها جهتان هما التولي والتبرّي، والمؤمن هو الذي يلتزم بالجهتين معاً، فيوالي الإمام ويستدل به، ويتبرأ من مخالفيه وخصومه؛ إذ لا يعقل أن تجتمع ولاية الإمام وولاية أعدائه في قلب واحد؛ والقول باجتماعهما ملازم للكفر أو النفاق.

الحقيقة الرابعة: أن العلاقة بين الولاية والإنكار علاقة الضدين اللذين لا ثالث لهما، فلا يوجد حد وسط بين ولاية الإمام والإنكار، أو ولاية الإمام وغير الإمام معاً، كما لا يوجد حد وسط بين الإيمان والكفر، والنفاق بحسب الواقع ملحق بالكفر؛ لأنه مساوق للإنكار، وعلى هذا فإن الإيمان يتقوم بتولي الإمام واتباعه والتخلف عن ذلك مساوق للإنكار.

الحقيقة الخامسة: أن الأعمال التي يأتي بها غير الموالين للإمامعليه السلام ليس لا تحسب لهم حسنات فقط ، بل تحسب لهم مساوئ وسيئات، والسبب في ذلك يعود لأمرين:

أحدهما: انقلاب حقيقة العمل، وذلك لأن العمل الذي لا يستند إلى ولاية الإمام يتضمن التشريع والابتداع في الدين؛ لأن العامل عبد الله سبحانه بطريق لم يشرعه له، بل نهاه عنه، والابتداع في الدين تمرد على الله سبحانه، وعمل بالرأي في الدين وهو من أعظم المعاصي.

ثانيهما: فقدان الشرط، فإن شرط صحة العمل هو أن يكون مستنداً إلى الإمام وولايته، فإذ جاء العبد بالعمل من دون شرطه وقع باطلاً؛ لأن المشروط عدم عند عدم شرطه، ولازم بطلان العمل هو عدم براءة الذمة من التكاليف الإلهية، وهو مساوق للعصيان واستحقاق العقوبة، ولذا يكبه الله

سبحانه في النار، وهذا المعنى يتضامن مع مضامين الروايات الكثيرة الواردة بطرق الفريقين التي نصت على أن الذي يموت ولا يعرف إمام زمانه يموت ميتة جاهلية[١]، أي يموت غير مؤمن، والروايات الأخرى التي نصت على أن الإسلام بني على خمسة أركان هي: الصلاة والزكاة والصوم والحج وولاية آل محمد عليهم السلام، وإنها أفضلها؛ لأنها مفتاحهن[٢].

ووجه كونها مفتاحهن يعود لأسباب:

أحدها: لأن الولاية والاعتقاد بإمامة الأئمة والإذعان لها من جملة أصول الدين، بينما الصلاة والصيام ونحوها من فروعه، والاعتقاد بأصول الدين هو مفتاح العمل بفروع الدين.

ثانيها: لأن الاعتقاد بالإمام وموالاته يستدعي الاقتداء والتبعية له في العلم والعمل، ولازم ذلك هو أخذ العبادات المذكورة بأحكامها وأجزائها وشرائطها منه، فتكون معرفة الولاية مفتاحاً لمعرفتها، وهذا ما يشير إليه قوله عليه السلام في صحيحة زرارة في وصف الموالي: «ويكون جميع أعماله بدلالته إليه»[٣].

ثالثها: لأن الاعتقاد بالولاية شرط قبول العمل، فتكون مفتاحها من جهة أن الغاية القصوى للأعمال لاسيما العبادية هي القبول عند الله سبحانه لا صحتها؛ لوضوح أن صحة العمل أعم من قبوله، وفيه وردت صحيحة

١ - انظر بحار الأنوار: ج٢٧، باب٧، ص٢٠١، ح٦٨.
٢ - انظر الكافي: ج٢، ص١٨، ح٥.
٣ - الكافي: ج٢، ص١٩، ح٥.

إسماعيل الجعفي قال: دخل رجل على أبي جعفر عليه السلام يسأل عن الدين الذي يقبل فيه العمل، فقال: رحمك الله هذا الذي أريد، فقال أبو جعفر عليه السلام: «شهادة أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأن محمداً صلى الله عليه وآله عبده ورسوله، وتقر بما جاء من عند الله، والولاية لنا أهل البيت، والبراءة من عدونا، والتسليم لأمرنا»[1].

ويتحصل من ذلك: أن معرفة الإمام عليه السلام واجبة عقلاً وشرعاً على كل مسلم، وهذا الوجوب نفسي عيني تعييني؛ لأنه قوام الإيمان وشرط قبول العمل، كما أن صدق المعرفة يتقوم بعنصرين هما: التولي والتبري، فلا يكفي في صدقها أحدهما. هذا وقد مر عليك في مباحث معرفة الله عبر معرفة الإمام مراتب المعرفة وكيفية الوصول إليها ومراتب العارفين، وعرفت أن معرفة الإمام لها مراتب:

أولها: معرفة الإمام عليه السلام بشخصه ونسبه بما يدفع الاشتراك أو الاشتباه بغيره.

وثانيها: معرفته أنه إمام مفترض الطاعة.

وثالثها: معرفته بمقاماته الإلهية تكويناً وتشريعاً.

---

١ - الكافي: ج٢ ص٢٢- ٢٣، ح١٣.

المطلب الثاني: في وجوب المحبة (المودة)

يجب على كل مسلم بل وغير مسلم أن يحب محمداً وآل محمد عليهم السلام محبة خاصة، كما يجب أن يدين الله سبحانه بهذا الحب، ومنشأ هذا الوجوب العقل والشرع؛ إذ تضافرت الشرائع والأديان السماوية على ذلك، وقد حاز جميع الأنبياء مراتبهم المعنوية، ونالوا فضل القرب منه سبحانه بمعرفتهم ومحبتهم، وبذلك أوصوا أممهم والتابعين لهم، وهذه من الحقائق التي لا يختلف عليها أحد، وهو ما تضافرت به الأخبار[1].

والمراد من المحبة الخاصة العلقة القلبية مع الاتباع والتسليم لا مجرد الحب، وهو ما عبر عنه بالمودة والولاية بلحاظين مختلفين، وفيها ورد في حديث شرائع الدين عن الصادق عليه السلام: «حب أولياء الله والولاية لهم واجبة، والبراءة من أعدائهم واجبة، ومن الذين ظلموا آل محمد صلى الله عليه وآله وهتكوا حجابه»[2]

وقد اتفقت كلمة المسلمين طراً على أن محبتهم عليهم السلام فرض، بل من ضروريات الدين عدا فئة قليلة من النواصب من أتباع بني أمية، فإنهم

---

١ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص٢٧٣، تفسير الآية١٣ من سورة الشورى؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص٣٩١، ح٤٦.

٢ - الخصال: ص٦٠٧، ح٩، بحار الأنوار: ج١٠، ص٢٢٦، ح١.

ناصبوا العداء لآل محمد، وأعلنوا سبهم وشتمهم، وقتلوا أتباعهم ومن يهتدي بهديهم، ولهم في هذه الأزمنة المتأخرة أتباع قليلون لا شأن لهم في علم أو دين صحيح، ويمكن أن يصنفوا في عدائهم لأهل البيت عليهم السلام على فئات:

فئة جاهلة أطفأت نور العقل بخرافات وأوهام، وأوقعها فيها بعض دعاة الأموية وأنصارهم من أمثال ابن تيمية ومن سايره في فكره الناصبي الصريح.

وفئة عالمة وجدت أن طريق الحكم والسلطة يتقوم بهذه الدعوى، فأصرت على تكفير المسلمين طراً ولاسيما أتباع أهل البيت عليهم السلام؛ لأجل التفرد والاستبداد بالأمور، لاسيما وأنهم استحكموا في قبلة المسلمين ومهوى قلوبهم.

وفئة ثالثة تعمل على تنفيذ مشروع معاد يهدف إلى تحطيم الإسلام وإبادة أهله، كما أكد هذه الحقيقة الكثير من المؤرخين والمحللين الذين درسوا هذه الظاهرة في منشأها ورجالها وأسباب ولادتها، ويكفينا في رد مزاعم هذه الفرقة الضالة ومواقفها العدائية لآل محمد عليهم السلام وأتباعهم أمران:

أحدهما: أقوال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المتواترة الدالة على أن بغض آل محمد عليهم السلام من علائم النفاق، وأن حبهم من علائم الإيمان، وأن ولايتهم عليهم السلام من علائم قبول الأعمال، وإنكارهم من علائم بطلان العمل، وقد عرفت الكثير عن ذلك مما تقدم.

وثانيهما: اتفاق جميع المسلمين على ضلالتهم وخروجهم عن المنهج الإسلامي وسيرة النبي المصطفى وعترته عليهم السلام والصحابة الأبرار في معتقداتهم ومواقفهم؛ إذ لا يختلف أهل القبلة على وجوب محبة آل الرسول واتباعهم

والاقتداء بهم في القول والعمل، بل لا يختلف على ذلك جميع الخلق من أهل العقل والدين والشعور الإنساني النبيل؛ لأنه مما يقضي به العقل السليم من ناحيتين:

الناحية الأولى: حب الكمال والكامل، فإن كل إنسان سوي القلب والعقل يميل إلى الكمال، ويحب الكامل، وينفر من النقص، ويتنزه منه بغض النظر عن معتقد الكامل والناقص، أو جهة الكمال والنقص، وعلى هذا الأساس يحب الناس أصحاب الكفاءات والخبرات والعلماء والمتخصصين في كل علم وفن، ويسعون للاقتداء بهم والتعلم منهم، وهذه الحقيقة من حيث الكبرى من الثوابت في الطبيعة البشرية والفطرة الإنسانية، ولا يختلف عليها اثنان.

وأما من حيث الصغرى فقد اتفق جميع أهل المذاهب والأديان على أن محمداً وآل محمد عليهم السلام أشرف البشر، وأسماهم علماً وأخلاقاً، وأكملهم نفوساً وعقولاً، ولذا تتفق على وجوب محبتهم والاقتداء بهم كما تتفق على قبح بغضهم والتنكر لهم.

الناحية الثانية: شكر المنعم وتثمين أصحاب الإنجازات الإنسانية الكبيرة، وهذه أيضاً من الحقائق المتفق عليها بين جميع البشر، فإن كل صاحب إنجاز يخدم الإنسانية يثمنه الجميع، ويحبه، ويشيد بإنجازه، ويعتز بجهوده، ويقتدي به بغض النظر عن دينه ومعتقده. يلحظ هذا في احترام العالم للأدباء والشعراء والعلماء والقادة والفنانين ونحوهم، ويقدم لهم الهدايا ويبني لهم الصروح التي تخلدهم وتشيد بإنجازاتهم؛ لأنهم كانوا للإنسانية، وقدموا للإنسان الشيء الكثير.

وهذه الكبرى تنطبق على محمد وآل محمد عليهم السلام بأصدق وأتم مما تنطبق على غيرهم؛ لأنهم معادن العلم وأئمة التقوى والصلاح، والأسرة التي علمت الناس مختلف العلوم والمعارف الإنسانية والإلهية، وبدلت حياة البداوة إلى حضارة، ونقلت أميّة الجاهلية إلى علم ومعرفة، وصيرت من الحكم والسلطة وسيلة للخدمة، ومن القوة طريقاً للبناء والإصلاح، وصنعت من السيف والحرب أقلاماً ومدارس ومعاهد تربي وتعلم وتهذب.

هكذا صنع آباء هذه الأسرة، وهكذا عمل أبناؤها، وسيعمل بذلك آخر أبنائها الحجة المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، ويكفي هذه الأسرة المباركة إنجازاً أنها جاءت للإنسانية برسالة خالدة هي الإسلام بكتاب سماوي فيه تعليم وشفاء للناس وهدى ورحمة؛ إذ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[1] وهذا إنجاز ما فوقه إنجاز، وخدمة لا تفوقها خدمة؛ إذ لا يمكن أن تفوق خدمة إصلاح الإنسان وتربيته خدمة مهما بلغت وعظمت؛ لأن الإنسان هو أكمل مخلوق وأشرف موجود، وكل ما في الوجود من مخلوقات وعلوم وفنون وإنجازات هي في خدمته ولأجله.

وعلى هذا الأساس اتفق جميع أهل الأديان والملل على محبة محمد وآله عليهم السلام، وأشادت بهم وبمواقفهم الإنسانية النبيلة التي لا تنتهي في يوم ما حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وقد كتب الكثير من المسلمين بل وغير المسلمين عن مكانتهم وسمو قدرهم في الوجود الإنساني، وقرت بفضلهم وبحبهم وكرامتهم تقديراً لجهودهم، وتثميناً لعلو شأنهم.

---

١ - سورة الأنبياء: الآية١٠٧.

وهذه الحقيقة مما نادى بها جميع الأنبياء، ودعوا أممهم إلى الإيمان بها، وأوصوا بالتسليم لهم والاقتداء بهم، وأنهم كانوا يتشفعون بهم، ويتقربون إلى الله بذكرهم وبمحبتهم كما دلت على ذلك متواتر الأخبار[١].

وأما المسلمون فقد اتفقت كلمتهم على وجوب محبة آل محمد؛ لأن الله سبحانه نص عليه في آيات عديدة في القرآن، وأكده النبي المصطفى صلى الله عليه وآله في أحاديث متواترة، وهو ما يقضي به العقل والضرورة من الدين أيضاً بما يغني عن مزيد البيان، إلاّ أننا سنكتفي هنا ومن باب إزالة الغموض عن بعض ذلك بالوقوف عند آية واحدة وهي آية المودة؛ إذ قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٢] وقد اتفق المسلمون على أنها نزلت في عترة النبي حينما جاء المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن انتشر الإسلام واستحكمت دولته يطلبون أن يكافئوه على عمله، فعرضوا له أن يأخذ من أموالهم جزاء له، فنزلت الآية المباركة تنص على أن أجر النبي صلى الله عليه وآله ومجازاته ليست بالأموال ولا بالأنفس، بل بمودة عترته وأهل بيته عليهم السلام، فخرجوا من عنده وبعضهم يقول: عرضنا عليه أموالنا فقال: قاتلوا عن أهل بيتي من بعدي، وأمرهم بمودتهم ومحبتهم، فسلم بذلك جماعة، وجحد آخرون[٣].

وفي رواية أخرى قال رسول الله عليه السلام بعد أن أمرهم بذلك: «من حبس

---

١ - انظر الاحتجاج: ج١، ص١٠٦ وما بعدها، محاججة(٢٨)؛ و(٢٩)؛ و(٣٢)؛ ج٢، ص٤٠١، محاججة(٣٠٧)؛ و(٣٠٨).

٢ - سورة الشورى: الآية٢٣.

٣ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص٢٧٥؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٣، ح١؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص٤٠٢، ح٨٢، ح٨٣.

أجيراً أجره فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً وهو محبة آل محمد»[١] وقريب من هذا رواه الزمخشري في تفسيره[٢]، وفي رواية أخرى أنه ﷺ كان يطوف على مجالس الأنصار بعد ذلك ويقول لهم: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان ... ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنّة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة»[٣].

وروى البيضاوي والزمخشري أن آل محمد هم علي وفاطمة وابناهما[٤]، وقريب منه رواه الرازي في تفسيره وقال: ثبت أن هؤلاء الأربعة - أي علي وفاطمة وابناهما عليهم السلام أقارب النبي، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم، ويدل عليه وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

الثاني: لا شك أن النبي ﷺ كان يحب فاطمة عليها السلام. قال ﷺ: «فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها» وثبت بالنقل المتواتر عنه ﷺ أنه كان يحب

١ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص٢٧٥؛ مجمع البيان: ج٢٩، ص٢٩ تفسير الآية المزبورة.
٢ - انظر تفسير الكشاف: ج٤، ص٢١٥.
٣ - تفسير الكشاف: ج٤، ص٢١٣-٢١٤؛ كشف الغمة: ج١، ص١٠٤- ١٠٥.
٤ - تفسير البيضاوي: ج٢، ص٣٦٢؛ تفسير الكشاف: ج٤، ص٢١٣.

علياً والحسن والحسين، وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله؛ لقوله: «واتبعوه لعلكم تهتدون» وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾[١] ولقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٣].

الثالث: أن الدعاء للآل أمر عظيم؛ ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة، وهو قوله: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمداً وآل محمد» وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل، فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب، وقال الشافعي:

يا راكباً قف بالمحصب من منى ... واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضاً كما نظم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حب آل محمد ... فليشهد الثقلان إني رافضي[٤]

ومثل هذا رواه ابن كثير في تفسيره[٥]، وقال الآلوسي: إن الخطاب في الآية لجميع الأمة، فإنهم كلهم مكلفون بمودة أهل البيت، فقد أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أذكركم الله تعالى في أهل بيتي» وأخرج الترمذي وحسنه والطبراني والحاكم والبيهقي في

١ – سورة النور: الآية٦٣.
٢ – سورة آل عمران: الآية٣١.
٣ – سورة الأحزاب: الآية٢١.
٤ – تفسير الرازي: ج٢٧، ص١٦٦(بتصرف)؛ وانظر تفسير القرطبي: ج٨، ص٣٤٣-٣٤٤.
٥ – تفسير ابن كثير: ج٤، ص١٠١؛ انظر مزيداً من التفصيل عن ذلك في إحقاق الحق: ج٣، ص٦-١٨.

(الشعب) عن ابن عباس قال: قالﷺ: «أحبوا الله تعالى لما يغذوكم به من نعمة، وأحبوني لحب الله تعالى، وأحبوا أهل بيتي لحبي» وأخرج ابن حبّان والحاكم وعن أبي سعيد قال: قال رسول اللهﷺ: «والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلاّ أدخله الله تعالى النار» إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة من الأخبار[١]، ثم قال: والحق وجوب محبة قرابتهﷺ من حيث إنهم قرابته ... وكلما كانت جهة القرابة أقوى كان طلب المودة أشد ... وآثار تلك المودة التعظيم والاحترام والقيام بأداء الحقوق أتم قيام[٢].

ثم يقول: قد تهاون كثير من الناس بذلك - أي المودة والتعظيم - حتى عدوا من الرفض السلوك في هاتيك المسالك، وأنا أقول قول الشافعي: يا راكباً قف بالمحصب من منى إلى آخر الأبيات المتقدمة، والروايات الواردة بطرق الجمهور في هذا المعنى كثيرة[٣]، وأما ما ورد من طرقنا فأكثر من أن يحصى[٤]، وكيف كان فإن الاستدلال بالآية المباركة يتم في أمرين:

الأمر الأول: بيان الكبرى وهو ما نصت عليه الصديقة الطاهرةعليها السلام؛ إذ نصت الآية على وجوب مودة القربى بصيغة كبرى كلية، واستفيد الوجوب من قرينتين:

الأولى: كون الآية جملة إنشائية واردة لبيان الحكم، وإطلاق الأمر فيها

١ - انظر روح المعاني: ج٢٥، ص٤٥،(بتصرف).
٢ - انظر روح المعاني: ج٢٥، ص٤٥،(بتصرف).
٣ - انظر المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٧٢؛ الصواعق المحرقة: ص١٠١؛ الدر المنثور: ج٦، ص٧؛ تفسير الأمثل: ج١٥، ص٣٧٥ وما بعدها.
٤ - انظر تفسير الميزان: ج٢٥، ص٤٧.

يستدعي حمل الوجوب على أنه نفسي عيني تعييني كما حقق في الأصول.

الثانية: القرينة الحالية؛ إذ إن القوم كانوا في مقام أداء شكر النعمة ومجازاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ما قدمه لهم من هداية وإصلاح وعزة واستحكام للعدل بدولة الإسلام، وشكر المنعم واجب بمقتضى حكم العقل والفطرة، ولكنهم بسبب قصور عقولهم تصوروا أن شكر هذه النعمة يتم بدفع الأموال ونحوها كما هو الحال في تعامل البشر حينما يسدي بعضهم لبعض خدمة، أو يقدم منفعة، إلاّ أن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم نفى أن يتقاضى أجراً على تبليغ الرسالة، وطلب أن يكون أجره معنوياً دينياً وهو مودة القربى.

والإثبات بعد النفي في قوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[1] يتضمن دلالتين:

الأولى: حصر الأجر بمودة القربى؛ لأن الإثبات بعد النفي من صيغ الحصر على ما حقق في الأصول والبلاغة، وعليه فكل أجر يمكن أن تقدمة الأمة لرسولها لا يمكن أن يكافئ هذا الأجر، بل ولا يقبل بدونها.

الثانية: أن المودة الواجبة للقربى ليست المحبة العادية التي يتبادلها الناس مع بعضهم، بل هي مودة خاصة تليق بمقام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبجهوده وجهاده في سبيل الإسلام والمسلمين، والمودة الخاصة ليست في المراتب الدانية من الحب؛ لوضوح أن الدين بني على الحب، والحياة البشرية قائمة على المحبة بين الناس باختلاف مراتبها؛ بداهة أن الحب هو الذي يحكم علاقة الآباء بالأبناء، وعلاقة الأزواج والعشيرة والأرحام والجيران، وسائر الروابط الإنسانية تقوم على

---

١ - سورة الشورى: الآية٢٣.

المحبة أولاً، ولولاها لم تقم حياة، ولا يحكم الناس نظام أو سنّة.

فلا يعقل أن يكون هذا المستوى من الحب هو المأمور به في الآية المباركة؛ لأنه من تحصيل الحاصل، أو الاستهانة بأجر الرسول ومقام الرسالة، فيكون مثله مثل الأب العظيم الذي قدم لأبنائه كل شيء ثم يطلب أجراً منهم أن يحبوه؛ إذ من الواضح أن الأبناء يحبون آباءهم بالفطرة، فحتى يتنزه كلام الحكيم من اللغوية ويقدر النبيﷺ وجهاده بما يليق به لابد وأن تحمل المودة على ما هو أسمى وأرقى من المحبة العادية، وهي: الدرجة العالية من الحب الذي يتضمن الانقياد والتسليم والطاعة للقربى، والتبري من أعدائهم ومحاربة من يحاربهم ويؤذيهم، وهذا ما ورد نصاً ومضموناً في بعض الروايات[١].

الأمر الثاني: بيان الصغرى، وهو الموضوع الذي تعلق به الحكم وهم القربى، فمهما تعددت الآراء والأقوال في تفسير القربى[٢] فإن القدر المتيقن منه الذي تشترك فيه جميع الأقوال هو أن المراد منها هو عترة النبيﷺ أي علي وفاطمة وابناهما، بل هو ما تواترت به الأخبار بطرق الفريقين، وهي في مجموعها تنفي أن يكون المراد من القربى غيرهم كما مر عليك بعضها، وورد الكثير منها في المصادر المختلفة[٣]، وعن غاية المرام أنه نقل سبعة عشر

١ - انظر عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج١، ص١٨٤، ح١؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص٤٠٠، ح٧٦؛ الكافي: ج١، ص٣٩١، ح٤.

٢ - انظر تفسير القرطبي: ج٨، ص٣٤٣.

٣ - انظر التفاصيل في فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج١، ص٣٠٦ وما بعدها؛ دلائل الصدق: ج٤، ص٣٨٣، وما بعدها؛ ينابيع المودة: ج١، ص٣١٥، ح١؛ الصواعق المحرقة: ص٢٥٨- ٢٥٩؛ المعجم الكبير (للطبراني): ج٣، ص٤٧، ح٢٦٤١؛ ج١١، ص٣٥١، ح١٤٤٥٩.

حديثاً من طرق الجمهور واثنين وعشرين حديثاً من طرقنا تصرح بذلك[١]، ونكتفي هنا بروايتين:

الأولى: ما روي في ذخائر العقبى عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ قالوا: يا رسول الله! من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: «علي وفاطمة وابناهما» وقال أخرجها أحمد في المناقب[٢]، وذكرها الهيثمي في المجمع. وقال رواها الطبراني أيضاً[٣]، كما ذكرها ابن حجر في الصواعق، وقال: أخرجها أحمد والطبراني وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس[٤]، وذكرها الشبلنجي في نور الأبصار[٥]، بل المضمون متواتر بطرق الجمهور[٦].

الثانية: ما رواه الكليني قدس سره في الكافي بسنده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في بيان اعتراض المنافقين على أمر الله ورسوله بمودة قربى رسول الله. قال: فقال المنافقون عند ذلك بعضهم لبعض: أما يكفي محمداً أن يكون قهرنا عشرين سنة حتى يريد أن يحمل أهل بيته على رقابنا؟ فقالوا: ما أنزل الله هذا وما هو إلاّ شيء يتقوله يريد أن يرفع أهل بيته على رقابنا، ولئن قتل محمد أو مات ننزعنها من أهل بيته ثم لا نعيدها فيهم أبداً[٧].

١ - غاية المرام: ٣٠٦- ٣١٠.
٢ - ذخائر العقبى: ص٢٥.
٣ - مجمع الزوائد: ج٧، ص١٠٣؛ ج٩، ص١٦٨.
٤ - الصواعق المحرقة: ص١٠١.
٥ - نور الأبصار: ص١٠١.
٦ - انظر نهج الحق: ص١٧٥، الهامش رقم(٣).
٧ - الكافي: ج٨، ص٣٧٩، ح٥٧٤؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٦، ص٤٠٣، ح٨٥.

وقريب من هذا رواه عن أبي عبد الله عليه السلام لكن ورد فيه: «قال المنافقون: ما انزل الله هذا على محمد، وما يريد إلاّ أن يرفع بضبع - العضد - ابن عمه ويحمل علينا أهل بيته. يقول أمس: من كنت مولاه فعلي مولاه، واليوم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[١]»[٢].

ونلاحظ أن عترة النبي صلى الله عليه وآله هم القربى، وكان معروفاً مسلّماً بين المؤالف والمخالف لا يختلف عليه اثنان حتى إن المنافقين تآمروا على نزع الخلافة منهم لا على إنكار القربى، ولو كان معنى القربى غير ذلك لم يكن وجه لكل هذا التآمر؛ إذ يكفيهم الإنكار، ويدل على اختصاص القربى بآل محمد عليهم السلام قرينتان:

الأولى: لفظ (القربى) فإنه على صيغة (فُعلى) وهي تفيد مزية وهي القربة القريبة لا مطلق القرابة، وعلى هذا يخرج بنو العباس وغيرهم عنها، وتختص الدلالة بعترة النبي صلى الله عليه وآله خاصة.

وهو ما تؤكده اللغة، ففي المصباح: القربى أو القرابة يستعملان في الرحم، بينما قربة وقربان يستعملان في المنزلة[٣]، وقريب منه ورد في المعجم[٤] والمفردات[٥] ولسان العرب[٦]، وفي المجمع ما ظاهره أنه مصطلح

---

١ - سورة الشورى: الآية٢٣.
٢ - الكافي: ج١، ص٢٩٥- ٢٩٦، ح٣.
٣ - المصباح المنير: ص٤٩٥ (قرب)، وانظر معجم الفروق اللغوية: ص٤٢٥، (١٧١١).
٤ - معجم مقاييس اللغة: ص٨٥٣- ٨٥٤، (قرب).
٥ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٦٤، (قرب).
٦ - لسان العرب: ج١، ص٦٦٥، (قرب).

خاص بآل بيت رسول الله[١] صلى الله عليه وآله، وبهذا يتضح وجه الخلل في قول من فسر القربى هنا بالتقرب.

والثانية: اتفاق كلمة المفسرين وتواتر الأخبار على أن المراد من الحسنة في قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾[٢] السابق على آية المودة هي المودة لآل محمد لا غير[٣]، وقد ذكر بعض المعاندين توجيهات للآية لإخراجها عن دلالتها على اختصاص المودة بآل محمد عليهم السلام، إلاّ أنها لا تستند إلى ظهور ولا دليل من عقل أو نقل[٤].

وفي رواية جابر عن أبي جعفر عليه السلام في معنى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ قال: «من تولى الأوصياء من آل محمد واتبع آثارهم فذلك يزيده ولاية من مضى من النبيين والمؤمنين الأولين حتى تصل ولايتهم إلى آدم»[٥].

وفي صحيحة محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ قال: «الاقتراف التسليم لنا والصدق علينا وإلاّ يكذب علينا»[٦].

---

١ - انظر مجمع البحرين: ج٢، ص١٤٠، (قرب).

٢ - سورة الشورى: الآية٢٣.

٣ - انظر تفسير الطبري: ج٢٥، ص٢٥، الصواعق المحرقة: ص١٧٠؛ الدر المنثور: ج٦، ص٧؛ تفسير القرطبي: ج٨، ص٣٤٤؛ روح المعاني: ج٢٥، ص٤٧؛ وانظر تفسير الميزان: ج١٨، ص٤٥.

٤ - انظر ذلك في تفسير الأمثل: ج١٥، ص٣٧٩، وما بعدها؛ وانظر الفوائد البهية: ج٢، ص١٥٥ - ١٥٩.

٥ - روضة الكافي: ج٨، ص٣٧٩، ح٥٧٤.

٦ - الكافي: ج١، ص٣٩١، ح٤.

وتتفرع على دلالة الآية المباركة حقائق عديدة:

الحقيقة الأولى: أن الآية حيث خصصت المودة بالذكر ولم تذكر ما يرادفها كالمحبة فلابد وأن تكون للمودة خصوصيات ومزايا تفوق المحبة وتتناسب مع أجر الرسالة وشكر الرسول.

ويمكن تلخيص هذه المزايا الخاصة في خمس:

المزية الأولى: أن المودة أعمق من المحبة في الشعور الإنساني؛ لأنها تعني صفو المحبة وخالصها ولبها[١]، بينما المحبة ميل النفس إلى المحبوب، والرغبة به[٢]، وهي على هذا المعنى تكون أعم مطلقاً من المودة، ومن هنا تتسم بصفتين هما: الصدق والإخلاص في المحبة.

وبهذا يتضح أن المودة هي الحب الصادق البعيد عن الكذب والخداع، وهذا المعنى يناسب مدلول الآية المباركة؛ لوضوح أن مطلوب الله ورسولهصلى الله عليه وآله وسلم أن يود الناس القربى مودة خالصة خالية من خداع المنافقين الذين يظهرون الحب، ويبطنون العداء وكذب غيرهم الذين يشركون حب القربى بحب خصومهم وأعدائهم.

فالآية على هذا المعنى تكون قد تضمنت الإشارة إلى أن حب القربى يتقوم بأمرين لا ثالث لهما، وهما التولي لآل محمدعليهم السلام والتبري من أعدائهم، فلا يصح التشريك في المودة، كما لا يصح الكذب والخداع فيها.

١ – انظر بصائر ذوي التمييز: ج٢، ص٤٢١، بصيرة(٢).

٢ – انظر المعجم الوسيط: ج١، ص١٥١، (حبّ)؛ فيض القدير: ج١، ص٢١٧؛ تفسير كنز الدقائق: ج٢، ص٥٥.

وإلى هذا المعنى تشير الأخبار الكثيرة عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم التي تنص على : «أنه كذب من زعم أنه يحبني ويبغض علياً»[١] وفي بعضها: «أن محُبي محب علي، ومبغضي مبغض علي»[٢] وهذا المعنى كان معهوداً بين الصحابة، فكانوا يميزون المؤمن عن المنافق بحب علي وبغضه؛ إذ لا يمكن أن يجتمع حب الله سبحانه وحب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من دون حب علي عليه السلام وولايته، ومثل ذلك يقال في محبة الصديقة الطاهرة وسائر الأئمة الطاهرين عليهم السلام [٣].

ومن هذا ما ورد في وصية جابر بن عبد الله الأنصاري لعطية العوفي: أحب محب آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما أحبهم، وأبغض مبغض آل محمد ما أبغضهم وإن كان صواماً قواماً، وأرفق بمحب آل محمد فإنه أن تزل قدم بكثرة ذنوبهم ثبتت لهم أخرى بمحبتهم، فإن محبهم يعود إلى الجنة، ومبغضهم يعود إلى النار[٤].

المزية الثانية: أن المودة تتعلق بذوات الأشخاص بخلاف المحبة فإنها تشمل كل شيء؛ إذ يقال لمن يرغب في الطعام إنه يحبه ولا يقال يوده، كما يقال لمن يطمع إلى السلطة بأنه يحب السلطة ولا يقال يودها؛ لأن المودة تختص بالأشخاص من حيث ذواتهم، ولذا لا يقال (أود الله) بينما يقال (أحبه) لاستحالة الوصول إلى ذاته سبحانه، وهذا المعنى تعضده الصيغة الظرفية في الآية حيث قال: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ ولم ترد بصيغة الإضافة،

١ - بحار الأنوار: ج٣٩، ص٢٦١، ح٣٣.
٢ - بحار الأنوار: ج٣٩، ص٢٦٦، ح٤٠.
٣ - انظر أنوار الولاية: ص١٨٩.
٤ - انظر بحار الأنوار: ج٦٨، ص١٣١، ح٦٢.

وذلك لأن الظرفية تفيد حصر المودة بالقربى في ذواتهم، كما تفيد أن أهل مودتهم يتحابون فيما بينهم على أساس مودتهم وموالاتهم بخلاف الإضافة فإنها لا تفيد الحصر، وعلى هذا الأساس تصبح المودة للعترة الطاهرة منهج حياة المؤمن الذي كمل إيمانه، وذلك بأن يجعل مودة القربى هدفاً وميزاناً على أساسه يحب ويبغض ويقتدي ويتبرأ.

ويستخلص من كل ذلك دلالتان:

الأولى: أن مودة القربى تتحقق بمحبة أشخاص معينين من القربى، قد عرفهم النبي لأمته، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين والتسعة الطيبة من ذرية الحسين عليهم السلام على ما عرفته من الروايات المتقدمة، وهذه الدلالة يعضدها ورود المودة بصيغة مصدر ميمي بمعنى اسم فاعل، فيكون المعنى أن أجر الرسالة هو أن تودوا القربى في ذواتهم وتودوا الناس فيهم.

الثانية: أن مودة القربى موضوعية لا طريقية، أي إنها واجب نفسي ومطلوب لذاته، فيكون حكمها حكم محبة الله والرسول، وهذه الدلالة تتطابق مع الروايات الكثيرة التي نصت على أن التولي لآل الله ومحبتهم في نفسها من العناوين الواجبة، وأنها توجب دخول الجنة وقبول الأعمال.

وأما الالتزام بالطاعة في العبادات ونحوها فيزيد من درجات العبد، ويشير إلى هذه الحقيقة حديث النبي صلى الله عليه وآله: «يا علي! والذي بعثني بالنبوة واصطفاني على جميع البرية لو أن عبداً عبد الله ألف عام ما قبل ذلك منه إلاّ بولايتك وولاية الأئمة من ولدك، وأن ولايتك لا تقبل إلا بالبراءة من

أعدائك وأعداء الأئمة من ولدك. بذلك أخبرني جبرائيل، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»[١].

المزية الثالثة: أن المودة في معناها اللغوي والشعوري والعرفي مجردة عن الشهوة واللذات المادية، بخلاف المحبة فإنها غالباً ما تكون كذلك، ومن هنا عرفت المحبة بعض كتب اللغة بأنها: ميل الطبع إلى الشيء اللاذ[٢] واللذة تختص بالشهوة المادية. يقال: فلان يحب اللحم أي يشتهيه، وتقول: أكلت طعاماً لا أحبه أي لا أشتهيه[٣]، وعلى هذا المعنى يظهر أن ذكر المودة في الآية يرجع إلى خصوصيتين:

الأولى: أن المودة علاقة إنسانية رفيعة لا تخضع للمصالح المادية ولا للميول والرغبات الشهوانية، بل هي علاقة محبة مبنية على كمال المحبوب والاعتقاد به.

الثانية: أن مودة القربى واجبة على الجميع من أصحاب الدين وأصحاب الدنيا، والالتزام بها واجب وإن تعرض أهلها إلى الأذى، وتضررت مصالحهم وشهوات نفوسهم، فالآية بهذا المعنى تدعو إلى الصمود والاستقامة في الولاية للقربى، وعدم جواز التراجع عنها وإن كانت على خلاف رغبة النفوس القاصرة والشهوات الرخيصة.

المزية الرابعة: أن المودة عبارة عن إظهار الحب وإبرازه. يقال: ودّه أي

---

١ - بحار الأنوار: ج٢٧، ص٦٣، ح٢٢.

٢ - المنجد: ص١١٣،(حب).

٣ - معجم الفروق اللغوية: ص٤٨٥، (١٩٥٣).

أظهر المحبة له[١]، بخلاف المحبة فإنها تكمن في القلب والمشاعر، والودود من أسماء الله تعالى؛ لأنه بمعنى اسم الفاعل يظهر أثر حبه على العبد بالرحمة والرزق والعلم وغيرها من الألطاف الإلهية حسب قاعدة خذ الغايات واترك المبادئ، وقد ورد في الحديث القدسي أنه قال لموسى: «أنا لا أغفل عن الصغير لصغره، ولا عن الكبير لكبره وأنا الودود الشكور»[٢].

وبمعنى اسم المفعول لأن حبه يظهر على جوارحهم، وجوانحهم وقد وقع استعمال المودة بهذا المعنى كثيراً في القرآن

كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[٥] وهي في الآية الأولى تدل على أن الحياة الزوجية تتقوم بالمشاعر الصادقة الظاهرة على جوارح الزوجين، وفي الآية الثانية تدل على أنه سبحانه يظهر أثر حبه على المؤمنين من خلال توفيقهم للطاعة وحسن المعاملة وطيب الأخلاق.

وفي الثالثة تدل على أن المجتمع المؤمن تظهر فيه صفات الإيمان في أسلوبه ومظاهره والتبري من صفات الكفر والعناد؛ إذ لا تجتمع موالاة الكفار مع

١ – انظر تاج العروس: ص٥٣١ (ودّ)؛ وانظر معجم الفروق اللغوية: ص٣١١، (١٢٥٠).
٢ – انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٦٠، (ودد).
٣ – سورة الروم: الآية٢١.
٤ – سورة مريم: الآية٩٦.
٥ – سورة المجادلة: الآية٢٢.

الإيمان[١]، وعلى هذا يظهر أن الآية تدل على أمرين:

الأول: أن الواجب على الأمة أن تظهر أثر الحب على جوارحها وجوانحها، ويتجلى هذا في مظاهر.

منها: التولي لهم والتبري من أعدائهم.

ومنها: حصر مرجعية العلم والدين بهم.

ومنها: حصر الحكومة والخلافة بهم.

ومنها: الطاعة لهم والتسليم لأمرهم في جميع الشؤون.

الثاني: أن اكتفاء بعض المسلمين بمحبة القربى دون مودتهم - حيث أخذوا العلم من غيرهم، وقالوا بإمامته، ولم يتبرؤوا من أعدائهم، ولم يقتدوا بهم في قول أو عمل - يتنافى مع مدلول الآية المباركة.

المزية الخامسة: أن المودة محبة الشيء وتمني كونه، بل التمني يتضمن معنى الود؛ لأن التمني هو تشهي حصول ما توده[٢]، وفيه ورد قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾[٤] وقوله سبحانه: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾[٥] وهذا المعنى يسبق الحب؛ لأن المحبة هي الوقوع

١ - انظر مجمع البيان: ج٩، ص٤٢٢، تفسير الآية المزبورة.
٢ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٦٠، (ودد).
٣ - سورة الأنفال: الآية٧.
٤ - سورة المعارج: الآية١١.
٥ - سورة آل عمران: الآية٦٩.

في الحب لاتمنيه، وعلى هذا يكون معنى الآية وجوب محبة القربى وتمني كونها، وعليه فهي تتضمن دلالتين هامتين:

الأولى: أنها توجب على الجاهل بهم أو غير المحب لهم وجوب الفحص والتعرف عليهم لأجل تحصيل مودتهم؛ لأن المأمور به في الآية هو تمني وجود المحبة.

وبهذا يظهر أن الكفار والمنافقين وغير الموالين من المسلمين مكلفون بذلك، والتخلف عن هذا الفرض ملازم لجحود الرسالة والرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهو تخلٍ عملي عن شروط الإيمان بالرسالة والتسليم للرسول، وفي هذا المضمون روى جابر بن عبد الله قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمد! أعرض عليّ الإسلام، فقال: «تشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله» فقال: تسألني عليه أجراً؟ قال: «لا إلاّ المودة في القربى» قال: قرباي أو قرباك؟ قال: «قرباي» قال: هات أبايعك، فعلى من لا يحبك ولا يحب قرباك لعنة الله، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «آمين»[1].

الثانية: أن المودة ليست من الأمور التي يصلها الإنسان بنفسه من دون توفيق من الله سبحانه يمنحه لبعض عباده إذا سلكوا الطرق المؤدية إليها، وبهذا يثبت في ذمة العباد فرض آخر تجاه القربى غير محبتهم، وهو وجوب النظر في المقدمات التي تقوي الإيمان بهم، وتزيد من الحب والعلاقة بهم؛ لأن النتائج غير الاختيارية تكون اختيارية، إذا كانت مقدماتها اختيارية فإن المقدور بالواسطة مقدور.

---

١ - انظر حلية الأولياء: ج٣، ص٢٠١؛ فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج١، ص٣٠٧.

إذ من الواضح أن مجرد تمني الشيء لا يقع في حيز التكليف ما لم يكن المراد منه العمل على حصوله بواسطة المقدمات الموصلة إليه، وهذا يتوافق مع ما أفاده الشيخ الطوسي قدس سره، حيث فرق بين المودة والمحبة في الدوام والاستمرار فقال: التمني يقع على الماضي والمستقبل، والمحبة لا تقع إلاّ على المستقبل[١]، وقريب منه ورد في مجمع البيان[٢]، وفي ينابيع المودة المودة مشتقة من الود، وهو الحب القوي الدائم الثابت[٣]، ولازم هذا المعنى أن وجوب المودة لا يختص بزمان أو حالة، بل هو واجب في جميع الحالات.

وتتحصل من هذه المزايا الخمس نتيجتان:

الأولى: أن مودة القربى أعمق من المحبة، ولذا جعلت جزاء وأجراً للرسول على تبليغ الرسالة.

والثانية: أن هذه المودة لا بد وأن تظهر على لسان المسلم وعمله، فلا يجزي الحب أو المسالمة معهم أو عدم بغضهم، فإن ذلك من ضروريات الإسلام، وظهور هذه الحقيقة على القول والعمل هو الذي يعطي للمسلم صفة الإيمان بالرسول والتسليم لأمره والإخلاص في حبه ومودته، وأبرز ملامح مودة القربى على القول والفعل تظهر في أمور:

الأول: التولي لهم والانقياد إليهم وإظهار الولاية لهم بتقديمهم في الإمامة والخلافة ومسالمة من سالمهم ومحاربة من حاربهم، وهذا المعنى يتضامن

---

١ - التبيان: ج٢، ص٣٤١.
٢ - مجمع البيان: ج٢، ص١٨٨.
٣ - ينابيع المودة: ج١، ص١٢٤.

مع الروايات الكثيرة عن النبي المصطفى ﷺ الدالة على أن حربهم حربه، وسلمهم سلمه، وأن إيذاء القربى هو إيذاء للنبي وإكرامهم إكرام للنبي ﷺ.

الثاني: الرجوع إليهم في العلم والمعرفة في أصول الدين وفروعه وسائر الآداب والسنن والأخذ منهم.

الثالث: الصبر على الأذى في محبتهم والتضحية بما تشتهيه النفس من المال والسلطة والحياة الوفيرة التي قد يوفرها الظالمون لهم من أجل الثبات على محبتهم ومودتهم، ومن الواضح أن هذه المظاهر إذا انعكست على سلوك الفرد اتسم بالإيمان الصادق، ولو ظهرت على حياة الأمة السياسية والاجتماعية لكانت أمة مسلمة تتصف بمزايا الإسلام وعزته وكرامته.

ولو كانت الأمة متفقة على هذا الوفاء والالتزام لما تعرضت إلى ما هي عليه من الفساد والظلم والجور المتراكم، وإلى هذا المعنى يشير الحديث المبارك: «لو اجتمعت أمتك على حب علي بن أبي طالب عليه السلام لما خلق الله النار»[1].

الحقيقة الثانية: أن المحبة والمودة من قبيل الفقير والمسكين إذا ذكر أحدهما دل على الآخر، وإذا ذكرا في جملة واحدة دل الفقير على المحتاج والمسكين على الأشد حاجة وفقراً، وهو الذي أسكنه الفقر، ولعل السر في جعل المودة في الآية أجراً للرسالة دون المحبة هي أنها تحقق غايات المحبة إذ لا معنى للمحبة دون ظهور على الجوارح في القول والعمل، وعليه فما ورد في منطوق الآيات والروايات من التعبير عن ذلك بالمحبة يراد به المودة، وإنما عبر عنها بالمحبة

١ - نوادر المعجزات: ص٧٥، ح٣٩.

لأنها معروفة ومتداولة على الألسن، فإن لفظ الحب أكثر استعمالاً في التعبير عن الميل والرغبة من المودة، ولعله أقرب إلى طبع النفس؛ لأنه لا يتضمن الكلفة والمشقة بإظهار أثره على الجوارح، والنفس ميالة إلى اللهو والراحة أكثر من المشقة والتعب، أو لأن المحبة أوفق بسماحة الدين لاستيعابها كل المحبين على اختلاف مراتبهم في المحبة، وأهدافها، وذلك لأن المحبة هي جوهر الحياة الإنسانية مادياً ومعنوياً، فلا قوام للحياة إلاّ بالمحبة؛ لأنها روح كل مقام ومنزلة وعمل، كما هي جوهر الدين وحكمة وجوده، وهذا ما تؤكده الروايات المباركة التي حصرت الدين بالحب كما ورد متضافراً عن الباقر والصادق[1] عليهما السلام في معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[2] وعلى هذا الأساس صار الحب ميزان الإعمال الصالحة والطالحة، وعنوان صحيفة المؤمن، ومنشأ صدقه وإخلاصه، وهذا كله يتجسد باتباع محمد وآل محمد عليهم السلام؛ إذ لا صدق في الحب من غير متابعة المحبوب والاقتداء به.

ففي الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل ورد فيه: «ومن سره أن يعلم أن الله يحبه فليعمل بطاعة الله وليتبعنا، ألم يسمع قول الله عز وجل لنبيه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ والله لا يطيع الله عبد أبداً إلاّ أدخل الله عليه في طاعته اتباعنا، ولا والله لا يتبعنا

١ - انظر الخصال: ج١، ص٢١، ح٧٤؛ تفسير العياشي: ج١، ص١٦٧، ح٢٥-٢٨ من تفسير سورة آل عمران.

٢ - سورة آل عمران: الآية٣١.

عبد أبداً إلاّ أحبه الله، ولا والله لا يدع أحد اتباعنا أبداً إلاّ أبغضنا، ولا والله لا يبغضنا أحد أبداً إلاّ عصى الله، ومن مات عاصياً لله أخزاه الله، وأكبه على وجهه في النار»[١].

وفي رواية حفص بن غياث عنه عليه السلام: «يا حفص ... من عرف حقنا وأحبنا فقد أحب الله تبارك وتعالى»[٢] ومن هذا يتضح أن للمحبة علامتين:

الأولى: الاتباع في الفكر والعمل، فلا يمكن أن يكون المؤمن محباً لآل محمد عليهم السلام وهو لا يتبعهم أو يتبع غيرهم.

والثانية: التضحية في سبيل المحبوب وتحمل الأذى لأجله، فإنه لو قدم الإنسان نفسه على محبوبه لكشف عن عدم الحب، أو عدم صدقه في الحب، أو عدم كمال الحب، وهو ما ورد في الأخبار الكثيرة أنه لا يؤمن العبد حتى يكون النبي أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين[٣].

ومن هنا أكد الباري عز وجل أن محبة الله ورسوله تتوقف على الجهاد وتقديم مصالح الدين على الأهل والعشيرة والتجارات والمساكن، فمن ادعى الحب ولم يضح بذلك فإن جزاءه الخسران والفسق عن المنهج القويم كما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ

١ - الكافي: ج٨، ص١٤، ح١؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج١، ص٣٩٠، ح٨٦.

٢ - الكافي: ج٨، ص١٢٨، ح٩٨؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج١، ص٣٩٠، ح٨٨.

٣ - انظر بحار الأنوار: ج٧٠، ص٢٤، ح٢٥؛ أنوار الولاية: ص١٨٠.

بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[١] وقد شرح أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة بقوله: «ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ما يزيدنا ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً ومضياً على اللقم، وصبراً على مضض الألم، وجداً في جهاد العدو» ثم يقول: «فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت، وأنزل علينا النصر»[٢] وفي هذا أدلة واضحة على أن الحب الصادق لآل محمد هو منشأ الفوز وعلو الدرجات والسعادة في الدارين.

الحقيقة الثالثة: أن المحبة من الحقائق المشككة التي لها مراتب، وتختلف بحسب درجات المعرفة والإيمان، وقد عرفوا المحبة بأنها ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه، بحيث يحملها على ما يقربها إليه[٣].

وعليه فإن المحبة هنا متقومة بالمعرفة والإدراك لكمال المحبوب، ومن هنا يشترط في وجودها تحقق مسانخة بين أهلها، ولذا تكون المحبة عند أهل الكمال داعية للاقتداء بالمحبوب والتشبه بصفاته وأخلاقه، وعند أهل النقص بالاقتداء بأهل الشر، وعلى هذا الأساس يحشر المرء مع من يحب، ولو أن المرء أحب حجراً حشر معه كما في الأخبار[٤]، وذلك لضرورة التسانخ والارتباط الذاتي بين المحب والمحبوب، وكلما ازدادت المعرفة زاد الحب، وقد فصل بعض أهل المعرفة في هذا بتفاصيل لا تهم البحث هنا[٥]، ونكتفي

---

١ – سورة التوبة: الآية ٢٤.

٢ – انظر نهج البلاغة: ج١، ص١٠٤– ١٠٥، الخطبة ٥٦.

٣ – انظر تفسير الصافي: ج١، ص٣٠٣؛ أنوار الولاية: ص١٥٦.

٤ – انظر تفسير نور الثقلين: ج١، ص٣٩١، ح٩٣.

٥ – انظر الأنوار النعمانية: ج٣، ص١٦٢ وما بعدها؛ أنوار الولاية: ص١٧٠ وما بعدها؛ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١٤٨١وما بعدها.

ببيان أهم المراتب وهي ثلاث:

الأولى: محبة الذات، ويراد بها محبة ذات المحبوب، وتتوقف على معرفة المحبوب ومزايا ذاته وخصوصياته الكمالية، وتعد المرتبة الأولى من مراتب المودة، وهي أول شروط الإيمان، وهو ما تؤكده الأحاديث المتواترة عن النبي المصطفى ﷺ وأهل بيته عليهم السلام: «أن حب علي قذف في قلوب المؤمنين فلا يحبه إلاّ مؤمن، ولا يبغضه إلاّ منافق»[1].

الثانية: محبة صفاته وأفعاله، وهي المرتبة الثانية للمودة، وهي من شرائط صدق الإيمان؛ لأنها تقود صاحبها إلى الاقتداء والاتباع للمحبوب، حتى يظهر أثر المحبوب على جوارح المحب.

الثالثة: محبة آثاره وما يرتبط به، وهي المرتبة الثالثة للمودة، وبها تتجلى مظاهر التولي والتبري على سلوك المحبين في الاقتراب من المحبوب وإشاعة فضائله وترويج ذكره وعلمه ومسالمة أحبائه ومحاربة أعدائه و والحضور عنده حياً وميتاً بزيارة قبره هي من شرائط الإيمان الخالص.

ولا يخفى أن هذه المراتب الثلاث قد يفكك العقل بينها لتغايرها المفهومي إلاّ أنها من حيث المصداق تجتمع في المحب والمحبوب، وعلى قدر معرفة الذات والصفات والآثار يزداد الحب والقرب معاً، وعلى هذا الأساس تتمايز درجات الأنبياء والأولياء في معرفة الله وحبه سبحانه، كما تتمايز درجات المؤمنين في معرفة الأنبياء، وتتمايز درجات الأتباع والموالين للأئمة عليهم السلام،

١ - المناقب (لابن شهر آشوب): ج٣، ص١٥٤؛ وانظر بحار الأنوار: ج٤٣، ص٢٨١، ح٤٨.

ومزايا هذه المراتب الثلاث تفسر وجوه الاختلاف في الروايات التي تحدثت عن صفات الشيعة، فإن كل واحدة منها ناظرة إلى مرتبة من مراتب المعرفة والمحبة.

ففي رواية العسكري عليه السلام قال: قدم جماعة فاستأذنوا على الرضا عليه السلام وقالوا: نحن من شيعة علي عليه السلام فمنعهم أياماً، ثم لما دخلوا قال لهم: «ويحكم إنما شيعة أمير المؤمنين عليه السلام الحسن والحسين وأبو ذر والمقداد وعمار ومحمد بن أبي بكر الذين لم يخالفوا شيئاً من أوامره» ثم قال لهم: «فأما أنتم إذ قلتم إنكم شيعته وأنتم في أكثر أعمالكم له مخالفون مقصرون في كثير من الفرائض، متهاونون بعظيم حقوق إخوانكم في الله ... فلو قلتم: إنكم مواليه ومحبوه، والموالون لأوليائه والمعادون لأعدائه لم أنكره من قولكم، ولكن هذه مرتبة شريفة ادعيتموها إن لم تصدقوا قولكم بفعلكم هلكتم إلاّ أن تتداركم رحمة من ربكم»[1] ووجه الفرق بين الشيعي والمحب هو أن الشيعي يتبع وينقاد لمن تشيّع له، فإن التشيّع في اللغة هي الاتبّاع في القول والعمل والشيعة الاتباع، وفيه ورد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾[2] أي من شيعة نوح إبراهيم، لأنه على منهاجه وسنته في التوحيد والعدل واتباع الحق[3]، بخلاف المحب فأنه قد يتبع وقد يخالف وقد فرق الإمام الحسين عليه السلام بين الشيعي والموالي لبعض الولاة بقوله: «إن شيعتنا هم الذين يتبعون آثارنا،

١ - بحار الأنوار: ج٦٥، ص١٥٨، ح١١.

٢ - سورة الصافات: الآية٨٣.

٣ - مجمع البحرين: ج٤، ص٣٥٦، (شيع)؛ وانظر المعجم الوسيط: ج١، ص٥٠٣، (شيع)؛ لسان العرب: ج٨، ص١٨٩، (شيع).

ويطيعونا في أوامرنا ونواهينا، فأولئك شيعتنا، فأما من خالفنا في كثير مما فرضه الله عليه فليسوا من شيعتنا»[١].

وورد هذا المضمون عن الصادق عليه السلام في رواية عمر بن حنظلة[٢] وعن أبي جعفر عليه السلام في رواية جابر[٣]، وقد فصل الإمام العسكري عليه السلام صفات الشيعة بقوله: «إنما شيعة علي عليه السلام هم الذين آمنوا بالله ووصفوه بصفاته، ونزهوه عن خلاف صفاته، وصدقوا محمداً في أقواله، وصوّبوه في كل أفعاله، ورأوا علياً بعده سيداً إماماً وقرماً هماماً لا يعدله من أمة محمد أحد، ولا كلهم إذا اجتمعوا في كفة يوزنون بوزنه، بل يرجح عليهم كما ترجح السماء والأرض على الذرة، وشيعة علي هم الذين لا يبالون في سبيل الله أوقع الموت عليهم أو وقوعوا على الموت، وشيعة علي عليه السلام هم الذين يؤثرون إخوانهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وهم الذين لا يراهم الله حيث نهاهم، ولا يفقدهم من حيث أمرهم»[٤] إلى آخر الحديث.

ويستفاد من مجموع هذه الروايات أن من أبرز صفات الشيعة أربع:

الأولى: التوحيد الخالص الذي ينزه الخالق عن التجسيم والتشبيه أو زيادة الصفات وعروضها على الذات الإلهية التي تنتهي إلى الحدوث وتعدد

---

١ – مجمع البحرين: ج٤، ص٣٥٦، (شيع)؛ وانظر المعجم الوسيط: ج١، ص٥٠٣، (شيع)؛ لسان العرب: ج٨، ص١٨٩، (شيع).

٢ – السرائر: ج٣، ص٦٣٩؛ وانظر بحار الأنوار: ج٦٨، ص١٦٤،ح١٣.

٣ – وانظر بحار الأنوار: ج٦٥، ص١٥٧، ح١١.

٤ – انظر تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٣١٩؛ بحار الأنوار: ج٦٥، ص١٦٣، ح١١.

القدماء، وهي نظريات قامت عليها معتقدات غير الشيعة، كما عرفت ذلك في مباحث التوحيد.

الثانية: الاعتقاد الصحيح بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنه معصوم بالوحي لا يدانيه خطأ أو نقص، والتسليم لأوامره، فلم يغيروا أو يبدلوا أو يجتهدوا في قبالها، وهذه من خصوصيات معتقد الشيعة، فإن غير الشيعة بعضهم ضيقوا من عصمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبعضهم أنكروها وقالوا إنه يهجر، وبعضهم خطأوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأقوالهم أو بأفعالهم، فخالفوا سنته في العقيدة والعمل، وفي مقابل ذلك عصموا الصحابة، ونزهوا أفعالهم وأقوالهم عن كل خطأ أو نقص، وأعطوهم مكانة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في التشريع وتأسيس الأحكام، كما تشهد بذلك سيرتهم ومواقفهم وإن لم يصرحوا بها بأقوالهم.

الثالثة: الاعتقاد بأن علياً أمير المؤمنين عليه السلام هو خليفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو الإمام الذي لا يدانيه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحد في المنزلة والشرف في الخلق والخلق والعلم ووجوب الاتباع.

الرابعة: أنهم يؤدون حقوق الله سبحانه فيأتون بالطاعات، ويجتنبون المعاصي، ويؤدون حقوق أخوانهم في المواساة، بل والإيثار، فهم يحبون في الله، ويبغضون في الله، ويضحون في سبيله بالأرواح والأنفس. وهذه هي صفات الشيعي، فلو اعتقد بالثلاثة الأول ولم يأت بالرابعة كان موالياً أو محباً وليس شيعياً.

وتؤكد الروايات وحقائق التأريخ أن هذه الحقيقة كانت معروفة منذ زمان الأئمة عليهم السلام، وكانوا على أساسها يتعاملون ويتفاخر بها أصحابهم عليهم السلام، فقد

روي أنه قيل للصادقعليه السلام: إن عماراً الدهني شهد عند ابن أبي ليلى قاضي الكوفة بشهادة فقال له القاضي: قم يا عمار فقد عرفناك لا تقبل شهادتك؛ لأنك رافضي فقام عمار وقد ارتعدت فرائصه، واستفرغه البكاء، فقال له ابن أبي ليلى: أنت رجل من أهل العلم والحديث إن كان يسوؤك أن يقال لك رافضي فتبرأ من الرفض فأنت من اخواننا، فقال له عمار: يا هذا ما ذهبت والله حيث ذهبت، ولكن بكيت عليك وعليَّ. أما بكائي على نفسي فإنك نسبتني إلى رتبة شريفة لست من أهلها، زعمت أني رافضي، ويحك لقد حدثني الصادقعليه السلام: أن أول من سمي الرفضة السحرة الذين لما شاهدوا آية موسى في عصاه آمنوا به، واتبعوه، ورفضوا أمر فرعون، واستسلموا لكل ما نزل بهم، فسماهم فرعون الرافضة لما رفضوا دينه، فالرافضي كل من رفض جميع ما كرهه الله تعالى، وفعل كل ما أمره الله، فأين في هذا الزمان مثل هذه؟ وإنما بكيت على نفسي خشيت أن يطلع الله عز وجل على قلبي وقد تلقبت هذا الاسم الشريف على نفسي فيعاتبني ربي عز وجل، ويقول: يا عمار! أكنت رافضاً للأباطيل عاملاً للطاعات كما قال لك؟ فيكون ذلك بي مقصراً في الدرجات إن سامحني، وموجباً لشديد العقاب علي إن ناقشني، إلاّ أن يتداركني مواليّ بشفاعتهم[1].

وقوله: (فيكون ذلك مقصراً في الدرجات) إلى آخر قوله يشير إلى القاعدة في مجازاة الذنب أو التقصير في العمل، فإنها تقوم على ثلاثة أركان:

الأول: أن الذنب المغفور يوجب نزول الدرجة المعنوية وإن كان يمحي

١ - نفسير العسكريعليه السلام: ص٣١٠- ٣١١، ح١٥٧؛ بحار الأنوار: ج٦٥، ص١٥٦- ١٥٧، ح١١.

العقوبة؛ بداهة أن عقوبة الذنب صنفان مادي وهو العذاب، ومعنوي وهو هبوط المكانة والمنزلة، كما أن الطاعة لها صنفان من الجزاء.

الثاني: أن ذنب العالم العارف أشد من ذنب الجاهل، فلذا تكون عقوبته أشد أيضاً.

الثالث: أن الشفاعة تنجي العباد من العذاب كما قد تنجيهم من هبوط الدرجات، وذلك يرجع إلى قابلية القابل.

الحقيقة الرابعة: أن الحب الشهوي قد يقع من طرف واحد، إلاّ أن الحب المعرفي أي الذي عبر عنه في الآية بالمودة يتقوم بطرفين، فلا يعقل أن يحب العبد ربه ويعمل له ويطيعه ولا يظهر أثر الحب الإلهي عليه، كما لا يعقل أن يحب المؤمن نبيه وإمامه ولا يحبه النبي والإمام، وإلاّ لزم الخلف؛ لأن ذلك من مقتضى طبع الكامل ومن شروط الكمال.

ومن هنا نلاحظ أن الروايات أكدت على أن علاقة الحب بين الأئمة وشيعتهم جوهرية حقيقية تتلازم من عالم الأصلاب والأرحام إلى يوم القيامة.

ففي أمالي الطوسي قدس سره عن يعقوب بن ميثم التمار قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقلت له جعلت فداك يا بن رسول الله إني وجدت في كتب أبي أن علياً عليه السلام قال لأبي ميثم: «أحبب حبيب آل محمد وإن كان فاسقاً زانياً، وأبغض مبغض آل محمد وإن كان صوّاماً قواماً، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[1] ثم التفت

١ – سورة البينة: الآية٧.

إليّ وقال: هم والله أنت وشيعتك يا علي، وميعادك وميعادهم الحوض غداً، غرّاً محجلين، مكتحلين متوجين، فقال أبو جعفرعليه السلام: هكذا هو عياناً في كتاب عليعليه السلام»[١].

ووجه هذا الحب هو تسانخ الطينة كما تفيده أحاديث الطينة المتقدمة، نظير حديث نوف البكالي. قال: قال لي عليعليه السلام: «يا نوف خلقنا من طينة طيبة، وخلق شيعتنا من طينتنا، فإذا كان يوم القيامة ألحقوا بنا»[٢].

ووجه الفرق بين العاصي والصوام القوام هنا هو أن مدار الإيمان على المعتقد لا على العمل، فالذي يؤمن لله وللرسول وللأئمةعليهم السلام هو مؤمن في عقيدته وإن فعل بعض الذنوب؛ لأن العصيان في العمل لا يلازم الكفر في المعتقد، بل يخل بالطاعة، بخلاف الذي لا يسلم في معتقده، وهذا ما يؤكده النبوي الشريف: «ما أحد من شيعة عليعليه السلام إلاّ وهو طاهر الوالدين، تقي نقي مؤمن بالله، فإذا أراد أحدهم أن يواقع أهله جاء ملك من الملائكة الذين بأيديهم أباريق ماء الجنة فيطرح من ذلك الماء في الآنية التي يشرب منها فيشربه، فبذلك الماء ينبت الإيمان في قلبه»[٣] وهذا يظهر معنى الأحاديث الكثيرة التي تنسب أعداء آل محمد إلى خبث المنبت وجحود القلب ونفور الإيمان[٤].

ويؤكد محبة الأئمة لشيعتهم قول الصادقعليه السلام: «والله إني لأحب ريحكم

١ – الأمالي (للطوسي): ص٤٠٦، ح٥٧؛ بحار الأنوار: ج٦٥، ص٢٥، ح٤٦.
٢ – الأمالي (للطوسي): ص٥٧٦، ح٣ ؛ بحار الأنوار: ج٦٥، ص١٧٧، ح٣٤.
٣ – بحار الأنوار: ج٢٤، ص٨٨.
٤ – انظر بحار الأنوار: ج٢٧، ص١٤٥ وما بعدها.

وأرواحكم ورؤيتكم وزيارتكم، وإني لعلى دين الله ودين ملائكته فأعينوا على ذلك بورع»[١] وفي رواية أخرى: «والله إني لأحب رؤيتكم وأشتاق إلى حديثكم»[٢].

وهذا الشوق والارتباط يختلج في نفوس الشيعة أيضاً، ولذا لبسوا جلباب العناء لأجل محبتهم وولايتهم، وهذا ما أكده الصادق عليه السلام في قوله: «إن حواري عيسى كانوا شيعته، وإن شيعتنا حواريونا، وما كان حواري عيسى عليه السلام باطوع له من حوارينا لنا، وإنما قال عيسى عليه السلام للحواريين: من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله، فلا والله ما نصروه من اليهود، ولا قاتلوهم دونه، وشيعتنا والله لم يزالوا منذ قبض الله عز ذكره رسوله صلى الله عليه وآله ينصرونا ويقاتلون دوننا، ويحرقون ويعذبون ويشردون في البلدان جزاهم الله عنا خيراً»[٣].

١ - المحاسن: ج١، ص١٦٣، ح١١٣؛ بحار الأنوار: ج٦٥، ص٢٨- ٢٩، ح٥٥.
٢ - المحاسن: ج١، ص١٦٣، ح١١٤؛ بحار الأنوار: ج٦٥، ص٢٩، ح٥٦.
٣ - الكافي: ج٨، ص٢٦٨، ح٣٩٦؛ وانظر بحار الأنوار: ج١٤، ص٢٧٤.

المطلب الثالث: في وجوب إطاعة الإمام عليه السلام

إن العقل والفطرة السليمة يقضيان بوجوب إطاعة الإمام المعصوم عليه السلام؛ لأنه العبد الكامل لله سبحانه، وأنه الخليفة الأوحد للنبي صلى الله عليه وآله، وأنه أعلم أهل زمانه بكل شؤون الدين والدنيا، وأنه أتقاهم وأورعهم وأحرصهم على مصالح الناس، فالكل بحاجة إليه وهو مستغنٍ عن الكل، ومن كانت هذه صفاته ومزاياه تخضع له رقاب الخلق طوعاً، وتسلم أمرها إليه اختياراً؛ لأن الإنسان مجبول بحسب فطرته وطبيعته الإنسانية على حب الكامل والخضوع له، كما أن عقله يحكم بوجوب إطاعته فيما يأمر وينهى بملاكين:

أحدهما: أن الإمام عليه السلام عالم بالحقائق والمصالح والمضار، والعقل يقضي بحسن تحصيل المنافع ودفع المضار، فكل طريق يوصل إلى ذلك يوجب إطاعته.

ثانيهما: أن في اتباعه اتباعاً للحق والصواب، وفي عصيانه اتباعاً للباطل والجهل، والعقل يستقل بالحكم بحسن الأول وقبح الثاني، وهذا أمر أقرته السيرة العقلائية في جميع العصور، وعلى هذا الأساس نجد أن الأمم والشعوب تحترم قادتها وزعماءها، وتمجد مواقفهم، وتتبع سيرهم ونهجهم؛ لأنهم يجدون فيهم الرموز الإنسانية أو الوطنية التي تستحق الطاعة والاتباع،

فما بالك بآل محمد عليهم السلام الذين لا يقاس بهم أحد، ولا يبلغ مراتبهم بشر؟ ويقصر العظماء مهما بلغوا من العظمة على أن يبلغوا مقدار كمالهم وعلمهم ومعارفهم؟ فالطبيعة الإنسانية بحسب طبعها الأولي تحكم على كل إنسان أن يحب آل محمد عليهم السلام، ويلتزم بما يأمرون وينهون ويقررون من أحكام وآداب وعادات وسنن بغض النظر عن أديانهم ومذاهبهم؛ لأنهم أكمل الخلق وأعلمهم وأفضلهم.

هذا كله إذا تجردت الطبيعة الإنسانية واحتكمت إلى فطرتها وعقلها، إلاّ أن غلبة الهوى وسيطرة الشيطان قد تعطل الفطرة، وتعمي العقل، فينقاد الناس لأهوائهم ويجحدون ما هو واضح، وينكرون ضوء الشمس في وضح النهار فيضلون الطريق، وهذه أزمة قديمة لازمت الحياة البشرية منذ أن خلق الله الخلق، وأرسل إليهم أنبياء، ونصب لهم أوصياء وأئمة.

فإن البشر إذا تجردوا عن مضلات الفتن وصرعوا الهوى والشيطان لا يمكن أن يكفروا بالله، أو يعصوا أوامره، ومتى ما سكنت فيهم مغريات الجهل والضلال يرجعون إلى فطرتهم الموحدة المؤمنة.

ولذا أكد الباري هذه الحقيقة في الكفار والمشركين الذين ينكرون الأنبياء بسبب توهمهم بأن التوحيد والاستجابة للنبي صلى الله عليه وآله تضر بمصالحهم، وتقلل من شأنهم ومكانتهم؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1] حيث وصف الجاحدين بأربع صفات:

١ – سورة النمل: الآية ١٤.

الأولى: أنهم موقنون في أنفسهم ووجدانهم، وجاحدون بحسب ظاهرهم؛ لأن ما جاء به موسى عليه السلام من آيات تسع كانت جلية واضحة أنها خاضعة لموازين إلهية وليست لموازين سحر أو خديعة، فكل عاقل كان ينظر إلى ما جاء به موسى من آيات يؤمن بشرط أن يتجرد عن الهوى؛ لأن الهوى يسوق صاحبه إلى الجحود[1]، وفي اللغة الجحد نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه[2]، ومن الواضح أن أقصر طريق للجاحدين هو اتهام الحقيقة بالكذب، والآية بالسحر؛ لأن الناقص ينسب نقصه إلى غيره ليوهم الآخرين كماله مكابرة منه.

الثانية: أنهم ظالمون بهذا الجحود؛ لأنهم نقصوا من آيات الله سبحانه، ونقصوا من نفوسهم المؤمنة بفطرتها، حيث هبطوا بها إلى مستوى الجحود والكفر، وهو ستر للعقل والفطرة وكفران للنعمة، وهو معنى الظلم في اللغة.

الثالثة: أنهم مصابون بالاستكبار والتعالي على الحقيقة؛ لأن الجاحد يستعلي على الواقع نفسه، وهو طغيان وتمرد.

الرابعة: أنهم من المفسدين؛ لأن صلاح النفوس يتم بالإيمان والاستجابة لنداء العقل والفطرة، والظلم والتعالي يفسدان كل شيء.

ولو لاحظنا هذه الصفات الأربعة في المنكرين للوحدانية الإلهية نجدها

---

١ – انظر مجمع البيان: ج٧، ص٣٦٧؛ تفسير الميزان: ج١٥، ص٣٤٧؛ تفسير الأمثل: ج١٢، ص١٩؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٩٤، تفسير الآية المزبورة.

٢ – انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٨٧، (جحد)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٢٠، (جحد).

تنطبق على الجاحدين للرسالات السماوية والأنبياء، كما تنطبق على من أنكر الأئمة عليهم السلام وجحد حقوقهم وظلمهم، وقد مرت عليك الكثير من الشواهد التي أقر بها خصوم آل محمد عليهم السلام بأنهم الأئمة الحق، وأن إطاعتهم واجبة، إلاّ أن القوم أنكروهم طلباً للدنيا[1]، وتدلنا هذه الآية المباركة على حقيقتين هامتين:

الحقيقة الأولى: أن محل اليقين هو النفس لا العقل، وأن الكفر قد يجتمع مع العلم واليقين بالحق ولا يعد هذا من التناقض لاختلاف الجهة.

والحقيقة الثانية: أن حقيقة الإيمان تتكون من عنصرين هما: الاذعان والتسليم في الجوانح وإظهار ذلك على الجوارح، ومن هنا يتضح أنه إذا أيقن الإنسان بشيء في جوانحه ولم يظهره في جوارحه فإنه ليس بمؤمن كامل الإيمان، كما أنه إذا أظهر على جوارحه خلاف ما يخفيه في جوانحه ليس بمؤمن وإنما يطلق عليه جاحد، وكفره كفر جحودي في مقابل كفر العقيدة وكفر العمل أي المعصية، وقد عرفه الصادق عليه السلام بقوله: «هو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنه حق قد استقر عنده»[2].

ولأجل هذا الجحود والعناد قد تواترت الأخبار والروايات الدالة على وجوب إطاعة الأئمة عليهم السلام، والتسليم لهم في الأوامر والنواهي، بل في كل ما يتعلق بشؤون الدين والدنيا، وذلك لأجل إزالة الغموض والالتباس التي يعمي بها الشيطان البصائر، ولإقامة الحجة على المخالفين، وإلاّ فإن الفطريات

١ - انظر شرح نهج البلاغة: ج١٢، ص٧٩-٨٠؛ الطرائف: ص٤٢٤؛ الغدير: ج١، ص٣٨٩ وما بعدها.

٢ - الكافي: ج٢، باب ٣٥٤، ص٥٣٥، ح١.

والبديهيات العقلية مما لا تحتاج إلى دليل أو برهان يثبتها. هذا وقد مرت عليك الكثير من النصوص الدالة على هذه الحقيقة، ونكتفي هنا بالوقوف عند آية واحدة من القرآن والنظر في مضامينها والحقائق الناتجة عنها، فهي لعمري كافية لمن أراد الانصاف وقرأ الحقائق بموضوعية، وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1] وقد مر عليك بعض الكلام عن مضامين هذه الآية المباركة في بحث اشتراط الإمامة بالنص، وهنا مضامين أخرى تهم مقام الطاعة نلفت إليها من خلال أمور:

الأول: أن الخطاب في الآية موجه إلى الذين آمنوا وليس إلى عموم الناس، وذلك لأن غير المؤمن عاص بالمعصية الكبرى فلا يليق بخطاب الطاعة، بل قد يكون أمره بذلك لغواً.

الثاني: أن الأمر تعلق بالطاعة بنحو مطلق؛ إذ لم يحدد مقدار الطاعة وحدودها، ولازم ذلك هو وجوب الطاعة مطلقاً في كل الظروف وفي جميع الأحوال، فيدل على عصمة المطاع وعدم خروجه عن طاعة الله والرسول، فالسياق والإطلاق في الآية يكشفان عن عصمة أولي الأمر، ولازم ذلك هو اختصاص الآية بآل محمد عليهم السلام؛ إذ لا معصوم غيرهم بالضرورة من الدين وباتفاق المسلمين، بل جميع أهل الأديان والملل.

الثالث: أن الآية عطفت إطاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على إطاعة الله سبحانه بينما عطفت أولي الأمر على الرسول، ولازم ذلك عرفاً هو أن يكون أولو الأمر كالرسول في المقام والرتبة، فتدل على عصمتهم وخلافتهم له؛ لأن النبي

١ - سورة النساء: الآية٥٩.

معصوم بلا شك، فكذا من جعل في محله، وبذلك يظهر أن الآية تدل على أن خلافة النبي صلى الله عليه وآله منحصرة بأولي الأمر، وهم أهل بيته المعصومون عليهم السلام، فطاعتهم طاعته، ومعصيتهم معصيته، كما أن طاعة النبي صلى الله عليه وآله هي طاعة الله سبحانه، ومعصيته معصية الله، ولعل التعبير عن المصطفى صلى الله عليه وآله بالآية بلفظ (الرسول) دون النبي مثلاً للإشارة إلى أن أولي الأمر يخلفون النبي صلى الله عليه وآله في رسالته ومهامه الإلهية، وليس فقط في شؤونه الشخصية.

الرابع: اتفقت كلمة المسلمين على أن الآية دالة على عصمة أولي الأمر، ولكنهم اختلفوا في المصداق، فبعضهم فسره بالأمراء والحكام، وبعضهم فسره بالقادة والعلماء وأصحاب المناصب في مختلف المجالات وهو ما يعبر عنه بأهل الحل والعقد، وبعضهم فسره بالحكام بعد النبي صلى الله عليه وآله، وبعضهم فسره بالصحابة عموماً[1]، والأقوال في ذلك كثيرة لكنها ترجع في جوهرها إلى واحد من هذه المعاني.

ونلاحظ هنا أن هذه الأقوال مهما اختلفت في بعض التفاصيل إلاّ أنها تتفق جميعاً على مصداق مشترك بينها، وهي أن آل محمد هم من أولي الأمر، وأنهم معصومون، وهذا المعنى هو القدر المتيقن من الدلالة لانطباق جميع العناوين المذكورة عليهم بالمطابقة أو التضمن، وما زاد عليه يفتقر إلى الدليل.

وعلى هذا ينبغي أن تتفق الكلمة على إمامتهم وخلافتهم لولا التعصب أو اختلاط الحقائق، وبهذا البيان يتضح أن الآية المباركة قد تضمنت بيان

---

١ - انظر مجمع البيان: ج٣، ص١١٤، وانظر تفسير الأمثل: ج٣، ص١٩٤-١٩٥؛ مواهب الرحمن: ج٨، ص٣٥١ وما بعدها؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٩٠، (أمر).

الكبرى والصغرى في الدليل. أما الكبرى فهي أن إطاعة أولي الأمر واجبة، وهذا الوجوب نفسي عيني تعييني كما يقتضيه إطلاق الأمر على ما حقق في علم الأصول، وأما الصغرى فهي أن أولي الأمر معصومون، وهم الذين يخلفون النبي صلى الله عليه وآله، وهذا الوصف لا ينطبق إلاّ على العترة الطاهرة.

والنتيجة: أن كل ما يثبت للنبي صلى الله عليه وآله من المزايا والخصوصيات يثبت لهم أيضاً إلاّ ما دل الدليل الخاص على أنه من مختصاته صلى الله عليه وآله، وبهذا تبطل سائر التفاسير التي فسرت أولي الأمر بغير آل محمد صلى الله عليه وآله؛ لفقدانها للدليل، أو لانحصار دلالة الآية بالمعصوم، وهؤلاء طراً غير معصومين.

وهذه النتيجة أكدتها الروايات الواردة بطرق الفريقين :

منها: ما ذكره أبو حيان الأندلسي في تفسيره وأبو بكر الشيرازي في رسالة الاعتقاد أن الآية المباركة في حق علي وأهل بيته[1] عليهم السلام.

ومنها: ما رواه الشيخ سليمان الحنفي القندوزي عن سليم بن قيس الهلالي قال : سمعت علياً صلوات الله عليه يقول : أتاه رجل فقال: أرني أدنى ما يكون به العبد مؤمناً، وأدنى ما يكون به العبد كافراً، وأدنى ما يكون به العبد ضالاً، فقال: «قد سألت فافهم الجواب: ... وأما أدنى ما يكون به العبد ضالاً أن لا يعرف حجة الله تبارك وتعالى وشاهده على عباده الذي أمر الله عز وجل عباده بطاعته، وفرض ولايته» قلت: يا أمير المؤمنين! صفهم

---

١ - البحر المحيط ج٣،ص٤٢٥ ؛ينابيع المودة : ج١، ص ٣٤١، ح١؛ شواهد التنزيل : ج ١، ص ١٤٩ ؛ وانظر احقاق الحق : ص ٢٠٤، هامش رقم (١) ؛ تفسير الامثل : ج٣، ص ٢٠١ .

لي. قال: «الذين قرنهم الله تعالى بنفسه وبنبيه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[١]» فقلت له: جعلني الله فداك أوضح لي، فقال: «الذين قال رسول الله صلى الله عليه وآله في مواضع وفي آخر خطبة يوم قبضه الله عز وجل إليه: إني تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي إن تمسكتم بهما: كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي»[٢].

ومنها: ما ورد في خطاب أبي محمد الحسن بن علي عليه السلام للناس بعد البيعة له بالأمر، وفيهم جمع كبير من الصحابة والتابعين وأولي السابقة. قال لهم: «نحن حزب الله الغالبون، وعترة رسوله الأقربون، وأهل بيته الطيبون الطاهرون، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وآله في أمته ... إلى أن قال: فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة؛ إذ كانت بطاعة الله عز وجل مقرونة. قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ إلى آخر الحديث[٣].

وهذا أمر كان معروفاً مشهوداً لدى جميع الصحابة لم ينكره أحد، وفيه قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنما الطاعة لله عز وجل ولرسوله ولولاة الأمر، وإنما أمر بطاعة أولي الأمر لأنهم معصومون مطهرون لا يأمرون بمعصيته»[٤]. والروايات الواردة بهذا المضمون متواترة[٥]، وقد مر عليك أن وجوب

١ - سورة النساء: الاية ٥٩.
٢ - ينابيع المودة: ج١، ص ٣٤٩- ٣٥٠، ح٤.
٣ - الأمالي (للمفيد): ص٣٤٩، ح٤؛ غاية المرام: ص٢٦٧، ح١٣.
٤ - بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٠٠، ح١١.
٥ - انظر تفسير كنز الدقائق: ج٣، ص٤٤٦ وما بعدها.

الطاعة مما توجبه الفطرة والعقل عند سائر العقلاء فضلاً عن المسلمين.

والنتائج المرتبة على كل ذلك عديدة:

إحداها: أن إطاعة أولي الأمر واجبة شرعاً على عموم المؤمنين بالوجوب النفسي العيني التعييني، والخروج عن هذا النهج خروج عن نهج الإيمان؛ لأن الآية خاطبت الذين آمنوا بذلك.

ثانيها: أن صفة أولي الأمر هي العصمة من الأخطاء والنواقص.

ثالثها: أن القدر المتيقن من معنى أولي الأمر الذي تتفق عليه كلمة المسلمين هم عترة النبي ﷺ من علي عليه السلام إلى المهدي عجل الله تعالى فرجه.

رابعها: أن عترة النبي ﷺ، تمثله في مقامه ورسالته، فلا بد وأن يتمتعوا بذات المزايا والخصوصيات التي يتمتع بها النبي ﷺ من العلم والعصمة، ويثبت لهم من الحقوق ما يثبت لرسول الله ﷺ من وجوب المعرفة والمحبة والطاعة.

خامسها: إن إطاعتهم وخلافتهم لها حيثيتان: حيثية إلهية غيبية، وحيثية بشرية، فهم بشر كسائر الناس، لكنهم يمتازون عليهم بالعلم والعصمة والتنصيب الإلهي لمقام الإمام، وهذه الحقيقة كشفت عنها الآية حيث نصت على أن أولي الأمر منكم أي من سائر المؤمنين لكنهم مطاعون بإذن الله وبأمره، ولهذا أمر النبي ﷺ جابراً بعد أن كشف له هذا السر بأن يكتمه ولا يذيعه إلاّ لأهله كما مرّ في بعض الأخبار المتقدمة[1]؛ لأنه يتطلب قلوباً واعية

١ - انظر كمال الدين: ج١، ص٢٢٢، ح٨.

ونفوساً غلبت هواها وامتحنت للإيمان.

ولا يخفى أن قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ يشير إلى أن ولاية الأمر دائمة ثابتة لشخص موجود حاضر في الأمة؛ إذ لا معنى لأن تكون ولاية من دون ولي، ولا معنى لأن يكون منهم وهو غير موجود في زمان أو مكان، فالولي دائماً موجود، غاية الأمر قد تقصر الأمة عن الوصول إليه بسبب سوء أفعالها، وهذا ما يؤكد حقيقة وجود المهدي عجل الله تعالى فرجه، وأن غيبته ناشئة من عدم قابلية القابل؛ لعدم لياقة الأمة، وليست لفاعلية الفاعل على أنه عليه السلام نصب خلفاء له في غيبته يقومون بمهامه بالتنصيب الخاص ثم العام على ما ستعرفه.

وبهذا يتضح جلياً أن العقيدة الصحيحة تتقوم بالاعتقاد بالأئمة من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبأنهم معصومون مطهرون، وأن طاعتهم واجبة على كل مسلم، وأن أمرهم هو أمر الله تعالى، ونهيهم نهيه، وطاعتهم طاعته، ومعصيتهم معصيته، ووليهم وليه، وعدوهم عدوه، ولا يجوز الرد عليهم أو التخلف عنهم أو خذلانهم أو التقصير في أداء حقوقهم؛ لأن ذلك كله رد على الله ورسوله، وهو من المعاصي الكبيرة التي تنتهي إلى الجحود والكفران.

وهنا حقائق عديدة تتفرع على هذه النتيجة:

الحقيقة الأولى: أن عنوان (أولي الأمر) إنما يصدق عرفاً على من كان صاحباً للأمر واقعاً، لا من تغلب عليه بالقوة والقهر؛ بداهة أن ولي المال والولد يقال لمن كان كذلك حقاً لا بالقوة والغلبة، كما أن قولهم (أولو الألباب) أي من كانوا كذلك حقيقة وواقعاً لا المتظاهرون بذلك، أو المتحلون لهذه الصفة،

وقد اتفق الأصوليون والأدباء على أن الألفاظ موضوعة للمعاني الحقيقية لا المتخيلة أو المتوهمة، وهذا مما يقضي به العقل أيضاً، وإلاّ لم يبق فرق بين المالك والغاصب والمشروع واللامشروع في الولاية.

فولي الأمر هو من كان وليه حقاً، و ولي الأمر حقاً لا يكون إلاّ أعلم الأمة وأتقاها وأولاها بما يهم من أمور الدين والدنيا كما يقتضيه معنى الأمر لغة وعرفاً[١].

وولي الأمر هو الأولى بتدبير ذلك ورعاية شؤونه، وليس هو إلاّ الإمام المعصوم عليه السلام، وعلى هذا يظهر أن الآية المباركة تثبت الولاية للمعصوم عليه السلام، ومن ثبتت ولايته وجبت طاعته؛ لوضوح أن وجوب الطاعة يدور مدار الولاية؛ لأن الأصل عدم ولاية أحد على أحد، سوى أن ولاية الله سبحانه على الخلق ذاتية؛ لأنها ثابتة بالإيجاد والتكوين، وأما ولاية النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام فتابعة، ولكن لها جنبتان: ذاتية لكونهما وسائط الفيض في تكوين الأشياء، حيث جعلهما الله مظاهر قدرته، ووعاء مشيئته، وعرضية حيث أمر المؤمنين بإطاعتهما، ونهى عن معصيتهما في مثل الآية مورد البحث، ومثل قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٢] وفي النبوي الشريف: «أيها الناس! من عصى علياً فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى الله»[٣].

الحقيقة الثانية: قد يتصور البعض أن البحث في وجوب إطاعة الإمام عليه السلام

١ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٩-٩٠، (أمر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٢١٠، (أمر)؛ وانظر آيات العقائد: ص٣٤٦.

٢ - سورة النساء: الآية٨٠.

٣ - معاني الأخبار: ص٣٧٢، ح١.

من البحوث التي عفا عليها الزمن، وليس لها ثمرة تذكر، فالخوض فيها يعد من الحديث فيما لا أثر له، وذلك لأننا نعيش في زمان غيبة الإمام عليه السلام، ووجوب طاعته مختص بزمان حضوره عليه السلام.

وهذا التصور بعيد عن الصواب، وقاصر عن فهم حقيقة الإمام ومكانته الدينية والدنيوية، والحق أنه بحث من أهم البحوث العقدية التي تنعكس على حياة البشر في جميع العصور والأزمنة، وعلى رحاها يدور التقدم والتأخر في الأمم، والسعادة والشقاء لأبنائها، وذلك لأن إطاعة الإمام لا تنحصر بإطاعة شخصه، بل شخصيته ومكانته والاقتداء بهديه ونهجه في مختلف المجالات؛ بداهة أن الإطاعة في المنهج أبلغ وأعمق أثراً، بل إطاعة المنهج إطاعة الشخص للاتحاد والعينية بينهما ويظهر أثر إطاعة الإمام عليه السلام في حياة الأمة في أبعاد عديدة تهم حياة الناس في كل زمان ومكان:

الأول: في البعد العلمي والحضاري؛ بداهة أن الإمام المعصوم عليه السلام هو إمام العلم والمعرفة في الرؤية الكونية من التوحيد إلى المعاد، وفي الأخلاق والآداب، وفي الأحكام والقضاء، وفي تشكيل الدولة ونظام الحكم، وفي العقود والإيقاعات وكل ما يهم الإنسان في حياته الدينية والدنيوية، وفرض الطاعة له لازم على كل مسلم في الأمور الخاصة، كما هو لازم في الأمور العامة؛ إذ لا يعقل أن يكون المسلم مطيعاً لولي الأمر في شؤونه البيتية ولا يطيعه في العقيدة والأخلاق وبناء الدولة ونظام الأسرة وغيرها من تعاليم وأنظمة.

وإلى هذا أشارت الصديقة الكبرى بقولها عليها السلام: «جعل طاعتنا نظاماً

للملة» والملة الطريقة والدين والشريعة، ومعناه أن بإطاعتهم عليهم السلام يستقيم الدين ويستحكم، فلولا إطاعتهم لضعفت واندرست معالمه وأحكامه، وتلاعبت به الأهواء والمصالح، و«إمامتنا أماناً للفرقة»[1] وأما إمامتهم فهي طريق وحدة المسلمين وسبب عزتهم وكرامتهم، فلو اتخذهم الناس أئمة وتركوا غيرهم يكونوا على النظام الذي قرره الله ورسوله، وإذا توازن العمل مع السنن الإلهية ظهرت خيراته وبركاته في كل جوانب الحياة ومنها وحدة الكلمة وتلاحم القلوب والتناصر في المواقف، وهذا ما تؤكده صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام حيث قال: «ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن تبارك وتعالى الطاعة للإمام بعد معرفته»[2].

الثاني: في بعد الحاضر والمستقبل، فإن وجوب إطاعة الإمام عليه السلام لا تختص بزمان الحضور، بل يجري في زمان الغيبة أيضاً، وذلك لأن الإمام عليه السلام نصب لهذا الزمن أئمة وقادة للناس وهم الفقهاء المجتهدون المؤمنون العدول الأكفاء، وجعلهم نواباً له وحجة على الناس، وأمر الناس بإتباعهم وإطاعتهم، وجعل إطاعتهم إطاعة للإمام عليه السلام، ومعصيتهم معصية له، بل وحرم على الأمة الرجوع إلى غيرهم ليس في التقليد والشؤون الشخصية، بل في القضاء والأمور العامة، وعلى هذا يظهر أن وجوب الطاعة مستمر مع الأيام والأجيال لا ينقضي أو يعفي عليه الزمن في يوم ما، وقد تواتر هذا المعنى في الروايات الكثيرة نكتفي بالإشارة إلى بعضها:

١ - دلائل الإمامة: ص٣٣؛ كشف الغمة: ج١، ص٤٨٠؛ الاحتجاج: ج١، ص١٣٤.
٢ - الكافي: ج٢، ص١٩، ح٥؛ الوسائل: ج١، الباب١ من أبواب وجوب العبادات، ص٧، ح٢.

منها: التوقيع المبارك الذي رواه الصدوق قدس سره بسنده عن إسحاق بن يعقوب قال: سألت محمد بن عثمان العمري أن يوصل لي كتاباً قد سألت فيه عن مسائل أشكلت علي، فورد التوقيع بخط مولانا صاحب الزمان عليه السلام -بعد أن أجاب عن مسائله - يقول فيه: «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا، فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله»[1].

ومعنى الحجة ما يصح الاحتجاج بها عند الخصومة والحساب، ولازم ذلك وجوب إطاعتها وحرمة معصيتها، وإلاّ بطلت حجيتها، والأمر بالإرجاع يحمل على الوجوب النفسي العيني التعييني كما هو مقتضى الأصل، ورواة الحديث ينطبق على الفقيه الجامع للشرائط من جهة المصداق الأكمل من الراوي، أو من جهة الأولوية العقلية؛ إذ لو كان قول الراوي حجة تثبت حجية قول الفقيه بالأولوية؛ إذ لا فرق بينهما من حيث المآل سوى أن الراوي ينقل لفظ المعصوم، وأما الفقيه فينقل حكمه ومعناه، ووصف الحوادث بالواقعة يفيد وجوب استمرارية الرجوع إلى الفقهاء في كل العصور والأزمنة.

ومنها: مقبولة عمر بن حنظلة عن الصادق عليه السلام حيث أرجع المتنازعين في خصومة إلى الفقيه الجامع للشرائط، ومنع من الرجوع إلى غيره من القضاة والسلاطين غير الجامعين، بل جعل الرجوع إليهم من الطغيان وأكل السحت، حيث قال: «من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم

١ - كمال الدين: ص٤٨٤، ح٤؛ الوسائل: ج٢٧، الباب١١ من أبواب صفات القاضي، ص١٤٠، ح٩.

إلى الطاغوت، وما يحكم له فإنما يأخذ سحتاً وإن كان حقاً ثابتاً له؛ لأنه أخذه بحكم الطاغوت، وما أمر الله أن يكفر به قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾[١]» قلت: فكيف يصنعان؟ قال: «ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكماً فإني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه فإنما استخف بحكم الله، وعلينا رد، والراد علينا الراد على الله وهو على حد الشرك بالله»[٢].

وعنوان العارف بالأحكام والناظر في الحلال والحرام ينطبق على الفقية المجتهد المستجمع لشرائط العلم والإيمان والعدالة، وقد أمرعليه السلام بالرضا به لأن يكون حاكماً بين المتنازعين، والأمر محمول على الوجوب، بل قولهعليه السلام: « فإني قد جعلته عليكم حاكماً» ظاهر في جعل كبرى كلية تفيد حكومة الفقيه في جميع الموارد، وحرمة الرجوع إلى غيره؛ لأنه رجوع إلى الطاغوت، والرجوع إلى الطاغوت والاستعانة به حتى لاسترداد الحقوق محرم في نفسه ضمن شروط وقيود تبحث في باب القضاء والاجتهاد والتقليد.

ولازم تنصيب الفقيه حاكماً هو وجوب إطاعته وحرمة مخالفته، بل نص الإمامعليه السلام على أن مخالفته تنتهي في السلسلة الطولية إلى الشرك بالله إذا انطبق عليها عنوان الرد عليهم وعدم التسليم لأمرهم.

١ - سورة النساء: الآية ٦٠.

٢ - الكافي: ج١، ص٥٤، ح١٠؛ وانظر الوسائل: ج٢٧، الباب١١ من أبواب صفات القاضي، ص١٣٦- ١٣٧، ح١.

ومنها: ما دل على حرمة التشكيك فيما يرويه ثقات الرواة والعلماء من أصحابهم كزرارة ومحمد بن مسلم وبريد العجلي ويونس بن عبد الرحمن والعمري وابنه، بل أمر الإمام العسكري عليه السلام بوجوب الاستماع إلى العالم الثقة ووجوب إطاعته فيما يقول؛ لأن قوله هو قول الإمام، وإطاعته هي إطاعة الإمام عليه السلام [١].

ومنها: معتبرة إسماعيل بن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يحمل هذا الدين في كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين كما ينفي الكير خبث الحديد»[٢] ومضمون هذه الرواية يتضح بأمور:

أحدها: أن الذين يملكون القدرة على نفي تأويل أهل الباطل وتحريف المغالين وانتحال الجاهلين للدين ومعارفه هم العلماء والفقهاء وليس عموم الناس.

ثانيها: أن للعدول في قوله (عدول) معنيين هما:

المعنى الشرعي، فإن العادل شرعاً هو الذي له ملكة فعل الطاعات واجتناب المعاصي على ما هو المشهور بين الفقهاء[٣].

---

١ - انظر الروايات الواردة بهذا الشأن في كتاب الوسائل: ج٢٧، الباب ١١ من أبواب صفات القاضي، ص١٣٨ وما بعدها، ح٤، ح١٤، ح١٥، ح٣٦.

٢ - الوسائل: ج٢٧، الباب ١١ من أبواب صفات القاضي، ص١٥١، ح٤٣.

٣ - انظر المقنعة: ص٧٢٥؛ النهاية: ج٢، ص٥٢؛ السرائر: ج١، ص٢٨٠؛ رسائل فقهية (للشيخ الأنصاري): ص٦.

والمعنى اللغوي، أي الاستواء في الطريقة، ويقابله الجور وهو الانحراف عن ذلك[1].

وكلاهما ينطبقان على الفقهاء بالدلالة المطابقية؛ لانحصار الأوصاف المذكورة بهم، أو بالدلالة التضمنية، بل انطباقه عليهم من باب القدر المتيقن الذي لا يشك فيه.

ثالثها: أن قوله عليه السلام: «يحمل هذا الدين في كل قرن» يدل على أن حاجة الدين إلى الفقهاء مستمرة في كل عصر وزمان سواء كان عصر الحضور أم عصر الغيبة، والنتيجة الحاصلة من هذه المضامين هو وجوب الرجوع إلى الفقهاء فيما يتعلق بأمور الدين، ووجوب إطاعتهم فيما يأمرون وينهون، وإلاّ تعذر نفي الأباطيل عنه.

والحاصل: أن وجوب إطاعة الإمام عليه السلام تارة تكون مباشرة وهي تختص بزمان الحضور، وتارة امتدادية وهي تتعلق بإطاعة الفقهاء العدول في زمان الغيبة بما أنهم نواب ووكلاء نصبهم الإمام حججاً وحكاماً على الناس، وأوجب الرجوع إليهم، وهذه مهمة مستمرة في كل زمان ومكان وتفتقر إلى بحث ومعرفة.

الثالث: بعد الاقتداء والتأسي، إذ لابد للناس من قادة وزعماء يقتدون بهم في مختلف شؤونهم، ويأخذون منهم الأفكار والمواقف، ويتعلمون منهم أساليب الحياة الصحيحة، وهذه حاجة من الحاجات الفطرية للبشر، ومن

١ - انظر معجم مقاييس اللغة: ص٧١٨، (عدل)؛ لسان العرب: ج١١، ص٤٣٠، (عدل)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٤٢٠، (عدل).

الواضح أن أكمل قدوة حسنة هو النبي المصطفى وعترته الطاهرة؛ لأنهم أشرف الخلق وأكملهم في العلم والعمل، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه»[١] كما وصف الباري عزوجل رسوله المصطفى بأنه قدوة للناس ، وأمرهم بإتباعه حيث قال : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٢] وواضح أن الاقتداء لا يتحقق إلاّ بالطاعة والاتباع، وعليه فإن مفهوم الطاعة وحكمها لا يتحدد في زمان أو مكان، بل يلازم الحياة الإنسانية في كل الأزمنة؛ لحاجة الإنسان إلى القدوة الحسنة في كل مجالات حياته.

الحقيقة الثالثة: إن للإطاعة ثلاث مراتب هي:

١ـ المحبة ٢ـ الاتباع ٣ـ التسليم

وكل واحدة من هذه الثلاث تحتل موقعاً في شخصية المؤمن الموالي فالمحبة مركزها القلب، والاقتداء مركزه العمل، والتسليم مركزه النفس، فلا يعقل أن يكون المؤمن مطيعاً لإمامه وهو يجمع في قلبه حبين: حب إمامه وحب أعدائه وخصومه؛ لأن ذلك من التناقض، فطاعة المحب تتحقق بحب الإمام وبغض أعدائه.

كما لا يعقل أن يكون المؤمن مطيعاً في عمله ويقتدي بغير إمامه، أو يجعل الغير نظيراً لإمامه في الاعتبار والطاعة، بل طاعة العمل تتحقق بالاقتداء بأعمال الإمام والتبري من أعمال أعدائه.

---

١ – نهج البلاغة: ج٣، ص٧٠، الخطبة ٤٥.

٢ – سورة الأحزاب: الآية٢١.

وأيضاً لا يعقل أن يكون المؤمن موالياً وهو في عين الحال لا يسلم لأمر إمامه، ولا يذعن لمناقبه وكراماته ومقاماته، ولا يرضى بما يعود عليه في هذا السبيل من الأذى أو الضرر، فالتسليم للإمام علامة اليقين وصدق الإيمان، ولا يكون المؤمن مؤمناً وهو يتبع إمامه لا عن رضا قلبه وتسليم نفسه.

وفي رواية سدير عن أبي جعفرعليه السلام: «إنما كلف الناس ثلاثة: معرفة الأئمة، والتسليم لهم فيما ورد عليهم، والرد إليهم فيما اختلفوا فيه»[1] ومن هنا نعرف أن حقيقة الطاعة للإمام التي تقود صاحبها إلى مراتب الإيمان العالية هي التسليم؛ لأنه يتضمن المحبة والاتباع، وهذا ما أكدته رواية يحيى بن زكريا عن أبي عبد اللهعليه السلام قال سمعته يقول: «من سره أن يستكمل الإيمان فليقل: القول مني في جميع الأشياء قول آل محمدعليهم السلام فيما أسروا وفيما أعلنوا وفيما بلغني وفيما لم يبلغني»[2].

الحقيقة الرابعة: أن التسليم والطاعة من الحقائق المشككة التي تختلف بحسب المراتب والدرجات، كما أن الناس يتمايزون في درجات الإيمان بحسب درجاتهم في التسليم والطاعة، كما أن أهل الإيمان يتمايزون في مراتب ولايتهم ومقاماتهم المعنوية بحسب مراتبهم في التسليم، وتؤكد الأخبار وشواهد التأريخ وجود مظاهر عديدة للتسليم تنعكس على مواقف الموالين يمكن الإشارة إلى بعضها:

المظهر الأول: الثبات على المنهج، ففيما بيّنه الرضاعليه السلام للمأمون في تعريف

---

١ - الكافي: ج١، ص٣٩٠، ح١.

٢ - الكافي: ج١، ص٣٩١، ح٦؛ مختصر بصائر الدرجات: ص٩٣؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٣٦٤، ح٢.

الموالين من غيرهم حيث أبان علو مكانتهم بالولاية لأمير المؤمنين عليه السلام، وبالمضي على منهاج نبيهم، ولم يغيروا ولم يبدلوا مثل سلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وأبي الهيثم بن التيهان وسهيل بن حنيف وعبادة بن الصامت وأبي أيوب الأنصاري وخزيمة بن ثابت ذي الشهادتين وأبي سعيد الخدري وأمثالهم رضي الله عنهم، والولاية لأتباعهم وأشياعهم والمهتدين بهديهم، وللسالكين منهاجهم رضوان الله عليهم ورحمته[1].

المظهر الثاني: الإيثار والتضحية من أجل الإمام عليه السلام، وهذه الدرجة بلغ بها سلمان الفارسي درجات الأولياء والحواريين، ففي أمالي الشيخ الطوسي قدس سره عن منصور بن بزرج قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: ما أكثر ما أسمع منك سيدي ذكر سلمان الفارسي؟ قال: «لا تقل سلمان الفارسي ولكن قل سلمان المحمدي، أتدري ما لكثرة ذكري له؟» قلت: لا. قال: «لثلاث خلال: إحداها إيثاره هوى أمير المؤمنين عليه السلام على هوى نفسه»[2] وفيما ترويه كتب التراجم عن خواص الموالين موقف أخوة خمسة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وهم شرحبيل وهبيرة وكريب وبريد وشمير قتلوا جميعاً بصفين، وكان كل واحد منهم يأخذ الراية بعد آخر حتى استشهدوا جميعاً[3].

المظهر الثالث: اليقين بالموقف، وهذه حقيقة صعبة قلما يتصف بها

١ - بحار الأنوار: ج١٠، ص٣٥٨، ح١.
٢ - انظر تتمة الحديث في بحار الأنوار: ج٢٢، ص٣٢٧، ح٣٣.
٣ - اختيار معرفة الرجال: ج١، ص٣٦، رقم (١٤)؛ رجال الطوسي: ص٦٨، رقم (٩)؛ خلاصة الأقوال: ص١٦٨، رقم(١).

الرجال، واجد أفضل من بيانها أن أنقل قصة رجل امتاز بها ونترك أحداثها تنقل الصورة، وهي قصة الطرماح بن عدي بن حاتم الطائي حيث أرسله أمير المؤمنين عليه السلام في رسالة إلى معاوية، وكان رجلاً جسيماً طويلاً أديباً لبيباً فصيحاً لسناً متكلماً لا يكل لسانه، ولا يعي عن الجواب، فعممه بعمامته، ودعا له بجمل بازل وثيق فائق أحمر، فسوى راحلته ووجهه إلى دمشق ... فأخذ الطرماح الكتاب، وكوّر بعمامته، وركب مطيته، وانطلق حتى دخل دمشق، فسأل عن دار الإمارة، فلما وصل إلى الباب قال له الحاجب: من بغيتك؟ قال: أريد أصحاب الأمير أولاً، ثم الأمير ثانياً، فقالوا له: من تريد منهم؟ قال: أريد جعشماً وجرولاً ومجاشعاً وباقعاً.

وكان أراد أبا الأعور السلمي وأبا هريرة الدوسي وعمر بن العاص ومروان بن الحكم، فقالوا: هم بباب الخضراء يتنزهون في بستان، فانطلق وسار حتى أشرف على ذلك الموضع فإذا قوم ببابه، فقالوا: جاءنا إعرابي يدوي دوين إلى السماء تعالوا نستهزئ به، فلما وقف عليهم قالوا: يا أعرابي! هل عندك من السماء خبر؟ فقال: بلى الله تعالى في السماء وملك الموت في الهواء وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب في الفضاء فاستعدوا لما ينزل عليكم من البلاء يا أهل الشقاوة والشقاء. قالوا: من أين أقبلت؟ قال: من عند حر تقي نقي زكي مؤمن رضي مرضي. فقالوا: وأي شيء تريد؟ فقال: أريد هذا الدعي الردي المنافق المردي الذي تزعمون أنه أميركم، فعلموا أنه رسول أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى معاوية، فقالوا: هو في هذا الوقت مشغول. قال: بماذا بوعد أو وعيد؟ قالوا: لا ولكنه يشاور أصحابه فيما يلقيه غداً. قال: فسحقاً له وبعداً.

فكتبوا إلى معاوية بخبره: أما بعد فقد ورد من عند علي بن أبي طالب رجل إعرابي بدوي فصيح لسن طلق ذلق يتكلم فلا يكل، ويطيل فلا يمل، فأعد لكلامه جواباً بالغاً، ولا تكن عنه غافلاً ولا ساهياً والسلام.

فلما بلغ الخبر إلى معاوية أمر ابنه يزيد أن يخرج ويضرب المصاف[1] على باب داره، فخرج يزيد وكان على وجهه أثر ضربة فإذا تكلم كان جهير الصوت، فأمر بضرب المصاف ففعلوا ذلك، وقال للطرماح: هل لك أن تدخل على باب أمير المؤمنين؟ فقال: لهذا جئت، وبه أمرت، فقام إليه ومشى، فلما رأى أصحاب المصاف وعليهم ثياب سود فقال: من هؤلاء القوم كأنهم زبانية لمالك على ضيق المسالك؟ فلما دنا من يزيد نظر إليه فقال: من هذا الميشوم ابن الميشوم الواسع الحلقوم المضروب على الخرطوم؟! فقالوا: مه يا أعرابي ابن الملك يزيد، فقال: ومن يزيد لا زاد الله مزاده، ولا بلغه مراده، ومن أبوه؟ كانا قدماً غائصين في بحر الجلافة واليوم استويا على سرير الخلافة، فسمع يزيد ذلك واستشاط وهمّ بقتله غضباً ثم كره أن يحدث دون إذن أبيه فلم يقتله خوفاً ... فقال: يا أعرابي! إن أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام.

فقال: سلامه معي من الكوفة، فقال يزيد: سلني عما شئت فقد أمرني أمير المؤمنين بقضاء حاجتك، فقال: حاجتي إليه أن يقوم من مقامه حتى يجلس من هو أولى منه بهذا الأمر!!

قال: فماذا تريد آنفاً؟ قال: الدخول عليه، فأمر برفع الحجاب وأدخله إلى

١ - أي موضع الاصطفاف للقوم، وهم يصطفون لاستقبال الضيف القادم. يقال: تصافوا أي وقفوا صفوفاً متقابلة؛ انظر المعجم الوسيط: ج١، ص٥١٧، (صف)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٨١، (صفف).

معاوية وصواحبه، فلما دخل الطرماح وهو متنعل قالوا له: اخلع نعليك، فالتفت يميناً وشمالاً ثم قال: هذا رب الوادي المقدس فأخلع نعلي؟! فنظر فإذا هو معاوية قاعد على السرير مع قواده وخاصته ومثل بين يديه خدمه، فقال: السلام عليك أيها الملك العاصي، فقرب إليه عمرو بن العاص فقال: ويحك يا أعرابي ما منعك أن تدعوه بأمير المؤمنين؟ فقال: ثكلتك أمك يا أحمق نحن المؤمنون فمن أمّره علينا بالخلافة.

فقال معاوية: ما معك يا أعرابي؟ فقال: كتاب مختوم من إمام معصوم، فقال: ناولنيه. قال: أكره أن أطأ بساطك. قال: ناوله وزيري هذا وأشار إلى عمرو بن العاص. فقال: هيهات هيهات ظلم الأمير وخان والوزير، فقال: ناوله ولدي هذا وأشار إلى يزيد، فقال: ما نرضى بإبليس فكيف بأولاده؟ فقال: ناوله مملوكي هذا وأشار إلى غلام له قائم على رأسه، فقال الأعرابي: مملوك اشتريته من غير حل، وتستعمله من غير حق! قال: ويحك يا أعرابي فما الحيلة وكيف نأخذ الكتاب؟ فقال الأعرابي: أن تقوم من مقامك وتأخذ بيدك على غير كره منك، فإنه كتاب رجل كريم وسيد عليم وحبر حليم بالمؤمنين رؤوف رحيم.

فلما سمع منه معاوية وثب من مكانه وأخذ منه الكتاب بغضب، وفكه وقرأه ووضعه تحت ركبتيه ثم قال: كيف خلفت أبا الحسن والحسين؟ قال: خلفته بحمد الله كالبدر الطالع، حواليه أصحابه كالنجوم الثواقب اللوامع إذا أمرهم بأمر ابتدروا إليه، وإذا نهاهم عن شيء لم يتجاسروا عليه، وهو من بأسه يا معاوية في تجلد بطل شجاع سيد سميدع، إن لقي جيشاً هزمه وأرداه، وأن لقي قرناً سلبه وأفناه، وأن لقي عدواً قتله وجزاه.

قال معاوية: كيف خلفت الحسن والحسين؟ قال: خلفتهما بحمد الله شابين نقيين تقيين زكيين عفيفين صحيحين سيدين طيبين فاضلين عاقلين عالمين مصلحين في الدنيا والآخرة، فسكت معاوية ساعة فقال: ما أفصحك يا أعرابي؟ قال: لو بلغت باب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لوجدت الأدباء الفصحاء البلغاء الفقهاء النجباء الأتقياء الأصفياء، ولرأيت رجالاً سيماهم في وجوههم من أثر السجود، حتى إذا استعرت نار الوغى قذفوا بأنفسهم في تلك الشعل لابسين القلوب على مدارعهم، قائمين ليلهم، صائمين نهارهم، لا تأخذهم في الله ولا في ولي الله علي لومة لائم، فإذا أنت يا معاوية رأيتهم على هذه الحال غرقت في بحر عميق لا تنجو من لجته.

واستمر الحوار بينهما حتى التفت معاوية إلى كاتبه وقال: اكتب جوابه، فوالله لقد أظلمت الدنيا عليّ ومالي طاقة[1]، والحديث مفصل اكتفينا ببعض فقراته، ودلالاته على قوة البصيرة ورباطة الجأش واليقين بحق الإمام والتنمّر في نصرته والثبات على موقفه جليّة.

المظهر الرابع: تواضع النفس، ففي موثقة زرارة قال: شهد أبو كريبة الأزدي[2] ومحمد بن مسلم الثقفي عند شريك بشهادة وهو قاض[3]، فنظر في وجههما ملياً ثم قال: جعفريان فاطميان؟ فبكيا، فقال: ما يبكيكما؟ قالا: نسبتنا إلى أقوام لا يرضون بأمثالنا أن نكون من إخوانهم لما يرون من سخف ورعنا، ونسبتنا إلى رجل لا يرضى بأمثالنا أن يكونوا من شيعته، فإن تفضل

١ - انظر بحار الأنوار: ج٣٣، ص٢٨٩- ٢٩٣، ح٥٥٠.
٢ - انظر قاموس الرجال: ج١١، ص٤٨٢، الرقم(٧٩١).
٣ - انظر ترجمته في قاموس الرجال: ج٥، ص٤١٩، الرقم(٣٥٦١).

وقبلنا فله المن علينا والفضل، فتبسم شريك ثم قال: إذا كانت الرجال فلتكن بأمثالكم، يا وليد أجزهما هذه المرة[١].

وهذه الصفة كانت من السمات البارزة في شخصية هذا الرجل؛ إذ تؤكد كتب التراجم أن محمد بن مسلم كان رجلاً موسراً جليلاً، فقال له أبو جعفر عليه السلام: «تواضع» فأخذ قوصرة[٢] فوضعها على باب المسجد، وجعل يبيع التمر، فجاء قومه وقالوا: فضحتنا، فقال: أمرني مولاي بشيء فلا أبرح حتى أبيع هذه القوصرة، فقالوا: أما إذا أبيت إلاّ هذا فأقعد في الطحانين، ثم سلموا إليه رحى فقعد على بابه وجعل يطحن[٣].

لا شك أن هذا الموقف ينم عن يقين كامل وتسليم مطلق للإمام عليه السلام بحيث يجعل العالم الكبير والفقيه بياعاً للتمر في الزقاق؛ لأجل أن يطبق أمر إمامه حيث أمره بالتواضع، ثم صار طحاناً وهو الغني الموسر لأجل هذا الأمر.

المظهر الخامس: الصبر والثبات على الإيمان، وأكتفي هنا بمثال محمد بن أبي عمير، فقد كان من أوثق الناس عند الخاصة والعامة وأنسكهم وأورعهم

١ - رجال الكشي: ص١٦٢، الرقم(٢٧٤)؛ منتهى المقال: ج٦، ص١٩٨؛ بحار الأنوار: ج٤٧، ص٣٩٣، ح١١٥.

٢ - القوصرة بتشديد الراء أو تخفيفها ما يكنز فيه التمر، انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٤٦٠، (قصر).

٣ - رجال الكشي: ص١٦٤، الرقم(٢٧٨)؛ منتهى المقال: ج٦، ص١٩٩-٢٠٠؛ مستدرك الوسائل: ج١٣، الباب٢٦ من أبواب مقدمات التجارة، ص٦٠، ح٣؛ اختيار معرفة الرجال: ج١، ص٣٨٨- ٣٨٩، ح٢٧٨.

وأعبدهم. أدرك من الأئمة ثلاثة، أبا إبراهيم موسى بن جعفرعليه السلام والرضا والجواد[١]، وذكر الجاحظ أنه كان واحد زمنه في الأشياء كلها، وله مصنفات كثيرة منها نوادره، وكان يحفظ منها أربعين مجلداً، عرض عليه هارون العباسي أن يتولى القضاء فرفض ذلك، فضربه السندي بن شاهك مائة خشبة وعشرين خشبة على التشيع أمام هارون، وحبس فأدى مائة وواحداً وعشرين ألف درهم حتى خلي عنه، وكان متمولاً[٢].

وفي عبادته قال الفضل بن شاذان: دخلت العراق فرأيت واحداً يعاتب صاحبه ويقول له: أنت رجل عليك عيال، وتحتاج أن تكسب عليهم، وما آمن من أن تذهب عيناك لطول سجودك. قال: فلما أكثر عليه قال: أكثرت عليّ ويحك! لو ذهبت عين أحد من السجود لذهبت عين ابن أبي عمير، ما ظنك برجل سجد سجدة الشكر بعد صلاة الفجر فما يرفع رأسه إلا عند الزوال[٣]؟

ومن غرائب صفات هذا الرجل الالتزام باتباع الإمامعليه السلام في أشد الظروف وأقساها، ففي الفقيه أن بن أبي عمير كان بزازاً فذهب ماله وافتقر، وكان له على رجل عشرة آلاف درهم فباع داراً له كان يسكنها بعشرة الآف درهم وحمل المال إلى بابه، فخرج إليه محمد بن أبي عمير فقال: ما هذا؟ ... قال: بعت داري التي أسكنها لأقضي ديني، فقال محمد بن أبي عمير: حدثني ذريح المحاربي عن أبي عبد اللهعليه السلام أنه قال: «لا يخرج الرجل عن مسقط

١ - خلاصة الأقوال: ص١٤٠، الرقم(١٧).

٢ - انظر اختيار معرفة الرجال: ج٢، ص٨٥٦؛ معجم رجال الحديث ج١٥، ص٢٩٥.

٣ - تفسير القمي: ج١، ص١٢؛ قاموس الرجال: ج٩، ص٤١ـ الرقم(٦٣٢٦).

رأسه بالدين» ارفعها فلا حاجة لي فيها، ووالله إني محتاج في وقتي هذا إلى درهم، وما يدخل ملكي منها درهم[١].

فمن يا ترى يترك هذا المال وهو في أمس الحاجة إليه لأجل أن لا يخالف حديثاً واحداً روي له عن إمامه؟ ومخالفته للحديث لم يترتب عليها أثر محرم؛ لأنه مضطر ويباح للمضطر ما لا يباح لغيره، إلاّ أنه لمزيد التسليم والتزهد ولمزيد التنزه عن الأنانية ومواساة الأخوان أبى أن يأخذ كل ذلك.

المظهر السادس: التفاني في الطاعة، واكتفي بتوضيح هذه الحقيقة بموقف جابر الجعفي، وهو من أجلاء الرواة وأعاظم الثقات، بل هو من حملة أسرار الأئمة وحفظة كنوز أخبارهم، حمل تسعين ألف حديث عن أبي جعفر لم يحدث بها أحداً قط ، لأن الإمام منعه من ذلك. قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: جعلت فداك أنك قد حملتني وقراً عظيماً بما حدثتني به من سركم الذي لا أحدث به أحداً، فربما جاش في صدري حتى يأخذني منه شبه الجنون قال: «يا جابر! فإذا كان ذلك فاخرج إلى الجبال (جبان- خ ل) فاحفر حفيرة ودل رأسك فيها ثم قل: حدثني محمد بن علي بكذا وكذا»[٢].

وكان له علم بالمستقبل وما يحدث في الزمان، وله علم بمفاتيح الولاية

---

١ - من لا يحضره الفقيه: ج٣، ص١٩٠، ٣٧١٥؛ وانظر قاموس الرجال: ج٩، ص٤٢، الرقم(٦٣٢٦).

٢ - بحار الأنوار: ج٢، ص٦٩، ح٢٢؛ ج٤٦، ص٣٤٠، ح٣٠؛ اختيار معرفة الرجال: ج٢، ص٤٤٢.

التكوينية على الأشياء وأسرارها[١]، وصفه الصادق عليه السلام بقوله: «إنما سمي جابراً لأنه جبر المؤمنين بعلمه، وهو بحر لا ينزح، وهو الباب في دهره والحجة على الخلق من حجة الله أبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام»[٢].

هذا الرجل بهذه المكانة والمنزلة. انظر كيف سلّم لأمر إمامه، فقد روى النعمان بن بشير قال: كنت مزاملاً لجابر بن يزيد الجعفي، فلما أن كنا بالمدينة دخل على أبي جعفر عليه السلام فودعه وخرج من عنده وهو مسرور حتى وردنا الأخيرجة أول منزل تعدل من فيد – بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة – إلى المدينة يوم جمعة فصلينا الزوال، فلما نهض بنا البعير إذا أنا برجل طوال آدم، معه كتاب، فناوله جابراً، فتناوله فقبله ووضعه على عينيه، وإذا هو من محمد بن علي إلى جابر بن يزيد، وعليه طين أسود رطب، فقال له: متى عهدك بسيدي؟ فقال: الساعة، فقال له: قبل الصلاة أو بعد الصلاة؟ فقال: بعد الصلاة، فقال: ففك الخاتم، وأقبل يقرأه ويقبض وجهه حتى أتى على آخره، ثم أمسك الكتاب فما رأيته ضاحكاً ولا مسروراً حتى وافى الكوفة، فلما وافينا الكوفة ليلاً بت ليلتي، فلما أصبحت أتيته إعظاماً له، فوجدته قد خرج علي وفي عنقه كعاب قد علقها، وقد ركب قصبة، وهو يقول:

أجد منصور بن جمهور ... أميراً غير مأمور

وأبياتاً من نحو هذا.

فنظر في وجهي ونظرت في وجهه فلم يقل لي شيئاً، ولم أقل له، وأقبلت

---

١ – انظر المناقب (لابن شهراشوب): ج٤، ص٢١١؛ تنقيح المقال: ج١٤، ص١١٧، الرقم (٣٥٨٥)؛ روضة المتقين: ج١٤، ص٧٧.

٢ – انظر خاتمة المستدرك: ج٤، ص٢١٣؛ سفينة البحار: ج١، ص٥٣٩.

أبكي لما رأيته، واجتمع علي وعليه الصبيان والناس، وجاء حتى دخل الرحبة، وأقبل يدور مع الصبيان والناس يقولون: جن جابر بن يزيد جن! فوالله ما مضت الأيام حتى ورد كتاب هشام بن عبد الملك إلى واليه: أن انظر رجلاً يقال له جابر بن يزيد الجعفي فاضرب عنقه، وابعث إليّ برأسه، فالتفت إلى جلسائه فقال لهم: من جابر بن يزيد الجعفي؟ قالوا: أصلحك الله كان رجلاً له علم وفضل وحديث، وحج فجن، وهو ذا في الرحبة مع الصبيان على القصب. يلعب معهم قال: فأشرف عليه فإذا هو مع الصبيان يلعب على القصب فقال: الحمد لله الذي عافاني من قتله. قال: ولم تمض الأيام حتى دخل منصور بن جمهور الكوفة وصنع ما كان يقول جابر[١].

هذا الموقف يتوافق مع مضمون وصية أبي جعفر الباقر عليه السلام لجابر في الأخلاق والتفاني يقول فيها: «واعلم بأنك لا تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا: إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك، ولو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، ولكن أعرض نفسك على كتاب الله فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزهيده راغباً في ترغيبه خائفاً من تخويفه فاثبت وابشر، فإنه لا يضرك ما قيل فيك، وإن كنت مبايناً للقرآن فماذا الذي يغرك من نفسك، إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقم أودها ويخالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعشه الله فينتعش ويقيل الله عثرته»[٢].

١ - الكافي: ج١، ص٣٩٦- ٣٩٧، ح٧؛ وانظر تنقيح المقال: ج١٤، ص١١٤-١١٥، الرقم(٣٥٨٥).

٢ - بحار الأنوار: ج٧٥: ص١٦٢- ١٦٣، ح١.

ومن المؤسف حقاً أن هذا العالم الكبير الذي علمه يغطي مساحات واسعة من الحياة أعرض عنه الجمهور للتشيع، وكان عنده سبعون ألف حديث عن الباقر عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وإن القوم تركوها كلها لأنه كان يؤمن بالرجعة(١). ترى ما هذه النفس الكبيرة التي تجعل من عالم كبير وفقيه جليل يوقع نفسه في الجنون ويصير نفسه أضحوكة وألعوبة للناس لأجل أن يطع أمر إمامه ويسلم له بلا ضيق أو حرج أو تردد؟

المظهر السابع: الخضوع والتسليم، ويكفينا شرحاً لهذه الحقيقة سلوك عبد الله بن أبي يعفور، وهو ثقة جليل في أصحابنا كريم على أبي عبد الله عليه السلام، وكان قارئاً في مسجد الكوفة، وكان من حواريي الصادقين عليهما السلام، ومن الفقهاء المعروفين الذين هم عيون هذه الطائفة. يعد مع زرارة وأمثاله(٢). قال الصادق عليه السلام في حقه: «ما وجدت أحداً يقبل وصيتي ويطيع أمري إلاّ عبد الله بن أبي يعفور»(٣) وروي أنه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: والله لو فلقت رمانة بنصفين فقلت: هذا حرام وهذا حلال لشهدت أن الذي قلت حلال حلال، وأن الذي قلت حرام حرام. قال: «رحمك الله»(٤).

وروي أنه لزمته شهادة فشهد بها عند أبي يوسف القاضي، فقال له أبو يوسف: ما عسيت أن أقول فيك يا بن أبي يعفور وأنت جاري ما علمتك إلاّ صدوقاً طويل الليل ولكن تلك الخصلة. قال: وما هي؟ قال: ميلك إلى

١ - بحار الأنوار: ج٥٣، ص١٣٩ - ١٤٠.
٢ - انظر لكنى والالقاب: ج١، ص٢٠٥.
٣ - سفينة البحار: ج٦، ص٤١.
٤ - اختيار معرفة الرجال: ج٢، ص٥١٨، ح٤٦٢.

الترفض، فبكى ابن أبي يعفور حتى سالت دموعه ثم قال: يا أبا يوسف! نسبتني إلى قوم أخاف أن لا أكون منهم، فأجاز شهادته[١].

وكتب الصادقعليه السلام فيه إلى المفضل بعد وفاته: «مضى موفياً لله جل وعز ولرسوله ولإمامه بالعهد المعهود لله، وقبض صلوات الله على روحه محمود الأثر، مشكور السعي، مغفوراً له، مرحوماً برضى الله ورسوله وإمامه عنه، فبولادتي من رسول اللهصلى الله عليه وآله ما كان في عصرنا أحد أطوع لله ولرسوله ولإمامه منه، فما زال كذلك حتى قبضه الله إليه برحمته، وصيره إلى جنته»[٢].

وأنت إذا تأملت في سيرة هؤلاء الرجال ومواقفهم وأنهم كانوا يرمون بأنفسهم في أشد الأحوال حرجاً وهم الكبار وأصحاب المكانة والوجاهة لأجل أمر يصدر من إمامهم وهم في تطبيقه مخيرون تعرف أن هؤلاء كانوا من نوادر الرجال الذين قلما يجود الزمان بمثلهم إيماناً وجهاداً وصبراً في محبة الإمامعليه السلام وطاعته.

وبهذا يتضح جلياً الحد الفاصل بين المحب والموالي، وبين الموالي والشيعي في مصطلح الأخبار الشريفة. جعلنا الله سبحانه من الشيعة بحق أوليائه محمد وآله الطاهرين.

---

١ - تهذيب الأحكام: ج٦، ص٢٧٨، ح١٦٨؛ الكنى والالقاب: ج١، ص٢٠٦.
٢ - اختيار معرفة الرجال: ج٢، ص٥١٨، ح٤٦١.

المبحث الثاني
في الوظيفة الخاصة في عصر الغيبة

وهي انتظار فرج قائم آل محمد عليهم السلام، لينشر العدل الإلهي في الأرض، ويقمع الظلم والجور بين العباد، وهي من أعظم الواجبات على الأمة في زمن الغيبة، بل هي جامع عنواني للكثير من الواجبات والوظائف نفصّل الكلام فيها في ضمن مطالب:

المطلب الأول: في أهمية الانتظار ووجوبه

تتضافر الأدلة العقلية والنقلية على أن انتظار فرج مولانا ولي الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف من أعظم حقوقه على الأمة في زمان غيبته من جهات عديدة:

منها: أنه حجة الله وخليفته.

ومنها: أنه واسطة الفيض الإلهي على الخلق.

ومنها: أنه بركة الأرض ومستقرها، وبيمنه رزق الورى، وبوجوده المبارك ثبتت الأرض والسماء، فحقه الثابت على الأمة ليس من جهة إمامته فقط ، بل له حق الوجود على الخلق أجمع وحق الإفاضة والتدبير، وبهذه الحقوق

يثبت له وجوب المعرفة والمحبة والطاعة كما يثبت له الحق في رقاب الجميع أن ينتظروا ظهوره ويعدوا العدة له، وفي ذلك تتحقق ثلاث غايات:

الأولى: أداء ما يجب على الأمة تجاهه صلوات الله عليه، فتكون في طريق الإيمان الحق والانضمام في شريحة أنصاره وأعوانه التي هي من أعظم غايات الأنبياء والأولياء.

والثانية: تحقيق غايات الأنبياء والرسالات السماوية في إصلاح البشر وهدايتهم إلى الله سبحانه.

والثالثة: اصلاح الأرض واستيفاء الحقوق بالعدل الإلهي، فانتظار الفرج الشريف من أهم الوظائف الدينية والعقلية في زمن الغيبة التي ساد فيها الظلم والفساد وحكم الجور كل شبر من المعمورة، وقد عرفت من المباحث السابقة أن الإمام الذي أخفاه الله سبحانه بين عباده وأخره لإقامة الفرائض والسنن ونشر راية الهدى في آخر الزمان هو خاتم العترة الهادية من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله الحجة بن الحسن المهدي عليه السلام.

وقد تواترت الأخبار الواردة بطرق الفريقين في شأنه، وهي في أصلها من الحقائق التي يتفق عليها جميع أهل المذاهب والأديان وإن اختلفوا في صفات الإمام وخصوصياته، وقد أكد النبي صلى الله عليه وآله هذه الحقيقة منذ بدأ الإسلام إلى جميع الأمة، ونقلها الصحابة، وقد أحصي أربعمائة حديث عنه صلى الله عليه وآله واردة بطرق الجمهور عن هذه الحقيقة، وهي إذا عودلت بما ورد في الصلاة والصيام ونحوها من أركان الإسلام لفاقتها عدداً، ومجموع ما ورد بطرق الفريقين عن هذه الحقيقة الإلهية يفوق أكثر من ستة آلاف رواية، ولعل

المتتبع في أهم قضايا الإسلام في أصوله وفروعه قد لا يجد فيها هذا الكم الهائل من الروايات[١].

وهذا في نفسه دليل جازم لا يقبل الشك على أهمية الاعتقاد بهذه الحقيقة الإلهية، وأنها من أهم الأركان التي يقوم عليها إيمان الأمة، بل هي العلة التي تحفظ غاية الخلق والتكوين وحكمة إرسال الأنبياء وإنزال الكتب، ولولاها للزم العبث في الخلق ونقض الغرض من الشرائع السماوية.

ولا خلاف بين عقلاء العالم في ضرورة وجود مصلح عالمي يبدل الظلم العالمي إلى عدل، والفساد إلى إصلاح، والاختلاف الحاصل بينهم في بعض خصوصيات المصلح وصفاته.

فالجميع متفقون في الكبرى، والاختلاف في الصغرى، وسيظهر الله سبحانه للجميع شخص المهدي بصفاته ومقاماته الإلهية بما لا يقبل الشك عند جميع الأمم، ويكون حجة على الجميع، ولو روعي الإنصاف والحياد العلمي في النظر في شخص المهدي عجل الله فرجه وخصوصياته الربانية لما اختلف فيه أحد، إلاّ أن الدوافع السياسية أو العصبية هي التي ساقت البعض إلى المناقشة الصغروية وإن أذعنوا إلى الحقيقة كبروياً[٢].

هذا وقد دلت النصوص المتواترة على وجوب انتظار فرج آل محمد عليهم السلام بظهوره وفضل الثواب والعطاء الإلهي للمنتظرين.

---

١ - انظر بداية المعارف الإلهية: ج٢، ص١٥٢؛ مكيال المكارم: ج١، ص٣٤.

٢ - هذا وقد أثرى البحث في المهدي عجل الله فرجه من حيث الولادة والنسب والسيرة الذاتية وبيان حكمة الغيبة وأسبابها وتفسير حقيقتها جمع كبير من العلماء وأهل التحقيق من الفريقين، وقد ألفت فيه المئات من الكتب والمقالات والدراسات بما قد يغني عن مزيد البيان هنا.

منها: رواية أبي الجارود قال: قلت لأبي جعفرعليه السلام يا بن رسول الله! هل تعرف مودتي لكم وانقطاعي إليكم وموالاتي إياكم؟ قال: فقال: «نعم» فقلت: إني أسألك مسألة تجيبني فيها، فإني مكفوف البصر، قليل المشي، ولا أستطيع زيارتكم كل حين. قال: «هات حاجتك» قلت: أخبرني بدينك الذي تدين الله عز وجل به أنت وأهل بيتك لأدين الله عز وجل به. قالعليه السلام: «إن كنت أقصرت الخطبة فقد أعظمت المسألة، والله لأعطينك ديني ودين آبائي الذين ندين الله عز وجل به: شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، والولاية لولينا، والبراءة من عدونا، والتسليم لأمرنا، وانتظار قائمنا، والأجتهاد والورع»(١) وقريب من هذا المضمون ورد في رواية إسماعيل الجعفي عنهعليه السلام (٢).

ومنها: رواية أبي بصير عن أبي عبد اللهعليه السلام أنه قال ذات يوم: «ألاّ أخبركم بما لا يقبل الله عز وجل من العباد عملاً إلاّ به؟» فقلت: بلى، فقال: «شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسولهصلى الله عليه وآله، والإقرار بما أمر الله، والولاية لنا، والبراءة من أعدائنا - يعني الأئمة خاصة - والتسليم لهم، والورع والاجتهاد والطمأنينة والانتظار للقائمعليه السلام» ثم قالعليه السلام: «إن لنا دولة يجيء الله بها إذا شاء» ثم قال: «من سره أن يكون من أصحاب القائم فلينتظر، وليعمل بالورع ومحاسن الأخلاق وهو منتظر، فإن مات وقام القائم بعده كان له من الأجر مثل أجر من أدركه، فجدوا وانتظروا هنيئاً لكم أيتها العصابة المرحومة»(٣).

---

١ - الكافي: ج٢، ص٢١- ٢٢، ح١٠.
٢ - الكافي: ج٢، ص٢٢، ح١٣.
٣ - الغيبة (للنعماني): ص١٠٦.

ومنها: ما رواه الصدوق قدس سره بإسناده عن عبد العظيم الحسني قال: دخلت على سيدي محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وأنا أريد أن أسأله عن القائم المهدي أو غيره فابتدأني وقال لي: «يا أبا القاسم! إن القائم منا هو المهدي الذي يجب أن ينتظر في غيبته ويطاع في ظهوره، وهو الثالث من ولدي»[1].

ومنها: ما رواه الخزاز القمي في كفاية الأثر بإسناده عن مسعدة قال: كنت عند الصادق عليه السلام إذ أتاه شيخ كبير قد انحنى متكئاً على عصاه، فسلّم فرد عليه أبو عبد الله عليه السلام الجواب، ثم قال: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله! ناولني يدك أقبلها، فأعطاه يده فقبلها، ثم بكى، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ما يبكيك يا شيخ؟» قال: جعلت فداك أقمت على قائمكم منذ مائة سنة أقول: هذا الشهر، وهذه السنة، وقد كبرت سني ودق عظمي، واقترب أجلي، ولا أرى فيكم ما أحب، أراكم مقتولين مشردين، وأرى عدوكم يطيرون بالأجنحة فكيف لا أبكي؟ فدمعت عينا أبي عبد الله عليه السلام ثم قال: «يا شيخ أن أبقاك الله حتى ترى قائمنا كنت معنا في السنام الأعلى، وإن حلت بك المنية جئت يوم القيامة مع ثقل محمد صلى الله عليه وآله ونحن ثقله، فقال صلى الله عليه وآله: إني مخلف فيكم الثقلين فتمسكوا بهما لن تظلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي» فقال الشيخ: لا أبالي بعد ما سمعت هذا الخبر.

ثم قال عليه السلام: «يا شيخ! أن قائمنا يخرج من صلب الحسن، والحسن يخرج من صلب علي، وعلي يخرج من صلب محمد، ومحمد يخرج من صلب علي،

---

١ - كمال الدين: ج٢، ص٣٧٧، ح١.

وعلي يخرج من صلب أبني هذا وأشار إلى موسى عليه السلام، وهذا خرج من صلبي، نحن اثنا عشر كلنا معصومون مطهرون»[١] وقريب من هذه القصة وقعت لشيخ آخر مع أبي جعفر عليه السلام [٢].

وتدل هذه الروايات المباركة على حقائق عديدة:

الحقيقية الأولى: أن انتظار الفرج من الأصول التي يقوم عليها تدين العبد، وهذا التدين هو من صميم دين الأئمة الطاهرين عليهم السلام، فهو يقع في مصاف الشهادة لله بالوحدانية، وللنبي بالنبوة، وللأئمة بالولاية، فيكون واجباً وجوباً نفسياً عينياً تعيينياً على جميع العباد، فكما لا يمكن أن يكون المؤمن مؤمناً وهو منكر شاك في النبوة أو الإمامة كذلك إذا شك في ظهور القائم وانتظاره.

ومن هنا دلت رواية أبي بصير على أنها من شروط قبول الأعمال، ووجهه ظاهر، وذلك لأن النسبة بين صحة العمل وقبوله هي العموم من وجه، ولا يكون العمل مقبولاً إلاّ باستيفاء شرائط الإيمان.

الحقيقة الثانية: أن الغاية من ظهور القائم عجل الله فرجه هو تكوين دولة العدل الإلهي لتمثل التطبيق العملي للأحكام والعدالة الإلهية، وبها تقوم الحجة على من أنكر ذلك أو شك أو انحرف عنها بدعاوى العجز أو عدم إمكانية التطبيق.

الحقيقة الثالثة: أن الناس بالقياس إلى انتظار الفرج على صنفين:

صنف عام وهم الكثير من الناس الذين يؤمنون بالمهدي عليه السلام وبظهوره،

---

١ - كفاية الأثر: ص٢٦٤؛ بحار الأنوار: ج٣٦، ص٤٠٨، ح١٧.

٢ - انظر الكافي: ج٨، ص٧٦، ح٣٠.

وينتظرون ذلك الظهور وحسب، وهم بهذا مطيعون للحكم الشرعي بوجوب الانتظار، وهذا الامتثال يضعهم في صفوف عموم المؤمنين.

وصنف خاص وهم الذين ينتظرون الفرج، ويلتزمون في أوقات الانتظار بالتقوى والعمل الصالح والورع ومحاسن الأخلاق، وهؤلاء يحظون برتبة صحبة القائم فيكونون من أنصاره، وهذه الصحبة منزلة معنوية يبلغها المؤمن بالطاعة والعمل وليس بالانتظار وحده، فلذا تلازمه حتى بعد موته، فيعطى أجر من أدرك المهدي عليه السلام وعمل تحت رايته، وهذا المقام تفضلي يعطاه المؤمن بالرحمة الإلهية، وحيث إنه لا يناله إلاّ ذو حظ عظيم وهم القلة وصف الإمام من يناله بالعصابة المرحومة.

ومن بركات هذه الرحمة أن يخبر بالعودة مع المهدي عليه السلام في ظهوره ولو كان ميتاً، فعن الفضل بن شاذان بإسناده عن المفضل بن عمر قال: ذكرنا القائم عليه السلام ومن مات من أصحابنا ينتظره فقال لنا أبو عبد الله عليه السلام: «إذا قام أتي المؤمن في قبره فيقال له يا هذا إنه قد ظهر صاحبك، فإن تشأ أن تلحق به فالحق، وإن تشأ أن تقيم في كرامة ربك فأقم»[١].

ومن هنا أكدت الأخبار النبوية على أن انتظار الفرج من أفضل أعمال الأمة[٢]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه أحب الأعمال إلى الله[٣]، وأن من مات وهو منتظر للفرج يكون كمن استشهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٤].

١ - الغيبة (للطوسي): ص٢٧٦.
٢ - عيون أخبار الرضا: ج١، ص٣٩، ٨٧؛ بحار الأنوار: ج٥٢، ص١٢٢، ح٢.
٣ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص١٢٣، ح٧.
٤ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص ١٢٦، ح١٨.

وفي كمال الدين عن الصادقعليه السلام عن آبائهعليهم السلام قال: «المنتظر لأمرنا كالمتشحط بدمه في سبيل الله»[١] وفي رواية أخرى: «طوبى لشيعة قائمنا المنتظرين لظهوره في غيبته والمطيعين له في ظهوره، أولئك أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[٢] إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة جداً التي تنص على مزيد الفضل والثواب في الالتزام بهذه الحقيقة[٣].

بل في رواية أبي خالد الكابلي عن علي بن الحسينعليه السلام: «أن أهل زمان غيبته القائلين بإمامته المنتظرين لظهوره أفضل من أهل كل زمان؛ لأن الله تعالى ذكره أعطاهم من العقول والأفهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول اللهصلى الله عليه وآله»[٤].

الحقيقة الرابعة: أن وجوب الانتظار عقلي وشرعي نفسي عيني تعييني لا يستثنى منه أحد، وهو واجب على الصغير والكبير والمريض والسليم والمرأة والرجل كالتوحيد والنبوة والإمامة، وقد دل عليه لفظ (الدين) الذي هو دين الأئمة الظاهر في أنه الأصل الذي يقوم عليه الدين، وجعله من شرائط الإيمان وقبول العمل، ومادة الأمر الواردة في رواية عبد العظيم الحسني عن الجوادعليه السلام وهي قوله: «الذي يجب أن ينتظر» فإنها ظاهرة في الوجوب.

الحقيقة الخامسة: أن وجوب انتظار الفرج كان من الحقائق المعروفة

١ – كمال الدين: ج٢، ص٦٤٥، ح٦.
٢ – كمال الدين: ج٢، ص٣٥٧، ح٥٤.
٣ – انظر بحار الأنوار: ج٥٢، باب٢٢.
٤ – كمال الدين: ص٣٢٠، ح٢؛ الاحتجاج: ج٢، ص٥٠.

المشهورة بين المسلمين، حتى إن البعض انتظر مائة سنة قبل ولادة المهدي عجل الله فرجه، وكان يلتزم بها ويعمل بمقتضياتها كما نصت عليه رواية مسعدة التي أوردها صاحب البرهان، وبذلك يتضح أن هذه الحقيقة أسست منذ الصدر الأول.

الحقيقة السادسة: أن المهدي عجل الله فرجه من عترة النبي من صلب الحسن العسكري عليه السلام وليس من صلب الحسن المجتبى عليه السلام كما يراه البعض، وهو حسيني النسب لا حسني، وقد أكد الإمام الجواد عليه السلام هذه الحقيقة بقوله هو «الثالث من ولدي» وأكده الصادق عليه السلام للشيخ بذكر سلسلة النسب الذي ينحدر منه، ثم نفى الإمامة عن غيرهم حيث نص على أنهم اثنا عشر معصوماً مطهراً، وبهذا تثبت الإمامة فيهم، وتنتفي عن غيرهم، فلا يبقى مجال لشاك أو مرتاب.

والحاصل من كل ما تقدم: أن انتظار ظهور مولانا الحجة عجل الله فرجه من الأصول التي يقوم عليها عمود الدين والتدين، نظير التوحيد والنبوة، وهي من الواجبات الشرعية على كل فرد في الأمة، وأن مخالفتها يوجب الإخلال بشروط الإيمان والأعمال.

المطلب الثاني: في معنى انتظار الفرج

الفرج - بالفتحتين - في اللغة انكشاف الغم. يقال فرّج الله الغم عنه أي كشفه وأذهبه[1]، وهو معنى عام إلّا أنه في اصطلاح الروايات يطلق غالباً على معنى خاص، وهو ظهور حجة الله على الأرض في آخر الأزمان ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، وتسمية الظهور بالفرج من باب إطلاق لفظ السبب على المسبب، أو اللازم على الملازم له؛ لأن ظهوره عليه السلام فرج المؤمنين بالأمن والعدل والسلامة في الدين والدنيا، والفرج عن الأحكام والعدالة الإلهية التي أقصاها الظالمون عن التطبيق.

وأما الانتظار فهو مصدر يدل على مزيد الفعل والمطاوعة نظير الانكسار والانحصار في اللغة ومأخوذ من معنيين:

أحدهما: النظر وهو تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، ومعناه هنا إعمال النظر والفحص لإدراك الشيء ومعرفته بروّية ومهل[2]، واستعماله

---

١ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٢٨، (فرج)؛ لسان العرب: ج٢، ص٣٤٣، (فرج)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٣٢٢، (فرج).

٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨١٢-٨١٣، (نظر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤٩٧، (نظر).

في البصيرة أكثر من استعماله بالبصر عند الخاصة[١]، وفيه ورد قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾[٢] أي أمهلونا.

ثانيهما: الترقب لوقوع الشيء. يقال انتظره أي ترقبه وتأنّى عليه، ومنه المثل (إن غداً لناظره قريب) أي لمنتظره[٣]، وعرف الانتظار بأنه طلب الإدراك لما يأتي من الأمر[٤]، ولعله معنى جامع للمعنيين، وهو أعم من الترجي؛ لأنه يقع في الخير والشر، بخلاف الترجي فإنه للخير فقط[٥]، ومن هنا قيدته الروايات بالفرج فأوجبت انتظار الفرج؛ ليدل على الخير، ويشترط في الانتظار شرطان:

الأول: أن يكون الأمر المنتظر مما يهم المنتظرين، ومن هنا ينبغي تقييد التعريف بالمهم، فيقول هو طلب الإدراك لما يأتي من الأمر المهم، والمقصود من الإدراك الوصول إلى الشيء حساً أو علماً، وعلى هذا الأساس تختلف وظائف المنتظرين، فإن البلوغ الحسي يوجب التهيؤ الجسدي، والبلوغ العلمي يوجب التهيؤ النفسي والفكري.

والثاني: أن يكون الأمر المنتظر خارجاً عن اختيار المنتظرين، فلا يملكون أمره وإن علموا بوقته أحياناً.

وتقييد التعريف بالطلب للإشارة إلى أن الفرج لا يحصل صدفة، بل لابد

١ - بصائر ذوي التمييز: ج٥، ص٨٢، بصيرة (٣٦).
٢ - سورة الحديد: الآية١٣.
٣ - المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٣٢، (نظر).
٤ - انظر مجمع البيان: ج٥، ص٣٤٩.
٥ - انظر مجمع البيان: ج٥، ص٣٤٩.

من السعي إليه عبر أسبابه وعلله، وذلك لكونه من النعم الإلهية العظمى التي لا تنال إلاّ بوجود الاستعداد والقابلية حسب معادلة الفيض الإلهي الذي ينزل على العباد بقدر استعدادهم وقابلياتهم، وبهذا يتضح:

أولاً: أن الفرج الإلهي من الفيوضات الربانية التي تتوقف على الاستعداد في البشر.

ثانياً: أن هذا الاستعداد مما يجب على الناس السعي إلى إيجاده وتوفيره.

ثالثاً: أن الاستعداد بعضه حسي مادي والآخر علمي معنوي، كما أن بعضه فردي يخص كل موالي، وبعضه جماعي يخص مجموع الأمة، فلا يصدق عنوان انتظار الفرج إلاّ بالتهيؤ والاستعداد النفسي والفكري والعملي لأجل حصوله والوصول إليه، ومن دون ذلك يكون ناقصاً أو كاذباً، ولازم نقصانه أو كذبه هو ظهور اليأس على نفوس الناس، وتسلط الظلم والبؤس والشقاء عليهم، وضمور الخيرات والبركات في حياتهم.

رابعاً: أن هناك أكثر من حكمة إلهية تقف وراء الأمر بانتظار الفرج بعضها يعود إلى الموالين أنفسهم، وبعضها يعود إلى مجموع الأمة:

منها: أنه يوجه الأمة أفراداً وجماعات إلى هدف واحد ويجمعهم في رؤية واحدة، وينسق جهودهم في الانشغال بالاستعداد والتهيؤ له، وهذا شرط أساس للتقدم في كل أمة تريد أن تأخذ موقعها بين الأمم، وتبني مستقبلها باقتدار.

ومنها: أنه يجعل الأمل والتفاؤل هما الحاكمان على الأوضاع الاجتماعية والسياسية للأمة، فيزول البؤس واليأس من حياتها؛ لأنها ترجو يوماً تعيش

فيه طموحاتها وأهدافها، وهذا من شأنه أن يعود على نفوس أبنائها بالتطلع الدائم إلى الفرج والخلاص الذي هو الآخر من أهم عناصر السعادة والتطور.

ومنها: الترويض على الصبر والتحمل لصعوبات الحياة، فإن كل من يعلم وراء الضيق فرجاً يصبر.

ومنها: أنه يزرع القدوة الحسنة في أذهان القادة ونفوسهم، ويجعلهم يتطلعون دائماً إلى الأفضل في الأساليب والخطط والأهداف؛ إذ لا مجال لأن يكون الموالي من أصحاب المهدي المرضيين عنده وهو يخالفه في قول أو فعل من أي مستوى كان، وفي أي صعيد يعمل، فانتظار الفرج يفيء بظلاله على الجميع ويدعوهم إلى إصلاح النفوس أولاً، ثم إصلاح الآخرين ثانياً؛ ليحظوا بهذه المنزلة العظيمة.

ومن الواضح أن المنتظر لقدوم مولاه والمترقب للفرج لا يكون صادقاً ما لم يتحل بأحسن حال تليق بالانتظار، وهذا ما أكدته رواية أبي بصير عن الصادق عليه السلام حيث قال: «من سره أن يكون من أصحاب القائم فلينتظر وليعمل بالورع ومحاسن الأخلاق وهو منتظر»[1] وهذا ما تؤكده السيرة العقلائية وتقتضيها طبائع الأشياء في الانتظار والاستعداد للقاء الأحبة؛ بداهة أن الاستعداد والانتظار على قدر الحب وشدة اللهفة على المحبوب، ومن هنا أوجبت الروايات الشريفة على المنتظرين لفرج المهدي عجل الله تعالى فرجه أن يتحلوا بطائفة من الصفات بها يستحقون نيل هذا الشرف العظيم في زمان الغيبة، أو يحظون بمرافقته في ظهوره.

١ - الغيبة (للنعماني): ص٢٠٠، ح١٦.

المطلب الثالث: في واجبات الانتظار

هناك جملة من الواجبات الحقوقية للإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف يجب على الأمة أن تقوم بها، وتعد نفسها للفرج. ليس من السهل عدها أو حصرها بل لعله متعذر قياساً إلى نعمة وجود الإمام عليه السلام، وبركاته الشاملة للتكوين والتشريع والتدبير؛لذا سنقتصر على ذكر بعض المهم منها:

الأول: وجوب معرفته بشخصه وأوصافه

ويكفي فيه المعرفة بالاسم والنسب والصفات الإلهية الواجبة في الإمام التي تقدم بيانها، وقد مر عليك أن معرفة الإمام من شروط الإيمان، فلا إيمان بلا معرفة إمام الزمان كما دل عليه العقل والنقل، ففي كمال الدين عن أبي الحسن عليه السلام قال: «من شك في أربعة فقد كفر بجميع ما أنزل الله تبارك وتعالى، أحدها: معرفة الإمام في كل زمان وأوان بشخصه ونعته»[1].

بل المستفاد من الأخبار أن انتظار الفرج له أثران إيجابي وسلبي. أما الأثر الايجابي فهو أن معرفة الإمام تلحق أهلها بأصحاب الحجة وأنصاره، ففي رواية الفضيل بن يسار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «يا فضيل! اعرف إمامك،

---

١ - الهداية: ص٢٩، ح٢؛ كمال الدين: ص٤١٣، ح١٤.

فإنك إذا عرفت إمامك لم يضرك تقدم هذا الأمر أو تأخر، ومن عرف إمامه ثم مات قبل أن يقوم صاحب هذا الأمر كان بمنزلة من كان قاعداً في عسكره، لا بل بمنزلة من قعد تحت لوائه»[١] والروايات بهذا المضمون كثيرة[٢].

وفي رواية المفضل بن عمر قال سمعت الصادق عليه السلام يقول: «من مات منتظراً لهذا الأمر كان كمن كان مع القائم في فسطاطه، لا بل كان كالضارب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله بالسيف»[٣].

وأما الأثر السلبي فهو أن الجهل بالإمام عليه السلام أو الشك فيه يلحق صاحبه بأهل الجاهلية، فعن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من أنكر القائم من ولدي في زمان غيبته مات ميتة جاهلية»[٤].

وفي كون اللحوق موضوعياً أو حكمياً احتمالان، وقد مر عليك بعض التفصيل عن ذلك في الفصول السابقة، وقد تواترت الأخبار الشريفة بتحديد شخص الإمام المهدي عليه السلام ونسبه وصفاته الإلهية، ونكتفي هنا بنقل الخبر الصحيح الوارد عن أبي جعفر الثاني عليه السلام في ذلك. قال: «أقبل أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم ومعه الحسن بن علي عليه السلام وسلمان الفارسي وأمير المؤمنين متّكئ على يد سلمان، فدخل المسجد الحرام فجلس؛ إذ أقبل رجل حسن الهيئة واللباس، فسلم على أمير المؤمنين عليه السلام، فرد عليه السلام فجلس، ثم قال: يا أمير المؤمنين! أسألك عن ثلاث مسائل إن أخبرتني بهن

١ - الغيبة (للنعماني): ص٣٢٩، ح٢؛ الكافي: ج١، ص٣٧١، ح٢.
٢ - انظر بحار الأنوار: ج٥٢، ص١٤٢، ح٥٢، ح٥٥، ح٥٦.
٣ - كمال الدين: ج٢، ص ٣٣٨، ح١١.
٤ - كمال الدين: ص٤١٣، ح١٢؛ بحار الأنوار: ج٥١، ص٧٣، ح٢١.

علمت أن القوم ركبوا من أمرك ما أقضي عليهم أنهم ليسوا بمأمونين في دنياهم ولا في آخرتهم، وإن تكن الأخرى علمت أنك وهم شرع سواء، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: سلني عمّا بدالك، فقال: أخبرني عن الرجل إذ نام أين تذهب روحه؟ وعن الرجل كيف يذكر وينسى؟ وعن الرجل كيف يشبه ولده الأعمام والأخوال؟ فالتفت أمير المؤمنين عليه السلام إلى أبي محمد الحسن فقال: يا أبا محمد أجبه، فأجابه الحسن عليه السلام ... فقال الرجل: أشهد أن لا إله إلاّ الله ولم أزل أشهد بها، وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم أزل أشهد بها، وأشهد أنك وصيه والقائم بحجته بعده - وأشار إلى أمير المؤمنين عليه السلام - ولم أزل أشهد بها، وأشهد أنك وصيه والقائم بحجته وأشار إلى الحسن عليه السلام، وأشهد أن الحسين بن علي وصي أبيك والقائم بحجته بعدك، ثم عدد سائر الأئمة عليهم السلام إماماً بعد آخر، ثم قال: وأشهد على رجل من ولد الحسن - العسكري - لا يكنى ولا يسمى حتى يظهر أمره فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

ثم قام فمضى، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: يا أبا محمد! اتبعه فانظر أين يقصد، فخرج الحسن عليه السلام في أثره، فقال: ما كان إلاّ أن وضع رجله خارج المسجد فما دريت أين أخذ من أرض الله، فرجعت إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأعلمته، فقال: يا أبا محمد! أتعرفه؟ فقلت: الله ورسوله وأمير المؤمنين أعلم، فقال: هو الخضر عليه السلام »[١]، وتؤكد الرواية على أكثر من حقيقة:

الحقيقة الأولى: أنها تضمنت تقديراً ربانياً لإظهار إمامة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام

١ - الإمامة والتبصرة: ص١٠٦ - ١٠٨، ح٩٣؛ كمال الدين: ص٣١٣ - ٣١٥، ح١.

بواسطة الخضر الذي أعطاه الله بقدرته جملة من الخصائص التي يشترك فيها مع المهدي عجل الله تعالى فرجه، وأبرزها خصلتان هما طول الحياة وخفاؤه عن الأنظار.

الحقيقة الثانية: أن سؤال الخضر من أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن على وجه الحقيقة، بل هو من مصاديق سؤال العارف الذي يريد أن يظهر الحقيقة للجاهلين عبر سؤاله، وهذه طريقة متداولة عند أولياء الله لإظهار الإيمان والصفات الإلهية في الأنبياء والأولياء؛ لأنهم يكلمون الناس على قدر عقولهم، وقد أقر القرآن هذه الطريقة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[1] فإن سؤال الباري عن العصا لا يتناسب مع علمه بحسب موازين السؤال والجواب، إلاّ أنه قد يتظاهر العالم بالسؤال لأجل إعلام الجاهلين.

كما أن جواب موسى عليه السلام المفصل لا يتناسب مع محاورة العالم؛ لأن الباري عز وجل يعلم أسرار العصا وغاية موسى منها، إلاّ أن موسى فصل في الجواب لإعلام الناس بشأن هذه العصا، وأنها تحتوي في باطنها على آيات إلهية كبيرة وإن كانت في ظاهرها خشبة، فالسؤال والجواب في الآية كان بلسان إياك أعني وسمعي يا جارة، وعلى هذه الطريقة والغاية جاء سؤال الخضر وتخويل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الإمام الحسن عليه السلام بالجواب عنه.

ومن هنا قال الخضر: «إن أخبرتني بهن علمت أن القوم ركبوا من أمرك

---

١ – سورة طه: الآيتان ١٧ – ١٨.

ما قضي عليهم» فهو في مقام إظهار الحقيقة بخلافة النبي وإبراز علو شأن أمير المؤمنين عليه السلام وارتفاع رتبته في مقابل القوم الذين ظلموه وغصبوا حقه فيها، وبذلك تتم الحجة عليهم وعلى من شايعهم أو ادعى الجهل بالحقيقة، ولذا أقر الخضر بإمامة الأئمة عليهم السلام واحداً بعد واحد بحسب النص الإلهي والتنصيب النبوي من أميرهم إلى مهديهم عليهم السلام.

الحقيقة الثالثة: أن إرسال أمير المؤمنين عليه السلام الحسن عليه السلام خلفه وإخبار الحسن بأنه ما درى أين أخذ طريقه هو الآخر يدخل في هذه الغاية؛ إذ لو لم يخبر الإمام بذلك قد لا يعلم أحد من الناس الجاهلين بأنه الخضر، وأنه مرسل من قبل الله سبحانه.

وكذلك قول الحسن عليه السلام: «الله ورسوله وأمير المؤمنين أعلم» ورد لإظهار هذه الحقيقة، وإلاّ فإن الإمام عليه السلام عالم بكل ذلك مطلع عليه على ما عرفت تفصيله في باب علم الإمام عليه السلام.

وخلاصة الأمر: يجب على الأمة معرفة إمام زمانها معرفة تامة باسمه وشخصه وصفاته الإلهية، وهذه المعرفة هي أول حقوقه على الأمة، وأول خطوة في طريق انتظار فرجه، فلا يعقل أن تنتظر الأمة فرج مولاها وهي جاهلة به وبمقاماته ومهامه، وقد تواترت أخبار الفريقين في شرح ذلك نكتفي بما مر عليك منها[1].

---

١ - انظر التفاصيل في بحار الأنوار: ج٥١، ص٦٥، باب١ ما ورد من أخبار الله وأخبار النبي بالقائم عليه السلام من طرق الخاصة والعامة.

الثاني: إظهار الشوق إلى لقائه بالقول والعمل

وهو من علائم المحبة والولاية، وهو في نفسه من المستحبات المؤكدة لوروده في مضامين الأدعية والزيارات الواردة عنهم عليهم السلام[١]، بل المستفاد من سيرة المعصومين عليهم السلام أنهم كانوا يظهرون هذا الشوق، ويتمنون حضور أيامه عليه السلام لما فيها من الخيرات والبركات وظهور العدل الإلهي على الأرض وبلوغ العباد مراتب من الكمال عالية تتجلى فيها العبودية والطاعة لله سبحانه.

ففي غيبة النعماني بإسناده عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن جده عن الحسين بن علي عليه السلام قال: «جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أمير المؤمنين! نبئنا بمهديّكم هذا؟ فقال عليه السلام: إذا درج الدارجون وقل المؤمنون وذهب المجلبون فهناك هناك ... ثم قال: أوسعكم كهفاً، وأكثركم علماً، وأوصلكم رحماً، اللهم فاجعل بعثه خروجاً من الغمة، واجمع به شمل الأمة، فإن خار الله لك فاعزم، ولا تنثنِ عنه أن وفقت له، ولا تجوزن عنه إن هديت إليه، هاه - وأومأ بيده إلى صدره - شوقاً إلى رؤيته»[٢].

وفي حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله يقول: «طوبى لمن أدرك زمانه، وبه يفرج الله عن الأمة حتى يملأها قسطاً وعدلاً»[٣].

وطوبى وزنها فُعلى نظير بشرى وزلفى مأخوذة من الطيب ولكن قلبت ياؤها واواً لضم ما قبلها، ولها معان:

١ - انظر بحار الأنوار: ج١٠٢، ص٩٦.
٢ - الغيبة (للنعماني): ص٢١٢، ح١؛ بحار الأنوار: ج٥١، ص١١٥، ح١٤.
٣ - الغيبة (للطوسي): ص١٨٧، ح١٤٦.

منها: طيب العيش.

ومنها: الجنة بلغة أهل الهند.

ومنها: شجرة في الجنة.

وهذا ما وردت به الأخبار عن النبي المصطفى ﷺ: «طوبى شجرة في الجنة أصلها في داري وفرعها في دار علي عليه السلام، فقيل له في ذلك فقال: داري ودار علي في الجنة في مكان واحد»[1] ولا تنافي بين هذه المعاني، والأصل هو المعنى اللغوي، وأما المعنيان الآخران فهما بيان للمصداق وليس للحصر، وكيف كان فإن الحديث النبوي يحتمل معنيين:

الأول: المعنى الحقيقي، وحينئذ تحمل على الدار الحقيقية، فتكون الرواية كاشفة عن قضية واقعية تقصر عقولنا عن ادراكها كسائر الأحكام التي تكشف عن مصالح واقعية نجهلها.

الثاني: المعنى المجازي، ويحمل على ذكر المسبب وإرادة السبب، والمعنى أن سلوك طريق النبي والوصي عليهما السلام يؤديان إلى نيل هذه الشجرة ودخول الجنة، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾[2].

والأنسب بمعنى الحديث عن عهد المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف هو الأول؛ لوضوح أن زمانه كثير الخير والبركة، وفي رواية أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «تتنعم

---

١ - انظر مجمع البيان: ج٦، ص٣٧، تفسير الآية٢٩ من سورة الرعد؛ مجمع البحرين: ج٢، ص١١٠، (طيب).

٢ - سورة الرعد: الآية ٢٩.

أمتي في زمانه نعيماً لم يتنعموا مثله قط البر والفاجر، يرسل الله السماء عليهم مدراراً، ولا تدخر الأرض شيئاً من نباتها»[١].

وفي رواية عبد الله بن مسعود عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا خير في العيش بعد المهدي»[٢] وقد تمنى الصادق عليه السلام أن يعيش أيامه حينما سئل هل ولد القائم؟ فقال: «لا، ولو أدركته لخدمته أيام حياتي»[٣] وهو يتضمن الإشارة إلى ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى: أن المهدي صلوات الله عليه من ولد الحسن العسكري لا الحسن المجتبى عليه السلام وبه تبطل دعوى القائلين بأنه من أولاد الحسن عليه السلام لا الحسين عليه السلام.

الحقيقة الثانية: أن زمانه صلوات الله عليه أفضل الأزمنة وأكثرها خيراً وفضلاً، وهو ما أشار إلى بعضه أبو جعفر عليه السلام إذ قال: «كأني بأصحاب القائم عليه السلام قد أحاطوا ما بين الخافقين ليس من شيء إلاّ وهو مطيع لهم حتى سباع الأرض وسباع الطير تطلب رضاهم في كل شيء حتى تفخر الأرض على الأرض وتقول: مرّ بي اليوم رجل من أصحاب القائم»[٤].

والحقيقة الثالثة: أن مقامه صلوات الله عليه أعلى من مقام أبي عبد الله عليه السلام.

ويجب إظهار الشوق إليه عليه السلام من جهة أنه من علائم معرفة الإمام ومحبته،

---

١ - بحار الأنوار: ج٥١، ص٧٨، ح٣٧.

٢ - بحار الأنوار: ج٥١، ص٨٤، ح٣٧.

٣ - الغيبة (للنعماني): ص٢٤٥، ح٤٦؛ بحار الأنوار: ج٥١، ص١٤٨، ح٢٢.

٤ - كمال الدين: ج٢، ح٥٢.

ويتأكد الوجوب إذا كان بقصد إظهار الإيمان بوجوده وبظهوره؛ لأنهما من شعائر الدين التي أمر العباد بإظهارها وإقامتها.

الثالث: ذكر فضائله ونشرها بين الناس

وهو من مصاديق شكر المنعم وعلائم المحبة وتقوية الحق وإزهاق الباطل والدعوة إلى الخير ونشر المعروف وإظهار معالم الإيمان وغيرها من العناوين الواجبة والمستحبة بحسب اختلاف مراتبها، وفي رسالة الحقوق أن ذلك من الحقوق على الناس. قال عليه السلام: «وأما حق ذي المعروف عليك فأن تشكره، وتذكر معروفه، وتنشر له المقالة الحسنة، وتخلص له الدعاء فيما بينك وبين الله سبحانه، فإنك إذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سراً وعلانية، ثم أن أمكن مكافأته بالفعل كافأته، وإلاّ كنت مرصداً له، موطّناً نفسك عليها»[1] ولا يخفى أن هذا الوجوب يشمل كل ذي فضل، ويتأكد فيما يتعلق بالإمام عليه السلام لعظم حق الإمام عليه السلام وشموله.

وقوله: «إن أمكن مكافأته بالفعل كافأته وإلاّ كنت مرصداً له» يدل على أن أداء الشكر يقع بنحوين:

أحدهما: الشكر العملي، ويتحقق بنشر فضائله والدعاء له سراً وعلانية.

ثانيهما: توطين النفس على ذلك كي يكون على استعداد لأداء الشكر متى ما سنحت فرصته.

ومن الواضح أن هذا يتطلب ترويض النفس وتربيتها لتكون على ذكر

---

١ – تحف العقول: ص٢٦٥، ح٢٧؛ وانظر مكارم الاخلاق: ص٤٢٢.

دائم بحق المنعم وعدم الغفلة أو النسيان، وهذا في نفسه يتضمن معنى الشكر والعزم على تربية النفس وترويضها، وهو يتوافق مع غاية انتظار الفرج وأهدافه.

هذا وقد دلت الأخبار على أن نشر فضائل الأئمة عليهم السلام من أجلى مظاهر الدين، وأن الأئمة عليهم السلام يشتاقون لحضور المجالس التي تذكر فيها فضائلهم، ففي الكافي عن ميسر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال لي: «أتخلون وتتحدثون وتقولون ما شئتم؟ » فقلت: إي والله إنا لنخلو ونتحدث ونقول ما شئنا، فقال عليه السلام: «أما والله لوددت أني معكم في بعض تلك المواطن. أما والله إني لأحب ريحكم وأرواحكم وإنكم على دين الله ودين ملائكته، فأعينوا بورع واجتهاد»[1] وقوله عليه السلام: «أتخلون وتتحدثون وتقولون ما شئتم؟» يتضمن الدلالة على أمرين:

أحدهما: أن الزمان كان زمان تقية فلم يتمكن المؤمنون من الحديث إلاّ بالخلوة والسر.

وثانيهما: أن التحدث في السر كان مخصوصاً بذكر فضائل الأئمة عليهم السلام ومناقبهم؛ لأن هذا ما كان يحاربه سلاطين الجور، ويمنعون الأمة منه.

وقوله عليه السلام: «إني لأحب ريحكم وأرواحكم» محمول على الحقيقة لا المجاز، وهو يدل على أن ريح الموالين للأئمة عليهم السلام وأرواحهم تختلف عن غيرهم، وذلك لأن أبدانهم مخلوقة من طين الجنة التي خلقت منها أرواح الشيعة، وهي فاضل طينة الأئمة التي خلقت منها أبدانهم عليهم السلام، فهم من

---

١ - الكافي: ج٢، ص١٨٧، ح٥.

أصل واحد، والإنسان بفطرته يحب أصله ومنشأه، والريح تطلق على كل ما فيه الخير والبركة[١]، فتشمل نسيم الرحمة وطيب الرائحة والسماحة والسخاء وغيرها من فضائل وكمالات[٢].

ووجه حب الإمام عليه السلام لريح الموالين المتحدثين بفضائلهم عليهم السلام ظاهر، ومن هنا يظهر أن مجالس ذكرهم عالية القيمة، كثيرة الخير والبركات،ومحل العناية والألطاف الإلهية، ولذا تكون من مواطن استجابة الدعاء وقضاء الحوائج.

والمراد من (دين الله) في قوله عليه السلام: «وإنكم على دين الله ودين ملائكته» المعنى اللغوي، أي الطريق والمنهج في الطاعة والانقياد إليه سبحانه[٣]؛ إذ يكفي في الإضافة أدنى نسبة، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[٤] أي طاعة وانقياداً، وبهذا يتضح أن إضافة الدين إلى الملائكة ناشئ من جهة أنهم مجبولون على الطاعة فلا يعصون الله ما أمرهم، وهم بأمره يعملون.

والخلاصة: إن الرواية الشريفة تدل على أن مجالس ذكر الأئمة عليهم السلام ونشر فضائلهم من الدين الذي يطاع الله سبحانه فيه، وهي من المواطن التي يود الأئمة عليهم السلام حضورها لما فيها من الخيرات والبركات، كما أنها من أجلى مصاديق شكر الله على نعمة وجودهم وشكرهم عليهم السلام؛ لكونهم مصدر الخيرات والفيوضات الإلهية على العباد.

---

١ – انظر مفردات ألفاظ القران الكريم: ص٣٧٠، (روح).

٢ – انظر مجمع البحرين: ج٢، ص٣٦٤-٣٦٥، (ريح).

٣ – انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٢٣، (دين).

٤ – سورة النساء: الآية١٢٥.

ويتأكد هذا الوجوب في زمن الغيبة بمجالس ذكر الإمام الحجة ونشر فضائله؛ لأنه مصدر الخير في العالم، وهذا يكشف عن السر الذي يجعل إبليس وجنوده يتألمون من هذه المجالس ويحاربونها، ففي الكافي عن موسى ابن جعفر عليه السلام: «ليس شيء أنكى لإبليس وجنوده من زيارة الأخوان في الله بعضهم لبعض. قال: وإن المؤمنين يلتقيان فيذكران الله ثم يذكران فضلنا أهل البيت فلا يبقى على وجه إبليس مضغة لحم إلاّ تخدد، حتى إن روحه لتستغيث من شدة ما تجد من الألم، فتحس ملائكة السماء وخزان الجنان فيلعنونه حتى لا يبقى ملك مقرب إلاّ لعنه، فيقع خاسئاً حسيراً مدحوراً»[١].

والمقصود من زيارة الأخوان هو تلاقيهم في المجالس. والأخوان هم الشيعة والموالون لآل محمد عليهم السلام، وتدل الرواية بالدلالة التضمنية على حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن مجالس الذكر بين المؤمنين من المستحبات التي فيها رضا الرحمن ومحاربة الشيطان.

الحقيقة الثانية: أن المجالس التي يحبها الله سبحانه ويبغضها الشيطان وجنوده هي ما كان فيها ذكر الله وفضائل أهل البيت عليهم السلام، فلا بد وأن يقترن ذكرهم بذكره سبحانه، ومجالس أهل الإيمان لا تكتفي بواحدة منهما، إلاّ في المرتبة الطولية بأن يكون ذكرهم عليهم السلام امتداداً لذكر الله سبحانه، أو هو مظهر من مظاهره، ومفهوم الوصف فيها يدل على قبح المجالس التي لا يذكرون فيها، أو يذكر فيها خصومهم، وهو ما أكده قول أبي عبد الله عليه السلام

١ - الكافي: ج٢، ص١٨٨، ح٧.

في رواية علي بن أبي حمزة؛ حيث قال: «شيعتنا الرحماء بينهم، الذين إذا خلوا ذكروا الله [إن ذكرنا من ذكر الله] إنا إذا ذكرنا ذكر الله، وإذا ذكر عدونا ذكر الشيطان»(١).

وقوله عليه السلام: «لا يبقى على وجه إبليس مضغة لحم إلاّ تخدد» يحتمل معنيين:

الأول: المعنى الحقيقي، فيكون كاشفاً عن واقع خلق الشيطان فيتخدد لحمه أي يتشقق، ويقال أيضاً تخدد لحمه: أي هزل ونقص(٢)، وبينهما علاقة السببية؛ لأن التشقق يؤدي إلى الهزل والنقصان، ولعل وجه التشقق يعود إلى نوع من المرض يؤدي به إلى هذا المصير، أو إلى شدة الأذى باللطم وضرب الوجه كما قد يشير إليه قوله: «حتى إن روحه لتستغيث من شدة ما يجد من الألم».

والثاني: المعنى المجازي، والمقصود أن الشيطان بسبب حزنه وخيبة أمله بالمؤمنين الذين يحبون أهل البيت ويحضرون مجالس ذكرهم يتأذى من بؤسه وحسرته، فيكون أذاه كمن يتشقق وجهه، ووجه ذلك أن المؤمن الملازم لآل البيت عليهم السلام يبطل عهد الشيطان، ويفشل مكائده التي نصبها للمؤمنين على الصراط المستقيم؛ إذ قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٣) وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(٤) ولا يخفى أن مجالس ذكرهم عليهم السلام على ثلاثة أنحاء:

أولها: المجالس الشخصية، وهي التي يذكر فيها المؤمن ربه وأولياءه عليهم السلام في نفسه، أو في بيته سراً.

---

١ - الكافي: ج٢، ص١٨٦، ح١.
٢ - مجمع البحرين: ج٣، ص٤٢، (خدد).
٣ - سورة ص: الآية٨٢.
٤ - سورة الأعراف: الآية١٦.

وثانيها: المجالس الخاصة، وهي التي يجتمع فيها بعض المؤمنين، ويقيمون فيها الذكر، وهي من المجالس المباركة التي يستجاب فيها الدعاء، وتقضى فيها الحوائج، ففي رواية غياث بن إبراهيم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما اجتمع ثلاثة من المؤمنين فصاعداً إلاّ حضر من الملائكة مثلهم، فإن دعوا بخير أمنوا، وإن استعاذوا من شر دعوا الله ليصرفه عنهم، وإن سئلوا حاجة تشفعوا إلى الله وسألوه قضاءها، وما اجتمع ثلاثة من الجاحدين إلاّ حضرهم عشرة أضعافهم من الشياطين، فإن تكلموا تكلم الشيطان بنحو كلامهم، وإذا ضحكوا ضحكوا معهم، وإذا نالوا من أولياء الله نالوا معهم، فمن ابتلي من المؤمنين بهم فإذا خاضوا في ذلك فليقم، ولا يكن شرك شيطان ولا جليسه، فإن غضب الله عز وجل لا يقوم له شيء، ولعنته لا يردها شيء»[1].

والرواية دالة على الحد الفاصل بين مجالس أهل الإيمان ومجالس أهل الجحود، ومظاهر مجالس المؤمنين هي ذكر فضائل آل محمد عليهم السلام، وهو ما نص عليه الصادق عليه السلام في رواية عباد بن كثير: «إن لله ملائكة سيّاحين سوى الكرام الكاتبين، فإذا مروا بقوم يذكرون محمداً وآل محمد قالوا: قفوا فقد أصبتم حاجتكم، فيجلسون فيتفقهون معهم، فإذا قاموا عادوا مرضاهم، وشهدوا جنائزهم، وتعاهدوا غائبهم، فذلك المجلس الذي لا يشقى به جليس»[2].

أما مجالس الجاحدين التي يحضرها الشيطان وجنوده فهي المجالس التي لا يذكر فيها فضل الأئمة عليهم السلام، وتشمل المجالس التي يذكر فيها خصومهم

١ – الكافي: ج٢، ص١٨٧، ح٦.
٢ – الكافي: ج٢، ص١٨٦– ١٨٧، ح٦.

وأعداؤهم، أو التي يمدح فيها سلاطين الجور وأئمة الضلالة، أو المجالس التي تشتمل على الرذائل والمحرمات وإن كان الحاضرون فيها من الموالين؛ إذ لا يمكن أن يجتمع حب الأئمة وذكر فضائلهم عليهم السلام في مجلس يعصى فيه الله سبحانه، ولعل قوله عليه السلام: «فليقم ولا يكن شرك شيطان ولا جليسه» يتضمن الإشارة إلى هذه الحقيقة، فإن المؤمن الموالي لا ينبغي له أن يحضر مجلساً لا يذكر فيه آل محمد عليهم السلام.

وثالثها: المجالس العامة، أي التي تعقد لعموم الناس، وهي من المظاهر المهمة لإحياء أمر آل محمد، ونشر فضائلهم، وترويج علومهم، وخذلان الباطل وأهله الذين نصبوا العداء لهم، وغصبوا حقوقهم، وهي مجالس تحظى بالعناية الإلهية، وتكون محلاً لنزول الخيرات والبركات على أهلها، وتوجب التوفيق والسعادة لأهلها، والشفاعة المضمونة من آل محمد عليهم السلام.

وقد مرت عليك بعض الروايات المؤكدة لهذه الحقيقة، ومنها رواية ابن عبد الملك عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «تزاوروا فإن في زيارتكم إحياء لقلوبكم، وذكراً لأحاديثنا، وأحاديثنا تعطف بعضكم على بعض، فإن أخذتم بها رشدتم ونجوتم، وإن تركتموها ضللتم وهلكتم، فخذوا بها وأنا بنجاتكم زعيم»[1]، ولا يخفى ما في تعهد الإمام عليه السلام بالنجاة من الدلالة على الوعد الذي يجب الوفاء به.

والحاصل: من مجموع ما ذكر أن مجالس ذكر آل محمد من أقرب الطرق إلى رضا الله سبحانه ومحاربة الشيطان وجنوده، وهي من المستحبات في بعض

١ - الكافي: ج٢، ص١٨٦، ح٢.

مواردها، ومن الواجبات في مواردها الأخرى بحسب انطباق العناوين المستحبة والواجبة عليها، ويتأكد الاستحباب والوجوب في هذا الزمان في مجالس ذكر فضائل الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف؛ لأنه إمام الزمان وحقه أوجب على أهل زمانه.

الرابع: توثيق الصلة بالإمام عليه السلام والالتصاق به

ويمكن أن تتم من خلال برنامج عمل متواصل يحتوي على أعمال كثيرة:

العمل الأول: المداومة على الأدعية الواردة عنهم عليهم السلام لأجل نيل توفيق المعرفة والاستقامة والتسليم في زمن الفتنة والامتحان.

منها: ما ورد في رواية زرارة التي رواها المشايخ الثلاثة قدس سرهم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «أن للقائم غيبة قبل أن يقوم» قلت له: ولِمَ؟ قال عليه السلام: «يخاف - وأومأ بيده إلى بطنه - ثم قال: يا زرارة وهو المنتظر، وهو الذي يشك الناس في ولادته، منهم من يقول: هو حمل، ومنهم من يقول: هو غائب، ومنهم من يقول ما ولد، ومنهم من يقول: ولد قبل وفاة أبيه بسنتين. غير أن الله تبارك وتعالى يحب أن يمتحن الشيعة، فعند ذلك يرتاب المبطلون» قال زرارة: فقلت: جعلت فداك، فإن أدركت ذلك الزمان فأي شيء أعمل؟ قال: «يا زرارة إن أدركت ذلك الزمان فأدم هذا الدعاء: اللهم عرفني نفسك فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيك اللهم عرفني رسولك فإنك إن لم تعرفني رسولك لم أعرف حجتك، اللهم عرفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني»[1].

١ - كمال الدين: ص٣٤٢- ٣٤٣، ح٢٤؛ انظر الكافي: ج١،ص٣٣٧، ح٥؛ الغيبة (للطوسي): ص٣٣٣-٣٣٤، ح٢٧٩.

وقوله: «وأومأ بيده إلى بطنه» إما كناية عن خوف القتل، أو أن المطلب من الأسرار التي يجب أن تخزن ولا تظهر.

والشك في ولادته قضية واقعية خارجية؛ إذ انقسم الناس فيها إلى طوائف وفرق، ولازال هذا الانقسام موجوداً، وأكثر الجمهور يرون أنه لم يولد بعد وسيولد في آخر الزمان توهماً منهم بأنه من أولاد الحسن المجتبى لا الحسن العسكري عليهما السلام، وأن المراد من آخر الزمان هو نهاية العالم زماناً لا آخر زمان العصمة.

ووجه امتحان الشيعة بطول غيبته هو تمييز المخلصين من المدعين والمنتحلين؛ بداهة أن بعض الناس قد يدعون محبة آل محمد لدواعٍ مختلفة، إلاّ أن الشيعي هو الذي يصبر ويتبعهم بالورع والاجتهاد، فالفرق واسع بين الشيعي والمحب، والصبر والتقوى هي المحك والحد الفاصل بين الصادقين والكاذبين، ولذا قال: «يحب الله أن يمتحن الشيعة، فعند ذلك يرتاب المبطلون».

ومنها: ما رواه الصدوق قدس سره بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «ستصيبكم شبهة فتبقون بلا علم يرى، ولا إمام هدى، ولا ينجو منها إلاّ من دعا دعاء الغريق» قلت: كيف دعاء الغريق؟ قال عليه السلام يقول: «يا الله يا رحمن يا رحيم، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فقلت: يا الله يا رحمن يا رحيم يا مقبل القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك. قال عليه السلام: «إن الله عز وجل مقلب القلوب والأبصار، ولكن قل كما

أقول لك: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[١].

وقوله عليه السلام: «قل كما أقول لك» يشير إلى حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن الدعاء بالمأثور محبوب شرعاً، ويلزم التوقف فيه على حسب ما ورد بلا زيادة أو نقيصة.

الحقيقة الثانية: أن تحصيل أثر الدعاء وبركاته يتم بالمداومة عليه كما ورد عنهم عليهم السلام، والوجه في ذلك يعود لأمرين:

أحدهما: أن الدعاء مفتاح من مفاتيح خزائن الله سبحانه، فلا بد وأن يقتصر فيه على ما ورد؛ لأن تغييره بالزيادة أو النقيصة أو التبديل أو التغيير يوجب قصوره عن فتح الخزائن الإلهية.

ثانيهما: أن المؤمن الموالي لا يصح له أن يخالف إمامه في قول أو فعل، فإن الاقتداء بالإمام واجب، والتسليم إليه من شرائط الإيمان، فيقبح بالمؤمن أن يزيد أو ينقص بعد قول الإمام أو فعله؛ لأنه من التجري وترجيح رغبة النفس على قول الإمام، ولو انطبق عليه عنوان التعالي أو التلاعب بأقوالهم عليهم السلام كان محرماً.

ومنها: ما أورده السيد ابن طاووس قدس سره في مهج الدعوات في حديث ذكر فيه غيبة المهدي عجل الله تعالى فرجه. قال الراوي: قلت: كيف تصنع شيعتك؟ قال: «عليكم بالدعاء وانتظار الفرج» إلى أن قال: قلت: فما ندعو به؟ قال عليه السلام: تقول: «اللهم أنت عرفتني نفسك وعرفتني رسولك وعرفتني

١ - كمال الدين: ج٢،ص٣٥٢- ٣٥٣، ح٤٩.

ملائكتك وعرفتني ولاة أمرك، اللهم لا آخذ إلاّ ما أعطيت، ولا أقي إلاّ ما وقيت، أللهم لا تغيبني عن منازل أوليائك، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، أللهم أهدني لولاية من افترضت طاعته»[١].

ويؤكد هذا الدعاء حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن الهداية من الله سبحانه؛ لأنها من التوفيق، وليس على العبد إلاّ أن يسلك سبيلها، ويعززها بالدعاء لينال هداه.

الحقيقة الثانية: يجب على المؤمن أن ينتظر الهداية من الله ولا يشرّق أو يغرّب ويطلبها من غير أهلها فيضل، وتؤكد حقائق التاريخ أن أكثر الذين ضلوا في دينهم استندوا إلى أفواه الرجال، وطرقوا أبواب السلاطين وعلماء الجور وأئمة الباطل، واتبعوهم فقادوهم إلى الضلالة، ولاسيما في زمان الفتن وفساد الزمان، فعلى المؤمن أن يسلك الطريق الموثوق، ويطلب من الله أن يهديه إلى صوابه، ولا شك في أن الله سبحانه لا يخيب عبده، فإذا وجد منه الصدق والإخلاص في الطلب فإنه يهديه إلى الحق بلا شك ولا شبهة.

العمل الثاني: تجديد البيعة له بعد كل فريضة من الفرائض اليومية، وهو الأفضل، أو في كل يوم، أو في كل جمعة، والمقصود بتجديد البيعة تجديد العهد مع الإمام عليه السلام على ولايته ونصرته والاقتداء به، وهو من شروط الإيمان وصدق الولاء، وهو أمر لازم على كل مؤمن، لأن مشاغل الدنيا وذنوب العباد وتسلط الهوى والشيطان على بني آدم قد ينسيه واجباته تجاه إمامه، أو يضعف عزمه وهمته عليها.

١ - مهج الدعوات: ص٣٢٢؛ بحار الأنوار: ج٩٢، ص٣٣٦، ح٦.

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أمته بمبايعة الأئمة عليهم السلام في خطبة الغدير، وأمر أن يبلغ الحاضر الغائب لتكون سنة متبعة في جميع الأجيال والعصور[١]، وتتحقق البيعة بأمور:

الأول: معرفة الإمام عليه السلام ومعرفة حقوقه ومكانته الإلهية في العباد.

والثاني: العزم القلبي الراسخ على إطاعته والاقتداء به ونصرته ببذل المال والنفس.

والثالث: التبري من أعدائه ومن نازعه سلطانه وإمامته.

والرابع: إظهار كل ذلك بالقول والعمل.

والخامس: عدم نقض البيعة بالمعصية والمخالفات التي لا يرضى بها الإمام؛ لأن هذا يكشف عن عدم صدق المبايع لصاحب البيعة، وأن صدق البيعة يتحقق بالمتابعة والاقتداء لا بمجرد المعرفة أو المحبة.

والأحاديث المتضافرة بطرق الفريقين تدل على ذلك بالدلالة التضمنية أو التلازمية ويكفي من طرقنا ما ورد في خطبة يوم الغدير الأغر، حيث أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله أمته بإمامة علي عليه السلام وأولاده المعصومين عليهم السلام، وأمرهم باتباعهم وأخذ البيعة لهم، ونهاهم عن مخالفتها أو نكثها، وقد أقرت الأمة بذلك، وأعطت العهود والمواثيق بالقول الصريح، وبايعوا علياً باليد وهم يصرحون بقولهم: بخ بخ لك يا أبا الحسن أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة[٢] إلى غير ذلك من المظاهر، واستمرت هذه السيرة يظهرها خواص

١ - انظر الاحتجاج: ج١، ص٧٤، ص٧٨.

٢ - كنز الفوائد: ٢٣٢؛ المناقب (لابن شهر آشوب): ج٢، ص٢٣٧.

المؤمنين لإمامهم في كل عصر بالقول أو بالعمل.

ومن طرق الجمهور ما ورد في البخاري ومسلم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من مات وليس في عنقه بيعة فميتته ميتة جاهلية»[1] وهذا لا ينطبق إلّا على بيعة الإمام المعصوم عليه السلام وذلك لوجوه:

أحدها: النصوص المتضافرة التي نصت على أن البيعة واجبة للإمام وأن عدمها مساوق للكفر وميته الجاهلية[2]، ومناسبة الحكم والموضوع تقتضي حمل الإمام على المعصوم الهادي للأمة في دينها ودنياها، وهو منحصر في زمن الغيبة بخاتم الأوصياء من آل محمد عليهم السلام وأما سلاطين الجور وأئمة الباطل فلا يقتدي بهم إلاّ أهل الدنيا.

ثانيها: الجزاء، أي قوله: «ميتة الجاهلية» فإن هذه النتيجة لا تصح إلاّ بمخالفة إمام الحق الذي ملازمته إيمان ومفارقته كفر، وهو لا ينطبق إلاّ على المعصوم.

ثالثها: الحكم، فإن وجوب البيعة للإمام لا يكون إلاّ لإمام الحق الذي بمخالفته مخالفة لله والرسول وهو المعصوم، وأما إمام الباطل فإن بيعته حرام.

وقوله: «ليس في عنقه» كناية عن التعهد والالتزام بالبيعة، وهذا لا يتحقق إلاّ بالعزم عليها وإظهارها بالقول والعمل وعدم نقضها.

---

١ - انظر مسلم: ج٣، ح١٤٧٨.

٢ - انظر المعجم الأوسط: ج٦، ص٧٠؛ سنن أب يعلى: ج١٣، ص٣٦٦؛ صحيح ابن حبان: ج٦٠، ص٤٣٤.

وبذلك يظهر أن بيعة الإمام عليه السلام على الالتزام والطاعة والنصرة من الواجبات التي يقضي بها الشرع والعقل، ووجوبها نفسي عيني تعييني؛ لأنها من شروط الإيمان، ويستحب التأكيد عليها في كل يوم وقد وردت أدعية وزيارات عديدة لإظهار البيعة وتجديدها كذلك. ذكرها الأعلام في الكتب المخصصة لهذا الشأن، نظير ما أورده محمد بن المشهدي في المزار في السلام والدعاء بعد صلاة الفجر من كل يوم.

ومن قوله: «اللهم بلغ مولاي صاحب الزمان صلوات الله عليه عن جميع المؤمنين والمؤمنات في مشارق الأرض ومغاربها ... اللهم أجدد له في هذا اليوم وفي كل يوم عهداً وعقداً وبيعة له في رقبتي ... » إلى آخر ما ورد[١]، ويستحب تجديد البيعة بهذا الدعاء بعد كل فريضة كما ورد عن الصادق عليه السلام [٢].

ومن الأدعية المهمة ذات الآثار والبركات العظيمة بهذا الشأن ما ورد عن الصادق عليه السلام أنه قال: «من دعا بهذا الدعاء أربعين صباحاً كان من أنصار القائم عليه السلام، وإن مات قبل ظهوره أحياه الله تعالى حتى يجاهد معه، ويكتب له بعدد كل كلمة منه ألف حسنة، ويمحي عنه ألف سيئة، وهو أن يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم، أللهم رب النور العظيم ورب الكرسي الرفيع ورب البحر المسجور ... أللهم بلغ مولاي الإمام الهادي المهدي القائم بأمرك صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين عن جميع المؤمنين والمؤمنات ... أللهم

١ - المزار (لمحمد بن المشهدي): ص٦٦٢.
٢ - انظر بحار الأنوار: ج٨٦، ص٦١، ح٦٩.

إني أجدد له في صبيحة يومي هذا وما عشت في أيام حياتي عهداً وعقداً وبيعة له في عنقي»[1] إلى آخر ما ورد، وهو من الأدعية النورية، وإذا واظب العبد عليها يظهر أثرها سريعاً على أعماله، فيرى الخير والبركة والتوفيق في مختلف مجالات حياته. هذا مضافاً إلى المواظبة على دعائي العهد والندبة والزيارة المعروفة بزيارة (آل ياسين).

ويتأكد استحباب تجديد البيعة في يوم الجمعة وفي كل جمعة، وقد دلت الأخبار على أن الملائكة يجتمعون في كل جمعة في البيت المعمور ويجددون عهد ولاية الأئمةعليهم السلام؛ لأنهم مأمورون بمحبتهم وإطاعتهم وولايتهم كسائر الخلق، كما دلت الأخبار على أن يوم الجمعة هو اليوم الذي أخذ الله سبحانه فيه العهد والميثاق بولايتهمعليهم السلام من جميع العالمين، كما أنه اليوم الذي تتضاعف فيه الحسنات وثواب الطاعات، ولا شك في أن من أفضل الحسنات وأكمل الطاعات هو إظهار الولاية لولي الأمر وتجديد البيعة له.

العمل الثالث: النيابة عن الإمامعليه السلام في أعمال البر، لعل من أقرب طرق الاتصال بالإمامعليه السلام وأقصرها وصولاً إلى رضاه النيابة عنه بالعبادات وأعمال البر، وذلك بأن يأتي العبد بعباداته وصدقاته وأعمال البر بقصد النيابة عنه، ويهدي ثوابها إليه، فإنه يضمن بذلك أموراً:

أحدها: قبول العمل عند الله سبحانه، وذلك لأن الباري جل شأنه يحب آل محمد، ولا يرد هدية مبعوثة إليهم وإن كانت صغيرة أو قليلة، فإنه سبحانه

١ - انظر تفاصيل الدعاء في مكيال المكارم: ج٢، ص٢٢٣ وما بعدها.

قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[١] وقال: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[٢] هذا إذا كان العبد يعملها لأجل نفسه، فكيف إذا كانت لأجل الإمامعليه السلام؟

وثانيها: قبوله عند الإمامعليه السلام؛ لأنه رؤوف رحيم يحب شيعته ومواليه، ويحن إليهم، لأنه أصل لهم وأب وإمام، ومن مكارم أخلاقه قبول الهدية مهما بلغت من القلة والصغر، فالهدية إلى الإمام مضمونة القبول عنده، وهو ملازم للرضا والحب.

وثالثها: تحصيل المكافأة عليها، فإنهعليه السلام صاحب نفس كبيرة لا يكافئ الإحسان إلاّ بإحسان أفضل منه، وقد قال سبحانه: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[٣] فإذا قدم العبد إلى إمامه هدية بركعتين من الصلاة أو بدعاء أو زيارة أو صدقة أو إكرام مؤمن موالٍ محبة بالإمام ونحو ذلك من أعمال البر فلا شك أن يضمن المقابلة بالأحسن، فيهدي إليه الإمام ثواباً، أو يدعو له، أو يكرمه في المواقف الهامة فيكون شفيعاً لقضاء حوائجه، أو يكشف عنه الهم والكربات، أو ينجيه من الهلكات في المواقف الصعبة، ونحو ذلك من آثار وتوفيقات يحصل عليها العبد في حياته الشخصية وفي ذريته، ومع ملاحظة هذه الآثار والعنايات الإلهية بهذا العمل فإن العقل والشرع يقضيان بالالتزام به.

ومن الواضح أن الأعمال النيابية عنهعليه السلام كثيرة ولا تحدد بعمل واحد أو أعمال، بل كل ما كان من أعمال البر يمكن أن يأتي به العبد بقصد النيابة عن

١ - سورة الأنعام: الآية١٦٠.

٢ - سورة البقرة: الآية٢٧٦.

٣ - سورة الرحمن: الآية٦٠.

الإمام عليه السلام فهو مقبول ومأمول فيه الخير، ولكن يمكن أن نؤكد على جملة من الأعمال التي تعد في متناول الجميع وبإمكان الموالي أن يأتي بها في أي وقت من باب التأكيد على المصداق الأفضل أو الأكمل أو الأسهل.

الأول: التصدق نيابة عنه ، وهو من علامات المحبة الخالصة، فإن الإنسان بطبعه يحب المال كما قال سبحانه: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[1] وأحياناً قد تشح النفس عن بذله حتى لنفس الإنسان ولأجل مصالحه، فإذا بذلها – أي الصدقة – لإمامه عليه السلام فإنه يكون قد جاهد نفسه وروضها من ناحيتين: ناحية الإيثار وتقديم مصلحة إمامه على نفسه، وهذا من أعلى المكارم، وناحية تربية النفس على حب الإمام والتضحية بالغالي لأجله، وهذا من شأنه أن يجعل الموالي متفانياً مؤثراً مضحياً، وهي من أهم غايات انتظار الفرج.

ويجب أن تكون الصدقة مناسبة لقدرة العبد ومما يحبه ويهواه، فإن الغني الثري لا يقبل منه اليسير من الصدقة، بينما تقبل من الفقير المعدم؛ لأن التضحية بما يغلى ويهم من أهم علامات الحب وصدق المحبة والإيمان؛ إذ قال سبحانه: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2].

والبر مأخوذ من السعة[3]، ويراد به الأعمال الصالحة التي لها الآثار الواسعة التي تعم الآخرين وتشملهم، ولا يتحقق إلاّ بالقصد والاختيار، فهو أخص من الخير؛ لأنه يطلق على كل نفع واصل إلى الآخرين وإن كان بغير قصد ولا اختيار.

١ – سورة الفجر: الآية٢٠.

٢ – سورة آل عمران: الآية٩٢.

٣ – مجمع البيان: ج٢، ص٣٤٢.

والآية المباركة تشير إلى حقيقتين هامتين في هذا المقام:

الحقيقة الأولى: أن الإنفاق في سبيل الله سبحانه من طرق الوصول إلى مراتب الأبرار الصادقين، والسبب في ذلك انه محك يكشف صدق الإنسان في إيمانه وكذبه، وذلك لأن الإنسان لا ينكشف واقع إيمانه وصدقه إلاّ إذا وقف في مفترق طريقين أحدهما لنفسه والآخر لربه، فبأي من الطريقين يأخذ يكون دليلاً على واقعه وحبه، ولذا لا ينال البر حتى يكون الإنفاق مما يحب؛ لأنه عطاء على خلاف رغبة النفس وشحها، وهذا يدلنا على أن أثر الصدقة لا يظهر إلاّ فيما إذا كانت عن محبة لما يتصدق به، فإنفاق القليل الذي يزهد فيه صاحبه لا أثر له وإن كان ربما فيه بعض الثواب، وهذا ما تؤكده هذه الواقعة.

فقد روي أن أبا طلحة كان من الأنصار وكان أكثرهم نخلاً في المدينة، وكانت أحب أمواله إليه بير حاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يدخلها ويشرب من مائها الطيب، فقال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: وإن أحب أموالي إليّ بير حاء وإنها صدقة أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث شئت. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «بخ ذلك مال رابح»[1].

وبهذا يظهر أن درجة الأبرار لا تنال بأي صدقة، بل بما تحبه النفس وتهواه مالاً كان أو علماً أو عملاً صالحاً أو أي شيء آخر، فكلما قدم العبد

١ - سنن الدارمي: ج١، ص٣٩٠؛ تاريخ مدينة دمشق: ج١٩، ص٤١٤؛ انظر مجمع البيان: ج٢، ص٣٤٢؛ تفسير الأمثل: ج٢، ص٣٩٧، تفسير الآية المزبورة. ولعل قوله (بير حاء) مصحفة والأصل (بير ماء).

لإمامه أفضل ما عنده وأحبه إلى نفسه نال من درجات القرب منه ما هو منى الطالبين وغاية المحبين.

الحقيقة الثانية: أن البر من المراتب المعنوية التي لا يحصل عليها العبد إلاّ بالسعي والجد والعمل، كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ فإن النيل هو الإصابة والوصول[١]، فيدل على أن هذا المقام مشروط بالالتفات والتوجه المتواصل، فلا ينال العبد درجة الأبرار بالتصدق مرة أو مرات قليلة، أو بالانقطاع في التصدق، بل لابد من مواصلة الانفاق والتصدق.

ونكتفي هنا بذكر وصية السيد ابن طاووس قدس سره لولده وهو يعلمه آداب المعاملة مع الإمام عليه السلام قال: فكن في موالاته والوفاء له وتعلق الخاطر به على قدر مراد الله سبحانه ومراد رسوله صلى الله عليه وآله ومراد آبائه عليهم السلام منك، وقدم حوائجه على حوائجك عند صلوات الحاجات والصدقة عنه قبل الصدقة عنك وعمن يعز عليك والدعاء له قبل الدعاء لك، وقدمه في كل خير يكون وفاء له، ومقضياً لإقباله عليك وإحسانه إليك[٢].

ويمكن أن ينوي في الصدقة ونحوها سلامته عليه السلام من الأمراض والآفات والهموم والغموم، فإنه بشر يعترضه ما يعترض سائر البشر من العوارض، أو ينوي علو الدرجات ومزيد المثوبات له، أو ينوي دخول السرور عليه، فإن الدرجات المعنوية مما لا نهاية لها، كما يمكن أن يتصدق بها لتعجيل فرجه عجل الله تعالى فرجه، والكل مطلوب لوجود المقتضي وانعدام المانع.

---

١ - معجم مقاييس اللغة: ص٩٦٨، (نول)؛ لسان العرب: ج١١، ص٦٨٥، (نيل)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٤٨٩، (نيل).

٢ - كشف المحجة: ص١٥١.

الثاني: النيابة عنه في الحج، وهو من الأعمال المخصوصة في تقوية الصلة به صلوات الله عليه، وقد كان متداولاً ومألوفاً بين الشيعة منذ قديم الأيام، فيحج الموالي عن إمامه، أو يبعث نائباً عنه من ماله، وهو من علائم الصلة والبر والمودة، كما يدخل تحت العمومات والإطلاقات الدالة على استحباب نيابة المؤمن عن والديه وأرحامه وذوي الحقوق عليه بالأولوية القطعية. هذا فضلاً عما فيه من الأجر والثواب والمكافأة بالحسنى.

فقد روى الصدوق قدس سره عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن الرجل يحج عن آخر ألهُ من الأجر والثواب شيء؟ فقال عليه السلام: «للذي يحج عن الرجل أجر وثواب عشر حجج، ويغفر له ولأبيه ولأمه ولابنه ولابنته ولأخيه ولأخته ولعمه ولعمته ولخاله ولخالته إن الله تعالى واسع كريم»[1].

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من حج فجعل حجته عن ذي قرابة يصله بها كانت حجته كاملة، وكان للذي حج عنه مثل أجره. إن الله عز وجل واسع لذلك»[2] وتدل الرواية على حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن النيابة عن القرابة بقصد صلتهم من أسباب قبول العبادة، يشير إليه قوله: «كانت حجة كاملة» والأنسب بمقتضى الحال ومناسبة الحكم والموضوع أن يكون المراد من الكمال القبول لا الصحة، والحظوة بقبول العمل من أهم غايات الأنبياء والأولياء، وذلك لأن العبد قد يضمن صحة العمل إلاّ أنه لا يضمن قبوله، والعمل المقبول هو الذي

---

١ - من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٢٢٢، ح٢٢٣٩.
٢ - الكافي: ج٤، ص٣١٦، ح٧.

تظهر آثاره وبركاته على العبد.

والحقيقة الثانية: أن ما يناله العبد من صلة القربى يناله بصلة الإمام عليه السلام بالقطع واليقين؛ لأن حقه أعظم، وقربه أولى أن يوصل، لكونه صلة بالله وبالرسول وبأهل بيته عليهم السلام، وحقهم مقدم على سائر الحقوق.

ولا يخفى أن المقصود بالنيابة هنا في غير حجة الإسلام. نعم يجوز للعبد أن يحج حجة الإسلام ويهدي ثوابها لإمامه عليه السلام أو يقصد بها سلامته عليه السلام، وحينئذ تقع مجزية عما في ذمته، ويصل جزاؤها للإمام عليه السلام.

وتدل الروايات الشريفة على أن الأئمة عليهم السلام كانوا يحبون الحج عنهم، وهم يرسلون النواب ليحجوا نيابة عنهم، فقد روى الشيخ قدس سره بإسناده عن محمد بن عيسى اليقطيني قال: بعث إليَّ أبو الحسن الرضا عليه السلام رزم ثياب، وغلماناً وحجة لي وحجة لأخي موسى بن عبيد وحجة ليونس بن عبد الرحمن، فأمرنا أن نحج عنه، فكانت بيننا مائة دينار أثلاثاً فيما بيننا[1] والوجه في إرسال الإمام عليه السلام النواب عنه يعود لحكم عديدة:

منها: بيان أهمية الحج ولو بمثل النائب.

ومنها: التشريع لجواز إرسال النائب في الحج.

ومنها: إرسال جماعة من فقهاء أصحابهم غير المستطيعين إلى الحج ليسقط فرضهم وليرشدوا الناس ويعلموهم الحق.

١ - التهذيب: ج٨، ص٤٠، ح٤٠؛ الوسائل: ج١١، باب٣٤ من أبواب النيابة في الحج، ص٢٠٨، ح١.

ومنها: غير ذلك مما هو كثير ويدخل في الأغراض والأسرار التي يعرفها الأئمة عليهم السلام.

ومما يكشف عن اهتمامهم عليهم السلام بمثل هذا العمل ما رواه القطب الراوندي في الخرائج والجرائح حيث قال: إن أبا حمد محمد الدعلجي كان له ولدان، وكان من خيار أصحابنا، وكان قد سمع الأحاديث، وكان أحد ولديه على الطريقة المستقيمة وهو أبو الحسن، كان يغسل الأموات، وولد آخر يسلك مسالك الأحداث في فعل الحرام، ودفع إلى أبي محمد حجة يحج بها عن صاحب الزمان عليه السلام، وكان ذلك عادة الشيعة وقتئذ، فدفع شيئاً منها إلى ابنه المذكور بالفساد، وخرج إلى الحج، فلما عاد حكى أنه كان واقفاً بالموقف، فرأى إلى جانبه شاباً حسن الوجه، أسمر اللون، بذؤابتين، مقبلاً على شأنه في الدعاء والابتهال والتضرع وحسن العمل، فلما قرب نفر الناس التفت إليّ وقال: «يا شيخ ما تستحي؟» قلت: من أي شيء يا سيدي؟ قال: «يدفع إليك حجة عمن تعلم فتدفع منها إلى فاسق يشرب الخمر يوشك أن تذهب عينك هذه» وأومأ إلى عيني، وأنا من ذلك إلا الآن على وجل ومخافة، وسمع أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان ذلك، وقال: فما مضى عليه أربعون يوماً بعد مورده حتى خرج في عينه التي أومأ إليها قرحة فذهبت[1].

وقد تضمن هذا الخبر الإشارة إلى حقائق عديدة:

١ - انظر الخرائج والجرائح: ج١، ص٤٨٠- ٤٨١، ح٢١، والدعلجي عبد الله بن محمد بن عبد الله الحذاء الدعلجي منسوب إلى موضع خلف باب الكوفة ببغداد يقال له الدعالجة، وكان فقيهاً عارفاً، وكان شيخاً للنجاشي، وقال: إنه تعلم عليه المواريث، وله كتاب الحج؛ انظر النجاشي: ص٢٣٠.

الحقيقة الأولى: لزوم الاهتمام بالوجوه الراجعة إلى الإمامعليه السلام فلا تعطى لفاسق أو عاص وإن كان النائب يملك المال شرعاً بسبب الإجارة أو الهدية، إلاّ أن انتسابه إلى الناحية المقدسة يعين صرفه من قبل المتقين الصالحين لا الفاسقين الذين يصرفونها في وجوه المعصية.

الحقيقة الثانية: أن النائب عن الإمام صلوات الله عليه يجب أن يكون عادلاً، بل في درجة عالية من العدالة، فلا يصح أن يكون غير عادل.

الحقيقة الثالثة: أن الإمامعليه السلام أقر إرسال النائب يحج عنه ولم ينه عنه، وهو يكشف عن صحة العمل ورضا الإمامعليه السلام، فيكون كاشفاً عن أحد طرق التقرب منه والصلة به.

الحقيقة الرابعة: أن الإمامعليه السلام يحاسب أولياءه المتقين بغير ما يحاسب به غيرهم، فإن الموالي المتقي يعجل له في عقابه، ويحاسبه أشد المحاسبة حتى على ترك الأَوْلى، وذلك لأن العقاب على قدر المستوى، ولذا عوقب أبو محمد بذهاب عينه، ويتضمن هذا الفعل حكَماً عديدة:

منها: الإخبار بالغيب ليكون دليلاً على الإمامعليه السلام بآية جلية لا ينكرها أحد.

ومنها: لزوم النزاهة في التعامل مع الإمامعليه السلام وعدم التواني فيما ينسب إليه، وكان هذا من الآثار الوضعية لسوء الأدب أو التهاون في حقه.

ومنها: أن المال الحلال ينبغي أن يصرف في الموارد الحلال، ولا يعطى للفاسقين فيصرفوه في الحرام.

ويتأكد استحباب النيابة في الطواف، وهو لمن عجز عن استنابة الحج أو

النيابة عنه في حج أو عمرة، فإنه يستحب أن يطوف عن الإمام، أو يبعث نائباً، والأول أفضل من الثاني كما لا يخفى.

وفضلاً عن العمومات والإطلاقات الواردة في استحباب النيابة في الحج وسائر العبادات - بل وما ورد في استحباب الطواف عن الوالدين وذوي الرحم[١]- فإنه يدل عليه بعض الروايات الخاصة، فقد روى الكليني بإسناده عن موسى بن القاسم قال: قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام قد أردت أن أطوف عنك وعن أبيك فقيل لي إن الأوصياء لا يطاف عنهم؟ فقال عليه السلام لي: «بل طف ما أمكنك، فإن ذلك جائز» ثم قلت له بعد ذلك بثلاث سنين: إني كنت استأذنتك في الطواف عنك وعن أبيك فأذنت لي في ذلك، فطفت عنكما ما شاء الله، ثم وقع في قلبي شيء فعملت به، قال: «وما هو؟» قلت: طفت يوماً عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم اليوم الثاني عن أمير المؤمنين عليه السلام، ثم طفت اليوم الثالث عن الحسن عليه السلام، والرابع عن الحسين عليه السلام، والخامس عن علي بن الحسين عليه السلام، والسادس عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام، واليوم السابع عن جعفر بن محمد عليه السلام، واليوم الثامن عن أبيك موسى عليه السلام، واليوم التاسع عن أبيك علي عليه السلام، واليوم العاشر عنك يا سيدي، وهؤلاء الذين أدين الله بولايتهم، فقال: «إذاً والله تدين الله بالدين الذي لا يقبل من العباد غيره».

قلت: وربما طفت عن أمك فاطمة عليها السلام وربما لم أطف، فقال عليه السلام: «استكثر من هذا فإنه أفضل ما أنت عامله إن شاء الله»[٢] وفي الحديث إشارة

---

١ - انظر الكافي: ج٤، ص٣١٦، ح٧.

٢ - الكافي: ج٤، ص٣١٤، ح٢.

إلى حقائق ثلاث:

الحقيقة الأولى: أن الطواف عن الأئمةعليهم السلام مقبول عند الله سبحانه، ويعرف ذلك من قولهعليه السلام: «فإن ذلك جائز» فإنه إشارة إلى الحكم الوضعي وهو القبول لا الحكم التكليفي بمعنى الإباحة؛ لوضوح أن قوله (طف) بقرينة الحال أو الضرورة على عدم الوجوب أو الإجماع يفيد الاستحباب، ومعه لا يبقى مجال للإباحة، كما لا يصح أن يكون مراده من قوله (جائز) الصحيح؛ لأنه تحصيل للحاصل لتضمن قوله (طف) على صحة العمل، فيتعين أن يكون المراد هو قبول العمل وظهور أثره عندهمعليهم السلام.

الحقيقة الثانية: أن الدين الحق هو الإيمان بالأئمةعليهم السلام بشرط الانضمام وإظهار المحبة والطاعة والتسليم لهم ولو بمثل النيابة عنهم بطواف ونحوه، ولذا قسم الإمام ووصفه بالدين الذي لا يقبل غيره.

والحقيقة الثالثة: أن الطواف عن الصديقة الطاهرةعليها السلام أكثر استحباباً من الطواف عن الأئمةعليهم السلام، بل ولعله من أفضل أعمال الحاج والمعتمر المستحبة؛ لقولهعليه السلام: «استكثر من هذا فإنه أفضل ما أنت عامله» ولعل الوجه فيه يعود إلى وجوه ثلاثة:

أحدها: أن الطواف عنهاعليها السلام يجتمع فيه الطواف عن سائر المعصومين الأربعة عشرعليهم السلام؛ لأنها مجمع النبوة والإمامة، وهي مدار العصمة والعلة الغائية لهما كما يفيده الحديث المعروف «لولا فاطمة لما خلقتكما»[1].

---

١ - عوالم العلوم سيدة النساء: ج١١، ص٤٤؛ عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج١، ص٢٦٢، ح٢٢؛ المستدرك: ج٢، ص٦١٥؛ وانظر مقتل الحسين (للخوارزمي): ج١، ص١٥؛ كنز

ثانيها: أن الطواف عنها يتضمن إظهار المحبة والمعرفة للنبي والأئمة عليهم السلام لأنها أم أبيها وأم الأئمة ومستودع سرها لما عرفت من أنها قطب الرحى الذي تدور عليه معرفتهما.

ثالثها: أن الطواف عنها يتضمن التولي والتبري معاً؛ بداهة أن محبة فاطمة ملازم لبغض أعدائها وغاصبيها، فإظهار حبها هو مجمع أركان الإيمان من الولاية لأولياء الله والبراءة من أعداء الله.

ومن الواضح أن الفضائل الثابتة للطواف عن السيدة الطاهرة عليها السلام ثابتة للطواف عن المهدي عجل الله تعالى فرجه بعلاقة وحدة الملاك أو الأولوية، وذلك لأنه خاتمة النبوة والإمامة وحجة الزمان وخاتم الكمالات والفضائل، فالطواف عنه هو طواف عن الجميع بما فيهم فاطمة عليها السلام.

ونظير الحج والطواف زيارة مشاهدهم الطاهرة عليهم السلام نيابة عنه عليه السلام، ويفضل أن يكون العبد هو المباشر لذلك لما فيها من الفضل والبركة، ولو تعذر يستحب إرسال نائب عنه، لاسيما في الزيارات المخصوصة لسيد الشهداء عليه السلام، فإن المعروف بين أهل الإيمان بأنها عظيمة البركة، والدعاء فيها مستجاب، والعمل مقبول، وقد قامت السيرة المعصومة على إرسال الزائرين للحسين عليه السلام نيابة عنهم.

ففي المزار أنه أنفذ أبو الحسن العسكري عليه السلام زائراً عنه إلى مشهد أبي عبد الله عليه السلام فقال: «إن لله مواطن يحب أن يدعى فيها فيجيب، وإن حائر

العمال: ج١١، ص٤٣١، ح٣٢٠٢٥.

الحسين عليه السلام من تلك المواطن»[١].

وفي زيارة داود الصرمي عن أبي الحسن العسكري عليه السلام قال: قلت له إني زرت أباك وجعلت ذلك لك، فقال عليه السلام: «لك بذلك من الله ثواب وأجر عظيم، ومنا المحمدة»[٢] وحصول الثواب ملازم لعبادية العمل، والمحمدة منهم عليهم السلام ملازم لرضاهم عليهم السلام وذكرهم له بالخير، وهو يتضمن معنى الدعاء له، ومن هنا تكون النيابة عنهم عليهم السلام كثيرة الخير والبركة؛ لأنها ملازمة لدعاء الإمام عليه السلام للنائب والمستنيب.

الثالث: مشاركته في المال، كأن يجعله عليه السلام شريكاً في التجارة أو العمل، ويخصص له نسبة من الأرباح أو المال الذي يحصل عليه لو كان عاملاً أو موظفاً أو تاجراً، ويجعل ذلك حقاً له عليه السلام في كل شهر أو في كل سنة أو في كل تجارة يربح فيها، فإن هذا من أهم أسباب حفظ المال ونمائه وزيادة البركة فيه، وفي عين الحال من أهم الطرق التي يصل بها المؤمن إمامه، وينال من مراتب القرب منه بشرطين:

الشرط الأول: أن تكون النسبة المعينة للإمام مما تحبها نفسه، وتشح بها عادة؛ لتكون شاهداً على صدق الإيمان والمحبة والصلة، إذ قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٣] وعلى هذا تكون الصلة على حسب القدرة والاستطاعة، فيقبل من الفقير المعدم ما لا يقبل قدره من الغني، ويقبل من المرأة أو الصغير ما لا يقبل من الرجل أو الكبير وهكذا.

١ – المزار (لمحمد بن المشهدي): ص٥٩٥، ح٢.
٢ – انظر الوسائل: ج١٤، باب١٠٣ من أبواب المزار وما يناسبه، ص٥٩٣، ح١.
٣ – سورة آل عمران: الآية ٩٢.

الشرط الثاني: أن يكون المال المخصص لذلك من المال الحلال الذي لا يختلط بحرام أو يكون من حرام؛ إذ لا يطاع الله من حيث يعصى، ويستحسن أن يجعل المؤمن في كل عام بعد أن يخمس أمواله حصة منها للإمام عليه السلام على قدر استطاعته، فإن هذا النحو من التصرف له حظ كبير من الخير والبركة، وقد روي عن السيد ابن طاووس قدس سره وهو من أصحاب سره عليه السلام على ما هو معروف عنه أنه كان يدفع أكثر من الخمس سنوياً لينال صلة الإمام عليه السلام.

وقد تضافرت الأخبار الشريفة على أن المال الذي يقدمه المؤمن في سبيل الله من صدقات وخيرات إذا قصد فيه الإمام عليه السلام ينال به صلته.

فقد روى الكليني قدس سره بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما من شيء أحب إلى الله من إخراج الدراهم إلى الإمام، وإن الله ليجعل له الدرهم في الجنة مثل جبل أحد، ثم قال: إن الله يقول في كتابه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾[1] قال: هو والله في صلة الإمام خاصة»[2].

وهذا ما يقضي به العقل؛ لوضوح أن الله سبحانه غني عن عباده، كما أن الإمام عليه السلام غني عن الناس، إلاّ أن العبد بحاجة إلى التقرب إلى الله، وأن يحظى برضاه وعناية مولاه، وهذا ما يتوقف على أسباب، ومن أهم هذه الأسباب هو التقرب بالمال؛ لأن النفس مجبولة على حب المال والشح فيه، فإذا تصدق به المؤمن في سبيله كشف عن مزيد حبه لإمامه وصدق ولائه.

١ - سورة البقرة: الآية ٢٤٥.

٢ - الكافي: ج١، ص٥٣٧، ح٢.

وهذا ما تؤكده رواية الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من زعم أن الإمام يحتاج إلى ما في أيدي الناس فهو كافر، وإنما الناس يحتاجون أن يقبل منهم الإمام. قال الله عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[1] [2].

وقوله(فهو كافر) يحتمل أحد ثلاثة معان:

أحدها: أن يراد به الكفر في المعتقد؛ لأنه لم يعرف الإمام عليه السلام ومكانته عند الله سبحانه، ولا فرق بين من يجهل شخص الإمام أو يجهل صفاته الإلهية، ومن الواضح أن الأمة بحاجة إلى الإمام في دينها وفي كل تفاصيل حياتها، فمن يرى عكس ذلك يكون قد جحد مكانة الإمام.

ثانيها: الكفر في العمل لأنه توهم أن حكم أخذ المال يرجع إلى الإمام لا إلى التعبد والاختيار الإلهي للعباد.

ثالثها: الكفر في النتيجة، وذلك لأن من يرى أن الإمام بحاجة إلى أموال الناس وبنى على هذا معتقده وإيمانه كما يشير إليه قوله (من زعم) فإنه لابد وأن يلتزم بأمرين آخرين هما: أن الإمام بحاجة إلى الناس، ولازمه أن لا يكون أماماً لهم؛ لأنه لا يكون أولى من غيره بالإمامة والاتباع، وأن يكون للناس الفضل على الإمام في إمامته وليس الله سبحانه، وهاتان نتيجتان تتضمنان الإيمان بإمام ناقص محتاج يرجع أمره إلى الناس، وليس إماماً كاملاً غنياً منصّباً من قبل الله سبحانه، ولازم الأول هو الكفر بحقيقة الإمامة ومقام الإمام عليه السلام، ويتضح من الأخبار الشريفة أن صلة الإمام عليه السلام بالمال

١ - سورة التوبة: الآية ١٠٣.

٢ - الكافي: ج١، ص٥٣٧، ح١.

يضمن للعبد أربعة مطالب:

الأول: تحصيل القرب والصلة منه عليه السلام.

والثاني: التطهير والتزكية القلبية، فيكون العبد في مصاف أصحابه وأنصاره والمنتظرين لفرجه صلوات الله عليه.

والثالث: قضاء الحوائج وإجابة الدعوات في ذلك.

والرابع: مزيد الأجر والمثوبة حتى يعد الدرهم الواحد في سبيله أفضل من مليوني درهم في غير سبيله.

ففي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «درهم يوصل به الإمام أفضل من ألفي ألف درهم فيما سواه من وجوه البر»[١].

وفي بشارة المصطفى بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: «لا تدعوا صلة آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين من أموالكم، من كان غنياً فعلى قدر غناه، ومن كان فقيراً فعلى قدر فقره، ومن أراد أن يقضي الله أهم الحوائج إليه فليصل آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين وشيعتهم بأحوج ما يكون إليه من ماله»[٢].

وفي هذا الخبر دلالات أخريات مضافاً إلى ما تقدم:

الأولى: أن صلة شيعة آل محمد عليهم السلام لها الكثير من المحبة والآثار عندهم عليهم السلام، وظاهر الرواية أن الصلة بشيعتهم معادلة لصلتهم، ولها ذات

١ - الكافي: ج١، ص٥٣٨، ح٦.

٢ - انظر بشارة المصطفى: ص٧؛ بحار الأنوار: ج٩٦، ص٢١٦، ح٦.

الآثار والبركات، وهو ما نصت عليه الأخبار، فعن الصادق عليه السلام: «من لم يقدر على صلتنا فليصل صالحي موالينا يكتب له ثواب صلتنا، ومن لم يقدر على زيارتنا فليزر صالحي موالينا يكتب له ثواب زيارتنا»[1] ولكن لابد وأن يقيد بشرطين:

أحدهما: أن تكون الصلة بشيعتهم لأجل تشيعهم ومحبتهم لآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين، لا لأجل غاية أخرى، فإن الأعمال بالنيات ولكل أمرئ ما نوى.

ثانيهما: أن تكون الصلة من المال العزيز الذي تشح به النفس عادة، لا ما كان من الزهيد الذي لا يهم إنفاقه.

والثانية: أن الصلة لجميع آل محمد عليهم السلام مطلوبة، وتتأكد بمولانا الحجة عجل الله تعالى فرجه؛ لأنه خاتمهم، وهو مولى الزمان وإمام العصر، فالصلة به أحق.

والثالثة: أن الصلة بالشيعة تتضمن إدخال السرور عليهم بإعانتهم بالمال أو الجاه أو قضاء حوائجهم وتنفيس كرباتهم والدعاء بحقهم وإكرامهم ونحو ذلك من مصاديق الصلة عرفاً، فإن كل ذلك يعد خدمة لمولاهم وإمامهم، وإدخالاً للسرور عليه، وقضاء لحوائجه والدعاء له؛ لأن قضاء حاجة المأموم حباً بالإمام هي في الحقيقة خدمة للإمام وقربة.

وهذا ما تضافرت به الأخبار، فعن الصادق عليه السلام قال: «لا يرى أحدكم إذا أدخل على مؤمن سروراً أنه عليه أدخله فقط، بل والله علينا، بل والله على

---

١ - كامل الزيارات: ص٥٢٨، ح٢؛ مجمع الفائدة: ج٤٠، ص١٨٢.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[١] وبذلك يعرف أنه إذا أدخل عليهم الهم والحزن أو أنزل بهم الضرر والأذى يكون قد أنزله بهم[٢] عليهم السلام، وهو من مصاديق الجفاء بحق الإمام وجحود أنعامه والعياذ بالله من ذلك، وتتفرع على ما تقدم حقيقتان هامتان:

الحقيقة الأولى: أن صلة الإمام عليه السلام في زمان غيبته أفضل من صلته في زمان ظهور دولته وبسط يده، وذلك لما فيه من مزيد المعرفة وصدق المحبة والصبر على الخوف والأذى، وتشهد له رواية عمار الساباطي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أيهما أفضل العبادة في السر مع الإمام منكم المستتر في دولة الباطل أو العبادة في ظهور الحق ودولته مع الإمام منكم الظاهر؟ فقال: «يا عمار! الصدقة في السر - والله - أفضل من الصدقة في العلانية، وكذلك - والله - عبادتكم في السر مع إمامكم المستتر في دولة الباطل وتخوفكم من عدوكم في دولة الباطل وحالة الهدنة أفضل ممن يعبد الله جل ذكره في ظهور الحق مع إمام الحق الظاهر في دولة الحق، وليست العبادة مع الخوف في دولة الباطل مثل العبادة والأمن في دولة الحق»[٣].

والحقيقة الثانية: أن صلة الإمام عليه السلام بالمال في زمن الغيبة تتحقق بصرف المال في الوجوه التي يحرز فيها رضاه وحبه لها، ويشترط فيها قصد الصلة به، كالتصدق في طباعة الكتب المتعلقة به، أو التي تقوي العقيدة الحقة وترد الباطل، وإقامة مجالس الذكر والشعائر الدينية التي تتضمن الدعوة إليه

---

١ - الكافي: ج٢، ص١٨٩، ح٦.
٢ - الكافي: ج٢، ص١٩٢، ح١٤.
٣ - الكافي: ج١، ص٣٣٣، ح٢.

والتذكير به وترويج فضائله، وكذلك في تقوية الحوزات العلمية والمعاهد الدينية وتأسيس الفضائيات وتقوية العلماء المروجين لعلومهم والراوين لأحاديثهم ونحو ذلك من موارد معلومة الرجحان والمحبوبية عندهم.

العمل الرابع: جمع الكلمة على محبته والتعاهد على نصرته والدعوة إليه، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[١] والإمام عليه السلام هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم، فلا بد للمنتظرين لفرجه والطالبين لصلته وأداء حقه أن يكونوا مجتمعين على نصرته.

ومن الواضح أن اتفاق الكلمة عليه عليه السلام من أهم أسس الانتظار للفرج؛ لأنه القاسم المشترك الذي يجمع القلوب والنفوس، وأما غيره فهي في الغالب لا تعدو أن تكون من شؤون الدنيا، أو تكون من القواسم المؤقتة، وأما محبة الإمام ونصرته فهي المحور الوحيد الذي يكاد يجزم فيه المؤمنون بأنه منزه عن المطامع والرغبات، ومطهر من آفات الدنيا ونوازع النفس والشيطان، وتؤكد الأخبار الشريفة أن من أهم وصايا الأئمة عليهم السلام كانت وحدة كلمة المؤمنين الموالين وعدم تفرقهم، فإن وحدتهم تدخل السرور على حجج الله، وتفرقهم يدخل عليهم الأذى والحزن[٢].

بل كشف الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه للشيخ المفيد قدس سره أن تفرق الموالين من أهم موانع لقاء الإمام عليه السلام والتشرف بحضوره، كما ورد في التوقيع المبارك الموجه إليه وجاء فيه: «ولو أن أشياعنا وفقهم الله لطاعته

١ - سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

٢ - انظر مكيال المكارم: ج٢، ص٢٩٨.

على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا، ولتعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا على حق المعرفة وصدقها منهم بنا»[١] وورد فيه أيضاً: «فما يحبسنا عنهم إلاّ ما يتصل بنا مما نكرهه ولا نؤثره منهم والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل»[٢] وفي التوقيعين الشريفين إشارة إلى عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن اجتماع القلوب بالوفاء بالعهد هو عهد الإمامة والولاية، فقد دلت الأخبار على أن شيعتهم ومنذ عالم الذر عاهدوهم على المحبة والولاية والنصرة كما مر عليك بحثه، إلاّ أن مطامع الدنيا أنست بعضهم ذلك العهد، وصرفتهم إلى شؤونهم فخاضوا اللجج، وسفكوا المهج طلباً لملذاتها وزخرفها وزبرجها، فصار سبباً لبعدهم عن الإمام عليه السلام وحرمانهم من لطفه؛ بداهة أن لقاء الإمام لطف إلهي لا ينزل إلاّ على المحل القابل.

وهذا يدلنا على أن المنتظرين للفرج لا يمكنهم أن يحظوا بنظرة كريمة منه ماداموا متشاغلين بالدنيا، كما يدلنا على أن وظيفتهم تجاه الإمام عليه السلام هو العمل على إعادة الأمور إلى نصابها بالدعوة إلى الحق وجمع الكلمة على التقوى وتوحيد القلوب على نصرة الإمام صلوات الله عليه والسعي لأجله.

الحقيقة الثانية: أن فعل المعاصي والذنوب وارتكاب القبائح الأخلاقية من أهم موانع اللقاء بالإمام عليه السلام، وبذلك تكتمل حلقة اللقاء، وهي وحدة

١ - بحار الأنوار: ج٥٣، ص١٧٧.
٢ - بحار الأنوار: ج٥٣، ص١٧٧، ح٨.

القلوب وهو في رتبة المقتضي والقابلية في القابل واجتناب المكروهات التي تسيء إلى الإمام وتجرح فؤاده، وهي في رتبة رفع المانع.

والمراد من قوله عليه السلام: «فما يحبسنا عنهم» أي يمنعه عليه السلام من الظهور لشيعته ليحظوا بلقائه، وهذا الظهور يراد به اللقاء بالإمام في زمن الغيبة لا الظهور الإلهي؛ لأن ظاهر التوقيع أن اللقاء والحبس أمره بيد الإمام عليه السلام، بينما الظهور الإلهي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً فأمره وأذنه بيد الله سبحانه كما نصت الأخبار على ذلك، وتدل على أن الله سبحانه يصلح أمر المهدي في ساعة، وأمروا عليهم السلام بالدعاء له بالفرج.

الحقيقة الثالثة: أن اللقاء بالإمام عليه السلام في زمن الغيبة أمر مسموح لكل أحد ولكن بشرط وجود الاستعداد والقابلية النفسية والقلبية والعملية على ما عرفت تفصيله.

ومن الواضح أن إيجاد القابلية عند العباد أمر اختياري بيد كل أحد أن يفعله ويلتزم به، فلو قصروا في ذلك يحرمون من اللقاء بإمامهم عليه السلام، وبهذا يمرون بظروف قاسية تطهرهم وتنقيهم من آثامهم ومعاصيهم لينالوا رحمة الله سبحانه وشفاعة آل محمد عليهم السلام في آخرتهم، ويحظوا بالفوز والدرجات العالية في الجنان.

العمل الخامس: تعظيم الشعائر التي تحيي أمرهم كالشعائر الحسينية والفاطمية بإقامة مجالس العزاء والحضور فيها والبكاء على مصيبة العترة المظلومة عليهم السلام، فإن ذلك من تقوى القلب، والدمعة التي تذرف من عين الموالي على الحسين عليه السلام تغسل الذنوب، وتطهر النفس، وتوجب رضا

النبي صلى الله عليه وآله والصديقة الطاهرة عليها السلام ومولانا الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف، وقد أكدت الروايات الشريفة على أن البكاء على الحسين عليه السلام من أهم وسائل القرب إلى الله، بل هو من أجلى مصاديق أداء حق الإمام عليه السلام، فقد روى ابن قولويه بإسناده عن الصادق عليه السلام حديثاً طويلاً جاء فيه: «وما من عين أحب إلى الله ولا عبرة من عين بكت ودمعت عليه، وما من باك يبكيه إلاّ وقد وصل فاطمة وأسعدها عليه، ووصل رسول الله صلى الله عليه وآله، وأدى حقنا»(١) ويتضمن الحديث الإشارة إلى حقائق عديدة:

الحقيقة الأولى: أن البكاء على الحسين عليه السلام من كل أحد مقبول ومحسوب، وهو إسعاد لفاطمة عليها السلام وصلة لرسول الله صلى الله عليه وآله بغض النظر عن عقيدة الباكي ونيته ومعتقده، فإن من تألم للحسين عليه السلام وتوجع لمظلوميته وبكى عليه ينال ذلك الشرف العظيم، ويدل عليه قوله: «ما من باك يبكيه» فإن حذف المتعلق والإثبات بعد النفي يدل على العموم.

الحقيقة الثانية: أن البكاء على الحسين عليه السلام من أسباب الصلة بالنبي صلى الله عليه وآله والصديقة الطاهرة عليها السلام، كما أنه من أسباب الصلة بسائر الأنبياء والأئمة؛ لأن في الحسين عليه السلام اجتمعت كل رسالات الأنبياء وأهدافهم، وفيه تلخصت ظلاماتهم، كما تشهد له النصوص نظير زيارة وارث التي يقر فيها الزائر بوراثة الحسين عليه السلام لسائر الأنبياء ورسالاتهم الإلهية.

الحقيقة الثالثة: أن صلة النبي صلى الله عليه وآله والزهراء عليها السلام وإن كان من جهة العبد

١ - انظر كامل الزيارات: ص١٦٨،ح٨، وفي الحديث تفاصيل كثيرة ذات فوائد جمة ينبغي مراجعتها.

إلاّ أن مكانتهم وأخلاقهم الإلهية ونفوسهم القدسية تأبى أن يبكي العبد لمظلوميتهم ويصلهم بهذا القدر من المحبة والتعاطف والنصرة ولا يبادلونه بما يليق بشأنه من الأجر والثناء والتوفيق والرضا، ومن هنا قلنا إن البكاء على الحسين عليه السلام وتعظيم شعائره يعد من أقرب الطرق إلى الله سبحانه وأهمها.

ويشهد الوجدان والوقائع الخارجية بأن الذين نصروا الحسين عليه السلام - ولو بدمعة، أو ببيت من شعر، أو ببعض المال ينفقونه، أو بمسيرة في عزاء لأجله وتعظيماً لشأنه - نالوا الكثير من العنايات الإلهية في حياتهم الشخصية والاجتماعية، ووصلوا إلى عالي الدرجات ليس في الدنيا فقط بل في الآخرة.

الحقيقة الرابعة: أن البكاء على الحسين عليه السلام لا يؤدي حق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفاطمة عليها السلام فقط ، بل صاحب الأمر عليه السلام وسائر الأئمة عليهم السلام، وذلك لما عرفت من أن حق الإمام عليه السلام هو المعرفة والمحبة والطاعة، والبكاء من أظهر العلامات الدالة عليها، ودموع العين لا تهمل إلاّ على المحبوب الذي طفحت في حبه ومعرفته النفس.

كما أن البكاء يتضمن معنى المواساة والمشاركة في الهم والأذى لكل من يهمه أمر الحسين عليه السلام، فما بالك بوريثه والمنتصر له؟

ومن أظهر مصاديق الصلة بالإمام عليه السلام زيارة قبر الحسين عليه السلام كما في بعض الروايات[1]، وفي بعضها الآخر ورد التأكيد على أنهم عليهم السلام يدعون لزواره، ويخلفون عليهم بمزيد الرحمة والعناية الربانية.

ففي رواية عبد الله بن سنان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك

١ - انظر كامل الزيارات: ص٢٤٥، ح١.

إن أباك كان يقول: في الحج يحسب له بكل درهم أنفقه ألف درهم فما لمن ينفق في المسير إلى أبيك الحسين عليه السلام؟ فقال: «يا بن سنان! يحسب له بالدرهم ألف وألف حتى عدّ عشرة، ويرفع له من الدرجات مثلها، ورضا الله تعالى خير له، ودعاء محمد صلى الله عليه وآله ودعاء أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام خير له»[1] وقريب منه ورد في خبر صفوان الجمال عن الصادق[2] عليه السلام.

وفي رواية معاوية بن وهب أنه سمع الصادق عليه السلام يدعو ويناجي ربه، ويقول: «اغفر لي ولأخواني وزوّار قبر أبي عبد الله الحسين عليه السلام الذين أنفقوا أموالهم، وأشخصوا أبدانهم رغبة في برنا، ورجاء لما عندك في صلتنا، وسروراً أدخلوه على نبيك صلى الله عليه وآله، وإجابة منهم لأمرنا، وغيظاً أدخلوه على عدونا أرادوا بذلك رضاك فكافئهم عنا بالرضوان، واكلأهم بالليل والنهار، واخلف على أهاليهم وأولادهم الذين خلفوا بأحسن الخلف ... اللهم إن أعداءنا عابوا عليهم خروجهم فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا، وخلافاً منهم على من خالفنا، فارحم تلك الوجوه التي غيرتها الشمس، وارحم تلك الخدود التي تتقلب على حفرة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا، وارحم تلك الصرخة التي كانت لنا، اللهم إني أستودعك تلك الأبدان وتلك الأنفس حتى توافيهم من الحوض يوم العطش»[3].

ومقتضى الجمع الدلالي بين هذين الحديثين والحديث السابق يوصلنا إلى

١ - كامل الزيارات: ص٢٤٧، ح٥.
٢ - كامل الزيارات: ص٢٤٧- ٢٤٨، ح٦.
٣ - كامل الزيارات: ص٢٢٨- ٢٢٩، ح٢.

أن زوار الحسينعَلَيْهِ السَّلَامُ يختلفون في مراتبهم ودرجاتهم بحسب درجة المعرفة والنية، فمرتبة الصلة برسول الله والأئمةعَلَيْهِمُ السَّلَامُ وإسعاد فاطمة والدعاء له ينالها الزائر بالزيارة والحضور عند الإمام والبكاء عنده.

وأما الزيارة التي تقترن بالعناء وإشخاص الأبدان بقصد إظهار المحبة والبر بالأئمة والطمع فيما عند الله من الأجر والثواب والطاعة لأمر الأئمةعَلَيْهِمُ السَّلَامُ بزيارة الحسينعَلَيْهِ السَّلَامُ والحضور عنده وإظهار التبري من أعدائهم الذين نصبوا لهم العداء وأزاحوهم عن مراتبهم التي رتبهم الله فيها يسمو فيها الزائر درجات عالية من الفضل والكرامة حتى ينال دعاء الإمام الصادقعَلَيْهِ السَّلَامُ بالرحمة والرضوان، ويؤكد الحديثان على حقائق عديدة أخرى:

الحقيقة الأولى: أن المال الذي ينفقه الزائر في طريق زيارة الحسينعَلَيْهِ السَّلَامُ عظيم البركة، وهو معوض عليه بأمر الله الرزاق، فيبدله الواحد بعشرة ملايين[١]، فما بالك ببذل الجهد والتعب والعناء وبذل الجاه والسمعة في هذا السبيل؟

الحقيقة الثانية: أن جزء كبيراً من الأذى ينال أنصار الحسينعَلَيْهِ السَّلَامُ الذين يحبون شعائره، ويشخصون لزيارته، وهو لا ينفك عنهم على مر العصور والأزمان كما يشير إليه قوله: «إن أعداءنا عابوا عليهم ذلك» والتعييب يدل بالدلالة التضمنية على ثلاثة أصناف من الأذى:

الأول: التعييب النفسي بواسطة الذم والانتقاص لأجل التثبيط عن رغبة الارتباط وإظهار المحبة والشخوص إلى الزيارة.

الثاني: التعييب الفكري عبر التشكيك بالزيارة أو بالمزور أو بثوابها. هذا في

١ - انظر عدة الداعي: ص١١٧؛ المزار (لمحمد بن المشهدي): ص٣٤٧.

بعدها السلبي، وربما يتخذ شكلاً آخر لا يقل خطورة وهو إفراغ الزيارة من محتواها، وذلك بأن يقوم المشكك بترغيب الزائرين بالرفاه في طريق الزيارة، بما يجعلها سفرة سياحية لا عبادية، فبعضهم يحث الزائر الذي يرغب بالمشي لزيارة الحسين عليه السلام بأن يركب السيارة الفارهة أو الطيارة والانشغال بالطعام الطيب ونحو ذلك، ويدعو من يريد أن يواسي بدموعه مثلاً أن يواسيه بطعام أو ثوب أو ثواب فقط لا بمثل الحزن والبكاء واللطم وأمثالها من مظاهر أشد في المواساة، وبعضهم ينتقص من الزائر ويعده قاصراً، أو يتهمه بالتخلف والجهل، أو يستهزئ به.

الثالث: التعييب الاجتماعي وتعريض الزائر إلى الضغط الروحي وإيقاعه في حرج الرأي العام أو العزلة الاجتماعية، وذلك عبر المطاردة والمراقبة والمحاسبة والمنع الجسدي إن أمكن، وتؤكد وقائع التأريخ وقوع هذه الأساليب في الأزمنة الغابرة، كما هي تقع في الأزمنة الحاضرة، بعضها تصدر من أعداء للحسين عليه السلام وشيعته، وبعضها من المحبين الذين لم يدركوا مقامات الزائر وحكمة أهل البيت عليهم السلام في ترسيخ قضية عاشوراء بما فيها من أساليب وشعائر إلهية عظيمة في ضمير الأمة، أو غرتهم الدنيا فوجدوا مصالحهم تكمن في منعها ومحاربتها.

الحقيقة الثالثة: أن المطلوب في طريق زيارة الحسين عليه السلام ومواساته الصراخ والعويل لا الهمس والهدوء؛ إذ قال الصادق عليه السلام: «اللهم ارحم الصرخة التي كانت لنا»[1] والصرخة هي الصيحة الشديدة عند المصيبة[2]، وتشمل

١ - الكافي: ج٤، ص٥٨٣، ح١١.

٢ - لسان العرب: ج٣، ص٣٣،(صرخ)؛ وانظر معجم مقاييس اللغة: ص٥٦٩، (صرخ)؛

عرفاً البكاء العالي والإيذاء والهتاف في أثناء العزاء ونحو ذلك من مظاهر. نعم يشترط أن تكون الغاية منها لهم عليهم السلام إظهاراً لحبهم أو مواساة لمصائبهم.

ولا تخلو هذه الفقرة من الإشارة إلى ظهور مولانا الحجة عجل الله تعالى فرجه؛ لأنه يصرخ لهم وينتقم من أعدائهم، وشعاره الميمون: «يا لثارات الحسين» وبذلك يظهر وجه الترابط الوثيق بين انتظار الفرج ومواساة الحسين عليه السلام في مصائبه وأحزانه الذي اجتمعت فيه أحزان سائر الأنبياء والرسالات السماوية.

الحقيقة الرابعة: قوله عليه السلام: «اللهم إني أستودعك تلك الأنفس وتلك الأبدان حتى توافيهم على الحوض يوم العطش» يتضمن إشارة صريحة إلى أن نفوس الزائرين والمواسين للحسين عليه السلام لا تتعرض للأذى والعذاب في البرزخ، كما أن أبدانهم لا تتلف في القبر؛ لأنها وديعة الإمام عليه السلام عنده سبحانه، ولا شك في أن الله سبحانه لا يرد للإمام طلباً، كما أنه أمين على الودائع. نعم يظهر من الرواية الشريفة أن ذلك من خصوصيات الزائرين العارفين بهم وبمقاماتهم، ويواسونهم بهذا القصد والداعي.

هذا وهناك وظائف أخرى عديدة ينبغي على المنتظرين للفرج الالتزام بها نتركها لمظانها من المباحث المختصة بذلك[1].

والحاصل: إن انتظار الفرج له بعدان إيجابي وسلبي، والذي تدل عليه الأخبار الشريفة ويقضي به العقل وجرت عليه السيرة هو الأول، وهو

مجمع البحرين: ج٢، ص٤٣٧، (صرخ).

١ – للمزيد من ذلك راجع كتاب مكيال المكارم في فوائد الدعاء للقائم.

يتضمن إصلاح النفوس وتربيتها وتقويمها شخصياً واجتماعياً ليكون صاحبها في مصاف أنصار المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف في العلم والعمل، وأما الثاني فهو لا يعدو أن يكون دعوى فارغة لا يعززها قول أو عمل.

ومن هنا عدت الروايات البعد الإيجابي من الانتظار في مصاف أصول الدين التي يقوم عليها معتقد العبد ويدين به، وأعطت للمنتظر للفرج مزايا وكرامات إلهية عظيمة، وذلك كنتيجة طبيعية لما يفعله العبد ويقدمه لإمامه عليه السلام من أداء للحقوق والتزام بالوظائف الشرعية والإنسانية المناطة به وقد قالوا عليهم السلام: «من لزمنا لزمناه»[1] ولازم هذا التلازم بين الطرفين هو الرقي المعنوي والمادي في البعدين الديني والدنيوي.

كما أن التلازم المذكور من أكبر أسرار التوفيق والنجاح وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة كما ستعرفه في مباحث المعاد، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلّى الله على سيدنا ونبيّنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم من الجن والإنس أجمعين إلى قيام يوم الدين.

يوم الاثنين المصادف ١٢ شعبان المعظّم
من عام ١٤٣٤هـ كربلاء المقدسة
فاضل الصَّفَار

١ - عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٧٢، ح٦٣؛ بحار الأنوار: ج٢، ص١١٥، ح١١.

المصادر

(أ)

١ـ آل محمد ﷺ بين قوسي النزول والصعود: للسيد علي عاشور، دار الهادي- بيروت، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩، الطبعة الأولى.

٢ـ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: للشيخ ناصر مكارم شيرازي.

٣ـ آيات العقائد: للسيد إبراهيم الحجازي، مؤسسة الاستانة الرضوية المقدسة، ١٤٢٤هـ -١٣٨٢هـ ش، الطبعة الأولى.

٤ـ أجود التقريرات: تقريرات بحث الشيخ النائيني للسيد أبي القاسم الخوئي، مؤسسة مطبوعات ديني - قم المقدسة، ١٤١٠، الطبعة الثانية.

٥ـ الاحتجاج: لأحمد بن علي الطبرسي، دار النعمان - النجف الأشرف، ١٣٨٦ -١٩٦٦.

٦ـ أحكام القرآن: لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥، الطبعة الأولى.

٧ـ الاختصاص: للشيخ المفيد، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية.

٨ـ الأربعين في إمامة الأئمة الطاهرين: للشيخ محمد طاهر القمي الشيرازي، مطبعة الأمير، ١٤١٨، الطبعة الأولى.

٩ـ الأربعين: للشيخ الماحوزي، الناشر - المحقق، ١٤١٧، الطبعة الأولى.

١٠ـ الإرشاد: للشيخ المفيد، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، الطبعة الثالثة، ودار المفيد.

١١ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: للألباني، المكتبة الإسلامية - بيروت، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م، الطبعة الثانية.

١٢ـ الاستبصار في النص على الأئمة الأطهار: للكراجكي، دار الأضواء - بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة الثانية.

١٣ـ الأسرار الفاطمية: للشيخ محمد فاضل المسعودي، مؤسسة الزائرين - الروضة المقدسة لفاطمة المعصومة، ١٤٢٠- ٢٠٠٠م، الطبعة الثانية.

١٤ـ أصول الفقه وقواعد الاستنباط: للشيخ فاضل الصفار، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

١٥ـ أضواء على السنّة المحمدية: للشيخ محمود أبو رية، مؤسسة الأعلمي - بيروت، الطبعة الخامسة، ودار الكتاب الإسلامي.

١٦ـ إعلام الورى بأعلام الهدى: للفضل بن الحسن الطبرسي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لأحياء التراث - قم المقدسة، ١٤١٧، الطبعة الأولى.

١٧ـ أعيان الشيعة: للسيد محسن الأمين، دار التعارف - بيروت.

١٨ـ إقبال الأعمال: للسيد ابن طاووس، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١٤هـ ، الطبعة الأولى و١٤١٦، الطبعة الأولى.

١٩ـ الاقتصاد: للشيخ الطوسي، منشورات مكتبة جامع بهلستون - طهران، ١٤٠٠.

٢٠ـ الإلهيات على هدى الكتاب والسنّة والعقل: للشيخ جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصدق عليه السلام- قم المقدسة، ١٤٢٦هـ ق - ١٣٨٤هـ ش، الطبعة السادسة.

٢١ـ الأمالي: للشيخ الصدوق، مؤسسة البعثة، ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى.

٢٢ـ الأمالي: لمحمد بن الحسن الطوسي، دار الثقافة - قم المقدسة، ١٤١٤، الطبعة الأولى.

٢٣ـ الأمالي: للشيخ المفيد، جماعة المدرسين - قم المقدسة.

٢٤ـ الإمامة والتبصرة من الحيرة: لابن بابوية القمي والد الشيخ الصدوق، مؤسسة الإمام المهدي - قم المقدسة.

٢٥ـ الإمام المهدي مظهر الخلافة الإلهية وتجلي الحقائق الوجودية: لعلي عبد الكريم آل محمد، دار الخليج العربي - بيروت، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، الطبعة الأولى.

٢٦ـ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: للشيخ ناصر مكارم شيرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، الطبعة الثانية.

٢٧ـ الانتصار: للشيخ المرتضى علم الهدى، مؤسسة النشر الإسلامي- قم المقدسة، ١٤١٥، الطبعة الأولى.

٢٨ـ أنوار الأصول: تقريرات أبحاث الشيخ ناصر مكارم الشيرازي - انتشارات نسل جوان - قم المقدسة، ١٤٢٠، الطبعة الثالثة.

٢٩ـ الأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة، لجواد عباس الكربلائي، منشورات الأعلمي - طهران، ١٣٧٠هـ ش، الطبعة الأولى.

٣٠ـ الأنوار اللامعة: للسيد عبد الله شبر، مؤسسة الوفاء - بيروت ومكتبة الرضي - قم المقدسة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، الطبعة الأولى.

٣١ـ الأنوار النعمانية: لسيد نعمة الله الجزائري، مؤسسة الأعلمي- بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، الطبعة الرابعة.

٣٢ـ أنوار الولاية: لزين العابدين الكلبايكاني، قم المقدسة، ١٤٠٩هـ .

٣٣ـ أوائل المقالات في المذاهب المختارات: للشيخ المفيد، ١٣٧١هـ ، طبعة تبريز.

(ب)

٣٤ـ بحار الأنوار: للشيخ محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء - بيروت، ١٤٠٣-١٩٨٣، ودار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣- ١٩٨٣م، الطبعة الثانية.

٣٥ـ بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية: للسيد محسن الخرازي، مركز

مديرية الحوزة العلمية - قم المقدسة، ١٤١١هـ ق -١٣٦٩هـ ش، الطبعة الأولى.

٣٦ـ البداية والنهاية: لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٠٨، الطبعة الأولى.

٣٧ـ بصائر الدرجات: لمحمد بن الحسن الصفار، منشورات الأعلمي - طهران، ١٤٠٤ - ١٣٦٢.

٣٨ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: لمحمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاهرة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، الطبعة الثالثة.

٣٩ـ البرهان في تفسير القرآن: للسيد هاشم البحراني، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ١٤١٩هـ -١٩٩٩م، الطبعة الأولى.

(ت)

٤٠ـ تاج العروس في جواهر القاموس: لمحمد مرتضى الزبيدي، مكتبة الحياة - بيروت.

٤١ـ تاج المواليد (المجموعة): لعلامة الطبرسي، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي - قم المقدسة، ١٤٠٦هـ.

٤٢ـ تاريخ ابن خلدون: لابن خلدون، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الرابعة.

٤٣ـ تاريخ آل زرارة: للزراري، مطبعة رباني، ١٣٩٩.

٤٤ـ تاريخ الأمم والملوك: لابن جرير الطبري، مؤسسة الأعلمي- بيروت.

٤٥ـ تاريخ الشيعة: للشيخ محمد حسين المظفر، المكتبة الحيدرية، ١٤٣٣هـ ق، ١٣٩١هـ ش، الطبعة الأولى.

٤٦ـ تاريخ مدينة دمشق: لابن عساكر، دار الفكر، ١٤١٥هـ.

٤٧ـ تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة: لعلي الحسيني الاسترابادي،

مؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة، ١٤٠٩هـ، الطبعة الأولى.

٤٨ـ التبيان في تفسير القرآن: لمحمد بن الحسن الطوسي، الأميرة للطباعة والنشر – بيروت، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م، الطبعة الأولى ، ومكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩، الطبعة الأولى.

٤٩ـ التحصين لأسرار ما زاد من أخبار كتاب اليقين: لعلي بن موسى بن طاووس الحسيني، مؤسسة دار الكتاب، ١٤١٣، الطبعة الأولى.

٥٠ـ تحفة الأبرار في مناقب الأئمة الأطهار عليهم السلام: لحسن بن علي الطبري، الاستانة الرضوية المقدسة، ١٤٢٤هـ ق – ١٣٨٢هـ ش، الطبعة الأولى.

٥١ـ التحفة السنية: للفيض الكاشاني، مخطوط .

٥٢ـ تحف العقول: لابن شعبة الحراني، مؤسسة النشر الإسلامية، ١٣٦٣– ١٤٠٤، الطبعة الثانية.

٥٣ـ تفسير الإمام العسكري عليه السلام: للإمام العسكري، مؤسسة قائد الغر المحجلين، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، ومدرسة الإمام المهدي – قم المقدسة، ١٤٠٩، الطبعة الأولى.

٥٤ـ تفسير جوامع الجامع: للشيخ الطبرسي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة، ١٤٢١، الطبعة الأولى.

٥٥ـ تفسير سفيان الثوري: لأبي عبد الله سفيان بن سعد بن مسروق الثوري الكوفي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٣، الطبعة الأولى.

٥٦ـ تفسير الصافي: للفيض الكاشاني، مؤسسة الأعلمي– بيروت، ومكتبة الصدر طهران، ١٤١٦، الطبعة الثانية.

٥٧ـ تفسير العياشي: لمحمد بن سعود بن عياش، المكتبة العلمية الإسلامية – طهران، ومؤسسة الأعلمي– بيروت، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م، الطبعة الأولى.

٥٨ـ تفسير الفخر الرازي: لمحمد الرازي، دار الفكر - بيروت، ١٤٢٥هـ و١٤٢٦هـ، الطبعة الأولى.

٥٩ـ تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار المعرفة - بيروت، ١٤١٢.

٦٠ـ تفسير القرآن الكريم: لأبي حمزة الثمالي، دفتر نشر الهادي، ١٤٢٠، الطبعة الأولى.

٦١ـ تفسير القمي: لعلي بن إبراهيم القمي، مؤسسة دار الكتاب - قم المقدسة، ١٤٠٤، الطبعة الثالثة، مؤسسة الأعلمي- بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، الطبعة الأولى، ومكتبة الهدى، ١٣٨٧.

٦٢ـ تفسير الكشاف: لجار الله الزمخشري، مكتبة مصر.

٦٣ـ تفسير كنز الدقائق: للميرزا محمد المشهدي، دار الغدير - قم المقدسة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ومؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٧، الطبعة الأولى.

٦٤ـ تفسير مجمع البيان: للطبرسي، مؤسسة الأعلمي- بيروت، ١٤١٥- ١٩٩٥، الطبعة الأولى.

٦٥ـ تفسير نور الثقلين: للشيخ عبد علي بن جمعة العروسي، مؤسسة التاريخ العربي- بيروت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، واسماعيليان - قم المقدسة، ١٤١٢، الطبعة الرابعة.

٦٦ـ تفصيل وسائل الشيعة: للحر العاملي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم المشرفة، ١٤١٢، الطبعة الأولى و١٤١٤، الطبعة الثانية، ودار إحياء التراث العربي- بيروت.

٦٧ـ تقريب القرآن إلى الأذهان: للسيد محمد الحسيني الشيرازي، دار العلوم - بيروت، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، الطبعة الأولى.

٦٨ـ تنقيح المقال في علم الرجال: للشيخ عبد الله المامغاني، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم المقدسة، ١٤١٣هـ الطبعة الأولى.

٦٩ـ تهذيب الأحكام: للشيخ الطوسي، دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٣٦٥ ش، الطبعة الرابعة.

٧٠ـ تهذيب الكمال: لأبي الحجاج يوسف المزي، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩، الطبعة الثانية.

٧١ـ تهذيب المقال: للسيد محمد علي الموحد الأبطحي، مطبعة سيد الشهداء.

٧٢ـ التوحيد: للشيخ الصدوق، منشورات جماعة المدرسين، قم المقدسة.

٧٣ـ توضيح المراد: للسيد هاشم الحسيني الطهراني، انتشارات المفيد - طهران، ١٣٦٥هـ ش، الطبعة الثالثة.

(ث)

٧٤ـ الثاقب في المناقب: لابن حمزة الطوسي، مؤسسة أنصاريان - قم المقدسة، ١٤١٢، الطبعة الثانية.

٧٥ـ ثواب الأعمال: للشيخ الصدوق، منشورات الرضي - قم المقدسة، ١٣٦٨هـ ش، الطبعة الثانية.

(ج)

٧٦ـ جامع البيان عن تأويل القرآن: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر - بيروت، ١٤١٥.

٧٧ـ الجامع لاحكام القرآن (تفسير القرطبي): لمحمد بن أحمد الانصاري القرطبي، دار الحديث - القاهرة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، مؤسسة التاريخ العربي- بيروت، ١٤٠٥.

٧٨ـ الجواهر السنية: للحر العاملي، طبعة النعمان - النجف الأشرف، ١٣٨٤-١٩٦٤م، ومكتبة المفيد - قم المقدسة.

٧٩ـ جواهر الكلام: للشيخ محمد حسن النجفي، دار الكتب الإسلامية - آخوندي، ١٣٦٧ش.

٨٠ـ جواهر المطالب في مناقب الإمام الجليل علي عليه السلام: لمحمد بن أحمد الدمشقي الباعوني الشافعي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية – قم المقدسة، ١٤١٥هـ ق، الطبعة الأولى.

(ح)

٨١ـ الحدائق الناضرة: للمحقق البحراني، جماعة المدرسين – قم المقدسة.

٨٢ـ حق اليقين في معرفة أصول الدين: للسيد عبد الله شبر، مؤسسة الأعلمي – بيروت، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م، الطبعة الأولى.

(خ)

٨٣ـ خاتمة مستدرك الوسائل: للمحقق النوري الطبرسي، مؤسسة آل البيت – قم المقدسة، ١٤١٦، الطبعة الأولى.

٨٤ـ الخرائج والجرائح: لقطب الدين الراوندي، مؤسسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف قم المقدسة.

٨٥ـ الخصال: للشيخ الصدوق، جماعة المدرسين – قم المشرفة، ١٤٠٣– ١٣٦٢.

٨٦ـ خلاصة الأقوال (رجال العلامة الحلي): للحسن بن يوسف (العلامة الحلي)، دار الذخيرة – قم المقدسة، ١٤١١هـ، الطبعة الثانية، والمطبعة الحيدرية – النجف الأشرف، ١٣٨١، الطبعة الثانية.

٨٧ـ الخلاف: للشيخ الطوسي، مؤسسة النشر الإسلامي– قم المقدسة، ١٤١٧، الطبعة الأولى.

(د)

٨٨ـ دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية: المركز العالمي للدراسات الإسلامية، ١٤٠٨، الطبعة الأولى.

٨٩ـ الدر المنثور: لجلال الدين السيوطي، دار المعرفة، ١٣٦٥، الطبعة الأولى.

٩٠ـ الدروس: للشهيد الأول، مؤسسة النشر الإسلامي - قم المشرفة.

٩١ـ دعائم الإسلام: لنعمان بن محمد بن منصور التميمي المغربي، دار المعارف، ١٣٨٣ - ١٩٦٣.

٩٢ـ دلائل الإمامة: لمحمد بن جرير الطبري، مؤسسة الأعلمي - بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٩٨م، الطبعة الثانية، ومؤسسة البعثة - قم المقدسة، ١٤١٣، الطبعة الأولى.

٩٣ـ دلائل الصدق لنهج الحق: للشيخ محمد حسن المظفر، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث- قم المقدسة، ١٤٢٢هـ، الطبعة الأولى.

(ذ)

٩٤ـ الذكرى: للشهيد الأول، الطبعة الحجرية، ١٢٧٢.

٩٥ـ ذكر أخبار أصفهان: لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني الطبعة ١٩٣٤.

(ر)

٩٦ـ رجال السيد بحر العلوم (الفوائد الرجالية): للسيد مهدي بحر العلوم، مكتبة الصادق - طهران، ١٣٦٣هـ، الطبعة الأولى.

٩٧ـ رجال الطوسي: لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، مؤسسة النشر الإسلامي - قم المقدسة، ١٤١٥.

٩٨ـ رجال الكشي (اختيار معرفة الرجال): لشيخ الطائفة الطوسي، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي - القاهرة - لندن، ٢٠٠٩م، الطبعة السابعة، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، ١٤٠٤.

٩٩ـ الرسائل العشر: للشيخ الطوسي، جماعة المدرسين - قم المشرفة، ١٤٠٤.

١٠٠ـ رسائل فقهية: للشيخ الأنصاري، إعداد لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم - قم المقدسة، ١٤٢٤هـ، الطبعة الثانية.

١٠١ـ الرواشح السماوية: للمير محمد باقر الحسيني المرعشي الداماد، مكتبة السيد المرعشي النجفي - قم المقدسة، ١٤٠٥هـ ق.

١٠٢ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لمحمود الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م، الطبعة الأولى.

١٠٣ـ روضة الواعظين: لمحمد بن فتال النيسابوري، منشورات الرضي – قم المقدسة.

(س)

١٠٤ـ السرائر الحاوي لتحرير الفتاوي: لابن إدريس الحلي، مؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة، ١٤١٤هـ، الطبعة الثالثة.

١٠٥ـ سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار: للشيخ عباس القمي، دار الأسوة – قم المقدسة، طهران، الطبعة الرابعة.

١٠٦ـ سليم بن قيس الهلالي: لأبي صادق سليم بن قيس الهلالي العامري الكوفي، تحقيق الشيخ محمد باقر الأنصاري الزنجاني الخوئي.

١٠٧ـ سنن ابن ماجة: لمحمد بن يزيد القزويني، دار الفكر – بيروت.

١٠٨ـ سنن أبي داود: لسليمان بن الأشعث السجستاني، دار الفكر – بيروت، ١٤١٠هـ –١٩٩٠م، الطبعة الأولى.

١٠٩ـ سنن الترمذي: لمحمد بن عيسى الترمذي، دار الفكر – بيروت، ١٤٠٣– ١٩٨٣، الطبعة الثانية.

١١٠ـ سنن الدارمي: لعبد الله بن بهرام الدارمي، مطبعة الاعتدال – دمشق.

١١١ـ السنن الكبرى: لأحمد بن الحسين بن علي البيهقي، دار الفكر – بيروت.

١١٢ـ السيدة الزهراءعليها السلام للدكتور محمد بيومي مهران، السفير – أصفهان، ١٤١٨، الطبعة الثانية.

(ش)

١١٣ـ شرح إحقاق الحق: للسيد المرعشي، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي – قم المقدسة.

١١٤ـ شرح الأخبار: للقاضي النعمان المغربي، مؤسسة النشر الإسلامي - قم المقدسة.
١١٥ـ شرح أصول الكافي: للمولى محمد صالح المازندراني.
١١٦ـ شرح مئة كلمة: لكمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية - قم المقدسة.
١١٧ـ شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد، دار إحياء الكتب العربية ودار إحياء التراث العربي - بيروت.
١١٨ـ شواهد التنزيل: لعبيد الله بن أحمد المعروف بالحسكاني، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد، ١٤١١، الطبعة الأولى.
١١٩ـ شيخ المغيرة أبو هريرة: لمحمد أبو رية، دار المعارف - مصر، الطبعة الثالثة.

(ص)

١٢٠ـ صحيح البخاري: للبخاري، دار الفكر، ١٤٠١ - ١٩٨١م.
١٢١ـ صحيح مسلم: لمسلم بن الحجاج النيسابوري، دار الفكر - بيروت.
١٢٢ـ الصحيفة السجادية الجامعة لأدعية الإمام علي بن الحسين عليه السلام، مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام - قم المقدسة، ١٤١٨هـ، الطبعة الرابعة.
١٢٣ـ الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم: لزين الدين أبي محمد علي بن يونس العاملي النباطي البياضي، المكتبة المرتضوية لإحياء آثار الجعفرية.

(ض)

١٢٤ـ الضعفاء الكبير: لمحمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٨، الطبعة الثانية.

(ط)

١٢٥ـ الطرائف: للسيد ابن طاووس الحسني، مطبعة الخيام - قم المقدسة، ١٣٧١.

١٢٦ـ طرائف المقال: للسيد علي اصغر الجابلقي، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي- قم المقدسة، ١٤١٠، الطبعة الأولى.

(ع)

١٢٧ـ عصر الظهور (العربي): للشيخ علي الكوراني العاملي، مركز النشر - مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٨، الطبعة الأولى.

١٢٨ـ علل الشرائع: للشيخ الصدوق، منشورات الأعلمي - بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، الطبعة الأولى، والمكتبة الحيدرية، ١٣٨٦هـ -١٩٦٦م.

١٢٩ـ عمدة القارئ: للعيني، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٣٠ـ عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام): للشيخ عبد الله البحراني، مدرسة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف - قم المقدسة، ١٤٠٧هـ -١٣٦٥هـ ش، الطبعة الأولى.

١٣١ـ عوالي اللآلئ العزيزية: لابن أبي جمهور الاحسائي، مطبعة سيد الشهداء - قم المقدسة، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م، الطبعة الأولى.

١٣٢ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام: للشيخ الصدوق، منشورات ذوي القربى- قم المقدسة، ١٤٢٧هـ ، الطبعة الأولى، ومؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ١٤٠٤- ١٩٨٤م، وانتشارات جهان - طهران.

(غ)

١٣٣ـ غاية المرام: للسيد هاشم البحراني، تحقيق السيد علي عاشور.

١٣٤ـ الغدير: للشيخ عبد الحسين الأميني، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، ١٣٩٧، ، الطبعة الرابعة.

١٣٥ـ الغيبة: لمحمد بن إبراهيم النعماني، مكتبة الصدوق - طهران، وأنوار الهدى- قم المقدسة، ١٤٢٢، الطبعة الأولى.

١٣٦ـ الغيبة: للشيخ محمد بن الحسن الطوسي، مؤسسة المعارف الإسلامية - قم المقدسة،١٤١١هـ، الطبعة الأولى.

(ف)

١٣٧ـ الفتاوى الميسرة: للسيد السيستاني، مطبعة الفائق الملونة، ١٤١٧- ١٩٩٧، الطبعة الثالثة.

١٣٨ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، ودار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الرابعة، ودار التقوى ومكتبة العلم - القاهرة.

١٣٩ـ فتح القدير: لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، عالم الكتب.

١٤٠ـ فرج المهموم: لعلي بن موسى بن طاووس الحسيني، دار الذخائر للمطبوعات، الطبعة الأولى.

١٤١ـ الفصول المختارة: للشيخ المفيد، دار المفيد - بيروت، ١٤١٤هـ ق - ١٩٩٣م، الطبعة الثانية.

١٤٢ـ الفصول المهمة في أصول الأئمة: للحر العاملي، مؤسسة معارف إسلامي إمام الرضا عليه السلام، ١٤١٨، الطبعة الأولى.

١٤٣ـ الفضائل: لشاذن بن جبرئيل القمي، المكتبة الحديدية - النجف الأشرف، ١٩٦٢م - ١٣٨١هـ.

١٤٤ـ فضائل الخمسة من الصحاح الستة: للسيد مرتضى الحسيني الفيروز آبادي، منشورت ضياء الفيروز آبادي - قم المقدسة، ٢٠٠٨م، الطبعة الأولى.

١٤٥ـ فضائل الصحابة: للنسائي، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٤٦ـ الفقه (البيع): للسيد محمد الحسيني الشيرازي، دار العلوم - بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، الطبعة الرابعة.

١٤٧ـ فقه الدولة: للشيخ فاضل الصفار، دار الأنصار - قم المقدسة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، الطبعة الأولى.

١٤٨ـ فلسفات إسلامية: للشيخ محمد جواد مغنية، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، الطبعة الأولى.

١٤٩ـ الفوائد البهية في شرح العقائد الإمامية: للشيخ محمد محمود العاملي، مركز العترة للدراسات والبحوث، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، الطبعة الأولى.

١٥٠ـ الفوائد الحائرية: للوحيد البهبهاني، مجمع الفكر الإسلامي - قم المقدسة.

١٥١ـ الفوائد العلمية: للسيد علي الموسوي البهبهاني، مكتبة دار العلم - أهواز ، ١٤٠٥، الطبعة الثانية.

١٥٢ـ في رحاب الزيارة الجامعة: للسيد علي الصدر، دار الغدير- قم المقدسة، ١٤٢٥هـ، الطبعة الثانية.

١٥٣ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير: لمحمد عبد الرؤوف المناوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥، الطبعة الأولى.

(ق)

١٥٤ـ قاموس الرجال: للشيخ محمد تقي التستري، مؤسسة النشر الإسلامي - قم المقدسة، ١٤٢٠هـ ، الطبعة الثالثة.

١٥٥ـ القول السديد في شرح التجريد: للسيد محمد الحسيني الشيرازي، مطبعة الآداب - النجف الأشرف، ١٣٨١هـ -١٩٦١م، الطبعة الأولى.

(ك)

١٥٦ـ الكافي: الشيخ الكليني، دار الكتب الإسلامية - آخوندي، ١٣٨٨هـ، الطبعة الثالثة، ١٣٦٢ش، الطبعة الرابعة، ١٣٦٣، الطبعة الخامسة.

١٥٧ـ كامل الزيارات: للشيخ جعفر بن قولويه القمي، نشر الفقاهة - قم المقدسة، ١٤٢٨، الطبعة الرابعة، ١٤١٧، الطبعة الأولى.

١٥٨ـ كتاب السنّة: لعمرو بن أبي عاصم، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٤١٣ - ١٩٩٣، الطبعة الثالثة.

١٥٩ـ كتاب الفتن: لأبي عبد الله نعيم بن حماد المروزي، دار الفكر - بيروت، ١٤١٤.

١٦٠ـ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: لمحمد علي التهانوي، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ١٩٩٦م، الطبعة الأولى.

١٦١ـ كشاف القناع: لمنصور بن يونس البهوتي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٨، الطبعة الأولى.

١٦٢ـ كشف الغطاء: للشيخ جعفر كاشف الغطاء، مهدوي - أصفهان، حجرية.

١٦٣ـ كشف الغمة في معرفة الأئمة: لعلي بن عيسى بن أبي الفتح الاربلي، دار الأضواء - بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، الطبعة الثانية.

١٦٤ـ كشف المحجة لثمرة المهجة: للسيد علي بن طاووس، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي - قم المقدسة، ١٤١٧هـ ق - ١٣٧٥ هـ ش، الطبعة الثانية.

١٦٥ـ كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: للعلامة الحلي، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، الطبعة الأولى.

١٦٦ـ كفاية الأثر: للخزاز القمي الرازي، انتشارات بيدار، ١٤٠١.

١٦٧ـ كمال الدين وتمام النعمة: للشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي - قم المقدسة، ١٤٠٥.

١٦٨ـ كنز العمال: للمتقي الهندي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٠٩- ١٩٨٩م، و ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٦٩ـ كنز الفوائد: للكراجكي، مكتبة المصطفوي - قم المقدسة، ١٤١٠، الطبعة الثانية.

(ل)

١٧٠ـ اللؤلؤة الغالية في أسرار الشهادة: للسيد أبي طالب الحسيني القائيني، مديرية الأوقاف والأمور الخيرية - طهران، ١٤٢٧، الطبعة الأولى.

١٧١ـ لسان العرب: لابن منظور، نشر أدب الحوزة - قم المقدسة، ١٤٠٥هـ ق-١٣٦٣هـ ش، الطبعة الأولى.

١٧٢ـ اللمعة البيضاء: للتبريزي الأنصاري، دفتر نشر الهادي - قم المقدسة، ١٤١٨، الطبعة الأولى.

١٧٣ـ اللهوف في قتلى الطفوف: لعلي بن موسى بن طاووس الحسيني، مطبعة مهر، ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى.

١٧٤ـ لواعج الأشجان: للسيد محسن الامين العاملي، مكتبة بصيرتي.

١٧٥ـ لوامع الأنوار العرشية في شرح الصحيفة السجادية: للسيد محمد باقر الموسوي، مؤسسة الزهراء عليها السلام الثقافية الدراسية - أصفهان، الطبعة الأولى.

(م)

١٧٦ـ مائة منقبة من مناقب أمير المؤمنين عليه السلام: لابن شاذان القمي، مدرسة الإمام المهدي - قم المقدسة، ١٤٠٧هـ ق.

١٧٧ـ المبدأ والمعاد: لصدر الدين الشيرازي، دفتر تبليغات إسلامي، ١٤٢٢-١٣٨٠ش، الطبعة الثالثة.

١٧٨ـ مثير الأحزان: لابن نما الحلي، الحيدرية - النجف الأشرف، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.

١٧٩ـ مجمع البحرين: لفخر الدين الطريحي، مؤسسة الوفاء - بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، الطبعة الثانية.

١٨٠ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: لنور الدين الهيثمي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م.

١٨١ـ مجمع الفائدة والبرهان: للمحقق الاردبيلي، جماعة المدرسين، ١٤٠٤هـ.

١٨٢ـ مجمع النورين: لأبي الحسن المرندي، طبعة حجرية.

١٨٣ـ المجموع: لمحي الدين النوري، دار الفكر.

١٨٤ـ مجموعة الرسائل: لآية الله الشيخ لطف الله الصافي.

١٨٥ـ المحاسن: لأحمد بن محمد بن خالد البرقي، دار الكتب الإسلامية – طهران، ١٣٧٠ – ١٣٣٠.

١٨٦ـ المحتضر: لحسن بن سليمان الحلي، المطبعة الحيدرية – النجف الأشرف، ١٣٧٠هـ –١٩٥١م، الطبعة الأولى.

١٨٧ـ مختار الصحاح: لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م، الطبعة الأولى.

١٨٨ـ مختصر بصائر الدرجات: للحسن بن سلمان الحلي، المطبعة الحيدرية – النجف الأشرف، ١٣٧٠هـ، ١٩٥٠م، الطبعة الأولى.

١٨٩ـ مدينة المعاجز: للسيد هاشم البحراني، مؤسسة المعارف الإسلامية، ١٤١٣، الطبعة الأولى.

١٩٠ـ مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول: للعلامة المجلسي، دار الكتب الإسلامية – طهران، الطبعة الثانية.

١٩١ـ المراجعات: للسيد عبد الحسين شرف الدين، دار الصادق عليه السلام – بيروت، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م، الطبعة الثالثة، والجمعية الإسلامية ١٤٠٢ – ١٩٨٢، الطبعة الثانية.

١٩٢ـ المزار: للشهيد الأول، مدرسة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف – قم المشرفة، ١٤١٠، الطبعة الأولى.

١٩٣ـ المزار: للشيخ المفيد، مدرسة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف – قم المشرفة، الطبعة الأولى.

١٩٤ـ المزار الكبير: للشيخ محمد بن المشهدي، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٩، الطبعة الأولى، ونشر القيوم، ١٤١٩، الطبعة الأولى.

١٩٥ـ المسائل الصاغانية: للشيخ المفيد، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣هـ ق، الطبعة الأولى.
١٩٦ـ مسائل علي بن جعفر: لعلي بن الإمام جعفر الصادق، المؤتمر العالمي للإمام الرضاعليه السلام، ١٤٠٩، الطبعة الأولى.
١٩٧ـ مستدرك الحاكم: لمحمد بن الحاكم النيسابوري، دار المعرفة – بيروت، ١٤٠٦.
١٩٨ـ مستدرك سفينة البحار: للشيخ علي نمازي الشاهرودي، مؤسسة النشر الإسلامي – قم المشرفة، ١٤١٨ و ١٤١٩.
١٩٩ـ مستدرك الوسائل: للمحقق النوري الطبرسي، مؤسسة آل البيتعليهم السلام لإحياء التراث، ١٤٠٨، الطبعة الثانية.
٢٠٠ـ المسترشد في إمامة أمير المؤمنينعليه السلام: لمحمد بن جرير بن رستم الطبري، مؤسسة الثقافة الإسلامية – لكوشانبور، الطبعة الأولى.
٢٠١ـ مسند أحمد: لأحمد بن حنبل، دار صادر – بيروت.
٢٠٢ـ مسند زيد بن علي: لزيد بن عليعليه السلام، دار الحياة – بيروت.
٢٠٣ـ مشكاة الأنوار: لأبي الفضل علي الطبرسي، المطبعة الحيدرية – النجف الأشرف، ١٣٨٥ – ١٩٦٥، الطبعة الثانية.
٢٠٤ـ المصباح: للكفعمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت، ١٤٠٣ – ١٩٨٣م، الطبعة الثالثة.
٢٠٥ـ مصباح الشريعة: للإمام جعفر الصادقعليه السلام، مؤسسة الأعلمي – بيروت، ١٤٠٠هـ، الطبعة الأولى.
٢٠٦ـ مصباح الفقاهة: تقريرات أبحاث السيد الخوئي بقلم محمد علي التوحيدي، مكتبة الداوري – قم المقدسة، الطبعة الأولى.
٢٠٧ـ مصباح المتهجد: للشيخ الطوسي، مؤسسة فقه الشيعة – بيروت، ١٤١١هـ – ١٩٩١م، الطبعة الأولى.

٢٠٨ـ المظاهر الإلهية في الولاية التكوينية: للشيخ فاضل الصفار، مؤسسة الفكر الإسلامي – بيروت، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م، الطبعة الأولى.

٢٠٩ـ معالم المدرستين: للسيد مرتضى العسكري، مؤسسة النعمان – بيروت، ١٤١٠هـ -١٩٩٠م.

٢١٠ـ معاني الأخبار: للشيخ الصدوق، مكتبة الصدوق – طهران، ١٣٧٩هـ ، وانتشارات إسلامي ١٣٦١ش، ومؤسسة النشر الإسلامي – قم المشرفة، ١٣٧٩ – ١٣٣٨ش.

٢١١ـ معجم أحاديث الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف: للشيخ علي الكوراني، مؤسسة المعارف الإسلامية، ١٤١١، الطبعة الأولى.

٢١٢ـ المعجم الأوسط: لسليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، دار الحرمين.

٢١٣ـ معجم رجال الحديث: للسيد الخوئي، ١٤١٣، الطبعة الخامسة.

٢١٤ـ معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري وجزءاً من كتاب السيد نور الدين الجزائري، مؤسسة النشر الإسلامي- قم المقدسة، ١٤٢٦، الطبعة الثالثة.

٢١٥ـ معجم مقاييس اللغة: لأحمد بن فارس، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م، الطبعة الأولى.

٢١٦ـ المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة – استانبول، ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.

٢١٧ـ المعيار والموازنة: لأبي جعفر الاسكاني محمد بن عبد الله المغازلي.

٢١٨ـ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: للراغب الأصفهاني، دار القلم – دمشق، والدار الشامية – بيروت، ١٤٢٥هـ – ١٣٨٣هـ ش، الطبعة الرابعة.

٢١٩ـ مقتضب الأثر: للشيخ أحمد بن محمد بن عبيد الله بن عياش الجوهري، مكتبة الطباطبائي – قم المقدسة.

٢٢٠ـ مقتل الحسين: للخوارزمي، مكتبة المفيد - قم المقدسة.
٢٢١ـ المقنعة: للشيخ المفيد، مؤسسة النشر الإسلامي - قم المقدسة، ١٤١٧هـ ، الطبعة الرابعة.
٢٢٢ـ مكاتيب الرسولﷺ: لعلي بن حسين علي الأحمدي الميانجي، دار الحديث، ١٤١٩، الطبعة الأولى.
٢٢٣ـ مكارم الأخلاق: للطبرسي، منشورات الشريف الرضي، ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م، الطبعة السادسة.
٢٢٤ـ المناقب: لابن شهر آشوب، المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ -١٩٥٦م.
٢٢٥ـ منتهى الآمال في تواريخ النبي والآلعليهم السلام: للشيخ عباس القمي، مؤسسة النشر الإسلامي - قم المقدسة، ١٤١٩، الطبعة الثالثة.
٢٢٦ـ منتهى المطلب: للعلامة الحلي، مجمع البحوث الإسلامية - مشهد، ١٤١٣هـ ، الطبعة الأولى.
٢٢٧ـ المنجد في اللغة: للويس معلوف، دار الفقه للطباعة، ١٤٢٤هـ -١٣٧٩هـ ش، الطبعة الأولى، وانتشارات دهقاني، ١٣٧٤، الطبعة الرابعة.
٢٢٨ـ المنطق: للشيخ محمد رضا المظفر، اسماعيليان - قم المشرفة، ١٤٢٥هـ ش - ١٣٨٣، الطبعة الحادية عشر.
٢٢٩ـ من لا يحضره الفقيه: للشيخ الصدوق، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية - قم المقدسة، ١٤٠٤، الطبعة الثانية.
٢٣٠ـ منية المريد: للشهيد الثاني، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩ - ١٣٦٨ش، الطبعة الأولى.
٢٣١ـ مواقف الشيعة: لأحمد الميانجي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة، ١٤١٦، الطبعة الأولى.

٢٣٢ـ مواهب الرحمن في تفسير القرآن: للسيد عبد الأعلى السبزواري، دار التفسير – قم المقدسة، ١٤٢٨ – ٢٠٠٧، الطبعة الثانية.

٢٣٣ـ موسوعة الإمام الجواد عليه السلام: اللجنة العلمية في مؤسسة ولي العصر للدراسات الإسلامية، مؤسسة ولي العصر عجل الله فرجه للدراسات الإسلامية – قم المقدسة، ١٤١٥، الطبعة الأولى.

٢٣٤ـ الميزان في تفسير القرآن: للسيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي – بيروت، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م، ومؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة، ١٤٠٢.

(ن)

٢٣٥ـ النزاع والتخاصم: لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق السيد علي عاشور.

٢٣٦ـ النص والاجتهاد: للسيد عبد الحسين شرف الدين، مؤسسة الأعلمي – بيروت، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، الطبعة الحادية عشر.

٢٣٧ـ نضد القواعد الفقهية: للمقداد السيوري الحلي، مكتبة آية الله العظمى المرعشي.

٢٣٨ـ نظم درر السمطين: لجمال الدين محمد بن يوسف الزرندي الحنفي، ١٣٧٧هـ -١٩٥٨م، الطبعة الأولى.

٢٣٩ـ نهاية الأفكار: للشيخ آقا ضياء العراقي، مؤسسة النشر الإسلامي – قم المشرفة، ١٤٠٥هـ.

٢٤٠ـ نهج البلاغة: خطب الإمام علي عليه السلام، دار المعرفة – بيروت، ومؤسسة المختار – القاهرة، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م، الطبعة الثانية.

٢٤١ـ نهج الحق وكشف الصدق: لشيخ الحسن بن يوسف الحلي، منشورات دار الهجرة – قم المقدسة، ١٤١٤هـ، الطبعة الرابعة.

٢٤٢ـ نهج السعادة: للشيخ محمد باقر المحمودي، النعمان – النجف الأشرف، ١٣٨٥هـ، الطبعة الأولى، ودار التعارف – بيروت، ١٣٩٦، الطبعة الأولى.

٢٤٣ـ نوادر المعجزات: لمحمد بن جرير الطبري، مؤسسة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف - قم المقدسة، ١٤١٠، الطبعة الأولى.

٢٤٤ـ نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار: للشبلنجي الشافعي.

٢٤٥ـ نور البراهين في أخبار السادة الطاهرين: للسيد نعمة الله الموسوي الجزائري، مؤسسة النشر الإسلامي - قم المقدسة، ١٤١٧، الطبعة الأولى.

(هـ)

٢٤٦ـ الهداية: للشيخ الصدوق، مؤسسة الإمام الهادي عليه السلام، ١٤١٨، الطبعة الأولى.

٢٤٧ـ الهداية الكبرى: لأبي عبد الله الحسين بن أحمد الخصيبي، مؤسسة البلاغ - بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، الطبعة الرابعة.

(و)

٢٤٨ـ وضوء النبي صلى الله عليه وآله وسلم: للسيد علي الشهرستاني، مطبعة ستارة - قم المقدسة، ١٤١٥، الطبعة الأولى.

٢٤٩ـ وقعة صفين: لنصر بن مزاحم المنقري، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، ١٣٨٢، الطبعة الثانية.

(ي)

٢٥٠ـ ينابيع المعاجز: للسيد هاشم البحراني، المطبعة العلمية - قم المقدسة.

٢٥١ـ ينابيع المودة لذوي القربى: للشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي، دار الأسوة، ١٤١٦، الطبعة الأولى.

فهرست الكتاب

الجزء الأول

الفصل الأول: في حقيقة الإمامة وضروراتها واختلاف الآراء فيها........ ٧
المبحث الأول: في حقيقة الإمامة وضروراتها............................ ٩
المطلب الأول: في حقيقة الإمامة... ٩
المطلب الثاني: في ضرورات الإمامة...................................... ٢٠
المبحث الثاني: الآراء في الإمامة... ٨٤
المطلب الأول: مكانة الإمامة عند المسلمين ٨٤
المطلب الثاني: في طرق تنصيب الإمام ٨٨
الفصل الثاني: في ثبوت إمامة علي وأولاده عليهم السلام بالأدلة العقلية والنقلية ١٣١
التمهيد: ١٣٣
المبحث الأول: في إمامة علي عليه السلام ونفي الإمامة عن غيره............... ١٣٥
المطلب الأول: في الأدلة العقلية على إمامة علي وأولاده عليهم السلام.......... ١٣٥
المطلب الثاني: في نفي إمامة غير علي عليه السلام ١٥٣
المبحث الثاني: في ثبوت إمامة علي وأولاده عليهم السلام بالأدلة النقلية.......... ١٦٠
المطلب الأول: تعيين أسماء الأئمة عليهم السلام في روايات الفريقين ١٦٠
المطلب الثاني: في تعيين أسماء الأئمة عليهم السلام في الكتاب العزيز ٢٠١
الفصل الثالث: صفات الإمام عليه السلام ومقاماته الإلهية ٢٤٩

التمهيد ٢٥١
المبحث الأول: في علم الإمام عليه السلام ٢٥٣
المقدمة الأولى: أقسام العلوم.. ٢٥٣
المقدمة الثانية: علوم الأئمة عليهم السلام ٢٥٧
المقدمة الثالثة: الاعتقاد بعلم الإمام عليه السلام ٢٥٨
المطلب الأول: في مراتب علم الإمام عليه السلام وطرقه.............. ٢٦٣
المطلب الثاني: في سعة علم الإمام عليه السلام ٣٥٨
المطلب الثالث: في حقيقة علم الإمام عليه السلام ٣٧٦
المطلب الرابع: في علم الإمام عليه السلام بشهادته.............. ٤٠٠

الجزء الثاني

المبحث الثاني: في قدرة الإمام عليه السلام وولايته العامة
(الولاية التكوينية والتشريعية للإمام عليه السلام) ٥
المطلب الأول: في معنى القدرة ٧
المطلب الثاني: في منشأ قدرة الإمام عليه السلام ١٣
المطلب الثالث: في شروط قدرة الإمام عليه السلام.............................. ٣٩
المطلب الرابع: في شواهد قدرة الإمام عليه السلام ٥٥
المبحث الثالث: في عصمة الإمام عليه السلام ١١٨
المطلب الأول: في معنى العصمة ومراتبها.............................. ١٢٠
المطلب الثاني: الآراء في العصمة ١٢٥
المطلب الثالث: في أدلة العصمة وشواهدها.............................. ١٣٨
المطلب الرابع: في أسباب توبة المعصوم واستغفاره ٢٠٣

الفصل الرابع: خصائص الإمام المهدي ﷻ ومقاماته الإلهية ٢٢١
التمهيد ٢٢٣
المبحث الأول: في وراثة الإمام ﷻ وخلافته للأنبياء ﷺ ٢٢٦
المطلب الأول: في حقيقة العقيدة بالمهدي ﷻ ٢٢٦
المطلب الثاني: في وراثة المهدي ﷻ ٢٣١
المطلب الثالث: خلافة المهدي ﷻ ٢٥٩
المبحث الثاني: في خصائص الإمام المهدي ﷻ وآثارها التكوينية ٢٧٢
المطلب الأول: في ولايته على الزمان ٢٧٣
المطلب الثاني: في ولايته على العصر ٢٩٣
المطلب الثالث: في ولايته ﷺ على الأمر ٣٠٥
الفصل الخامس: في واجبات الأمة تجاه الإمام ﷺ ٣١٥
التمهيد ٣١٧
المبحث الأول: في الوظائف العامة ٣٢٠
المطب الأول: في وجوب المعرفة ٣٢٠
المطلب الثاني: في وجوب المحبة (المودة) ٣٢٩
المطلب الثالث: في وجوب إطاعة الإمام ﷺ ٣٦٢
المبحث الثاني: في الوظيفة الخاصة في عصر الغيبة ٣٩٣
المطلب الأول: في أهمية الانتظار ووجوبه ٣٩٣
المطلب الثاني: في معنى انتظار الفرج ٤٠٢
المطلب الثالث: في واجبات الانتظار ٤٠٦
المصادر ٤٥٧